الدوري[١] بالإمالة. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراجٌ ضخم ثاقب، وقيل المشكاة الأُنبوبةُ في وسط القنديل والمصباحُ الفتيلة المشتعلة ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من الزجاج ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ مضيء متلألىء كالزُّهرة في صفائه وزُهرته، منسوبٌ إلى الدَّرأ، وفُعيّل كمُرّيق من الدرء فإنه يدفع الظلامَ بضوئه، أو بعضُ ضوئه بعضاً من لمعانه إلا أنه قُلبت همزتُه ياءً، ويدل عليه قراءة حمزة وأبي بكر على الأصل، وقراءة أبي عمرو والكسائي دِرِيءٌ كشِريب وقد قرىء به مقلوباً[٢]. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي ابتداءُ ثقوب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعُه بأن روِيَت ذُبالتهُ بزَيتها، وفي إبهام الشجرة ووصفِها بالبركة ثم إبدالِ الزيتونة عنها تفخيمٌ لشأنها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء والبناء للمفعول من أَوْقد، وحمزةُ والكسائي وأبو بكر بالتاء كذلك على إسناده إلى الزجاجة بحذف المضاف، وقرىء تَوَقّدُ من تتوقد، ويَوَقّدُ بحذف التاء لاجتماع زيادتين وهو غريب ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقع الشمس عليها حيناً بعد حين، بل بحيث تقع عليها طولَ النهار كالتي تكون على قُلّة أو صحراءَ واسعةٍ، فإن ثمرتها تكون أنضجَ وزيتُها أصفى، أو لا نابتةٍ في شرق المعمورة وغربِها بل في وسطها وهو الشامُ فإن زيتونه أجودُ الزيتون، أو لا في مضحى تشرق الشمسُ عليها دائماً فتحرقها أو في مَقْنأة تغيب عنها دائماً فتتركها نيئاً وفي الحديث: «لا خير في شجرة ولا نبات في مقْنأة[٣] ولا خير فيهما في مضحى»[٤] ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لتلألُئِه وفَرْط وَبيصِه. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نور متضاعف فإن نورَ المصباح زاد في إنارته صفاءُ الزيت وزُهرةُ القِنديل وضبطُ المِشكاة لأشعته. وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه، الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دل عليه الآياتُ المبينات في جلاء مدلولها وظهورِ ما تضمنتْه من الهدى بالمشكاة المنعوتة، أو تشبيهٌ للهدى من حيث إنه محفوفٌ بظلمات أوهام الناس وخيالاتِهم بالمصباح، وإنما وليَ الكافُ المشكاةَ لاشتمالها عليه وتشبيههُ به أوفقُ من تشبيهه بالشمس، أو تمثيلٌ لما نوّر الله به قلبَ المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبثّ فيها من مصباحها، ويؤيده قراءة أبيّ: مثلُ نورِ المؤمن، أو تمثيلٌ لِما مَنَح الله به عبادَه من القُوى الدراكة الخمسِ المترتبة التي منوطٌ بها المعاشُ والمَعاد وهي: الحسّاسةُ التي تُدرك بها المحسوساتُ بالحواس الخمس، والخَيالِيّةُ التي تحفظ صورَ تلك المحسوساتِ لتعرِضَها على القوة العقلية متى شاءت، والعاقلة التي تدرك الحقائقَ الكلية والمفكّرة وهي التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها عِلمَ ما لم تعلم، والقوةُ القدسية التي تتجلى فيها لوائحُ الغيب وأسرارُ الملكوت المختصةُ بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ

(١) الدوري: هو حفص بن عمر بن عبدالعزيز بن صهبان بن عدي بن أبو عمر الدوري صهبان ويقال صهيب أبو عمر الدوري الأزدي البغدادي النحوي الدوري الضرير نزيل سامراء إمام القراءة وشيخ الناس في زمانه ثقة ثبت كبير ضابط أول من جمع القراءات ونسبته إلى الدور موضع ببغداد ومحلة بالجانب الشرقي.
قال الأهوازي رحل الدوري في طلب القراءات وقرأ سائر الحروف السبعة وبالشواذ. [انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٢٥٥].

(٢) قوله قرىء به مقلوباً أي (دِئْري).

(٣) المكان الذي لا تطلع عليه الشمس.

(٤) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١١٩ رقم ٨٥): لم أجده.

عِبَادِنَاۚ﴾[1] بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي: المشكاة، والزجاجة، والمصباح، والشجرة، والزيت، فإن الحساسةَ كالمشكاة لأن محلها كالكُوَى ووجهُها إلى الظاهر لا تُدرك ما وراءها، وإضاءتُها بالمعقولات لا بالذات، والخياليةَ كالزجاجة في قبول صور المُدرَكات من الجوانب وضبطِها للأنوار العقلية وإنارتها بما تشمل عليه من المعقولات، والعاقلةَ كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكلية والمعارفِ الإلهية، والمفكّرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهايةَ لها الزيتونةَ المثمرةَ بالزيت الذي هو مادةُ المصابيح التي لا تكون شرقيةً ولا غربية لتجرُّدها عن اللواحق الجسمية، أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفةً في القبيلين منتفعةً من الجانبين، والقوةَ القدسية كالزيت فإنها لصفائها وشدةِ ذَكائِها تكاد تضيء بالمعارف من غير تفكر ولا تعلم، أو تمثيلٌ للقوة العقلية في مراتبها بذلك فإنها في بدء أمرها خاليةٌ عن العلوم مستعدةٌ لقَبولها كالمشكاة؛ ثم تنتقش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئياتِ بحيث تتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متلألئةً في نفسها قابلةً للأنوار، وذلك التمكنُ إن كان بفكر واجتهاد فكالشجرة الزيتونة وإن كان بالحدْس فكالزيت وإن كان بقوة قدسية فكالتي يكاد زيتها يضيء لأنها تكاد تعلم ولو لم تتصل بملك الوحْي والإلهامِ الذي مثلُه النارُ من حيث إن العقولَ تشتعل عنه، ثم إذا حصلت لها العلومُ بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت كانت كالمصباح، فإذا استحضرتها كانت نوراً على نور. ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ لهذا النورِ الثاقب ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ فإن الأسبابَ دون مشيئته لاغيةٌ إذ بها تمامُها ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾ إدناءً للمعقول من المحسوس توضيحاً وبياناً ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو خفياً، وفيه وعدٌ ووعيدٌ لمن تدبرها وإن لم يكترثْ بها.

(٣٦) ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ متعلّقٌ بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت، أو توقد في بيوت فيكون تقييداً للممثَّل به بما يكون تحبيراً ومبالغةً فيه فإن قناديلَ المساجد تكون أعظمَ، أو تمثيلاً لصلاة المؤمنين أو أبدانِهم بالمساجد، ولا ينافي جمعُ البيوت وحدةَ المشكاة إذ المرادُ بها مالَه هذا الوصفُ بلا اعتبار وَحْدةٍ ولا كثرة. أو بما بعده[2] وهو يسبح، وفيها تكرير مؤكد، لا بيُذكرَ لأنه من صلة أن فلا يعمل فيما قبله. أو بمحذوف مثل سبحوا في بيوت، والمرادُ بها المساجدُ لأن الصفة تلائمها. وقيل المساجدُ الثلاثة والتنكيرُ للتعظيم ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ بالبناء أو التعظيم. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ عامٌّ فيما يتضمن ذكرَه حتى المذاكرةَ في أفعاله والمباحثةَ في أحكامه. ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ ينزهونه أي يُصلّون له فيها بالغدوات والعشيات، والغُدوّ مصدرٌ أطلق للوقت، ولذلك حسُن اقترانُه بالآصال وهو جمع أصيل. وقرىء والإيصال وهو الدخول في الأصيل، وقرأ ابن عامر وأبو بكر يُسبَّحُ بالفتح على إسناده إلى أحد الظروف الثلاثة ورفع رجال بما يدل عليه، وقرىء تسبِّح بالتاء مكسوراً لتأنيث الجمع، ومفتوحاً على إسناده إلى أوقات الغدو.

---

(١) الشورى: «٥٢».

(٢) قوله: أو بما بعده.. و.. أو بمحذوف هو معطوف على قوله: متعلق بما قبله.

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ
وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ
حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ لا تشغلهم معاملةٌ رابحة ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مبالغةٌ بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مُطلقُ المعاوضة، أو بأفراد ما هو الأهمُّ من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويُتوقع بالشراء. وقيل المرادُ بالتجارة الشراءُ فإنه أصلُها ومبدؤها. وقيل الجَلَب لأنه الغالب فيها ومنه يقال تجَر في كذا إذا جلبه، وفيه إيماءٌ بأنهم تجار[1]. ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عُوّض فيه الإضافةُ من التاء المعوَّضة عن العين[2] الساقطةِ بالإعلال كقوله:

وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الأمرِ الَّذِي وَعَدُوا[3]

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ما يجب إخراجُه من المال للمستحقين ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ مع ما هم عليه من الذكر والطاعة ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ تضطرب وتتغير من الهول، أو تتقلب أحوالُها فتفقَه القلوبُ ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصارُ ما لم تكن تبصره، أو تتقلب القلوبُ مع توقّع النجاةِ وخوف الهلاك، والأبصارُ من أي ناحية يؤخذ بهم ويؤتى بكتبهم.

(٣٨) ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلقٌ بيسبح أو لا تلهيهم أو يخافون ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أحسنَ جزاءِ ما عملوا الموعودَ لهم من الجنة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أشياءَ لم يعِدْهم بها على أعمالهم ولم تخطُر ببالهم ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقريرٌ للزيادة وتنبيهٌ على كمال القدرة ونفاذِ المشيئة وسَعة الإحسان.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ والذين كفروا حالُهم على ضد ذلك، فإن أعمالَهم التي يحسبونها صالحةً نافعةً عند الله يجدونها لاغيةً مخيِّبةً في العاقبة كالسراب، وهو ما يُرى في الفلاة من لمَعان الشمسِ عليها وقتَ الظهيرة فيُظنّ أنه ماءٌ يسرُب أي يجري، والقِيعة بمعنى القاع وهو الأرضُ الخالية عن النبات وغيرُ المستوية، وقيل جمعُه كجار وجِيرة. وقرىء بقِيعات كديمات في ديمة ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ أي العطشانُ، وتخصيصُه لتشبيه الكافر به في شدة الخَيبة عند مسيس الحاجة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ جاء ما توهّمه ماءً، أو موضعَه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ مما ظنه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ عقابه أو زبانيتَه أو وجده محاسباً إياه ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ استعراضاً أو مجازاةً ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله

---

(١) وتخصيص التجارة بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها.
وإفراد البيع بالذكر ـ مع اندراجه تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها لأن ربحه متيقن وربح ما عداه متوقع ـ (س٦/ ١٧٩).

(٢) وهي الواو في الأصل (أقوام الصلاة) حذفت الواو وعوض عنها التاء (إقامة) وقوله عن الأمر أي عدة الأمر بمعنى وحده.

(٣) من البسيط.

حسابٌ عن حساب. روي أنها نزلت في عُتبةَ بنِ ربيعةَ بنِ أميةَ، تعبّد في الجاهلية والتمس الدِّين، فلما جاء الإسلامُ كفر(١).

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

(٤٠) ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ عطف على كسراب. وأو للتخيير فإن أعمالهم لكونها لاغيةً لا منفعةَ لها كالسراب ولكونها خاليةً عن نور الحق كالظلمات المتراكمةِ من لُجّ البحر والأمواج والسحاب، أو للتنويع فإن أعمالَهم إن كانت حسنة فكالسراب وإن كانت قبيحةً فكالظلمات، أو للتقسيم باعتبار وقتين فإنها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ ذي لُجّ أي عميق منسوب إلى اللُّج وهو معظمُ الماء ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يغشى البحرَ ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي أمواجٍ مترادفةٌ متراكمة ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ من فوق الموج الثاني ﴿سَحَابٌ﴾ غطى النجومَ وحجب أنوارها، والجملةُ صفة أخرى للبحر ﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾ أي هذه ظلماتٌ ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ وقرأ ابن كثير ظلماتٍ بالجر على إبدالها من الأولى أو بإضافة السحاب إليها في رواية البزّي(٢) ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ وهي أقربُ ما يُرى إليه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ لم يقرَبْ أن يراها فضلاً أن يراها كقول ذي الرمة(٣):

إِذَا غَيَّـرَ النَّـأْيُ المُحِبِّيـنَ لَـمْ يَكَـدْ　　رَسِيـسُ الهَـوَى مِـنْ حُـبِّ مَيَّـةَ يَبْـرَحُ

والضمائرُ للواقع في البحر وإن لم يجرِ ذكرُه لدلالة المعنى عليه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ ومن لم يقدِّر له الهدايةَ لم يوفقه لأسبابها. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ خلافَ الموفَّق الذي له نور على نور.

(٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلمْ علماً يشبه المشاهدةَ في اليقين والوثاقةِ بالوحي أو الاستدلال ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينزِّه ذاتَه عن كل نقص وآفةٍ أهلُ السموات والأرض، ومَن لتغليب العقلاء، أو الملائكةُ والثقلانِ بما يدل عليه من مقال أو دلالةِ حال ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ على الأول تخصيصٌ لما فيها من الصنع الظاهر والدليلِ الباهر ولذلك قيدها بقوله ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ فإن إعطاءَ الأجرام الثقيلةِ ما به تقوَى على الوقوف في الجو باسطةً أجنحتَها بما فيها من القبض والبسط حجةٌ قاطعة على كمال قدرةِ الصانع تعالى ولُطفِ تدبيره ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد مما ذكر أو من الطير ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي قد علم

---

(١) قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٨٢) قال مقاتل: نزلت في شيبة بن ربيعة بن عبدشمس.

(٢) البزي: أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي بزة.
وقال الأهوازي أبو بزة الذي ينسب إليه البزي اسمه بشار فارس من أهل همذان أسلم على يد السائب بن أبي السائب المخزومي والبزة الشدة ومعنى أبو بزة أبو شدة ويقال إن نافعاً هو أبو بزة الإمام أبو الحسن البزي المكي مقرىء مكة ومؤذن الحرام ولد سنة سبعين ومائة استذا محقق ضابط ومتقن [انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص١١٩].

(٣) ذي الرمة: سبق ترجمته في سورة المؤمنون.

الله دعاءَه وتنزيهَه اختياراً أو طبعاً لقوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أو علِم كلٌّ على تشبيه حالِه في الدِلالة على الحق والميل إلى النفع على وجه يخُصه بحال مَن علم ذلك مع أنه لا يبعُد أن يُلهم الله تعالى الطيرَ دعاءً وتسبيحاً كما ألهمها علوماً دقيقة في أسباب تعيُّشِها لا تكاد تهتدي إليها العقلاء.

وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾

(٤٢) ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فإنه الخالقُ لهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال من حيث إنها ممكنةٌ واجبةُ الانتهاء إلى الواجب. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ مرجِعُ الجميع.

(٤٣) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ يسوقه، ومنه البضاعةُ المُزجاة فإنه يُزجيها كلُّ أحد ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ بأن يكون قَزَعاً فيَضُم بعضَه إلى بعضٍ، وبهذا الاعتبار صح (بينه) إذ المعنى بين أجزائه. وقرأ نافع برواية ورش يولّف غيرَ مهموز. ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ متراكماً بعضُه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾ المطرَ ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ من فُتوقه، جمع خَلل كجبال في جبل. وقرىء من خِلله. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الغمام، وكلُ ما علاك فهو سماء ﴿مِن جِبَالٖ فِيهَا﴾ من قِطع عظامٍ تشبه الجبال في عِظَمها أو جمودها ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾ بيان للجبال، والمفعول محذوف أي ينزل مبتدأً من السماء من جبال فيها مِن بَرَد بَرداً، ويجوز أن تكون مِنْ الثانية أو الثالثة للتبعيض واقعةً موقع المفعول، وقيل المراد بالسماء المِظلة، وفيها جبالٌ من برد كما في الأرض جبالٌ من حجر، وليس في العقل قاطعٌ يمنعه، والمشهورُ أن الأبخرةَ إذا تصاعدت ولم تحلّلها حرارةٌ فبلغت الطبقةَ الباردة من الهواء وقوِيَ البرْدُ هناك اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتدَّ البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً وإلا نزل بَرَداً، وقد يبرد الهواء برداً مفرِطاً فينقبض وينعقد سحاباً ينزل منه المطر أو الثلج، وكل ذلك لا بد أن. يستند إلى إرادة الواجب الحكيم لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالّها وأوقاتِها، وإليها أشار بقوله ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ والضمير للبرَد ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ ضوء برقه. وقرىء بالمد بمعنى العلو، وبإدغام الدال في السين، وبُرَقِه بضم الباء وفتح الراء وهو جمع بُرقة وهي المقدار من البرْق كالغرفة، وبضمها للإتباع. ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة[١]. وذلك أقوى دليل على كمال قدرته من حيث إنه توليد للضد من الضد. وقرىء يُذْهِبُ على زيادة الباء.

(٤٤) ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادةِ الآخر، أو بتغيير أحوالِهما بالحر والبرد والظُلمة والنور أو بما يعم ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما تقدم ذكرُه ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ لَدِلالةً

---

١) وفي إطلاق الأبصار مزيد تهويل لأمره، وبيان لشدة تأثيره فيها كأنه يكاد يذهب بها ولو عند الإغماض (س٦/ ١٨٥).

على وجود الصانع القديم، وكمالِ قدرته وإحاطةِ علمه ونفاذِ مشيئته وتنزّهِه على الحاجة وما يُفضي إليها لمن يرجع إلى بصيرة.

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٥) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ حيوانٍ يدِبّ على الأرض. وقرأ حمزة والكسائي خالقُ كلِّ دابة بالإضافة ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو جزءُ مادته، أو ماءٍ مخصوص هو النطفةُ فيكون تنزيلاً للغالب منزلةَ الكل إذ من الحيوانات ما يتولد عن النطفة، وقيل من ماء متعلقٌ بدابة وليس بصلة لخلق ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية وإنما سُمّي الزحفُ مشياً على الاستعارة أو المشاكلة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالنَّعَم والوحش، ويندرج فيه ماله أكثرُ من أربعٍ كالعناكب فإن اعتمادها إذا مشت على أربع، وتذكيرُ الضمير لتغليب العقلاء، والتعبيرُ عن الأصناف ليوافق التفصيلُ الجملة، والترتيبُ لتقديم ما هو أعرفُ في القدرة ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً ومركباً على اختلاف الصور والأعضاء والهيئاتِ والحركات والطبائعِ والقوى والأفعالِ مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء.

(٤٦) ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق للنظر فيها والتدبرِ لمعانيها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دينُ الإسلام الموصلُ إلى درَك الحق والفوزِ بالجنة.

(٤٧) ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ نزلت في بشْر المنافق، خاصم يهودياً فدعاه إلى كعب بن الأشرف وهو يدعوه إلى النبي ﷺ[2]. وقيل في مغيرةَ بنِ وائل خاصم علياً رضي الله عنه في أرض فأبى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ[3]. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي وأطعناهما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ بالامتناع عن قبول حكمه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد قولهم هذا ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى القائلين بأسرهم فيكون إعلاماً من الله تعالى بأن جميعَهم وإن آمنوا بلسانهم لم تؤمن قلوبُهم، أو إلى الفريق منهم، وسلْبُ الإيمان عنهم لتوليهم. والتعريفُ فيه للدِلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرَفْتَهم وهم المخلصون في الإيمان والثابتون عليه.

(٤٨) ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليحكم النبي ﷺ فإنه الحاكم ظاهراً والمدعوُّ إليه،

---

(١) إظهار اسم الجلالة «الله» في موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور، والإيذان بأنه من أحكام الألوهية (س٦/ ١٨٦).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٢٧.

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٩٣).

وذِكْرُ الله لتعظيمه والدَلالة على أن حكمه ﷺ في الحقيقة حكمُ الله تعالى ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فاجأ فريقٌ منهم الإعراضَ إذا كان الحقُّ عليهم لعلمهم بأنك لا تحكم لهم، وهو شرحٌ للتولي ومبالغة فيه.

وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ
أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾
۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

(٤٩) ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ﴾ أي الحكمُ لا عليهم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم، وإليه صلةٌ ليأتوا أو لمذعنين، وتقديمُه للاختصاص.

(٥٠) ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر أو ميلٌ إلى الظلم ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ بأن رأوا منك تُهمةً فزال يقينهم وثقتهم بك. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الحكومة ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إضرابٌ عن القِسمين الأخيرين لتحقيق القسم الأولُ، ووجهُ التقسيم أن امتناعَهم إما لخلل فيهم أو في الحاكم، والثاني إما أن يكون محققاً عندهم أو متوقعاً وكلاهما باطل، لأن منصِبَ نبوته وفرْطَ أمانته ﷺ يمنعه فتعين الأول، وظلمُهم يعم خَللَ عقيدتهم وميلَ نفوسهم إلى الحيف، والفصلُ لنفي ذلك عن غيرهم سيما المدعوُّ إلى حكمه.

(٥١) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ على عادته تعالى في اتباع ذكر المُحق المبطل، والتنبيهِ على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي، وقرىء قولُ بالرفع، وليُحكَمَ على البناء للمفعول، وإسنادُه إلى ضمير مصدرِه على معنى ليفعل الحكم.

(٥٢) ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما يأمُرانه، أو في الفرائض والسنن ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ على ما صدر عنه من الذنوب ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقِيَ من عمره، وقرأ يعقوبُ وقالونُ عن نافع بلا ياء[١]، وأبو بكر وأبو عمرو بسكون الهاء[٢]، وحفص بسكون القاف فشبه تَقْه بكتْف وخَفْف، والهاء ساكنة في الوقف بالاتفاق. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم.

(٥٣) ﴿۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إنكارٌ للامتناع عن حكمه ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ الخروجَ عن دِيارهم وأموالهم ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ جواب لأقسموا على الحكاية. ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ على الكذب. ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي المطلوبُ منكم طاعةٌ معروفة لا اليمينُ على الطاعة النفاقية المنكَرة، أو طاعة معروفة أمثلُ منها، أو لتكن طاعةٌ. وقرئت بالنصب على: أطيعوا طاعة[٣]. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه سرائرُكم.

---

(١) قوله بلا ياء أي بلا إشباع للهاء بالياء، مع كسر القاف.

(٢) مع كسر القاف أيضاً.

(٣) التعبير عن الطاعة بأنها معروفة للإيذان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد (س٦/ ١٨٩).

قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٤) ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ **أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغةً في تبكيتهم**[١] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ **أي على محمد ﷺ.** ﴿مَا حُمِّلَ﴾ **من التبليغ.** ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ **من الامتثال**[٢]**.** ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ **في حكمه.** ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ **إلى الحق** ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ **التبليغُ الموضحُ لما كُلِّفتم به، وقد أدىٰ، وإنما بقي ما حمّلتم فإن أدّيتم فلكم وإن توليتم فعليكم.**

(٥٥) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ **خطاب للرسول ﷺ وللأمة، أوْ له ولمن معه، ومِن للبيان**[٣] ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **ليجعلنّهم خلفاءَ متصرفين في الأرض تصرفَ الملوك في مماليكهم. وهو جوابُ قسم مضمر تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم، أو الوعدُ في تحققه منزّلٌ منزلةَ القسم.** ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ **يعني بني إسرائيلَ استخلفهم في مصرَ والشام بعد الجبابرة. وقرأ أبو بكر بضم التاء وكسر اللام، وإذا ابتدأ ضمّ الألفَ والباقون بفتحهما وإذا ابتدؤوا كسروا الألف.** ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ **وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت**[٤]**.** ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ **من الأعداء. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف.** ﴿أَمْنًا﴾ **منهم. وكان رسولُ الله ﷺ وأصحابُه مكثوا بمكةَ عشرَ سنين خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا يُصبحون في السلاح ويُمسون فيه حتى أنجز الله وعده فأظهرهم على العرب كلِّهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وفيه دليلٌ على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافةِ الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعودُ والموعود عليه لغيرهم بالإجماع. وقيل الخوفُ من العذاب والأمنُ منه في الآخرة.** ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ **حال من الذين لتقييد الوعدِ بالثبات على التوحيد، أو استئنافٌ ببيان المقتضي للاستخلاف والأمن.** ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ **حال من الواو أي يعبدونني غيرَ مشركين.** ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ **ومن ارتد أو كفر هذه النعمة.** ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ **بعد الوعد أو حصولِ الخلافة.** ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ **الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مثل هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمةَ العظيمة.**

---

(١) كرر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به، والإشعار باختلافهما من حيث إن المقول في الأول نهي بطريق الرد والتقريع وفي الثاني أمر بطريق التكليف والتشريع (س٦/ ١٨٩).

(٢) ولعل التعبير عنه بالتحميل للإشعار بثقله وكونه مؤنة باقية في عهدتهم بعد (س٦/ ١٨٩).

(٣) توسيط الظرف (منكم) بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، وللإيذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم (س٦/ ١٩٠).

(٤) وتقديم (لهم) على المفعول الصريح (دينَهم) للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقاً إليه وترغيباً لهم في قبوله عند وروده (س٦/ ١٩١).

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ
يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ
ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن
يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ في سائر ما أمركم به، ولا يبعُد عطفُ ذلك على أطيعوا الله فإن الفاصل وعدٌ على المأمور به، فيكون تكريرُ الأمر بطاعة الرسول ﷺ للتأكيد وتعليقِ الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كما علق به الهدى.

(٥٧) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا تحسبن يا محمد الكفارَ معجزين لله عن إدراكهم وإهلاكهم، و(في الأرض) صلةُ معجزين. وقرأ ابن عامر وحمزةُ بالياء على أن الضمير فيه لمحمد ﷺ، والمعنى كما هو في القراءة بالتاء، أو الذين كفروا فاعل، والمعنى ولا يحسبن الكفارُ في الأرض أحداً معجزاً لله، فيكون معجزين في الأرض مفعوليه، أو لا يحسبونهم معجزين، فحُذف المفعولُ الأول لأن الفاعلَ والمفعولين لشيء واحد فاكتُفيَ بذكر اثنين عن الثالث. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا بمعجزين ومأواهم النار، لأن المقصود من النهي عن الحسبان تحقيقُ نفي الإعجاز. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المأوى الذي يصيرون إليه.

(٥٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ رجوع إلى تتمة الأحكام السالفةِ بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرِها والوعدِ عليها والوعيدِ على الإعراض عنها. والمرادُ به خطابُ الرجال والنساء، غُلِّب فيه الرجال، لما روي أن غلام أسماءَ بنتِ أبي مرثد دخل عليها في وقت كرِهته فنزلت[١]. وقيل أرسل رسول الله ﷺ مدلَج بنَ عمرٍو الأنصاريَّ[٢] وكان غلاماً وقت الظهيرة ليدعوَ عمر، فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لوددت أن الله عز وجل نهىٰ آباءنا وأبناءَنا وخدَمَنا أن لا يدخُلوا هذه الساعاتِ علينا إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده وقد أنزلت هذه الآية[٣]. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ والصبيانُ الذين لم

---

١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٣٢٩ عن مقاتل.

٢) هو مدلج الأنصاري بعثه النبي ﷺ في شغل إلى عمر إن صح ذلك. (تجريد أسماء الصحابة) للذهبي (٢/٦٦ رقم ٧٢٤).

٣) أخرجه ابن منده من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ كما في «الإصابة» =

يبلُغوا من الأحرار، فعبر عن البلوغ بالاحتلام لأنه أقوى دلائله. ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ في اليوم والليلة. مرة ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ لأنه وقتُ القيام من المضاجع وطرحِ ثياب النوم ولبسِ ثياب اليقظة. ومحلُّه النصبُ بدلاً من ثلاث مرات، أو الرفعُ خبراً لمحذوف أي هي من قبل صلاة الفجر. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ أي ثيابكم لليقظة للقيلولة. ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين[1]. ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف. ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ أي هي ثلاثُ أوقات يختل فيها تستُّركم، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبرُه ما بعده، وأصلُ العورة الخلل ومنها أعورُ المكان ورجل أعور. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي ثلاثَ بالنصب بدلاً من ثلاث مرات ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ بعد هذه الأوقاتِ في ترك الاستئذان. وليس فيه ما ينافي آيةَ الاستئذان فينسخها لأنه في الصبيان ومماليكِ المدخول عليه، وتلك في الأحرار البالغين. ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ أي هم طوافون، استئنافٌ ببيان العذر المرخِّصِ في ترك الاستئذانِ وهو المخالطةُ وكثرةُ المداخلة. وفيه دليلٌ على تعليل الأحكام، وكذا في الفرق بين الأوقاتِ الثلاثة وغيرِها بأنها عورات. ﴿بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ بعضُكم طائفٌ على بعض أو يطوف بعضكم على بعض. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ أي الأحكام. ﴿وَٱللَّهُ﴾ بأحوالكم. ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما شرع لكم.

(٥٩) ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ الذين بلغوا من قبلهم في الأوقات كلِّها، واستدل به من أوجب استئذانَ العبد البالغ على سيدته، وجوابُه أن المرادَ بهم المعهودون الذين جُعلوا قسيماً للمماليك فلا يندرجون فيهم. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

(٦٠) ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ العجائزُ اللاتي قعَدن عن الحيض والحمل. ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ لا يطمعن فيه لكِبَرهن. ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي الثيابَ الظاهرة كالجِلباب، والفاء فيه لأن اللام في القواعد بمعنى اللاتي أو لوصفها بها. ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ غيرَ مظهرات زينةً مما أُمرن بإخفائه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[2]. وأصلُ التبرج التكلّفُ في إظهار ما يخفى من قولهم: سفينةٌ بارجة لا غطاءَ عليها، والبَرَج سعةُ العين بحيث يُرى بياضُها محيطاً بسوادها كلِّه لا يغيب منه شيء، إلا أنه خُصَّ بتكشف المرأة زينتَها ومحاسنَها للرجال. ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ من الوضع لأنه أبعدُ من التهمة. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن للرجال. ﴿عَلِيمٞ﴾ بمقصودهن.

= (٣/ ٣٩٥) ـ. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٣٢٩ عن ابن عباس.
وهو حديث باطل إسناده مظلم.

(١) والتصريح بوضع الثياب في هذا الوقت دون الأول (قبل الفجر). والآخر (بعد العشاء) لقلة زمان القيلولة ولكثرة الورود والصدور، فهو مظنة لظهور الأحوال. أما الوقتين الآخرين فالتجرد فيه أمر معروف ولا يحتاج للتصريح به (س٦/ ١٩٣).

(٢) النور: «٣١».

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ
بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا
مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ
فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ
أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا
ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

(٦١) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ نفيٌ لما كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصِحّاء حذراً من استقذارهم، أو أكلِهم من بيت من يدفع إليهم المفتاحَ ويُبيح لهم التبسُّطَ فيه إذا خرج إلى الغزو وخلفهم على المنازل مخافةَ أن لا يكون ذلك من طِيب قلب، أو مِن إجابةِ من دعَوهم إلى بيوت آبائهم وأولادِهم وأقاربهم فيُطعمونهم كراهةَ أن يكونوا كَلّاً عليهم، وهذا إنما يكون إذا علِم رضا صاحبِ البيت بإذن أو قرينة، أو كان في أول الإسلام ثم نسخ بنحو قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾[١]. وقيل نفيٌ للحرج عنهم في القعود عن الجهاد، وهو لا يلائم ما قبله ولا ما بعده. ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ من البيوت التي فيها أزواجُكم وعيالُكم، فيدخل فيها بيوتُ الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك»[٢]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن أطيب ما يأكل المؤمنُ من كسبه، وإن ولده مِن كسبه»[٣]. ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

---

(١) الأحزاب: «٥٣».

(٢) أخرجه ابن ماجة (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩١) من حديث جابر.
ـ قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٢٥ رقم ٨١١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط البخاري وله شاهد من حديث عائشة، رواه أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه. ورواه أبو داود ـ (٣/ ٨٠١ رقم ٣٥٣٠) ـ وابن ماجة ـ (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩٢) ـ من حديث عبدالله بن عمرو» هـ.
ووافقه الألباني على تصحيحه في الإرواء رقم (٨٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٨٠٠، ٨٠١ رقم ٣٥٢٨، ٣٥٢٩) والترمذي (٣/ ٦٣٩ رقم ١٣٥٨) والنسائي (٧/ ٢٤٠ ـ ٢٤١ رقم ٤٤٤٩ و٤٤٥٠) وابن ماجة (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩٠) وابن حبان (ص٢٦٨ رقم ١٠٩١ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٤٦) وعبدالرزاق في «المصنف» (٩/ ١٣٣) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٥٨) وأحمد في المسند (٦/ ٣١، ٤١، ١٢٧، ١٦٢، ١٧٣، ١٩٣، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٢٠) والدارمي (٢/ ٢٤٧) والطيالسي في مسنده (ص٢٢١).
كلهم من طريق عمارة بن عمير عن عمته عن عائشة. إلاّ أن في إحدى روايتي أبي داود (رقم ٣٥٢٩) وأحمد (٦/ ٢٠٢) عن أمه بدل عمته. وفي إحدى روايتي ابن أبي شيبة. والحاكم (أبيه) وكان في أصل المصنف (أبيه) فجعله المحقق (أمه) من السنن الكبرى. قال الألباني في الإرواء (٣/ ٣٣٠): =

﴿أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وهو ما يكون تحت أيديكم وتصرفكم من ضَيعة أو ماشيةٍ وكالةً أو حفظاً، وقيل بيوت المماليك. والمفاتح جمع مَفتَح وهو ما يفتح به، وقرىء مِفْتاحَه. ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أو بيوت صديقِكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم وأسرُّ به، وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط، هذا كله إنما يكون إذا علم رضا صاحبِ البيت بإذن أو قرينة، ولذلك خصص هؤلاء فإنه يعتاد التبسّطُ بينهم، أو كان ذلك في أول الإسلام فنسخ فلا احتجاج للحنفية به على أن لا قطعَ بسرقة مال المحرَم. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ مجتمعين أو متفرقين. نزلت في بني ليث بن عمرو من كِنانةَ كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده[(١)]، أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه[(٢)]، أو في قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في القذارة والنَّهمة[(٣)]. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة. ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثابتةً بأمره مشروعة من لَدُنه، ويجوز أن تكون من صلةً للتحية فإنه طلبُ الحياة وهي من عنده تعالى، وانتصابُها بالمصدر لأنها بمعنى التسليم. ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ لأنها يرجى بها زيادةُ الخير والثواب. ﴿طَيِّبَةً﴾ تطيب بها نفسُ المستمع. وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال لي: «متى لقِيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطُلْ عمرُك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثُر خيرُ بيتك، وصلِّ صلاة الضحى فإنها صلاةُ الأبرار الأوابين»[(٤)]. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كرره ثلاثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به، وفصل الأولين بما هوالمقتضي لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي الحقَّ والخيرَ في الأمور.

(٦٢) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من صميم قلوبهم. ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كالجمعة والأعياد والحروبِ والمشاورة في الأمور، ووصفُ الأمر بالجمع للمبالغة. وقرىء أمرِ جميع ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ يستأذنوا رسول الله ﷺ فيأذنَ لهم، واعتبارُه في كمال الإيمان لأنه كالمِصداق لصحته والمميزُ للمخلِص فيه عن المنافق فإن ديدَنَه التسللُ والفرار، ولتعظُّم الجُرم في الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، ولذلك أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإنه يفيد أن المستأذنَ مؤمنٌ لا محالة وأن

= ورجاله ثقات رجال الشيخين غير عمة عمارة فلم أعرفها.
● وله سند آخر أخرجه النسائي (٧/ ٢٤١ رقم ٤٤٥١ و٤٥٥٢) وابن ماجة (٢/ ٧٢٣ رقم ٢١٣٧) وأحمد (٦/ ٤٢، ٢٢٠) كلهم من طريق الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة.
قال الألباني في الإرواء (٣/ ٣٣٠) إسناده صحيح.
والخلاصة أن الحديث صحيح. والله أعلم.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣٠.
(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣١.
(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣١.
(٤) أخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص٤٥٢ ـ ٤٥٣ رقم ٨٨٣) بسند ضعيف.
وانظر «الكافي الشافِ» (ص١٢٠ رقم ٩١).

الذهابَ بغير إذن ليس كذلك. ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ ما يعرِض لهم من المهامّ، وفيه أيضاً مبالغةٌ وتضييقُ الأمر ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تفويضٌ للأمر إلى رأي الرسول ﷺ، واستُدل به على أن بعضَ الأحكام مفوّضةٌ إلى رأيه، ومن منع ذلك قيّد المشيئة بأن تكون تابعةً لعلمه بصدقه فكأن المعنى: فائذن لمن علمت أن له عذراً. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد الإذن فإن الاستئذانَ ولو لعذر قصورٌ لأنه تقديمٌ لأمر الدنيا على أمر الدين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفَرَطات العباد. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم.

لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ
مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ
لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

(٦٣) ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ لا تَقيسوا دعاءَه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلةِ في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته عليه الصلاة والسلام واجبةٌ والمراجعةُ بغير إذنه محرّمة. وقيل لا تجعلوا نداءَه وتسميتَه كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوتِ به والنداءِ من وراء الحجرات ولكن بلَقَبه المعظم مثلُ يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، أو لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض فلا تبالوا بسخطه فإن دعاءه موجِبٌ، أو لا تجعلوا دعاءه ربَّه كدعاء صغيركم كبيرَكم يجيبه مرة ويرده أخرى فإن دعاءه مستجاب. ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ ينسلّون قليلاً قليلاً من الجماعة، ونظيرُ تسلّل تدرّج وتدخّل ﴿لِوَاذًا﴾ يستتر بعضُكم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يؤذَن له فينطلق معه كأنه تابعُه. وانتصابه على الحال. وقرىء بالفتح[١]. ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سَمْتاً خلافَ سَمته، وعن لتضمُّنه معنى الإعراض. أو يصُدّون عن أمره دون المؤمنين مَن خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه، وحذفُ المفعول لأن المقصود بيانُ المخالِف والمخالَف عنه، والضمير لله تعالى، فإن الأمر له في الحقيقة، أو للرسول فإنه المقصود بالذكر. ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محنة في الدنيا. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. واستُدل به على أن الأمر للوجوب فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمرِ مقتضٍ لأحد العذابين، فإن الأمر بالحذر عنه يدل على خشية المشروط بقيام المقتضي له وذلك يستلزم الوجوب[٢].

(٦٤) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة والنفاق والإخلاص، وأنما أكد علمَه بقد لتأكيد الوعيد ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم يرجعُ المنافقون إليه

---

(١) أي بفتح اللام.
(٢) وإعادة الفعل صريحاً «يصيبهم» للاعتناء بالتهديد والتحذير (س٦/ ١٩٩).

للجزاء، ويجوز أن يكون الخطابُ أيضاً مخصوصاً بهم على طريق الالتفات. وقرأ يعقوبُ بفتح الياء وكسر الجيم. ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من سوء الأعمال بالتوبيخ والمجازاة عليه. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النور أعطيَ من الأجر عشرَ حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.
[«الكافي الشافِ» (ص١٢١ رقم ٩٢)].

سُورَةُ الفُرْقَانِ
ترتيبها ٢٥ آياتها ٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

سورةُ الفرقان مكية[(١)] وآيُها سبع وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ تكاثر خيرُه، من البركة وهي كثرةُ الخير، أو تزايدَ على كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، فإن البركة تتضمن معنى الزيادة، وترتيبُه عن إنزاله الفرقانَ لما فيه من كثرة الخير أو لدَلالته على تعاليه. وقيل دام، من بروك الطير على الماء ومنه البِرْكة لدوام الماء فيها، وهو لا يُتصرف فيه ولا يُستعمل إلا لله تعالى. والفرقانُ مصدرُ فرَق بين الشيئين إذا فصل بينهما سُمّي به القرآنُ لفصله بين الحق والباطل بتقريره، أو المُحقُّ والمبطل بإعجازه، أو لكونه مفصولاً بعضُه عن بعض في الإنزال. وقرىء على عباده وهم رسولُ الله ﷺ وأمتُه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ﴾[(٢)] أو الأنبياءُ على أن الفرقان اسمُ جنس للكتب السماوية. ﴿لِيَكُونَ﴾ العبدُ أو الفرقان

**(١) مكية السورة واضحة من موضوعها وأسلوبها، وهذا يتفق مع قول الجمهور.
انظر «زاد المسير» (٦/ ٧١) و«الدر المنثور» (٦/ ٢٣٤) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١) و«البحر المحيط» (٦/ ٤٨٠).**

(٢) النور: «٣٤».

﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنس ﴿نَذِيرًا﴾ منذراً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار، هذه الجملةُ وإن لم تكن معلومةً لكنها لقوة دليلها أُجريت مُجرى المعلوم وجُعلت صلة[١].

(٢) ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بدل من الأول أو مدح مرفوعٌ أو منصوب ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كزعم النصارى[٢]. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كقول الثنوية. أثبت له الملكَ مطلقاً ونفَى ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ثم نبه على ما يدل عليه فقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أحدثه إحداثاً مُراعًى فيه التقديرُ حسب إرادته كخَلْقه الإنسانَ من موادَّ مخصوصةٍ وصورٍ وأشكال معينة ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فقدره وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهمِ والنظرِ والتدبير، واستنباطِ الصنائع المتنوعة ومزاولةِ الأعمال المختلفة إلى غير ذلك، أو فقدّره للبقاء إلى أجل مسمى. وقد يُطلَق الخلق لمجرد الإيجاد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدّره في إيجاده حتى لا يكون متفاوتاً.

(٣) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ لمّا تضمن الكلامُ إثباتَ التوحيد والنبوةِ أخذ في الرد على المخالفين فيهما. ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن عَبدتَهم ينحتونهم ويصورونهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ ولا يستطيعون ﴿لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ دفعَ ضر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ ولا جلبَ نفع[٣] ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ ولا يملكون إماتةَ أحدٍ وإحياءَه أولاً وبعثَه ثانياً، ومَنْ كان كذلك فبمعزل عن الألوهية لعرائه عن لوازمها واتصافِه بما ينافيها، وفيه تنبيهٌ على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾

(٤) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذِبٌ مصروف عن وجهه ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلقه ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي اليهودُ فإنهم يُلْقون إليه أخبارَ الأمم وهو يعبر عنها بعبارته، وقيل جَبرٌ ويَسارٌ وعدّاسٌ وقد سبق في قوله ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[٤] ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ بجعل الكلام المعجزِ إفكاً مختلَقاً متلقَّفاً من اليهود ﴿وَزُورًا﴾ بنسبة ما هو بريء منه إليه. وأتى وجاء يُطلقان بمعنى فعل فيُعدَّيانِ تعْديتَه.

(٥) ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره المتقدمون ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ كتبها لنفسه أو استكتبها. وقرىء على البناء للمفعول لأنه أُميٌّ، وأصلُه اكتتبها كاتب له، فحُذف اللام وأفضى الفعلُ إلى الضمير فصار اكتتبها إياه كاتب، ثم حُذف الفاعل وبُنيَ الفعل للضمير فاستَتر فيه ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ليحفظَها، فإنه أميٌّ لا يقدِر أن يكرر من الكتاب، أو لِتُكتب.

---

(١) وعدم التعرض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة (س٦/ ٢٠٠).
(٢) ونَظْمُهُ في سِلْك الصلة للإيذان بأن مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل، لا سيما بعد تقرير ما قبله (س٦/ ٢٠١).
(٣) وتقديم ذكر الضر لأن دفعه ـ مع كونه أهم في نفسه ـ أولُ مراتب النفع وأقدمها (س٦/ ٢٠٢).
(٤) النحل: «١٠٣».

قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ
يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ
كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ
خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

(٦) ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **لأنه أعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمُّنه أخباراً عن مغيبات مستقبَلةٍ وأشياءَ مكنونةٍ لا يعلمها إلا عالمُ الأسرار فكيف تجعلونه أساطير الأولين.** ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **فلذلك لا يعجل في عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقِكم أن يصُبَّ عليكم العذاب صباً.**

(٧) ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ **ما لهذا الذي يزعُم الرسالةَ، وفيه استهانةٌ وتهكم** ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ **كما نأكل** ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ **لطلب المعاش كما نمشي، والمعنى إن صح دعواه فما بالُه لم يخالف حالُه حالَنا، وذلك لِعَمَههم وقصورِ نظرهم على المحسوسات، فإنّ تميّز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما هو بأحوال نفسانية كما أشار إليه تعالى بقوله** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[١]. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ **لنعلم صدقَه بتصديق الملَك.**

(٨) ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ **فيستظهر به ويستغني عن تحصيل المعاش** ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ **هذا على سبيل التنزّل أي إن لم يُلقَ إليه كنز فلا أقلَّ من أن يكون له بستان كما للدّهاقينِ والمياسيرِ**[٢] **فيتعيَّشَ بريْعه. وقرأ حمزة والكسائي بالنون، والضميرُ للكفار** ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **وضع الظالمون موضعَ ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوه.** ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ **ما تتبعون** ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ **سُحِر فغُلِب على عقله. وقيل ذا سُحْر وهو الرئة، أي بشراً لا ملَكاً.**

(٩) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ **أي قالوا فيك الأقوال الشاذةَ واخترعوا لك الأحوالَ النادرة.** ﴿فَضَلُّوا۟﴾ **عن الطريق الموصلِ إلى معرفة خواصِّ النبي والمميِّز بينه وبين المتنبي فخبَطوا خبْطَ عشْواءَ** ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ **إلى القدح في نبوتك أو إلى الرشد والهدى.**

(١٠) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ **في الدنيا** ﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ **مما قالوا، لكن أخّره إلى الآخرة لأنه خير وأبقى**[٣] ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ **بدل من خيراً** ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ **عطفٌ على محل الجزاء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بالرفع، لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جزائه الجزمُ**

---

(١) الكهف: «١١٠».

(٢) الدهاقين: كلمة معربة وتطلق على رئيس القرية وعلى التاجر وعلى من له مال وعقار (المصباح المنير «دُهقان»). والمياسير: هم أصحاب السعة والمال وضده المعاسير.

(٣) وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للإيذان بأن عدم جعلها بمشيئته المبنية على الحِكَم والمصالح (س٦/ ٢٠٥).

والرفع كقوله:

وَإِنْ أَتَــاهُ خَلِيــلٌ يَــوْمَ مَسْغَبَــةٍ   يقُــولُ لاَ غَــائِــبٌ مَــالِـي وَلاَ حَــرِمُ[1]

ويجوز أن يكون استئنافاً بوعد ما يكون له في الآخرة. وقرىء بالنصب على أنه جواب بالواو.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾

(١١) ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ فقصُرت أنظارُهم على الحُطام الدنيوية وظنوا أن الكرامة إنما هي بالمال فطعنوا فيك لفقرك، أو فلذلك كذبوك لا لِما تمحّلوا من المطاعن الفاسدة، أو فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ويصدقونك بما وعد الله لك في الآخرة، أو فلا تعجب من تكذيبهم إياك فإنه أعجبُ منه ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدةَ الاستعار، وقيل هو اسمٌ لجهنمَ فيكون صرفُه باعتبار المكان.

(١٢) ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ إذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه السلام: «لا تتراءى ناراهما»[2] أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى على المجاز، والتأنيثُ لأنه بمعنى النار أو جهنم[3] ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يُرى منه ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ صوتَ تغيظٍ، شبّه صوتَ غليانها بصوت المغتاظ وزفيرِه وهو صوتٌ يُسمع من جوفه، هذا وإن الحياة لمّا لم تكن مشروطةً عندنا بالبُنية أمكن أن يخلق الله فيها حياةً فترى وتتغيظُ وتزفُر وقيل إن ذلك لزبانيتها فنُسب إليها على حذف المضاف.

---

(١) من البسيط.

(٢) أخرج الترمذي (٤/ ١٥٥ رقم ١٦٠٤) وأبو داود (٣/ ١٠٤ رقم ٢٦٤٥) والنسائي (٨/ ٣٦ رقم ٤٧٨٠) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم، فاعتصم ناس منهم بالسجود، فأسرع فيهم القتل، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأمر لهم بنصف العَقْلِ، وقال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين». قالوا: يا رسول الله، لِمَ؟ قال: «لا تراءى نارَاهما».
ورجال إسناده ثقات، ولكن البخاري، وأبو حاتم، وأبو داود، والترمذي، والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم. قال الترمذي: وهذا أصح، يعني المرسل، وقال: سمعت محمداً ـ أي البخاري ـ يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ مرسل.
والخلاصة أن الحديث صحيح دون جملة العقل. انظر الإرواء رقم (١٢٠٧).
● لا تراءى ناراهما: أن لا يكون كل واحد منهما بحيث يرى نارَ صاحبه، فجعل الرؤية للنار ولا رؤية لها، يعني: أن تدْنوَ هذه من هذه، يقال: داري تنظر إلى دار فلان، أي: تقابلها. وقيل: معناه: أنه أراد نار الحرب، يقول: ناراهما مختلفتان، هذه تدعو إلى الله، وهذه تدعو إلى الشيطان، فكيف تتفقان؟ وكيف يُساكنهم في بلادهم وهذه حال هؤلاء.
وهذه حال هؤلاء؟ [جامع الأصول (٤/ ٤٤٦)].

(٣) ونسبة الرؤية إليها لا إليهم للإيذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم (س٦/ ٢٠٦).

وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾

(١٣) ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا﴾ في مكان، ومنها بيانٌ تقدّم فصار حالاً ﴿ضَيِّقًا﴾ لزيادة العذاب فإن الكربَ مع الضيق والرَّوحَ مع السَّعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عَرضها كعَرض السموات والأرض ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً، أي يتمنَّون الهلاكَ وينادونه فيقولون تعال يا ثبوراهْ فهذا حينُك.

(١٤) ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ أي يقال لهم ذلك[1] ﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ لأن عذابكم أنواعٌ كثيرة، كلُّ نوع منها ثُبورٌ لشدته، أو لأنه يتجدد لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[2] أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثُبورٌ.

(١٥) ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الإشارة إلى العذاب، والاستفهامُ والتفضيلُ والترديدُ للتقريع مع التهكم، أو إلى الكنز والجنة، والراجعُ إلى الموصول محذوفٌ، وإضافةُ الجنة إلى الخلد للمدح أو للدِلالة على خلودها، أو التمييزِ عن جنات الدنيا ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علم الله أو اللوح، أو لأن ما وعده الله تعالى في تحققه كالواقع ﴿جَزَآءً﴾ على أعمالهم بالوعد ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلبون إليه، ولا يمنع كونُها جزاءً لهم أن يتفضل بها على غيرهم برضاهم مع جواز أن يراد بالمتقين مَن يتقي الكفرَ والتكذيبَ لأنهم في مقابلتهم.

(١٦) ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ ما يشاؤونه من النعيم، ولعله تقصُر هِممُ كلِّ طائفةٍ على ما يليق برتبته، إذ الظاهرُ أن الناقِصَ لا يدرك شأوَ الكامل بالتشهي، وفيه تنبيه على أن كل المراداتِ لا تحصُل إلا في الجنة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من أحد ضمائرِهم ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ الضمير في كان لما يشاؤون، والوعدُ الموعود أي كان ذلك موعوداً حقيقاً بأن يُسأل ويُطلب، أو مسؤولاً سأله الناسُ في دعائهم ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[3] أو الملائكةُ بقولهم ربنا وأدخِلْهم جناتِ عدن التي وعدتهم، وما في (على) من معنى الوجوب لامتناع الخُلف في وعده تعالى، ولا يلزم منه الإلجاءُ إلى الإنجاز، فإن تعلُّقَ الإرادة بالوعود مقدم على الوعد الموجِبِ للإنجاز.

(١٧) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للجزاء. وقرىء بكسر الشين، وقرأ ابن كثير ويعقوبُ وحفص بالياء ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعم كلَّ معبود سواه تعالى، واستعمالُ (ما) إما لأن وضعه أعمُّ ولذلك يُطلق

---

(١) وتقييد النهي والأمر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام المعهودة (س٦/٢٠٧).

(٢) النساء: «٥٦».

(٣) آل عمران: «١٩٤».

لكل شبح يُرى ولا يُعرف، أو لأنه أريد به الوصفُ كأنه قيل ومعبودُهم، أو لتغليب الأصنام تحقيراً، أو اعتبارِ الغلَبة عُبّادَها، أو يخص الملائكةَ وعُزيراً والمسيحَ بقرينة السؤال والجواب، أو الأصنامَ يُنطقها الله أو تتكلم بلسان الحال كما قيل في كلام الأيدي والأرجل ﴿ فَيَقُولُ﴾ أي للمعبودين وهو على تلوين الخطاب. وقرأ ابن عامر بالنون ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضِهم عن المرشد النصيح، وهو استفهامُ تقريعٍ وتبكيتٍ للعَبَدة، وأصله أأضللتم أو ضلوا فغيّر النظم لِيَليَ حرف الاستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولي للفعل دونه لأنه لا شبهة فيه وإلا لما توجه العتاب، وحذف صلة الضل مبالغة.

قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجباً مما قيل لهم لأنهم إما ملائكةٌ أو أنبياءُ معصومون، أو جماداتٌ لا تقدر على شيء. أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسبيحه وتوحيدِه فكيف يليق بهم إضلالُ عبيده. أو تنزيهاً لله تعالى عن الأنداد ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ ما يصح لنا ﴿ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ للعصمة، أو لعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعوَ غيرنا أن يتولى أحداً دونك. وقرىء نُتَّخذَ على البناء للمفعول، مِن اتخذ الذي له مفعولان كقوله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[1] ومفعولُه الثاني من أولياء. ومن للتبعيض، وعلى الأول مزيدةٌ لتأكيد النفي ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك، وهو نسبة للضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم، وإسنادٌ له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه، وهو عينُ ما ذهبنا إليه فلا ينتهض حجةً علينا للمعتزلة ﴿ وَكَانُوا۟﴾ في قضائك ﴿ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هالكين، مصدرٌ وُصف به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، أو جمع بائر كعائذٍ وعُوذٍ.

(١٩) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ الْتفات إلى العَبَدة بالاحتجاج والإلزام على حذف القول، والمعنى فقد كذبكم المعبودون ﴿ بِمَا تَقُولُونَ﴾ في قولكم إنهم آلهةٌ أو هؤلاء أضلوناو والباء بمعنى في، أو مع المجرور بدل من الضمير. وعن ابن كثير بالياء أي كذبوكم بقولهم سبحانك ما كان ينبغي لنا ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي المعبودون، وقرأ حفص بالتاء على خطاب العابدين ﴿ صَرْفًا﴾ دفعاً للعذاب عنكم، وقيل حيلةً من قولهم إنه لَيتصرف أي يحتال ﴿ وَلَا نَصْرًا﴾ يُعينكم عليه ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المكلفون ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هي النار. والشرطُ وإن عم كلَّ من كفر أو فسق لكنه في اقتضاء الجزاء مقيدٌ بعدم المزاحِم وفاقاً، وهو التوبةُ والإحباط بالطاعة إجماعاً وبالعفو عندنا.

---

(١) النساء: «١٢٥».

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ
أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا
بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾

(٢٠) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي إلا رسلاً إنهم فحُذف الموصوف لدِلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفةُ مُقامَه كقوله تعالى ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1]، ويجوز أن تكون حالاً اكتُفيَ فيها بالضمير وهو جواب لقولهم ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[2]. وقرىء يُمَشَّوْن أي تُمشيهم حوائجُهم أو الناسُ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ابتلاءً، ومن ذلك ابتلاءُ الفقراء بالأغنياء، والمرسَلين بالمرسَل إليهم ومناصبتهم لهم العداوةَ وإيذائهم لهم، وهو تسلية لرسول الله ﷺ على ما قالوه بعد نقضه، وفيه دليل على القضاء والقدر ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ علةٌ للجعل، والمعنى وجعلنا بعضكم لبعض فتنةً لنعلم أيُّكم يصبر، ونظيرُه قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3] أو حثٌّ على الصبر على ما افتُتِنوا به ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن يصبر، أو بالصواب فيما يبتلي به وغيرِه.

(٢١) ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ لا يأمُلون ﴿لِقَآءَنَا﴾ بالخير لكفرهم بالبعث، أو لا يخافون لقاءنا بالشر على لغة تِهامةَ، وأصلُ اللقاء الوصولُ إلى الشيء، ومنه الرؤيةُ فإنه وصولٌ إلى المرئي، والمرادُ به الوصولُ إلى جزائه، ويمكن أن يراد به الرؤيةُ على الأول ﴿لَوْلَآ﴾ هلاّ ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فتُخبرَنا بصدق محمد ﷺ، وقيل فيكونوا رسلاً إلينا ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيأمُرَنا بتصديقه واتباعه ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي في شأنها حتى أرادوا لها ما يتفق لأفراد من الأنبياء الذين هم أكملُ خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظمُ من ذلك ﴿وَعَتَوْ﴾ وتجاوزوا الحدَّ في الظلم ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغاً أقصى مراتبِه حيث عاينوا المعجزاتِ القاهرةَ فأعرضوا عنها، واقترحوا لأنفسهم الخبيثةِ ما سَدّت دونه مطامعَ النفوس القدسية، واللامُ جواب قسم محذوف، وفي الاستئناف بالجملة حُسنٌ وإشعارٌ بالتعجب من استكبارهم وعُتوّهم كقوله:

وَجَارَةُ جَسَّاسٍ أَبَأْنَا بِنَابِهَا كلَيْباً غَلَتْ نَابُ كُلَيْبٍ بَوَاؤُهَا

(٢٢) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ ملائكةَ الموت أو العذاب، ويومَ نُصب باذكُرْ أو بما دل عليه[4] ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه بمعنى يُمنعون البشرى أو ....

(١) الصافات: «١٦٤».
(٢) الفرقان: «٧».
(٣) الملك: «٢».
(٤) وإنما قيل «يوم يرَوْن» دون أن يقال يوم ينزل الملائكة إيذاناً من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه، بل على وجه آخر غير معهود (س٦/٢١١).

يَعدَمونها[١]، ويومئذ تكريرٌ أو خبر، وللمجرمين تبيينٌ أو خبرٌ ثان أو ظرف لِما يتعلق به اللام، أو لبشرى إنْ قُدّرت منونةً غيرَ مبنية مع لا فإنها لا تعمل. وللمجرمين إما عامٌّ يتناول حكمُه حكمَهم من طريق البرهان ولا يلزم عن نفي البشرى لعامة المجرمين حينئذ نفيُ البشرى بالعفو والشفاعة في وقت آخرَ، وإما خاصٌّ وضع موضعَ ضميرهم تسجيلاً على جُرمهم وإشعاراً بما هو المانعُ للبشرى والموجِبُ لِما يقابلها ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ عطف على المدلول أي ويقول الكفرة حينئذ هذه الكلمةَ استعاذةً وطلباً من الله تعالى أن يمنع لقاءَهم وهي مما كانوا يقولون عند لقاءِ عدوٍّ أو هجومِ مكروه، أو تقولها الملائكة بمعنى حَراماً مُحرماً عليكم الجنةُ أو البشرى. وقرىء حُجراً بالضم وأصله الفتح، غير أنه لمّا اختَصّ بموضع مخصوص غُيِّر كقَعْدَك وعَمْرَك، ولذلك لا يُتصرف فيه ولا يظهر ناصبُه، ووصفه بمحجور للتأكيد كقولهم موتٌ مائت.

وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي وعمَدنا. إلى ما عمِلوا في كفرهم من المكارم كقِرىٰ الضيف وصلةِ الرحم وإغاثةِ الملهوف فأحبطناه لفقد ما هو شرطُ اعتباره، وهو تشبيهُ حالِهم وأعمالهم بحال قوم استعصَوا على سلطانهم فقدِم إلى أشيائهم فمزقها وأبطلها ولم يُبق لها أثراً. والهباءُ غبارٌ يُرى في شعاع يطلُع من الكُوّة، من الهبوة وهي الغبار، ومنثوراً صفتُه، شبّه عملَهم المُحبَطَ بالهَباء في حقارته وعدمِ نفعه، ثم بالمنثور منه في انتشاره بحيث لا يمكن نظمُه أو تَفرّقُه نحوَ أغراضهم التي كانوا يتوجهون به نحوَها، أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر بعد الخبر كقوله تعالى ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[٢].

(٢٤) ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ مكاناً يُستقر فيه في أكثر الأوقات للتجالس والتحادث ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً يُؤوىٰ إليه للاسترواح بالأزواج والتمتعِ بهن، تجوزاً له من مكان القيلولة على التشبيه، أو لأنه لا يخلو من ذلك غالباً إذ لا نوم في الجنة. وفي «أحسنُ» رمزٌ إلى ما يَتميز به مَقيلُهم من حُسن الصور وغيرِه من التحاسين، ويُحتمل أن يراد بأحدهما المصدرُ أو الزمانُ إشارةً إلى أن مكانهم وزمانَهم أطيبُ ما يُتخيل من الأمكنة والأزمنة، والتفضيلُ إما لإرادة الزيادة مطلقاً أو بالإضافة إلى ما للمترفين في الدنيا. روي أنه يُفرَغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيَقيل أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار.

(٢٥) ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ أصله تتشقق فحُذفت التاء، وأدغمها ابنُ كثير ونافع وابن عامر ويعقوب. ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام المذكور في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ

(١) والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشرىٰ (س٦/ ٢١١).
(٢) البقرة: «٦٥».

﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[١] ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ في ذلك الغمام بصحائفِ أعمال العباد. وقرأ ابن كثير ونُنْزِلُ، وقرئ ونُزِّلَت وأُنْزِل ونَزَل ونَزَّل الملائكةَ بحذف نون الكلمة.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

(٢٦) ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الثابتُ له لأن كل مِلْك يَبطُل يومئذ ولا يبقى إلا مُلكُه فهو الخير، وللرحمن صلتُه، أو تبيينٌ، ويومئذ معمولُ المُلكُ لا الحقُّ لأنه متأخر، أو صفتُه والخبرُ يومئذ أو للرحمن[٢] ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديداً.

(٢٧) ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ من فَرْط الحسرة. وعضُّ اليدين وأكلُ البَنان وحَرْقُ الأسنان ونحوُها كنايات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفهما، والمرادُ بالظالم الجنسُ. وقيل عُقبةُ بنُ أبي مُعَيط كان يُكثِر مجالسةَ النبي ﷺ، فدعاه إلى ضيافته فأبىٰ أن يأكل من طعامه حتى ينطِق بالشهادتين ففعل، وكان أُبيُّ بنُ خلف صديقَه فعاتبه وقال صبأتَ فقال: لا، ولكن آلىٰ أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحَيت منه فشهِدتُ له، فقال لا أرضىٰ منك إلا أن تأتيَه فتطأَ قَفاه وتبزُقَ في وجهه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا ألقاك خارجاً من مكةَ إلا علوتُ رأسك بالسيف» فأُسر يوم بدر فأمر علياً فقتله وطعن أُبياً بأُحُد في المبارزة فرجع إلى مكة ومات[٣]. ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى النجاة، أو طريقاً واحداً وهو طريقُ الحق ولم تتشعبْ بي طرقُ الضلالة.

(٢٨) ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ وقرئ بالياء على الأصل ﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني مَنْ أضله، وفلانٌ كنايةٌ عن الأعلام كما أن هنا كنايةٌ عن الأجناس.

(٢٩) ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ عن ذكر الله أو كتابه، أو موعظة الرسول، أو كلمة الشهادة ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ وتمكنت منه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني الخليلَ المُضِلَّ أو إبليسَ لأنه حمله على مخالته ومخالفة الرسول، أو كلُّ من تشيطن من جن وإنس ﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يوالِيه حتى يؤدِّيَه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه. فَعولٌ من الخِذلان.

---

(١) البقرة: «٢١٠».

(٢) وإيراده تعالى بعنوان الرحمانية للإيذان بأن اتصافه تعالىٰ بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة (س٦/٢١٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٦٠٦/٢) عن ابن عباس بنفس السياق.
وانظر «الكافي الشافِ» لابن حجر (ص١٢١ رقم ٩٤).

وَقَالَ الرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ
لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

(٣٠) ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ محمد يومئذ، أو في الدنيا بثاً إلى الله تعالى ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى﴾ قريشاً ﴿اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ بأن تركوه وصدوا عنه، وعنه عليه الصلاة والسلام «من تعلم القرآن وعلق مُصحفَه ولم يتعاهدْه ولم ينظُر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب عبدُك هذا اتخذني مهجوراً اقضِ بيني وبينه»[1] أو هجَروا ولغَوْا فيه إذا سمِعوه، أو زعموا أنه هُجْرٌ وأساطيرُ الأولين، فيكون أصله مهجوراً فيه فحُذف الجارُّ، ويجوز أن يكون بمعنى الهَجْر كالمجلود والمعقول، وفيه تخويفٌ لقومه فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكَوْا إلى الله تعالى قومَهم عجّل لهم العذاب.

(٣١) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما جعلناه لك فاصبِر كما صبَروا، وفيه دليلٌ على أنه خالقُ الشر. والعدوُّ يحتمل الواحدَ والجمع ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ إلى طريق قهرهم ﴿وَنَصِيرًا﴾ لك عليهم.

(٣٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ﴾ أي أُنزل عليه كخَبَر بمعنى أخبر لئلا يناقضَ قولَه ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ دفعةً واحدة كالكتب الثلاثة، وهو اعتراضٌ لا طائلَ تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملةً أو مفرقاً مع أن للتفريق فوائدَ، منها ما أشار إليه بقوله ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً لنقوّي بتفريقه فؤادَك على حفظه وفهمه، لأن حاله يخالف حالَ موسى وداودَ وعيسى حيث كان عليه الصلاة والسلام أمّياً وكانوا يكتُبون، فلو أُلقيَ عليه جملةً لَعيل بحفظه، ولعله لم يستتبَّ له فإن التلقفَ لا يتأتّى إلا شيئاً فشيئاً، ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيدَ بصيرة وغوصٍ في المعنى، ولأنه إذا نزل منجّماً وهو يتحدّى بكل نجْمٍ فيعجِزون عن معارضته زاد ذلك قوةَ قلبه، ولأنه إذا نزل به جبريلُ حالاً بعد حال يثبُت به فؤادُه، ومنها معرفةُ الناسخ والمنسوخ ومنها انضمامُ القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية، فإنه يعين على البلاغة. و(كذلك) صفةُ مصدرٍ محذوفٍ والإشارةُ إلى إنزاله مفرقاً، فإنه مدلولٌ عليه بقوله ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ ويحتمل أن يكون من تمام كلام الكفرة ولذلك وُقف عليه فيكون حالاً، والإشارةُ إلى الكتب السابقة، واللامُ على الوجهين متعلق بمحذوف. ﴿وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾ وقرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تُؤَدة وتمهُّل في عشرين سنةً أو ثلاثٍ وعشرين، وأصلُ الترتيل في الأسنان وهو تفليجُها.

(٣٣) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ سؤال عجيب كأنه مَثَل في البطلان يريدون به القدحَ في نبوتك ﴿إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ﴾ الدامغ له في جوابه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وبما هو أحسنُ بياناً أو معنًى من سؤالهم، أو لا يأتونك بحال عجيبةٍ يقولون هلاّ كانت هذه حالَه إلا أعطيناك من الأحوال ما يحِقّ لك في حكمتنا وما هو أحسنُ كشفاً لما بُعِثت له.

---

(١) أخرجه الثعلبي من طريق هدبة عن أنس، وأبو هدبة كذاب.
ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١٢١ رقم ٩٥).

ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾

(٣٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي مقلوبين أو مسحوبين عليها، أو متعلّقةً قلوبُهم بالسُّفليات متوجهةً وجوهُهم إليها وعنه عليه الصلاة والسلام «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنفٌ على الدواب وصنف على الأقدام وصنف على الوجوه»[١] وهو ذم منصوب أو مرفوع أو مبتدأ خبرُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ والمفضَّل عليه هو الرسولُ ﷺ على طريقة قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾[٢] كأنه قيل إن حاملَهم على هذه الأسئلة تحقيرُ مكانه وتضليلُ سبيله، ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شرٌّ مكاناً وأضل سبيلاً، وقيل إنه متصل بقوله ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾[٣] ووصفُ السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة.

(٣٥) ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا﴾ يوازره في الدعوة وإعلاءِ الكلمة، ولا ينافي ذلك مشاركتَه في النبوة، لأن المتشاركِين في الأمر متوازرون عليه.

---

(١) أخرجه البيهقي ـ في البعث (رقم: ٢٦٢) من تحقيق الصاعدي ـ من طريق سدد عن بشر بن المفضل عن علي بن زيد عن أوس بن أبي أوس، عن أبي هريرة مرفوعاً بهذا.
وأصله في الترمذي ـ (٥/ ٣٠٥ رقم ٣١٤٢) وقال: هذا حديث حسن ـ والبزار وأحمد ـ في المسند (٢/ ٣٦٣) ـ وإسحاق وابن أبي شيبة من هذا الوجه لكن قال عن أوس بن خالد ـ وأوس مجهول كما قال الحافظ في التقريب (١/ ٨٥) ـ.
وعند الحاكم ـ (٤/ ٥٦٤) وقال: واحتج به النسائي ـ من رواية أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد عن أبي ذر حدثني الصادق المصدوق «أنّ الناس يحشرون ثلاثة أفواج. فوجاً طاعمين لابسين راكبين. وفوجاً يمشون ويسعون. وفوجاً تسحبهم الملائكة على وجوههم إلى النار».
وفي الترمذي ـ (٤/ ٦١٦ رقم ٢٤٢٤) و(٥/ ٣٠٥ رقم ٣١٤٣) ـ والنسائي ـ في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٨/ ٤٣٣) ـ من رواية معاوية بن جبلة حدثنا بهز بن حكيم رفعه إنكم محشورون إلى الله ركباناً ورجالاً وتمرون على وجوهكم» ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١٢١ رقم ٩٧) ـ.
قلت: وقع في «الكافي الشاف» (من رواية معاوية بن جبلة حدثنا بهز بن حكيم) وهو خطأ والصواب (من رواية بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة).
وقلت: لم يخرجه النسائي من طريق بهز بن حكيم به، وإنما أخرجه من طريق سويد بن حجير أبي قزعة عن حكيم به.
وأخرجه الحاكم من كلا الطريقين، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الحاكم بهز أيضاً مأمون ولا يحتاج في روايته إلى متابع.
والخلاصه أن الحديث حسن والله أعلم.

(٢) المائدة: «٦٠».

(٣) الفرقان: «٢٤».

فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ
أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ
وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ
أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ يعني فرعونَ وقومَه ﴿بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم، فاقتُصر على حاشيتي القصة اكتفاءً بما هو المقصودُ منها وهو إلزامُ الحجة ببعثة الرسل، واستحقاقُ التدمير بتكذيبهم، والتعقيبُ باعتبار الحكمِ لا الوقوعِ. وقرىء: فَدَمَّرتُهم، فَدَمِّراهُم، فدَمِّرانِّهم على التأكيد بالنون الثقيلة.

(٣٧) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ كذبوا نوحاً ومَن قبله، أو نوحاً وحده ولكنّ تكذيبَ واحد من الرسل كتكذيب الكل، أو بعثةَ الرسل مطلقاً كالبراهمة ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ عبرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يحتمل التعميمَ والتخصيص فيكون وضعاً للظاهر موضعَ المُضمَر تظليماً لهم.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ عطفٌ على هم في جعلناهم، أو على الظالمين لأن المعنى ووعدنا الظالمين، وقرأ حمزةُ وحفصٌ وثمودَ على تأويل القبيلة ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ قوم كانوا يعبُدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعيباً فكذبوه، فبينما هم حولَ الرسِّ وهي البئرُ الغيرُ المطوية فانهارت فخُسف بهم وبديارهم. وقيل الرسُّ قريةٌ بفلْج[1] اليمامة كان فيها بقايا ثمودَ فبُعث إليهم نبيٌّ فقتلوه فهلكوا. وقيل الأخدود، وقيل بئرٌ بأنطاكيةَ قَتلوا فيها حبيباً النجّارَ، وقيل هم أصحابُ حنظلةَ بنِ صفوانَ النبيِّ ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون، وسمَّوها عنقاءَ لطول عنُقها وكانت تسكُن جبلهم الذي يقال له فتخ أو دمخ وتنقضّ على صبيانهم فتخطَفُهم إذا أعوزها الصيدُ، ولذلك سُمّيت مُغْرِباً فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم إنهم قتلوه فأُهلكوا. وقيل هم قوم كذبوا نبيهم ورسُّوه أي دسّوه في بئر[2] ﴿وَقُرُونًۢا﴾ وأهلَ أعصار، قيل القرنُ أربعون سنةً وقيل سبعون وقيل مائة وعشرون ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعلمها إلا الله.

(٣٩) ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ بيّنا له القِصصَ العجيبةَ من قصص الأولين إنذاراً وإعذاراً فلما أصروا أُهلكوا كما قال ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ فتّتناه تفتيتاً، ومنه التِّبرُ لِفُتات الذهب والفضة، وكلاً الأولُ منصوبٌ بما دل عليه ضربنا كأنذرْنا، والثاني بتبّرنا لأنه فارغ.

(٤٠) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟﴾ يعني قريشاً مروا مراراً في متاجرهم إلى الشام ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾

---

(١) فَلْج اليمامة هي قرية في اليمامة يقال لها الرس، وأصل الفلْج الظفر والفوز (مختار الصحاح مادة فلج).
(٢) لم يقم على هذه الأقوال في المعنى بأصحاب الرس دليل ثابت. ورجح الطبري في «جامع البيان» (١١/ج١٩/١٤) أنهم أصحاب الأخدود. وبعض الأقوال الأخرى مردودة بنصوص أخرى.
وانظر «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧).

يعني سَدوم عُظمىٰ قرى قوم لوط أُمطرت عليها الحجارة ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في مِرار مرورِهم فيتعظوا بما يرون فيها من آثار عذاب الله ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ بل كانوا كفرة لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة فلذلك لم ينظروا ولم يتعظوا فمرُّوا بها كما مرت رِكابُهم، أو لا يأمُلون نشوراً كما يأمله المؤمنون طمعاً في الثواب، أو لا يخافونه على اللغة التهامية.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا
لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ
إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ ما يتخذونك إلا موضعَ هُزْء أو مَهزُوّاً به ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ مَحكيٌّ بعد قول مضمر، والإشارةُ للاستحقار، وإخراجُ بعَث اللهُ رسولاً في معرض التسليم بجعله صلةً وهم على غاية الإنكار تهكمٌ واستهزاء، ولولاه لقالوا أهذا الذي زعم أنه بعثه الله رسولاً.

(٤٢) ﴿إِن﴾ إنه ﴿كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ ليَصرِفنا عن عبادتها بفَرْط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرةِ ما يوردها مما يسبِق إلى الذهن بأنها حُججٌ ومعجزات ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ثبتْنا عليها واستمسكنا بعبادتها، ولولا في مثله تقيد الحكمَ المطلقَ من حيث المعنى دون اللفظ ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ كالجواب لقولهم ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ فإنه يفيد نفيَ ما يلزَمه ويكون الموجِبَ له، وفيه وعيدٌ ودِلالةٌ على أنه لا يُهمِلهم وإن أمهلهم.

(٤٣) ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ بأن أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجةً ولا يبصر دليلاً، وإنما قُدّم المفعولُ الثاني للعناية به ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ حفيظاً تمنعه عن الشرك والمعاصي وحالُه هذا، فالاستفهامُ الأول للتقرير والتعجيب والثاني للإنكار.

(٤٤) ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ بل أتحسب ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ فتُجديَ لهم الآياتُ أو الحجج فتهتمَّ بشأنهم وتطمعَ في إيمانهم، وهو أشدُّ مذمةً مما قبله حتى حُقّ بالإضراب عنه إليه، وتخصيصُ الأكثر لأنه كان منهم مَن آمن ومنهم من عَقَل الحقَّ وكابر استكباراً وخوفاً على الرئاسة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم انتفاعِهم بقرع الآياتِ آذانَهم وعدمِ تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدها وتُميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرِفون إحسانه مِن إساءة الشيطان ولا يطلُبون الثواب الذي هو أعظمُ المنافعِ ولا يتقون العقابَ الذي هو أشدُّ المضارِّ، ولأنها إن لم تعتقِد حقاً ولم تكتسب خيراً لم تعتقد باطلاً ولم تكتسب شراً، بخلاف هؤلاء، ولأن جَهالتها لا تضر بأحد وجهالةُ هؤلاء تؤدي إلى هَيْج الفتن وصدِّ الناس عن الحق، ولأنها غيرُ متمكنة من طلب الكمال فلا تقصيرَ منها ولا ذم، وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظمَ العقاب على تقصيرهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا
قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

(٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ألم تنظرْ إلى صنعه [١] ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ كيف بسطه، أو ألم تنظر إلى الظل كيف مده ربُّك، فغُيِّر النظمُ إشعاراً بأنه المعقولُ من هذا الكلام لوضوح برهانه، وهو دِلالةُ حدوثه وتصرُّفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فِعلُ الصانعِ الحكيم كالمشاهَد المَرْئيّ فكيف بالمحسوس منه، أو ألم ينتهِ علمُك إلى أن ربك كيف مد الظل وهو فيما بين طلوع الفجر والشمس وهو أطيبُ الأحوال، فإن الظلمةَ الخالصة تُنفِّر الطبعَ وتسُد النظرَ، وشعاعُ الشمس يُسخِّن الجوَّ ويَبهَر البصر، ولذلك وَصف به الجنة فقال: «وظلٍّ ممدود» ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ ثابتاً، من السُّكنى أو غيرَ متقلص، من السكون بأن يجعل الشمس مُقيمةً على وضع واحد ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فإنه لا يظهر للحس حتى تطلُع فيقعَ ضوءها على بعض الأجرام، أو لا يوجد ولا يتفاوت إلا بسبب حركتها [٢].

(٤٦) ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ أي أزلناه بإيقاع الشمس موقعَه، لمَا عبّر عن إحداثه بالمد بمعنى التسيير عبر عن إزالته بالقبض إلى نفسه الذي هو في معنى الكف ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قليلاً قليلاً حسبما ترتفع الشمس لينتظم بذلك مصالحُ الكون ويتحصّلَ به ما لا يُحصى من منافع الخلق، وثم في الموضعين لتفاضُل الأمور أو لتفاضل مبادىء أوقاتِ ظهورها. وقيل مدَّ الظل لمَا بنى السماء بلا نيِّر، ودحا الأرض تحتها فألقت عليها ظلها ولو شاء لجعله ثابتاً على تلك الحالة، ثم خلق الشمس عليه دليلاً، أي مسلَّطاً عليه مستتبِعاً إياه كما يستتبع الدليلَ المدلولُ، أو دليلَ الطريق مَن يهديه فإنه يتفاوت بحركتها ويتحول بتحولها، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً شيئاً فشيئاً إلى أن تنتهيَ غايةُ نقصانه، أو قبضاً سهلاً عند قيام الساعة بقبض أسبابه من الأجرام المُظِلة والمُظَل عليها.

(٤٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شبّه ظلامه باللباس في سَتره ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحةً للأبدان بقطع المشاغل، وأصلُ السبت القطعُ، أو موتاً كقوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [٣] لأنه قطع الحياة ومنه المسبوتُ للميت ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ ذا نشور أي انتشارٍ ينتشر فيه الناس للمعاش، أو بعثٍ من النوم بعْثَ الأموات فيكون إشارة إلى أن النوم واليقظة أُنموذجٌ للموت والنشور. وعن لُقمانَ عليه السلام يا بُني كما تنام فتُوقَظ كذلك تموت فتُنشَر.

---

(١) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه عليه السلام، وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته ورحمته تعالى (س٦/ ٢٢٢).

(٢) والالتفات إلى نون العظمة في (جعلنا) لما في الجعل المذكور العاري عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبىء عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة، وهو السر في إيراد كلمة التراخي «ثم». (س٦/ ٢٢٢).

(٣) الأنعام: «٦٠».

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا
وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾

(٤٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابن كثير على التوحيد إرادةَ للجنس ﴿بُشۡرَۢا﴾ ناشراتٍ للسحاب جمعِ نَشور، وقرأ ابن عامر بالسكون على التخفيف، وحمزةُ والكسائي به وبفتح النون على أنه مصدر وصف به، وعاصم بُشراً تخفيف بُشُر جمع بَشور بمعنى مبشِّر ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ يعني قُدّامَ المطر ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ مطهِّراً لقوله ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[1] وهو اسم لما يُتطهر به كالوَضوء والوَقود لما يُتوضأ به ويُوقد به. قال عليه الصلاة والسلام: «التراب طَهور المؤمن»[2] «طَهورُ إناءِ أحدكم إذا ولَغ الكلبُ فيه أن يُغسل سبعاً إحداهن بالتراب»[3]. وقيل بليغاً في الطهارة. وفَعول وإن غلب في المعنيين لكنه قد جاء للمفعول كالضَّبوث وللمصدر كالقَبول وللاسم كالذَنوب، وتوصيفُ الماء به إشعاراً بالنعمة فيه وتتميمٌ للمنة فيما بعده فإن الماء الطَّهورَ أهنأُ وأنفعُ مما خالطه ما يزيل طَهوريته، وتنبيهٌ على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنُهم بذلك أولى.

(٤٩) ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ بالنبات، وتذكيرُ ميتاً لأن البلدة في معنى البلد، ولأنه غيرُ جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأُجريَ مُجرى الجامد ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ يعني أهلَ البوادي الذين يعيشون بالحَيا ولذلك نكّر الأنعام والأناسيّ، وتخصيصُهم لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار، والمنافعُ فيهم وبما حولهم من الأنعام غنيةٌ عن سُقيا السماء، وسائرُ الحيوانات تبعُد في طلب الماء فلا يُعوزها الشربُ غالباً مع أن مَساقَ هذه الآياتِ كما هو للدَلالة على عِظَم القدرة، فهو لتعداد أنواع النعمة. والأنعامُ قُنيةُ الإنسان وعامةُ منافعهم وعَلِيّةُ معايشهم منوطةٌ بها، ولذلك قَدم سقيَها على سقيهم كما قدم عليها إحياءَ الأرض فإنه سببٌ لحياتها وتعيُّشها. وقرىء نَسقيَه بالفتح، وسقى وأسقى لغتان، وقيل أسقاه جعل له سُقياً، وأناسيَّ بحذف ياء وهو جمع إنسي أو إنسان كظَرابيّ في ظِرْبان على أن أصله أناسين فقلبت النون ياء.

(٥٠) ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾ صرفنا هذا القولَ بين الناس في القرآن وسائر الكتب، أو المطرَ بينهم في البلدان المختلفة والأوقاتِ المتغايرة، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطَلٍّ وغيرِهما، وعن ابن عباس رضي الله عنه: ما عامٌ أمطرُ من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء. وتلا هذه الآية[4] أو في الأنهار والمنافع. ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ليتفكروا ويعرِفوا كمال القدرة وحقَّ النعمة في ذلك

---

(١) الأنفال: «١١».

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٢٣٥ رقم ٣٣٢) و(١/ ٢٣٧ رقم ٣٣٣) والترمذي (١/ ٢١١ ـ ٢١٢) رقم ١٢٤) والنسائي (١/ ١٧١ رقم ٣٢٢). وهو حديث حسن.
انظر «نصب الراية» (١/ ١٤٨ ـ ١٤٩) والتلخيص لابن حجر (١/ ١٥٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣١٤).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٣) من رواية الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. =

ويقوموا بشكره، أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ إلا كفرانَ النعمة وقلةَ الاكتراث لها، أو جحودَها بأن يقولوا مُطِرنا بنَوء كذا. ومَن لا يرى الإمطارَ إلا من الأنواء كان كافراً بخلاف من يرى أنها من خلق الله، والأنواءُ وسائطُ وأَماراتٌ بجعله تعالى.

وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾
۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ نبياً يُنذر أهلها فيخِفُّ عليك أعباءُ النبوة، لكن قصَرنا الأمر عليك إجلالاً لك وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل، فقابِلْ ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهارِ الحق.

(٥٢) ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيما يريدونك عليه، وهو تهييجٌ له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بترك طاعتهم الذي يدل عليه (فلا تطع) والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حقك فقابلهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحةِ باطلهم ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ لأن مجاهدةَ السفهاء بالحُجج أكبرُ من مجاهدة الأعداء بالسيف، أو لأن مخالفتهم ومعاداتَهم فيما بين أظْهرِهم مع عُتُوهم وظهورهم، أو لأنه جهادٌ مع كل الكفرة لأنه مبعوث إلى كافة القرى.

(٥٣) ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ خلاّهما متجاورَين متلاصقَين بحيث لا يتمازجان، من مَرج دابته إذا خلاها ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ قامع للعطش من فَرْط عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ بليغُ الملوحة. وقرىء مَلِحٌ على فَعِلٍ، ولعل أصله مالِح فخُفف كبَرِد في بارد ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا﴾ حاجزاً من قدرته ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ وتنافراً بليغاً كأن كلاً منهما يقول للآخر ما يقوله المتعوِّذ للمتعوَّذ عنه. وقيل حدّاً محدوداً وذلك كدِجْلةَ تدخل البحر فتشُقه فتجري في خلاله فراسخَ لا يتغير طعمُها، وقيل المراد بالبحر العذبِ النهرُ العظيم مثلُ النيل، وبالبحر المِلْحِ البحرُ الكبير وبالبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فتكون القدرة في الفصل واختلافِ الصفة، مع أن مقتضى طبيعة أجزاء كلِّ عنصر أن تضامّت وتلاصقت وتشابهت في الكيفية.

(٥٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ يعني الذي خمَّر به طينةَ آدم، أو جعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع لتُبْشَرَ وتسلَّسَ وتقبَلَ الأشكال والهيئاتِ بسهولة، أو النطفة ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾ أي قسمه قسمين: ذوي نسَب أي ذكوراً يُنسب إليهم، وذواتِ صهر أي إناثاً يصاهَر بهن كقوله تعالى ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾[1]. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾ حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاءٍ مختلفة وطباعٍ متباعدة وجعله قسمين متقابلين، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى.

= قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وهو كما قالا.

(١) القيامة: «٣٩».

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا
مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى
ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعني الأصنامَ أو كلَّ ما عُبد من دون الله إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ يظاهر الشيطانَ بالعداوة والشرك، والمرادُ بالكافر الجنسُ أو أبو جهل. وقيل هيّناً مَهيناً لا وقعَ له عنده، من قولهم ظَهرتَ به إذا نبذتَه خلف ظهرك فيكون كقوله ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾[١].

(٥٦) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ للمؤمنين والكافرين.

(٥٧) ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة الذي يدل عليه إلا مبشراً ونذيراً ﴿مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ﴾ إلا فِعلَ من شاء ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أن يتقرب إليه ويطلُب الزُّلفى عنده بالإيمان والطاعة، فصوّر ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصودٌ فعلُه واستثناه منه قلعاً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة، حيث اعتد بإنفاعك نفسك بالتعرض للثواب والتخلص عن العقاب أجراً وافياً مَرضيّاً به مقصوراً عليه، وإشعاراً بأن طاعتهم تعود عليه بالثواب من حيث إنها بدَلالته. وقيل الاستثناءُ منقطعٌ، معناه: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل.

(٥٨) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في استكفاء شرورهم والإغناء عن أجورهم، فإنه الحقيقُ بأن يُتوكّل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع مَن توكل عليهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ونزّهه عن صفات النقصان مُثْنياً عليه بأوصاف الكمال طالباً لمزيد الإنعام بالشكر على سوابغه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظهر منها وما بطن ﴿خَبِيرًا﴾ مطّلعاً فلا عليك إن آمنوا أو كفروا.

(٥٩) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قد سبق الكلام فيه[٢]، ولعل ذكره زيادةُ تقرير لكونه حقيقاً بأن يُتوكَّل عليه من حيث إنه الخالقُ للكل والمتصرِّف فيه، وتحريضٌ على الثبات والتأني في الأمر فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعةِ نفاذ أمره في كل مراد خَلَق الأشياء على تُؤَدة وتدرُّج. والرحمنُ خبرُ الذي إن جعلتَه مبتدأً ولمحذوفٍ إن جعلته صفة للحي، أو بدل من المستكنّ في استوى، وقرىء بالجر صفةٌ للحي. ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ فاسأل عما ذكر من الخلق والاستواء عالماً يُخبرْك بحقيقته وهو الله تعالى، أو جبريلَ، أو مَن وجده في الكتب المتقدمة لِيَصْدُقَك فيه، وقيل الضمير للرحمن والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه مَن يُخبرُك من أهل الكتاب ليعرِفوا مجيءَ ما يرادفه في كتبهم، وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمنُ مبتدأً والخبر

(١) آل عمران: «٧٧».
(٢) سبق الكلام فيه في الأعراف «٥٤».

ما بعده، والسؤال كما يُعدّى بعن لتضمُّنه معنى التفتيشِ يُعدَّى بالباء لتضمنه معنى الاعتناء. وقيل إنه صلة خبيراً.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾

(٦٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لأنهم ما كانوا يُطلِقونه على الله، أو لأنهم ظنوا أنه أراد به غيرَه ولذلك قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي للذي تأمرناه يعني تأمرنا بسجوده، أو لأمرك لنا من غير عِرفان. وقيل لأنه كان معرَّباً لم يسمعوه. وقرأ حمزةُ والكسائي يأمرنا بالياء على أنه قولُ بعضهم لبعض ﴿وَزَادَهُمْ﴾ أي الأمرُ بالسجود للرحمن ﴿نُفُورًا ۩﴾ عن الإيمان.

(٦١) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ يعني البروجَ الاثني عشَرَ سُمّيت به وهي القصورُ العالية لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسُكانها واشتقاقُه من التبرّج لظهوره ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ يعني الشمسَ لقوله ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[١]. وقرأ حمزة والكسائي سُرُجاً وهي الشمس والكواكب الكبار ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ مضيئاً بالليل. وقرىء وقُمْراً أي ذا قُمْر وهو جمع قمراء، ويحتمل أن يكون بمعنى القَمْر كالرُّشْد والرَّشَد والعُرْب والعَرب.

(٦٢) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي ذَويْ خِلفة يخلُف كلٌّ منهما الآخرَ بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه، أو بأن يعتقبا لقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[٢] وهي للحالة من خَلَف كالرِّكْبة والجِلْسة ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ بأن يتذكر آلاءَ الله ويتفكر في صنعه فيعلمَ أن لا بد له من صانع حكيم واجبِ الذات رحيمٍ على العباد ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أن يشكر الله تعالى على ما فيه من النعم، أو ليكونا وقتين للمتذكّرين والشاكرين؛ مَنْ فاته وِرْده في أحدهما تداركه في الآخرة. وقرأ حمزة أن يذْكُر من ذكَر بمعنى تذكّر، وكذلك ليَذْكُروا ووافقه الكسائي فيه[٣].

(٦٣) ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأٌ وخبرُه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾[٤] أو ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وإضافتُهم إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل، أو لأنهم الراسخون في عبادته، على أن (عبادُ) جمعُ عابد كتاجر وتِجَار ﴿هَوْنًا﴾ هيّنين أو مشياً هيناً، مصدرٌ وُصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينة

---

(١) نوح: «١٦».

(٢) البقرة: «١٦٤».

(٣) أي وقرأ حمزة «ولقد صرفناه بينهم لِيَذْكُروا» بتخفيف الذال كما مرَّ في الآية (٥٠) من سورة الفرقان، ووافقه الكسائي في التخفيف في قوله «لِيَذْكروا».
انظر المبسوط لابن مهران ص٢٧١.

(٤) الفرقان: «٧٥».

وتواضع ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ تسلّماً منكم ومُتاركةً لكم لا خير بيننا ولا شر، أو سَداداً من القول يسْلَمون فيه من الإيذاء والإثم، ولا ينافيه آيةُ القتال لتنسَخه فإن المراد به الإغضاءُ عن السفهاء وتركُ مقابلتهم في الكلام.

وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ
عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟
وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ
ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾

(٦٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ في الصلاة، وتخصيصُ البيتوتة لأن العبادة بالليل أحمَزُ[١] وأبعدُ عن الرياء وتأخيرُ القيام للرّويّ، وهو جمعُ قائم، أو مصدرٌ أُجريَ مجراه.

(٦٥) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ لازماً ومنه الغريمُ لملازمته، وهو إيذان بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادِهم في عبادة الحق وَجِلون من العذاب مبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقِهم على استمرار أحوالهم.

(٦٦) ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بِئْست مستقراً، وفيها ضميرٌ مبهم يفسره المميِّز، والمخصوصُ بالذم ضمير محذوف به ترتبط الجملةُ باسم إن، أو أَحْزنَتْ. وفيها ضميرٌ اسمُ إنّ، ومستقراً حالٌ أو تمييز، والجملةُ تعليلٌ للعلة الأولى أو تعليلٌ ثانٍ، وكلاهما يحتملان الحكاية والابتداء من الله.

(٦٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ ﴾ لم يجاوزوا حدَّ الكرم ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴾ ولم يضيِّقوا تضييق الشحيح، وقيل الإسرافُ هو الإنفاقُ في المحارم والتقتيرُ منعُ الواجب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء، ونافعٌ وابنُ عامرٍ والكوفيون بضم الياء وكسر التاء من أقتر، وقرىء بالتشديد والكل واحد ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ وسَطاً عدلاً سمي به لاستقامة الطرفين كما سُمّي سواءً لاستوائهما. وقرىء بالكسر وهو ما يُقام به الحاجةُ لا يفضُل عنها ولا يَنقُص. وهو خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مؤكدة، ويجوز أن يكون الخبر بين ذلك لغواً، وقيل إنه اسمُ كان لكنه مبنيٌّ لإضافته إلى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القَوام فيكون كالإخبار بالشيء عن نفسه.

(٦٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ أي حرمها بمعنى حرم قتلها[٢] ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ متعلق بالقتل المحذوف، أو بلا يقتلون ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ نفَى عنهم أمهاتِ المعاصي بعدما أثبت لهم أصولَ الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر المذكورَ موعودٌ

(١) أحمز أي أقوى وأمتن. انظر مختار الصحاح مادة (حمز).

(٢) والتصريح بوصفهم بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لإظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والإخلاص، وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما في سلْكه، وللتعريض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم (س٦/ ٢٢٩).

للجامع بين ذلك، وتعريضاً للكفرة بأضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاءَ إثمٍ أو إثماً بإضمار الجزاء، وقرىء أيّاماً أي شدائدَ يقال يوم ذو أيام أي صعب.

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بدل من يلْقَ لأنه في معناه كقوله:

مَتَى تَأْتِنَا تُلمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا		تجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا[1]

وقرأ أبو بكر بالرفع على الاستئناف أو الحال وكذلك ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ وابنُ كثير ويعقوبُ يُضَعَّفْ بالجزم، وابن عامر بالرفع فيهما مع التشديد وحذف الألف في يضعّفُ، وقرىء ويُخْلَد على بناء المفعول مخففاً، وقرىء مثقّلاً. وتضعيفُ العذابِ مضاعفتُه لانضمام المعصية إلى الكفر ويدلّ عليه قوله:

(٧٠) ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ بأن يمحوَ سوابقَ معاصيهم بالتوبة ويُثبِتَ مكانها لواحقَ طاعتهم، أو يبدّلَ ملَكةَ المعصية في النفس بملكة الطاعة. وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه، أو بأن يُثبت له بدلَ كل عقاب ثواباً ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلذلك يعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات.

(٧١) ﴿ وَمَن تَابَ﴾ عن المعاصي بتركها والندمِ عليها ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يتلافَى به ما فرّط، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة ﴿ فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ﴾ يرجع إلى الله بذلك ﴿مَتَابًا﴾ مرضياً عند الله ماحياً للعقاب محصلاً للثواب، أو يتوب متاباً إلى الله الذي يحب التائبين ويصطنع بهم؛ أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وهو تعميمٌ بعد تخصيص.

(٧٢) ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لا يُقيمون الشهادة الباطلة، أو لا يحضُرون محاضِر الكذب، فإن مشاهدة الباطل شِركةٌ فيه ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ ما يجب أن يُلغىٰ ويُطرح ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرِضين عنه مكرّمين أنفسَهم عن الوقوف عليه والخوضِ فيه، ومن ذلك الإغضاءُ عن الفواحش والصفحُ عن الذنوب والكنايةُ عما يُستهجَن التصريحُ به.

(٧٣) ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بالوعظ أو القراءة ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ لم يُقيموا عليها غيرَ واعين لها ولا متبصّرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصِر، بل أكبّوا عليها سامعين بآذان واعيةٍ مبْصرين بعيون راعية، فالمرادُ من النفي نفيُ الحال دون الفعل كقولك: لا يلقاني زيد مسلّماً. وقيل الهاء للمعاصي المدلولِ عليها باللغو.

---

(١) من الطويل.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾
أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازةِ الفضائل، فإن المؤمن إذا شاركه أهلُه في طاعة الله سُرّ بهم قلبُه وقرّت بهم عينُه لما يَرى من مساعدتهم له في الدين وتوقُّع لُحوقهم به في الجنة، ومِن ابتدائيةٌ أو بيانية كقولك: رأيت منك أسداً. وقرأ حمزة وأبو عمرو والكسائي وأبو بكر وذريتِنا، وقرأ ابن عامر والحَرَميان وحفصٌ ويعقوبُ وذرياتنا بالألف. وتنكيرُ الأعين لإرادة تنكيرِ القُرة تعظيماً، وتقليلها لأن المراد أعينُ المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل وتوحيدُه إما للدِلالة على الجنس وعدم اللَّبس كقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[1] أو لأنه مصدر في أصله، أو لأن المراد واجعل كل واحد منا، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاقِ كلمتهم. وقيل جمعُ آمٍّ كصائم وصيام ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم[2].

(٧٥) ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ أعلى مواضعِ الجنة وهي اسمُ جنس أريد به الجمعُ كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[3] وللقراءة بها، وقيل هي من أسماء الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفضِ الشهوات وتحمُّل المجاهدات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ دعاءً بالتعمير والسلامة أي يحيّيهم الملائكةُ ويسلّمون عليهم، أو يحيي بعضُهم بعضاً ويسلم عليه، أو تبقيةً دائمةً وسلامةً من كل آفة. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر يَلْقَون من لقِيَ.

(٧٦) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون فيها ولا يَخرجون ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مقابلُ ساءت مستقراً معنًى ومثلُه إعراباً.

(٧٧) ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ ما يصنع بكم، من عبأْتُ الجيش إذا هيأته، أو لا يَعتدّ بكم ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ لولا عبادتُكم فإن شرف الإنسان وكرامتَه بالمعرفة والطاعة وإلا فهو وسائرُ الحيوانات سواءٌ. وقيل معناه ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهةً. وما إن جُعلت استفهاميةً فمحلُها النصبُ على المصدر كأنه قيل: أيَّ عِبءٍ يعبأ بكم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بما أخبرتكم به حيث خالفتموه. وقيل فقد قصرتم في العبادة من قولهم: كذّب القتالَ إذا لم يبالغ فيه. وقرىء فقد كذب الكافرون أي الكافرون

(١) غافر: «٦٧».
(٢) إعادة الموصول في المواقع السبعة ـ مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول ـ للإيذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات المذكورة وصفٌ جليل على حياله له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل.
وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي (س٦/٢٣١).
(٣) سبأ: «٣٧».

منكم لأن توجُّه الخطاب إلى الناس عامة بما وُجد في جنسهم من العبادة والتكذيب. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكون جزاءُ التكذيب لازماً يَحيق بكم لا محالة، أو أثرُه لازماً بكم حتى يَكُبَّكم في النار، وإنما أُضمر من غير ذكر للتهويل والتنبيهِ على أنه لا يكتَنهه الوصفُ، وقيل المراد قتلُ يومِ بدر وأنه لوزم بين القتلى لِزاماً. وقرىء لَزاماً بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت. عن النبي ﷺ «منَ قرأ سورة الفرقان لقيَ الله وهو مؤمن بأن الساعةَ آتيةٌ لا ريب فيها وأُدخل الجنة بغير نصَب»[1].



(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٢ رقم ١٠٥). وانظر آخر سورة آل عمران.

سورة الشعراء

ترتيبها ٢٦ آياتها ٢٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟
فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾

سورة الشعراء مكية

إلا قولَه تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون إلى آخرها وهي مائتان وستٌّ أو سبع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طسٓمٓ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالإمالة، ونافع بين بينَ، كراهةَ للعود إلى الياء المهروب منها، وأظهر نونَه حمزةُ لأنه في الأصل منفصل عما بعده.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الظاهرِ إعجازُه وصحتُه، والإشارةُ إلى السورة أو القرآنِ على ما قُرّر في أول البقرة.

(٣) ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتلٌ نفسَك، وأصلُ البخع أن يبلُغ بالذبح النُّخاع وهو عرقٌ مستبطِنٌ الفَقارَ وذلك أقصى حد الذبح، وقرىء باخعُ نفسِك بالإضافة، ولعل للإشفاق أي أشفق على نفسك أن تقتُلها حسرة ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا أو خِيفةَ أن لا يؤمنوا.

(٤) ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ دِلالةً مُلجئةً إلى الإيمان أو بليّة قاسرةً عليه ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ منقادين، وأصلُه فظلوا لها خاضعين فأُقحِمت الأعناقُ لبيان موضع الخضوع وتُرك الخبرُ على أصله. وقيل لمّا وُصفت الأعناقُ بصفات العقلاء أُجريَت مُجراهم. وقيل المراد بها الرؤساء أو

الجماعات من قولهم: جاءنا عُنُقٌ من الناس لِفَوج منهم. وقرىء خاضعةً وظلت، عطفٌ على ننزل عطفَ (وأكنْ) على (فأصدَّق) لأنه لو قيل أنزلنا بدله لصح.

(٥) ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ﴾ موعظةٌ أو طائفة من القرآن ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يوحيه إلى نبيه ﴿مُحۡدَثٍ﴾ مجدَّدٍ إنزالُه لتكرير التذكير وتنويع التقرير ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ إلا جددوا إعراضاً عنه وإصراراً على ما كانوا عليه.

(٦) ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ أي بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به المُخبَرِ به عنهم ضمناً في قوله ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ﴾ أي إذا مسهم عذابُ الله يومَ بدر أو يوم القيامة ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ من أنه كان حقاً أم باطلاً، وكان حقيقاً بأن يُصَدَّق ويُعظَّمَ قدرُه. أو يكذبَ فيُستخَفَّ أمرُه.

أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

(٧) ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أو لم ينظروا إلى عجائبها ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ﴾ صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ محمودٍ كثيرِ المنفعة، وهو صفةٌ لكل ما يُحمد ويُرضىٰ، وههنا يحتمل أن تكون مقيدةً لما يتضمن الدَّلالةَ على القدرة، وأن تكون مبينةً منبّهةً على أنه ما من نبت إلا وله فائدةٌ إما وحده أو مع غيره، وكلّ لإحاطة الأزواج، وكم لكثرتها.

(٨) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إن في إنبات تلك الأصناف، أو في كل واحد ﴿لَأٓيَةٗۖ﴾ على أن مُنبِتَها تامُّ القدرة والحكمة، سابغُ النعمة والرحمة ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ في علم الله وقضائه فلذلك لا ينفعهم أمثالُ هذه الآياتِ العظام.

(٩) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ حيث أمهلهم أو العزيز في انتقامه ممن كفر، الرحيم لمن تاب وآمن.

(١٠) ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ مقدرٌ باذكر أو ظرف لما بعده ﴿أَنِ ٱئۡتِ﴾ أي ائت أو بأن ائت ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل وذبحِ أولادهم.

(١١) ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ بدل من الأول أو عطفُ بيانٍ له، ولعل الاقتصارَ على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك. ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استئنافٌ أتبعه إرسالَه إليهم للإنذار تعجيباً له من إفراطهم في الظلم واجترائِهم عليه. وقرىء بالتاء على الالتفات إليهم زجراً لهم وغضباً عليهم، وهم وإن كانوا غُيّباً حينئذ أُجروا مُجرى الحاضرين في كلام المرسَل إليهم من حيث إنه مبلِّغُه إليهم وإسماعُه مبدأُ إسماعِهم، مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبره وتأمل موردَه، وقرىء بكسر النون اكتفاءً بها عن ياء الإضافة، ويحتمل أن يكون بمعنى ألا يا ناسُ اتقونِ كقوله ﴿ألا يسجدوا﴾.

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾

(١٢) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

(١٣) ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ رتب استدعاءَ ضمِّ أخيه إليه وإشراكِه له في الأمر على الأمور الثلاثة: خوفِ التكذيب، وضيقِ القلب انفعالاً عنه، وازديادِ الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق، لأنها إذا اجتمعت مست الحاجة إلى مُعين يقوّي قلبه وينوب منابه متى تعتريه حبسةٌ حتى لا تختلَّ دعوتُه ولا تنبترَ حُجتُه، وليس ذلك تعللاً منه وتوقفاً في تلقي الأمر، بل طلباً لِما يكونُ معونةً على امتثاله وتمهيد عُذرِه فيه. وقرأ يعقوبُ ويضيقَ ولا ينطلقَ بالنصب عطفاً على يكذبون، فيكونان من جملة ما خاف منه.

(١٤) ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ أي تبعةُ ذنب فحُذف المضاف أو سُمّي باسمه، والمراد قتلُ القِبْطيّ وإنما سماه ذنباً على زعمهم، وهذا اختصارُ قصته المبسوطةِ في مواضعَ ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ به قبل أداء الرسالة، وهو أيضاً ليس تعللاً وإنما هو استدفاعٌ للبلية المتوقَّعة، كما أن ذاك استعدادٌ واستظهار في أمر الدعوة وقوله:

(١٥) ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ إجابةٌ له إلى الطِّلْبتين بوعده بدفع بلائهم اللازمِ ردعُه عن الخوف، وضمِّ أخيه إليه في الإرسال، والخطابُ في فاذهبا على تغليب الحاضر لأنه معطوف على الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت والذي طلبتَه ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ يعني موسى وهٰرون وفرعون ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ سامعون لما يجري بينكما وبينه فأُظهِرُ كما عليه، مثّل نفسَه تعالى بمن حضر مجادلةَ قومٍ استماعاً لما يجري بينهم وترقباً لإمداد أوليائه منهم، مبالغةً في الوعد بالإعانة، ولذلك تُجوِّز بالاستماع الذي هو بمعنى الإصغاء للسمع الذي هو مطلقُ إدراك الحروف والأصوات، وهو خبرٌ ثانٍ أو الخبرُ وحده ومعكم لغو.

(١٦) ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أفرد الرسولَ لأنه مصدرٌ وُصف به فإنه مشترِكٌ بين المرسَل والرسالة، قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا فُهْتُ عِنْدَهُمْ ... بِسِرٍّ وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

ولذلك ثنى تارةً وأفرد أخرى، أو لاتحادهما للأخوّة أو لوَحدة المرسَل والمرسَل به، أو لأنه اراد أن كل واحد منا.

(١٧) ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال المتضمنِ معنى القول، والمراد خلِّهم ليذهبوا معنا إلى الشام.

(١٨) ﴿قَالَ﴾ أي فرعون لموسى بعد ما أتياه فقالا له ذلك ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ في منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾

طفلاً سُمّي به لقربه من الولادة. ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدينَ عشرَ سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين، ثم بقي بعد الغرق خمسين.

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

(١٩) ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ ﴾ يعني قتلَ القِبْطي، وبّخه به معظماً إياه بعدما عدد عليه نعمته. وقرىء فِعلتك بالكسر لأنها كانت قِتْلةً بالوكز ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ بنعمتي حتى عمَدتَ إلى قتل خواصّي، أو ممن تكفّرهم الآن فإنه عليه الصلاة والسلام كان يعايشهم بالتقية فهو حال من إحدى التاءين، ويجوز أن يكون حكماً مبتدأً عليه بأنه من الكافرين بإلٰهيته أو بنعمته لمَا عاد عليه بالمخالفة، أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم.

(٢٠) ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ من الجاهلين وقد قرىء به[1]، والمعنى من الفاعلين فعلَ أولي الجهل والسَفَه، أو من الخاطئين لأنه لم يتعمد قتله، أو من الذاهلين عما يؤول إليه الوكزُ لأنه أراد به التأديب، أو الناسين من قوله تعالى ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا ﴾[2].

(٢١) ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ حِكمة ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ رد أولاً بذلك ما وبخه به قدحاً في نبوته ثم كر على ما عدّ عليه من النعمة ولم يصرح بردّه لأنه كان صدقاً غيرَ قادح في دعواه، بل نبه على أنه كان في الحقيقة نقمةً لكونه مسبَّباً عنها فقال:

(٢٢) ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي وتلك التربيةُ نعمةٌ تمنها علي ظاهراً، وهي في الحقيقة تعبيدُك بني إسرائيلَ وقصدُهم بذبح أبنائهم، فإنه السبب في وقوعي إليك وحصولي في تربيتك. وقيل إنه مقدر بهمزة الإنكارِ أي تلك نعمةٌ تمنها علي وهي أن عبدت، ومحل أن عبدت الرفعُ على أنه خبرُ محذوفٍ، أو بدل في نعمةٌ، أو الجرُّ بإضمار الباء أو النصبُ بحذفها. وقيل تلك إشارةٌ إلى خَصلة شنعاءَ مبهمةٍ وأن عبّدت عطفُ بيانها والمعنى: تعبيدُك بني إسرائيل نعمةٌ تمنها علي، وإنما وجد الخطابُ في تمنها وجُمع فيما قبله لأن المنة كانت منه وحده، والخوفُ والفرارُ منه ومن مَلَئه.

(٢٣) ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لمّا سمع جوابَ ما طعن به فيه ورأى أنه لم يرعَوِ بذلك شرَع في الاعتراض على دعواه فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل.

(٢٤) ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ عرّفه بأظهرِ خواصّه وآثاره لمّا امتنع تعريفُ الأفراد إلا

(١) قال أبو حيان في تفسير البحر المحيط (١١/٧): وفي قراءة عبدالله وابن عباس «وأنا من الجاهلين» ويظهر أنه تفسير للضالين لا قراءة مروية عن الرسول ﷺ.
(٢) البقرة: «٢٨٢».

بذكر الخواص والأفعال وإليه أشار بقوله:

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم موقنين الأشياءَ محققين لها علمتم أن هذه الأجرام المحسوسةَ ممكنةٌ لتركُّبها وتعدّدها وتغيّرِ أحوالها، فلها مُبدىءٌ واجبٌ لذاته، وذلك المُبدىء لا بد وأن يكون مبدأً لسائر الممكنات: ما يمكن أن يُحَسّ بها وما لا يمكن وإلا لزم تعددُ الواجب، أو استغناءُ بعض الممكنات عنه وكلاهما مُحالٌ، ثم ذلك الواجبُ لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته.

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

(٢٥) ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ جوابَه، سألتُه عن حقيقته وهو يذكر أفعاله، أو يزعُم أنه ربُّ السموات وهي واجبةٌ متحركة لذاتها كما هو مذهبُ الدهرية، أو غيرُ معلوم افتقارُها إلى مؤثر.

(٢٦) ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عُدولاً إلى ما لا يمكن أن يُتوهَّم فيه مثلُه ويُشَكَّ في افتقاره إلى مصور حكيم ويكون أقربَ إلى الناظر وأوضحَ عند التأمل.

(٢٧) ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أسأله عن شيء ويجيبني عن آخرَ. وسماه رسولاً على السخرية.

(٢٨) ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ تشاهدون كلَّ يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غيرِ مدار اليوم الذي قبله حتى يبلّغها إلى المغرب على وجه نافع تنتظم به أمورُ الكائنات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كان لكم عقلٌ علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك. لايَنَهم أولاً، ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم.

(٢٩) ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ عُدولاً إلى التهديد عن المُحاجّة بعد الانقطاع وهكذا ديدنُ المعاند المحجوج، واستدل به على ادعائه الألوهيةَ وإنكارِه الصانعَ وأنّ تعجُّبه بقوله ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾[1] من نسبة الربوبية إلى غيره، ولعله كان دهرياً اعتقد أن مَن ملك قُطراً أو تولى أمره بقوة طالِعِه استحق العبادة من أهله، واللام في المسجونين للعهد أي ممن عرَفتَ حالهم في سجوني فإنه كان يطرحهم في هُوّة عميقة حتى يموتوا ولذلك جُعل أبلغَ من لأسجُنَنّك.

(٣٠) ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي أتفعل ذلك ولو جئتك بشيء يبين صِدْقَ دعواي، يعني المعجزةَ فإنها الجامعةُ بين الدَلالة على وجود الصانع وحكمتِه والدِلالة على صدق مدّعي نبوته، فالواو للحال وَلِيَها الهمزةُ بعد حذف الفعل.

---

(١) الشعراء: «٢٥».

قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ
بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾
فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن
كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾

(٣١) ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أن لك بينةً أو في دعواك، فإن مدّعيَ النبوة لا بد له من حجة.

(٣٢) ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ ثُعبانيَّتُه، واشتقاقُ الثعبان من ثعَبتُ الماء فانثعب إذا فجرتُه فانفجر.

(٣٣) ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ روي أن فرعون لمّا رأى الآيةَ الأولى قال فهل غيرُها، فأخرج يده قال فما فيها فأدخلها في إبْطه ثم نزعها ولها شعاعٌ يكاد يُغشي الأبصارَ ويسدّ الأفق.

(٣٤) ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقعَ الحال ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائقٌ في علم السحر.

(٣٥) ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بهَره سلطانُ المعجزة حتى حطه عن دعوى الربوبية إلى مؤامرة القوم وائتمارِهم وتنفيرِهم عن موسى وإظهارِ الاستشعار عن ظهوره واستيلائه على ملكه.

(٣٦) ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخِّرْ أمرهما. وقيل احبِسْهما ﴿ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ شُرَطاً يحشُرون السحرة.

(٣٧) ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ يفضُلون عليه في هذا الفنِّ. وأمالها ابنُ عامر وأبو عمرو والكسائي، وقرىء بكل ساحر.

(٣٨) ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لِما وُقّت به من ساعات يوم معيّن وهو وقتُ الضحى من يوم الزينة.

(٣٩) ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ فيه استبطاءٌ لهم في الاجتماع حثا على مبادرتهم إليه كقول تأبط شراً:

هَـلْ أَنْـتَ بَـاعِـثُ دِينَـارٍ لَحـاجَتِنَـا أَوْ عَبْـدَ رَبٍّ أَخَـا عَـوْنِ بْـنِ مِخْـرَاقِ

أي ابعث أحدهما إلينا سريعاً.

(٤٠) ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غلَبوا، والترجّي باعتبار الغلبة المقتضيةِ للاتّباع، ومقصودُهم الأصلُ أن لا يتبعوا موسى لا أن يتبعوا السحرة، فساقوا الكلام مَساقَ الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام.

فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ
مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

(٤١) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ .

(٤٢) ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ التزم لهم الأجرَ والقُربة عنده زيادة عليه إن غلَبوا، فإذاً على ما يقتضيه من الجواب والجزاء، وقرىء نَعِمْ بالكسر وهما لغتان.

(٤٣) ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ أي بعدما قالوا له إما أن تلقيَ وإما أن نكون نحن الملقين، ولم يُرِد به أمرَهم بالسحر والتمويه بل الإذنَ في تقديم ما هم فاعلوه لا محالةَ توسلاً به إلى إظهار الحق.

(٤٤) ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ أقسموا بعزته على أن الغلبةَ لهم لِفَرْط اعتقادهم في أنفسهم، أو لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتىٰ به من السحر.

(٤٥) ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ ﴾ تبتلع، وقرأ حفص تلْقف بالتخفيف ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ما يقلِبونه عن وجهه بتمويههم وتزويرِهم فيُخيِّلون حبالَهم وعِصِيَّهم أنها حياتٌ تسعى، أو إفكَهم، تسميةً للمأفوك به مبالغة.

(٤٦) ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ لعلمهم بأن مثلَه لا يتأتى بالسحر، وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويهٌ وتزويق يخيِّل شيئا لا حقيقة له، وأن التبحر في كل فن نافعٌ. وإنما بُدِّل الخُرورُ بالإلقاء ليشاكل ما قبله ويدل على أنهم لمّا رأَوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم كأنهم أُخذوا فطرحوا على وجوههم، وأنه تعالى ألقاهم بما خوّلهم من التوفيق.

(٤٧) ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بدلٌ مِن ألقي بدلَ الاشتمال، أو حالٌ بإضمار قد.

(٤٨) ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ إبدالٌ للتوضيح ودفعِ التوهم، والإشعارِ على أن الموجبَ لإيمانهم ما أجراه على أيديهما.

(٤٩) ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ فعلمكم شيئاً دون شيء ولذلك غلبكم، أو فواعدكم على ذلك وتواطأتم عليه، وأراد به التلبيسَ على قومه كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح أآمنتم بهمزتين ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبالَ ما فعلتم وقوله ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بيان له.

(٥٠) ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ﴾ لا ضرر علينا في ذلك ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ بما تُوعِدُنا به فإن الصبر عليه محاءٌ للذنوب موجبٌ للثواب والقُرب من الله تعالى، أو بسبب من أسباب الموت والقتلُ أنفعُها وأرجاها.

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾

(٥١) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا﴾ لأنْ كنا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أتباع فرعون، أو من أهل المشهد، والجملة في المعنى تعليلٌ ثانٍ لنفي الضمير، أو تعليلٍ للعلة المتقدمة. وقرىء إن كنا على الشرط لهضم النفس وعدمِ الثقة بالخاتمة، أو على طريقة المُدِلِّ بأمره نحو إن أحسنتُ إليك فلا تنسَ حقي.

(٥٢) ﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ وذلك بعد سنينَ أقامها بين أظهُرهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآياتِ فلم يزيدوا إلا عتُواً وفساداً، وقرأ ابن كثير ونافع أنِ أسْرِ بعبادي بكسر النون ووصل الألف من سَرى، وقرىء أنْ سِرْ من السير ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعونُ وجنوده، وهو علةُ الأمر بالإسراء أي أسْر بهم حتى إذا اتبعوكم مُصْبحين كان لكم تقدّمٌ عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تَلِجون البحر فيدخُلون مَدخلَكم فأُطبِقُه عليهم فأُغرِقهم.

(٥٣) ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أُخبر بِسُراهم. ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ العساكرَ ليتبعوهم.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ على إرادة القول وأنما استقلهم وكانوا سِتَّمِائةِ ألفٍ وسبعين ألفاً بالإضافة إلى جنوده، إذ روي أنه خرج وكانت مقدمتُه سبعَمِائةِ ألفٍ. والشرذمةُ الطائفة القليلة، ومنها ثوبٌ شَراذمُ لِما بَلِيَ وتقطع، وقليلون باعتبار أنهم أسباط، كلُّ سِبط منهم قليل.

(٥٥) ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ لفاعلون ما يَغيظنا.

(٥٦) ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ وإنا لجميعٌ مِن عادتنا الحذرُ واستعمالُ الحزم في الأمور، أشار أولاً إلى عدم ما يمنع اتّباعَهم من شوكتهم ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فَرْط عداوتهم ووجوبِ التيقظ في شأنهم حثاً عليه، أو اعتذر بذلك إلى أهل المدائن كي لا يُظَنَّ به ما يَكسِرُ سلطانَه، وقرأ ابن عامر برواية ابنِ ذَكوانَ[1] والكوفيون حاذرون، والأولُ للثبات والثاني للتجدّد، وقيل الحاذر المؤدي في السلاح وهو أيضاً من الحذر لأن ذلك إنما يُفعل حذراً، وقرىء حادرون بالدال المهملة أي أقوياء قال:

أُحِبُّ الصَّبِيَ السُّوءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ ... وأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهْوَ حَادِرُ

أو تامّو السلاح فإن ذلك يوجب حدارةً في أجسامهم.

(٥٧) ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ بأن خلقنا داعيةَ الخروج بهذا السبب فحمَلتُهم عليه ﴿مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

---

(١) هو محمد بن سليمان بن أحمد بن ذكوان، أبو طاهر البعلبكي المؤذن، مقرىء معمر عالي السند صالح نزيل صيدا. ولد سنة (٢٦٤هـ) ومات سنة (٣٥٤هـ). [غاية النهاية (١٤٨/٢)].

وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ
أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ
فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ
أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

(٥٨) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني المنازلَ الحسنةَ والمجالس البهية. .

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الإخراجِ أخرجنا فهو مصدر، أو مثلَ ذلك المقامِ الذي كان لهم على أنه صفةُ مقام، أو الأمرُ كذلك فيكون خبراً لمحذوف. ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

(٦٠) ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ وقرىء فاتّبعوهم ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

(٦١) ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ تقاربا بحيث رأى كلُ واحد منهما الآخرَ، وقرىء تراءتِ الفئتان ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ لَمُلحَقون، وقرىء لَمُدّرِكون من ادّرك الشيءُ إذا تتابع ففنِيَ، أي: لمتابِعون في الهلاك على أيديهم[1].

(٦٢) ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ لن يُدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بالحفظ والنُّصرة ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريقَ النجاة منهم، روي أن مؤمنَ آلِ فرعون كان بين يدي موسى فقال: أين أُمِرتَ فهذا البحرُ أمامك وقد غشِيَكَ آلُ فرعون، فقال: أُمرتُ بالبحر ولعلي أومر بما أصنع.

(٦٣) ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ بحرَ القَلْزم أو النيلَ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ أي فضُرب فانفلق وصار اثني عشر فَرقاً بينها مسالك ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبل المُنيفِ الثابت في مقره فدخلوا في شعابها، كلُّ سِبْط في شعب.

(٦٤) ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ وقربنا ﴿ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ فرعونَ وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخِلَهم.

(٦٥) ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئةِ إلى أن عبَروا.

(٦٦) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ بإطباقه عليهم.

(٦٧) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ وأيةَ آية ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وما تنبه عليها أكثرُهم إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقيَ في مصرَ من القِبط، وبنو إسرائيلَ بعد ما نجَوا سألوا بقرةً يعبُدونها واتخذوا العجلَ وقالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[2].

(٦٨) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنتقمُ من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

---

(١) وفي قوله «إنا لمدركون» حيث جاؤوا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفي التأكيد للدلالة على تحقق الإدراك واللحاق (س٦/ ٢٤٥).

(٢) البقرة: «٥٥».

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾
قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى
خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

(٦٩) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على مشركي العرب ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

(٧٠) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سألهم لِيُريَهم أن ما يعبُدونه لا يستحق العبادة.

(٧١) ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ فأطالوا جوابَهم بشرح حالهم معه تبجّحاً به وافتخاراً، ونظل ههنا بمعنى ندوم. وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

(٧٢) ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أيسمعون دعاءكم أو يسمعونكم تدعون فحذف ذلك لدلالة. ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه. وقرىء يُسمعونكم أي يُسمعونكم الجواب عن دعائكم، ومجيئُه مضارعاً مع إذ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها.

(٧٣) ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ على عبادتكم لها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ مَنْ أعرض عنها.

(٧٤) ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أضربوا عن أن يكون لهم سمعٌ أو يُتوقَّع منهم ضُرٌّ أو نفع، والتجأوا إلى التقليد.

(٧٥) ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾.

(٧٦) ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ فإن التقدم لا يدل على الصِّحة ولا ينقلب به الباطلُ حقاً.

(٧٧) ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ يريد أنهم أعداءٌ لعابديهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوِّه، أو إن المُغرِيَ بعبادتهم أعدى أعدائهم وهو الشيطان، لكنه صور الأمر في نفسه تعريضاً لهم فإنه أنفعُ في النصح من التصريح، وإشعاراً بأنها نصيحةٌ بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القَبول. وإفرادُ العدو لأنه في الأصل مصدر أو بمعنى النسَب ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أو متصل على أن الضمير لكل معبود عبدوه، وكان من آبائهم مَنْ عبدالله.

(٧٨) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لأنه يهدي كل مخلوق لِما خُلق[١] له من أمور المعاش والمَعاد كما قال ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[٢] هدايةً مدرَّجةً من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضارّ، مبدؤُها بالنسبة إلى الإنسان هدايةُ الجنين إلى امتصاص دم الطمْث من الرحِم، ومنتهاها الهدايَةُ إلى طريق الجنة والتنعمُ بلذائذها. والفاء للسببية إن جُعل الموصول مبتدأ، وللعطف إن جُعل صفةَ ربِّ العالمين فيكون اختلافُ النظم لتقدم الخلق واستمرارِ الهداية. وقوله:

---

(١) وصف الله تعالى بأنه خلقه مع أنه خالق للجميع من باب التصريح بالنعم الخاصة ولكون ذلك أدخل في اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى (س٦/٢٤٨).

(٢) الأعلى: «٣».

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾

(٧٩) ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ على الأول مبتدأ محذوفُ الخبر لدِلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده، وتكريرُ الموصول على الوجهين للدَّلالة على أن كل واحدة من الصِلات مستقلةٌ باقتضاء الحكم.

(٨٠) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ عطفٌ على يطعمني ويسقين لأنه من روادفهما من حيث إن الصحةَ والمرضَ في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب، وإنما لم ينسُب المرضَ إليه تعالى لأن المقصود تعديدُ النعم، ولا ينتقض بإسناد الإماتة إليه فإن الموت من حيث إنه لا يُحسَن به لا ضررَ فيه وإنما الضررُ في مقدماته وهي المرض، ثم إنه لأهل الكمال وصلةٌ إلى نيل المحابِّ التي تُستحقر دونها الحياةُ الدنيوية، وخلاصٌ من أنواع المِحَن والبليات، ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدُث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافُر، والصحةُ إنما تحصُل باستحفاظ اجتماعها والاعتدالِ المخصوص عليها قهراً وذلك بقدرة الله العزيز العليم.

(٨١) ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ في الآخرة.

(٨٢) ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصيَ ويكونوا على حذر، وطلباً لأن يغفر لهم ما يفرَط منهم واستغفاراً لما عسى يندُر منه من الصغائر، وحملُ الخطيئة على كلماته الثلاث: إني سقيم، بل فعله كبيرهم هذا، وقولِه هي أختي، ضعيفٌ لأنها معاريضُ وليست خطايا.

(٨٣) ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ كما في العلم والعمل أستعدُّ به لخلافة الحق ورياسة الخلق. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ووفقني للكمال في العمل لأنتظِمَ به في عِداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحَهم كبيرُ ذنب ولا صغيرُه.

(٨٤) ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ جاهاً وحسنَ صِيت في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين، ولذلك ما مِن أمة إلا وهم مُحبّون له مُثنون عليه. أو صادقاً من ذريتي يجدد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه وهو محمد ﷺ.

(٨٥) ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ في الآخرة وقد مر معنى الوراثة فيها.

(٨٦) ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ طريقَ الحق وإن كان هذا الدعاءُ بعد موته فلعله كان لظنه أنه كان يخفي الإيمانَ تقيةً من نمرود ولذلك وعده به، أو لأنه لم يُمنَع بعد من الاستغفار للكفار.

(٨٧) ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ بمعاتبتي على ما فرّطتُ، أو بنقص رتبتي عن رتبة بعض الورّاث، أو بتعذيبي لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلاً، أو بتعذيب والدي، أو ببعثه في عداد الضالين وهو من الخزي بمعنى الهوان، أو من الخزاية بمعنى الحياء ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير للعباد لأنهم معلومون أو للضالين.

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ
لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ
وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ
نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾

(٨٨) ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾.

(٨٩) ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ أي لا ينفعان أحداً إلا مخلصاً سليمَ القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائرِ آفاته، أو لا ينفعان إلا مالُ مَن هذا شأنُه وبنوه حيث أنفق ماله في سبيل البر، وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عباد الله مطيعين شفعاءَ له يوم القيامة. وقيل الاستثناء مما دل عليه المال والبنون أي لا ينفع غنًى إلاّ غناه. وقيل منقطِعٌ، والمعنى لكنْ سلامةُ من أتى الله بقلب سليم تنفعه.

(٩٠) ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ بحيث يرونها من الموقف فيتبجّحون بأنهم المحشورون إليها[١].

(٩١) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ﴾ فيرَونها مكشوفةً ويتحسرون على أنهم المَسوقون إليها، وفي اختلاف الفعلين ترجيحٌ لجانب الوعد.

(٩٢) ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾.

(٩٣) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أين آلهتُكم الذين تزعمُون أنهم شفعاؤكم ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم لأنهم وآلهتَهم يدخُلون النار كما قال.

(٩٤) ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ أي الآلهةُ وعبَدتُهم، والكَبْكبة تكريرُ الكبِّ لتكرير معناه كأن مَن ألقيَ في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها.

(٩٥) ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ﴾ متّبعوه من عُصاة الثقلين. أو شياطينُه ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ تأكيد للجنود إن جُعل مبتدأً خبرُه ما بعده أو للضمير وما عطف عليه وكذا الضميرُ المنفصل وما يعود إليه في قوله:

(٩٦) ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ﴾.

(٩٧) ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ على أن الله يُنطق الأصنام فتخاصم العَبَدةَ ويؤيده الخطاب في قوله:

(٩٨) ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي في استحقاق للعبادة، ويجوز أن تكون الضمائرُ للعبدة كما في قالوا والخطاب للمبالغة في التحسر والندامة، والمعنى أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة متحسرون عليها[٢].

---

(١) وصيغة الماضي فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه في سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره (س٦/ ٢٥١).

(٢) وصيغة المضارع في «نسوّيكم» لاستحضار الصورة الماضية (س٦/ ٢٥٢).

وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

(٩٩) ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

(١٠٠) ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء.

(١٠١) ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إِذِ الأَخِلاَّءُ يومئذ بعضُهم لبعض عدوٌّ إلاَّ المتقين، أو فما لنا من شافعين ولا صديق ممن نعُدّهم شفعاءَ وأصدقاءَ، أو وقعنا في مهلكة لا يخلّصُنا منها شافعٌ ولا صديق، وجمَع الشافعَ ووحّد الصديقَ لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، أو لأن الصديقَ الواحد يسعى أكثرَ مما يسعى الشفعاء، أو لإطلاق الصديق على الجمع كالعدوّ لأنه في الأصل مصدرٌ كالحنينِ والصهيل.

(١٠٢) ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ تَمنٍّ للرجعة أُقيم فيه (لو) مُقامَ ليت لتلاقيهما في معنى التقدير. أو شرطٌ حُذف جوابه. ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جوابُ التمني أو عطفٌ على كرةً، أي: لو أن لنا أن نكُرَّ فنكونَ من المؤمنين.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصة إبراهيم ﴿لَءَايَةً﴾ لحجةً وعِظةً لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر، فإنها جاءت على أنظَمِ ترتيب وأحسنِ تقرير، يتفطن المتأملُ فيها لغزارة علمه لِما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيهِ على دلائلها وحسنِ دعوته للقوم وحسنِ مخالفته معهم وكمالِ إشفاقه عليهم وتصوُّر الأمر في نفسه، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وإيقاظاً لهم ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أكثر قومه. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ به.

(١٠٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على تعجيل الانتقام ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحدٌ من ذريتهم.

(١٠٥) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ القومُ مؤنثة ولذلك تُصغر على قُوَيمة وقد مر الكلام في تكذيبهم المرسلين.

(١٠٦) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ لأنه كان منهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتترُكوا عبادةَ غيره.

(١٠٧) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيكم.

(١٠٨) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمُركم به من التوحيد والطاعة لله سبحانه.

(١٠٩) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أنا عليه من الدعاء والنُّصح ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١١٠) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرره للتأكيد والتنبيهِ على دِلالة كل واحد من أمانته وحَسْمِ طمعه على وجوب طاعته فيما يدعوهم إليه فكيف إذا اجتمعا، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفصٌ بفتح الياء في أجريَ في الكلمات الخمس.

۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ
تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾
فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

(١١١) ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ الأقلّون جاهاً ومالاً، جمعُ الأرذل على الصحة، وقرأ يعقوب وأتباعُك وهو جمع تابع كشاهد وأشهاد أو تَبَع كبطل وأبطال، وهذا من سخافة عقلهم وقصورِ رأيهم على الحُطام الدنيوية، حتى جعلوا اتّباع المُقِلّين فيها مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بما يدعوهم إليه ودليلاً على بطلانه، وأشاروا بذلك إلى أن اتباعَهم ليس عن نظر وبصيرة وإنما هو لتوقع مال ورفعة فلذلك:

(١١٢) ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أنهم عمِلوه إخلاصاً أو طمعاً في طُعمة وما عليَّ إلا اعتبارُ الظاهر.

(١١٣) ﴿ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾ ما حسابُهم على بواطنهم إلا على الله فإنه المطّلع عليها. ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ لعلمتم ذلك ولكنكم تجهلون فتقولون ما لا تعلمون.

(١١٤) ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جوابٌ لِما أوهم قولهم من استدعاء طردهم وتوقيفِ إيمانهم عليه حيث جعلوا اتباعَهم المانعَ عنه. وقوله:

(١١٥) ﴿ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ كالعلة له أي ما أنا إلا رجلٌ مبعوثٌ لإنذار المكلَّفين عن الكفر والمعاصي سواءٌ كانوا أعزّاءَ أو أذلاّءَ فكيف يليق بي في طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء، أو ما عليَّ إلا إنذارُكم إنذاراً بيناً بالبرهان الواضح فلا عليَّ أن أطرُدَهم لاسترضائكم.

(١١٦) ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عما تقول ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ من المشتومين أو المضروبين بالحجارة.

(١١٧) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾ إظهاراً لِما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيبُ الحق لا تخويفُهم له واستخفافُهم عليه.

(١١٨) ﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾ فاحكم بيني وبينهم من الفَتاحة ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مِن قَصْدهم أو شؤم عملهم.

(١١٩) ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ المملوء.

(١٢٠) ﴿ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ﴾ بعد إنجائه ﴿ ٱلۡبَاقِينَ﴾ من قومه.

(١٢١) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ شاعت وتواترت ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

(١٢٢) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ
مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا
تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

(١٢٣) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنّثه باعتبار القبيلة وهو في الأصل اسمُ أبيهم.

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(١٢٥) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

(١٢٦) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١٢٧) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تصديرُ القَصص بها دَلالةٌ على أن البِعثة مقصورةٌ على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرّب المدعُوَّ إلى ثوابه ويُبعده عن عقابه، وكان الأنبياءُ متفقين على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع، مُبرَّئين عن المطامع الدنيئة والأغراض الدنيوية.

(١٢٨) ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ بكل مكان مرتفع، ومنه ريعُ الأرض لارتفاعها ﴿ءَايَةً﴾ علَماً للمارة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ ببنائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها. أو بروجَ الحمام، أو بنياناً يجتمعون إليه للعبث بمن يمُر عليهم، أو قصوراً يفتخرون بها.

(١٢٩) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مآخذَ الماء وقيل قصوراً مشيدة وحصوناً ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ فتُحكِمون بنيانها.

(١٣٠) ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بسيف أو سوط ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصدِ تأديبٍ ونظر في العاقبة.

(١٣١) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفعُ لكم.

(١٣٢) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ كرره مرتباً على إمداد الله تعالى إياهم بما يعرِفونه من أنواع النعم تعليلاً وتنبيهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد، والوعيدِ على تركه بالانقطاع، ثم فصل بعضَ تلك النعم كما فصل بعض مساويهم المدلولِ عليها إجمالاً بالإنكار في ألا تتقون مبالغةً في الإيقاظ والحث على التقوى فقال:

(١٣٣) ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾.

(١٣٤) ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ ثم أوعدهم فقال:

(١٣٥) ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنه كما قدَر على الإنعام قدَر على الانتقام.

قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾
كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ
ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾

(١٣٦) ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ فإنا لا نرعوي عما نحن عليه، وتغييرُ شقّ النفي عما تقتضيه المقابلةُ للمبالغة في قلة اعتدادِهم بوعظه.

(١٣٧) ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ما هذا الذي جئتنا به إلا كذِبُ الأولين، أو ما خُلُقُنا هذا إلا خلقُهم نحيا ونموت مثلَهم ولا بعثَ ولا حساب، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة خُلُق الأولين بضمتين أي ما هذا الذي جئت به إلا عادةُ الأولين كانوا يُلفّقون مثله، أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خُلقُ الأولين وعادتُهم ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادةٌ قديمة لم تزل الناسُ عليها.

(١٣٨) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نحن عليه.

(١٣٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بسبب التكذيب بريح صَرْصَر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٤٠) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(١٤١) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(١٤٢) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(١٤٣) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

(١٤٤) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١٤٥) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١٤٦) ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ إنكار لأن يُترَكوا كذلك، أو تذكيرٌ للنعمة في تخلية الله إياهم وأسبابِ تنعُّمهم آمنين ثم فسره بقوله:

(١٤٧) ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

(١٤٨) ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ لطيفٌ لين لِلُطف الثمر، أو لأن النخلَ أنثى، وطلع أناث النخل ألطفُ وهو ما يطلُع منها كنصل السيف في جوفه شماريخُ القِنو، أو مُتدلٍّ منكسرٌ من كثرة الحمل، وإفرادُ النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرُها من الأشجار.

(١٤٩) ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ بطرين، أو حاذقين من الفَراهة وهي النشاط، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو فرِهين وهو أبلغُ من فارهين.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا
أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا
شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا
نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾

(١٥٠) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

(١٥١) ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ استُعير الطاعةُ التي هي انقيادُ الأمر لامتثال الأمر، أو نُسب حكمُ الآمر إلى أمره مجازاً.

(١٥٢) ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وصْف موضِّحُ لإسرافهم ولذلك عُطف ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ على يفسدون دِلالةً على خُلوص فسادهم.

(١٥٣) ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين سُحِروا كثيراً حتى غلب على عقلهم، أو من ذوي السَّحَر وهي الرئة أي من الأناسيّ، فيكونُ:

(١٥٤) ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ تأكيداً له ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دعواك.

(١٥٥) ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ ﴾ أي بعدما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوها ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ نصيب من الماء كالسِّقْي والقِيت للحظ من السَّقْي والقوت. وقرىء بالضم ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فاقتصروا على شِرْبكم ولا تزاحموها في شِرْبها.

(١٥٦) ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كضرب وعَقْر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ عِظَمُ اليوم لِعظم ما يحلّ فيه، وهو أبلغ من تعظيم العذاب.

(١٥٧) ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أسند العقرَ إلى كلهم لأن عاقرَها إنما عقَرها برضاهم ولذلك أُخذوا جميعاً ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب لا توبةً، أو عند معاينة العذاب ولذلك لم ينفعهم.

(١٥٨) ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي العذابُ الموعود ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرِض إيماءٌ بأنه لو آمن أكثرُهم أو شطرُهم لما أُخذوا بالعذاب، وأن قريشاً إنما عُصموا عن مثله ببركة مَن آمن منهم.

(١٥٩) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

(١٦٠) ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

(١٦١) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

(١٦٢) ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾.

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ
مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ
وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾

(١٦٣) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(١٦٤) ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

(١٦٥) ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أتأتون مِن بينِ مَن عَداكم من العالمين الذُّكران لا يشارككم فيه غيرُكم، أو أتأتون الذكران من أولاد آدمَ مع كثرتهم وغلبةِ الإناث فيهم كأنهن قد أعوزنكم، فالمرادُ بالعالمين على الأول كلُّ من يَنكِح وعلى الثاني الناسُ.

(١٦٦) ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ للبيان إن أريد به جنسُ الأناث، أو للتبعيض إن أريد به العضوُ المباحُ منهن فيكون تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون مثلَ ذلك بنسائهم أيضاً ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات، أو مُفْرِطون في المعاصي وهذا من جملة ذاك، أو أحقّاءُ بأن توصفوا بالعدوان لارتكابكم هذه الجريمةَ.

(١٦٧) ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عما تدّعيه أو عن نهْينا وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ من المنفيّين مِن بينِ أظهُرِنا، ولعلهم كانوا يُخرجون من أخرجوه على عُنفٍ وسوء حال.

(١٦٨) ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ من المبغضين غايةَ البغض لا أقِف عن الإنكار عليه بالإبعاد، وهو أبلغ من أن يقول إني لعملكم قالٍ، لدَلالته على أنه معدودٌ في زمرتهم مشهورٌ بأنه من جملتهم.

(١٦٩) ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ أي من شؤمه وعذابه.

(١٧٠) ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ أهلَ بيته والمتبعين له على دينه بإخراجهم من بينهم وقت حلول العذاب بهم.

(١٧١) ﴿إِلَّا عَجُوزٗا﴾ هي امرأة لوط ﴿فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ مقدّرةً في الباقين في العذاب إذ أصابها حجر في الطريق فأهلكها لأنها كانت مائلة إلى القوم راضيةً بفعلهم. وقيل كائنةً فيمن بقيَ في القرية فإنها لم تخرج مع لوط.

(١٧٢) ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ أهلكناهم.

(١٧٣) ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾ وقيل أمطر الله على شُذّاذ القوم حجارةً فأهلكهم ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ اللام فيه للجنس حتى يصِحَّ وقوعُ المضاف إليه فاعلَ ساء، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ وهو مطرُهم.

(١٧٤) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ
أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ
ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾

(١٧٥) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ .

(١٧٦) ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الأيكةُ غِيضةٌ تُنبت ناعمَ الشجر، يريد غِيضةً بقرب مدينَ تسكنُها طائفةٌ فبعث الله إليهم شعيباً كما بعثه إلى مدينَ وكان أجنبياً منهم فلذلك قال:

(١٧٧) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب. وقيل الأيكة شجرٌ ملتفٌ وكان شجرَهم الدومُ وهو المقلُ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر لَيْكةِ بحذف الهمزة وإبقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحةً على أنها لَيكةُ وهي اسم بلدتهم، وإنما كتبت ها هنا وفي ص بغير ألف اتباعاً للفظ.

(١٧٨) ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ .

(١٧٩) ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ .

(١٨٠) ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

(١٨١) ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أتموه. ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين حقوقَ الناس بالتطفيف.

(١٨٢) ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السوي، وهو إن كان عربياً فإن كان من القسط ففِعْلاسٌ بتكرير العين وإلا ففعلال. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف.

(١٨٣) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ ولا تنقُصوا شيئاً من حقوقهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل والغارة وقطعِ الطريق.

(١٨٤) ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وذوي الجِبلّة الأولين يعني مَنْ تقدمهم من الخلائق.

(١٨٥) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ .

(١٨٦) ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أتوا بالواو للدلالة على أنه جامعٌ بين وصفين متنافيين للرسالة مبالغةً في تكذيبه. ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعواك.

(١٨٧) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قطعةً منها، ولعله جوابٌ لِما أَشعر به الأمرُ بالتقوى من التهديد. وقرأ حفص بفتح السين ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك.

(١٨٨) ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وبعذابه منزّل عليكم ما أوجبه لكم عليه في وقته المقدر له لا محالة.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾

(١٨٩) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ على نحو ما اقترحوا بأن سلط الله عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى غلت أنهارُهم وأظلتهم سحابةٌ فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليها ناراً فاحترقوا ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

(١٩١) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ هذا آخِرُ القِصص السبعِ المذكورة على سبيل الاختصار تسليةً لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به، واطّرادُ نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به، واقتراحُهم له استهزاءً وعدمَ مبالاة به يَدفع أن يقال إنه كان بسبب اتصالات فلكية أو كان ابتلاءً لهم لا مؤاخذةً على تكذيبهم.

(١٩٢) ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

(١٩٣) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾.

(١٩٤) ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ تقريرٌ لحقّيه تلك القِصص وتنبيه على إعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ، فإن الإخبار عنها ممن لم يتعلمْها لا يكون إلا وحياً من الله عز وجل، والقلبُ إن أراد به الروحَ فذاك وإن أراد به العضوَ فتخصيصُه لأن المعانيَ الروحانية إنما تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق، ثم تتصعد منه إلى الدماغ فينتقش بها لوحُ المتخيِّلة، والروحُ الأمين جبريل عليه الصلاة والسلام فإنه أمينُ الله على وحيه. وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي بتشديد الزاي ونصْبِ الروح الأمين ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ عما يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك.

(١٩٥) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ واضحِ المعنى لئلا يقولوا ما نصنع بما لا نفهمه فهو متعلق بنزَل، ويجوز أن يتعلق بالمنذِرين أي لتكون ممن أنذَروا بلغة العرب وهم هود وصالح وإسمٰعيل وشعيبٌ ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

(١٩٦) ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ وإن ذِكرَه أو معناه لفي الكتب المتقدمة.

(١٩٧) ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً﴾ على صحة القرآن أو نبوة محمد ﷺ ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أن يعرِفوه بنعته المذكور في كتبهم وهو تقريرٌ لكونه دليلاً. وقرأ ابن عامر تكن بالتاء وآيةٌ بالرفع على أنها الاسم،

(١) ووصفه تعالى بربوبية العالمين للإيذان بأن تنزيله من أحكام تربيته تعالى ورأفته للكل، كقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (س٦/ ٢٦٣).

والخبرُ لهم، وأن يعلمه بدلٌ، أو الفاعلُ وأن يعلمه بدلٌ ولهم حال، أو أن الاسم ضميرُ القصة وآيةٌ خبرُ (أن يعلمه) والجملة خبرُ تكن.

وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ
نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

(١٩٨) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ كما هو زيادةً في إعجازه أو بلغة العجم.

(١٩٩) ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ لِفَرْط عِنادهم واستكبارهم، أو لعدم فهمهم واستنكافِهم من اتباع العجم، والأعجمين جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جُمع جَمع السلامة.

(٢٠٠) ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ أدخلناه ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والضمير للكفر المدلولِ عليه بقوله ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾[1] فتدل الآية على أنه بخلق الله، وقيل للقرآن أي أدخلناه فيها فعرَفوا معانيَه وإعجازَه ثم لم يؤمنوا به عناداً.

(٢٠١) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ المُلجِىءَ إلى الإيمان.

(٢٠٢) ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

(٢٠٣) ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ تحسراً وتأسفاً.

(٢٠٤) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فيقولون أمطِر علينا حجارةً من السماء، فائتِنا بما تعدِنا، وحالُهم عند نزول العذاب طلبُ النظِرة[2].

(٢٠٥) ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾.

(٢٠٦) ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

(٢٠٧) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ لم يغن عنهم تمتُّعهم المتطاولُ في دفع العذاب وتخفيفِه.

(٢٠٨) ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أنذروا أهلها إلزاماً للحجة.

(٢٠٩) ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تذكرةً ومحلُّها النصبُ على العلة أو المصدرِ لأنها في معنى الإنذار، أو الرفعُ على أنها صفةُ منذرون بإضمار ذووا، أو بجعلهم ذكرى لإمعانهم في التذكرة، أو خبرُ محذوفٍ والجملة اعتراضية ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنُهلِكَ غيرَ الظالمين، أو قبل الإنذار.

---

(١) الشعراء: «١٩٩».

(٢) قدم الجار والمجرور «أفبعذابنا» للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى، مع ما فيه من رعاية للفواصل (س٦/٢٦٦).

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ
ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ
تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾

(٢١٠) ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ كما زعم المشركون أنه من قَبيل ما يُلقي الشياطينُ على الكهنة.

(٢١١) ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ وما يصِح لهم أن يتنزلوا به ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وما يقدِرون.

(٢١٢) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ لأنه مشروطٌ بمشاركةٍ في صفاء الذات وقَبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية، ونفوسُهم خبيثةٌ ظُلمانية شِرّيرة بالذات لا تقبل ذلك، والقرآنُ مشتملٌ على حقائقَ ومغيَّبات لا يمكن تلقّيها إلا من الملائكة.

(٢١٣) ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ تهييج لازدياد الإخلاص ولطفٌ لسائر المكلفين.

(٢١٤) ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الأقربَ منهم فالأقربَ فإن الاهتمام بشأنهم أهمّ. روي أنه لما نزلت صعِد الصفا وناداهم فخِذاً فخذاً حتى اجتمعوا إليه فقال: لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقيَّ، قالوا نعم قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1].

(٢١٥) ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ليِّن جانبك لهم، مستعارٌ من خفْض الطائرِ جناحَه إذا أراد أن ينحط، ومِن للتبيين لأن من اتَّبعَ أعمُّ ممن اتَّبع لدين أو غيره، أو للتبعيض على أن المراد من المؤمنين المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان.

(٢١٦) ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ ولم يتبعوك ﴿ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بما تعملونه أو من أعمالكم.

(٢١٧) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي يقدِر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكْفِكَ شرَّ مَن يعصيك منهم ومِن غيرهم. وقرأ نافع وابن عامر فتوكل على الإبدال من جواب الشرط.

(٢١٨) ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد.

(٢١٩) ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ وتردّدك في تصفح أحوال المجتهدين كما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما نُسخ قيامُ فرض الليل طاف عليه الصلاة والسلام تلك الليلةَ ببيوت أصحابه لينظُر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لِما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن[2]. أو تصرّفَك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أَمَمتَهم، وإنما

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٥٥١ رقم ٣٥٢٥) و(٨/ ٥٠١ رقم ٤٧٧٠) و(٨/ ٥٣٩ رقم ٤٨٠١) و(٨/ ٧٣٧ رقم ٤٩٧١) و(٨/ ٧٣٧ رقم ٤٩٧٢).
ومسلم (١/ ١٩٣ رقم ٣٥٥/ ٢٠٨) من حديث ابن عباس.

(٢) لم أقف عليه؟

وصفه الله تعالى بعلمه بحاله التي بها يستأهل ولايتَه بعد وصفه بأن مِن شأنه قهرَ أعدائه ونصرَ أوليائه تحقيقاً للتوكل وتطميناً لقلبه عليه.

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾

(٢٢٠) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تنويه.

(٢٢١) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

(٢٢٢) ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ لمَا بيّن أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطينُ أكد ذلك بأنْ بين أن محمداً ﷺ لا يصح أن يتنزلوا عليه من وجهين: أحدهما أنه إنما يكون على شرّير كذاب كثيرِ الإثم، فإن اتصال الإنسان بالغائبات لِما بينهما من التناسُب والتوادّ، وحالُ محمد ﷺ على خلاف ذلك. وثانيهما قوله:

(٢٢٣) ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ أي الأفاكون يُلقون السمع إلى الشياطين فيتلقَّون منهم ظنوناً وأماراتٍ لنقصان علمهم، فيضُمّون إليها على حسب تخيلاتهم أشياءَ لا يطابِق أكثرُها كما جاء في الحديث[١] «الكلمةُ يخطَفها الجِني فيُقرّها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مِائة كِذْبة» ولا كذلك محمد ﷺ فإنه أخبر عَن مغيبات كثيرة لا تُحصىٰ وقد طابق كلُّها، وقد فُسّر الأكثر بالكل لقوله تعالى ﴿كل أفاك أثيم﴾[٢]. والأظهرُ أن الأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلَّ مَن يصدُق منهم فيما يحكي عن الجني. وقيل الضمائر للشياطين أي يلقون السمع إلى الملأ الأعلى قبل أن يُرجَموا فيختطِفون منهم بعضَ المغيبات ويوحون به إلى أوليائهم، أو يلقون مسموعَهم منهم إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم إذ يُسمعونهم لا على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم، أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم.

(٢٢٤) ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ وأتباعُ محمد ﷺ ليسوا كذلك، وهو استئناف أبطل كونَه عليه الصلاة والسلام شاعراً وقرره بقوله:

(٢٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ لأن أكثر مقدماتهم خيالاتٌ لا حقيقةَ لها، وأغلبُ كلماتهم في النسيب بالحُرَم والغزل والابتهار[٣] وتمزيقِ الأعراض والقدح في الأنساب والوعدِ الكاذب والافتخار الباطل ومدحِ مَن لا يستحقه والإطراءِ فيه، وإليه أشار بقوله:

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٢١٦ رقم ٥٧٦٢) و(١٠/ ٥٩٥ رقم ٦٢٣١) و(١٣/ ٥٣٥ رقم ٧٥٦١) ومسلم (٤/ ١٧٥٠ رقم ١٢٢، ١٢٣) من حديث عائشة في أطول من ذلك.

(٢) الشعراء: «٢٢٢».

(٣) الابتهار: ادّعاء فعل الفجور ولم يفعله. انظر «بهر» في القاموس.

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

(٢٢٦) ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وكأنه لَما كان إعجازُ القرآن من جهة اللفظ والمعنى، وقد قدحوا في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين، وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء تكلّم في القسمين وبيّن منافاةَ القرآن لهما ومضادةَ حال الرسول ﷺ لحال أربابهما. وقرأ نافع يتْبعهم على التخفيف، وقرىء بالتشديد وتسكين العين تشبيهاً لبعضه بعضاً.

(٢٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يُكثرون ذكر الله ويكون أكثرُ أشعارهم في التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته، ولو قالوا هجواً أرادوا به الانتصارَ ممن هجاهم ومكافحةَ هُجاةِ المسلمين كعبدالله بنِ رواحةَ[(١)] وحسانَ بنِ ثابت[(٢)] والكعبين[(٣)]، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لحسان: «قل وروح القدس معك»[(٤)]. وعن كعب بن مالك أنه عليه الصلاة والسلام قال له: «أُهجُهم فوالذي نفسي

---

(١) عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن ثعلبة، الأمير السعيد الشهيد أبو عمرو الأنصاري الخزرجي البدري النقيب الشاعر.
شهد بدراً والعقبة. يكنى أبا محمد، وأبا رواحة، وليس له عقب. وكان من كُتّاب الأنصار...
[الجرح والتعديل (٥/ ٥٠) وشذرات الذهب (١/ ١٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦٥)].

(٢) هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد: الصحابي، شاعر النبي ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام، وكان من سكان المدينة.
واشتهرت مدائحُه في الغسانيين، وملوك الحيرة، قبل الإسلام، وعمي قبيل وفاته لم يشهد مع النبي ﷺ مشهداً، لعلة أصابته.
قال أبو عبيدة: فضَلَ حسانُ الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي ﷺ في الإسلام. وشاعر اليمانيين في الإسلام. وكان شديد الهجاء، فحل الشعر. توفي سنة (٥٤هـ).
[الأعلام للزركلي (٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦)].

(٣) المقصود بهما كعب بن مالك بن أبي كعب عمرو بن العَين الخزرجي السلمي عقبى، فاتته بدر، توفي في دمشق.
[انظر تجريد أسماء الصحابة ج٢ ص٢٣].
وكعب بن زهير بن أبي سلمى: صحابي وشاعر مُجَوِّد كثير الشعر.
[انظر «خزانة الأدب» (٩/ ١٥٣ ـ ١٥٥)].

(٤) أخرج البخاري (٦/ ٣٠٤ رقم ٣٢١٣) و(٧/ ٤١٦ رقم ٤١٢٣ و٤١٢٤) و(١٠/ ٥٤٦ رقم ٦١٥٣). ومسلم (٤/ ١٩٣٣ رقم ١٥٣/ ٢٤٨٦).
عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت «اهجُهُمْ أو هاجِهِمْ وجبريل معك».
● وأخرج البخاري (١/ ٥٤٨ رقم ٤٥٣) و(٦/ ٣٠٤ رقم ٣٢١٢) و(١٠/ ٥٤٦ رقم ٦١٥٢) ومسلم (٤/ ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ رقم ١٥١/ ٢٤٨٥).
عن أبي هريرة أنَّ عمر مرَّ بحسانٍ وهو يُنشِدُ الشعر في المسجد. فَلَحَظَ إليه.
فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة. فقال: أَنْشُدُكَ اللهَ! أسمعتَ

بيده لهو أشدُّ عليهم من النبل»[١] ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد لِما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم، وفي أيَّ منقلب ينقلبون أي بعد الموت من الإيهام والتهويل، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما حين عهِد إليه، وقرىء أي مُنفَلَت ينفلتون من الانفلات وهو النجاة والمعنى: أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا عن عذاب الله وسيعلمون أنْ ليس لهم وجهٌ من وجوه الانفلات. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشرُ حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وإبراهيمَ وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام»[٢].



= رسول الله ﷺ يقول «أجِبْ عني اللهم أيده بروح القدس» قال: اللهم نعم.

(١) أخرج مسلم (٤/ ١٩٣٥ رقم ١٥٧/ ٢٤٩٠).
عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اهجُوا قريشاً. فإنه أشدُّ عليها من رَشْقٍ بالنبل» وفي آخره قصة.
● وأخرج الترمذي (٥/ ١٣٩ رقم ٢٨٤٧) والنسائي (٥/ ٢٠٢ رقم ٢٨٧٣) و(٥/ ٢١١ ـ ٢١٢ رقم ٢٨٩٣)، عن أنس ـ في أثناء حديث ـ فقال النبي ﷺ: «خَلِّ عنه يا عُمَرُ، فلهي أسرع من نضحِ النبل».
وهو حديث صحيح. وانظر ما قاله المحدث الألباني في «مختصر الشمائل» (رقم ٢١٠).

(٢) وهو حديث موضوع.
رواه الثعلبي وابن مردويه عن حديث أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٢ رقم ١٠٥) وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّمْلِ

ترتيبها ٢٧ — آياتها ٩٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾

سورةُ النمل، مكيةٌ وهي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طسٓۚ﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارةُ إلى آي السورة[١]، والكتابُ المبين إما اللوحُ المحفوظُ ـ وإبانتُه أنه خُط فيه ما هو كائنٌ فهو يبينه للناظرين فيه، وتأخيرُه باعتبار تعلّقِ علمنا به وتقديمُه في (الحِجْر) باعتبار الوجود ـ أو القرآن، وإبانتُه لِما أودع فيه من الحِكَم والأحكام، أو لصحته بإعجازه. وعطفُه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، وتنكيرُه للتعظيم. وقرىء وكتابٌ بالرفع على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامه.

(٢) ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حالان من الآيات والعاملُ فيهما معنى الإشارة، أو بدلان منها أو خبران آخَران أو خبران لمحذوف.

---

(١) وما في اسم الإشارة من معنى البعد ـ مع قرب العهد بالمشار إليه ـ للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف (س٦/ ٢٧١).

(٣) ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ الذين يعملون الصالحاتِ من الصلاة والزكاة ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ من تتمة الصلة والواو للحال أو للعطف، وتغييرُ النظم للدِلالة على قوة يقينهم وثباتِه وأنهم الأوحدون فيه، أو جملةٌ اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، فإن تحمّلَ المشاقّ إنما يكون لخوف العاقبة والوثوقِ على المحاسبة، وتكريرُ الضمير للاختصاص[(١)].

(٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ زين لهم أعمالَهم القبيحةَ بأن جعلها مشتهاةً للطبع محبوبةً للنفس، أو الأعمالَ الحسنة التي وجب عليهم أن يعملوها بترتيب المَثُوبات عليها ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ عنها لا يُدركون ما يتبعها من ضر أو نفع.

(٥) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ كالقتل والأسر يوم بدر ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ أشدُّ الناس خسراناً لفوات المَثوبة واستحقاقِ العقوبة.

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾

(٦) ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [(٢)]. ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أيِّ حكيم وأيِّ عليم، والجمعُ بينهما مع أن العلم داخلٌ في الحكمة لعموم العلم ودَلالةِ الحكمة على إتقان الفعل والإشعار بأن علومَ القرآن منها ما هو حكمةٌ كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار عن المغيبات، ثم شرع في بيان بعض تلك العلوم بقوله:

(٧) ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ أي اذكر قصتَه إذ قال ويجوز أن يتعلق بعليم ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي عن حال الطريق لأنه قد ضله، وجمعُ الضمير ـ إن صح أنه لم يكن معه غيرُ امرأته ـ لِما كُنِّيَ عنها بالأهل، والسينُ للدلالة على بعد المسافة والوعدِ بالإتيان وإن أبطأ ﴿ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ شُعلةِ نارٍ مقبوسة، وإضافةُ الشهاب إليه لأنه قد يكون قبَساً وغيرَ قبس، ونوّنه الكوفيون ويعقوبُ على أن القبس بدلٌ منه أو وصفٌ له لأنه بمعنى المقبوس، والعِدَتانِ على سبيل الظن ولذلك عبر عنهما بصيغة الترجي في طه، والترديدُ للدلالة على أنه إن لم يظفَر بهما لم يعدَمْ أحدَهما بناءً على ظاهر الأمر، أو ثقةً بعبادة الله تعالى أنه لا يكاد يجمع حِرمانين على عبده ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ رجاءَ أن تستدفئوا بها والصِّلاءُ النارُ العظيمة.

(٨) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ ﴾ أي بورك فإن النداءَ فيه معنى القول، أو بأن بورك على أنها مصدريةٌ أو مخففةٌ من الثقيلة، والتخفيفُ وإن اقتضى التعويضَ بلا أو قد أو السين أو سوف لكنه دعاءٌ وهو يخالف غيرَه في أحكام كثيرة. ﴿ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ مَن في مكان النار وهو البقعةُ المباركةُ المذكورة

---

(١) وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لأنهما قرينتا الإيمان (س٦/ ٢٧٢).
(٢) تصديره بحرفي التوكيد «إنّ واللام» لإبراز كمال العناية بمضمونه (س٦/ ٢٧٣).

في قوله تعالى ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾[١] ومَن حول مكانها، والظاهرُ أنه عامّ في كل من في تلك الأرض، وفي ذلك الوادِ وحواليها من أرض الشام الموسومةِ بالبركات لكونها مبعثَ الأنبياء وكِفاتَهم أحياءً وأمواتاً وخصوصاً تلك البقعةَ التي كلم الله فيها موسى. وقيل المراد موسى والملائكةُ الحاضرون، وتصديرُ الخطاب بذلك بشارةٌ بأنه قد قُضيَ له أمرٌ عظيم تنتشر بركتُه في أقطار الشام ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ من تمام ما نوديَ به لئلا يَتوهّم من سماع كلامه تشبيهاً وللتعجيب من عظمة ذلك الأمرِ. أو تعجبٌ من موسى لما دهاه من عظمته.

يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ ﴾ الهاء للشأن وأنا الله جملةٌ مفسرة له، أو للمتكلم وأنا خبرُه واللهُ بيانٌ له. ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ صفتان لله ممهدتان لما أراد أن يظهره، يريد أنا القويُّ القادر على ما يُبعد من الأوهام كقلب العصا حيةً، الفاعلُ كلَّ ما أفعله بحكمة وتدبير.

(١٠) ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على بورك أي نودي أن بورك مَن في النار وأن ألق عصاك، ويدل عليه قولُه وأن ألق عصاك بعد قوله أن يا موسى إني أنا الله بتكرير أن ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرك باضطراب[٢] ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ حيةٌ خفيفةٌ سريعة، وقرىء جأْنٌ على لغة من جدّ في الهرب من التقاء الساكنين ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجعْ، مِن عقّب المقاتلُ إذا كرّ بعد الفرار، وإنما رُعب لظنه أن ذلك الأمرَ أريد به ويدل عليه قوله ﴿ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ أي من غيري ثقةً بي أو مطلقاً لقوله ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي حين يوحىٰ إليهم من فَرْط الاستغراقِ فإنهم أخوفُ الناس أي من الله تعالى، أو لا يكون لهم عندي سوءُ عاقبةٍ فيخافون منه.

(١١) ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استثناءٌ منقطعٌ استدرك به ما يختلج في الصدر من نفي الخوف عن كلهم، وفيهم من فرَطتْ منه صغيرةٌ فإنهم وإن فعلوها أتبعوا فِعلَها ما يُبطلها ويستحقون به من الله مغفرةً ورحمة فإنه لا يخاف أيضاً، وقصد تعريضَ موسى بوكزه القِبطيَّ. وقيل متصلٌ وثم بدلٌ مستأنفٌ معطوف على محذوف أي من ظلم ثم بدل ذنبه بالتوبة.

(١٢) ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ لأنه كان بُمدرّعة صوف لا كُمَّ لها. وقيل الجيبُ القميصُ لأنه يُجاب[٣] أي يقطع ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ آفةٍ كبرص ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ في جملتها أو معها على أن التسعَ هي الفلقُ، والطوفانُ، والجراد، والقمّل، والضفادعُ، والدم، والطمْسةُ، والجدبُ في بواديهم،

---

(١) القصص: «٣٠».

(٢) والفاء للدلالة على سرعة وقوع مضمونها (س٦/ ٢٧٤).

(٣) تقول: جبت القميص أجيبه وأجوبه.

والنقصانُ في مزارعهم، ولمن عدّ العصا واليدَ من التسع أن يعُدّ الأخيرين واحداً ولا يعُد الفلقَ لأنه لم يُبعث به إلى فرعون. أو اذهب في تسع آيات على أنه استئنافٌ بالإرسال فيتعلق به ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ وعلى الأولَين يتعلق بنحو مبعوثاً أو مرسلاً ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال.

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ بأن جاءهم موسى بها ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينةً، اسمُ فاعل أُطلق للمفعول، وإشعاراً بأنها لِفَرْط اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تُبصر نفسَها لو كانت مما يبصِر، أو ذاتَ تبصّر من حيث إنها تهدي، والعُميُ لا تهتدي فضلاً عن أن تهديَ، أو مبصرة كلَّ من نظر إليها وتأمل فيها. وقرىء مَبصَرة أي مكاناً يكثُر فيه التبصرُ ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضحٌ سِحريتُه.

(١٤) ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ وكذبوا بها ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ وقد استيقنتها لأن الواو للحال ﴿ظُلْمًا﴾ لأنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ ترفعاً عن الإيمان. وانتصابُهما على العلة من جحدوا ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراقُ في الدنيا والإحراقُ في الآخرة.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا﴾ طائفةً من العلم وهو علمُ الحُكْم والشرائع، أو علماً أيَّ علم[1]. ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالاه بعضُ ما أتيا به في مقابلة هذه النعمةِ كأنه قال: ففعلا شكراً له ما فعلا وقالا الحمد لله ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني من لم يُؤت علماً أو مثلَ علمهما، وفيه دليلٌ على فضل العلم وشرفِ أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساسَ الفضل ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من المُلك الذي لم يؤتَ غيرُهما، وتحريضٌ للعالم على أن يحمَد الله تعالى على ما آتاه من فضله وأن يتواضعَ ويعتقد أنه وإن فُضّل على كثير فقد فُضّل عليه كثير.

(١٦) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ النبوةَ أو العلمَ أو الملكَ بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعةَ عشرَ ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ تشهيراً لنعمة الله وتنويهاً بها. ودعاءُ الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علمُ منطِق الطير وغيرُ ذلك من عظائمِ ما أوتيه، والنطقُ والمنطقُ في المتعارَف كلُّ لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً وقد يطلق لكل ما يصوِّت به على التشبيه، أو التبعُ كقولهم نطقت الحمامةُ ومنه الناطقُ والصامت للحيوان والجماد، فإن الأصواتَ الحيوانيةَ من حيث إنها تابعةٌ للتخيلات مُنَزَّلةٌ منزِلةَ العبارات سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض بحيث يفهمها ما من جنسه، ولعل سليمان عليه الصلاة والسلام مهما سمع صوتَ حيوان علِم بقوته القُدسية التخيلَ الذي صوّته والغرضَ الذي توخاه به. ومن ذلك ما

(١) تصديره بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه (س٦/ ٢٧٦).

حُكي[١] أنه مر ببلبل يصوت ويترقص فقال: يقول إذا أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العفاءُ، وصاحت فاخِتةٌ فقال: إنها تقول ليت الخلقَ لم يُخلقوا، فلعله كان صوتُ البلبل عن شِبعٍ وفراغِ بال، وصياحُ الفاختة عن مقاساة شدةٍ وتألم قلبٍ، والضمير في عُلّمنا وأوتينا له ولأبيه عليهما الصلاة والسلام، أوله وحده على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة، والمراد من كل شيء كثرةُ ما أوتي كقولك: فلانٌ يقصِده كلُّ أحد ويعلم كلَّ شيء ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي لا يخفى على أحد.

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن
قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ
وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

(١٧) ﴿ وَحُشِرَ﴾ وجُمع ﴿ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحبَسون بحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا[٢].

(١٨) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ وادٍ بالشام كثيرُ النمل، وتعديةُ الفعل إليه بعلى إما لأن إتيانَهم كان من عال أو لأن المرادَ قطعُه، من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا أُخرَياتِ الوادي ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت عنهم مخافة حَطْمهم فتبعها غيرُها فصاحت صيحة نبهت بها ما بحضرتها من النمال فتبعتْها، فشُبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتِهم ولذلك أُجروا مُجراهم مع أنه لا يمتنع أن خلق الله سبحانه وتعالى فيها العقلَ والنطق ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ نهيٌ لهم عن الحطْم، والمرادُ نهيُها عن التوقف بحيث يحطِمونها كقولهم: لا أُرينّك ها هنا، فهو استئنافٌ أو بدل من الأمر لا جوابٌ له فإن النون لا تدخله في السعة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنهم يحطِمونكم إذ لو شعَروا لم يفعلوا كأنها شعرت عصمةَ الأنبياء من الظلم والإيذاء. وقيل استئناف أي فهمْ (سليمانُ والقوم) لا يشعرون.

(١٩) ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ تعجباً من حذرها وتحذيرِها واهتدائها إلى مصالحها، وسروراً بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم غرضِها ولذلك سأل توفيق شكره ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أي اجعلني أزَعُ شكر نعمتك عندي، أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني بحيث لا أنفك عنه، وقرأ البزي وورش بفتح ياء أوزعني ﴿ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أدرج فيه ذكرَ والديه تكثيراً للنعمة أو تعميماً لها، فإن النعمةَ عليهما نعمة عليه والنعمةُ عليه يرجع نفعُها إليهما سيما الدينيةُ ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ إتماماً للشكر واستدامةً للنعمة ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في عدادهم الجنةَ.

---

(١) هذه الحكاية عن كلام الطيور متلقاة من أهل الكتاب، وليس فيها نص صحيح مرفوع إلى النبي ﷺ والبحث في هذا مما لا طائل تحته. والله أعلم.

(٢) وتقديم الجن على الإنس في البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الأمر، لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير (س٦/ ٢٧٧).

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ وتعرّف الطير فلم يجد فيها الهدهد ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أم منقطعةٌ كأنه لما لم يرَه ظن أنه حاضرٌ ولا يراه لساتر أو غيره فقال: مالي لا أراه، ثم احتاط فلاح له أنه غائبٌ فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائبٌ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له.

(٢١) ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كنتف ريشه وإلقائِه في الشمس، أو حيث النملُ يأكله، أو جعلِه مع ضده في قفص. ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ لِيعتبرَ به أبناءُ جنسه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة تبيّن عذرَه، والحلِف في الحقيقة على أحد الأولَين بتقدير عدم الثالث، لكن لما اقتضى ذلك وقوعَ أحد الأمور الثلاثةِ ثلّث المحلوفَ عليه بعطفه عليهما، وقرأ ابن كثير أو ليأتينني بنونين الأولى مفتوحةٌ مشددة.

(٢٢) ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ زماناً غيرَ مديد يريد به الدِلالةَ على سرعة رجوعه خوفاً منه، وقرأ عاصم بفتح الكاف. ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يعني حال سبأ، وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيهٌ له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به لتتحاقرَ إليه نفسه ويتصاغرَ لديه علمُه، وقرىء بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق. ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ وقرأ ابن كثير برواية البزي وأبو عمرو غيرَ مصروف على تـأويل لقبيلة والبلدة، والقواس بهمزة ساكنة. ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ بخبر متحقّق. روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام بها ما شاء، ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكةَ صباحاً فوافى صنعاء ظَهيرةً فأعجبته نزاهةُ أرضها فنزل بها ثم لم يجد الماء ـ وكان الهدهدُ رائدَه لأنه يُحسن طلب الماء ـ فتفقده لذلك فلم يجده إذ حلق حين نزل سليمان فرأى هدهداً واقعاً فانحط إليه فتواصفا وطار معه لينظر ما وصف له، ثم رجع بعد العصر وحكَى ما حكى، ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياءَ أعظمَ من ذلك يستكبرها من يعرِفها ويستنكرها من ينكرها.

(٢٣) ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني بِلْقيسَ بنتَ شَراحيلَ بنِ مالك بن الريان، والضميرُ لسبأ أو لأهلها. ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ عِظَمُه بالنسبة إليها أو إلى عروش أمثالها. وقيل كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين عَرضاً وسَمْكاً، أو ثمانين من ذهب وفضة مكللاً بالجواهر.

(٢٤) ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كأنهم كانوا يعبدونها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عبادةَ الشمس وغيرَها من مقابح أعمالهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن سبيل الحق والصواب ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا
فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن
سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾

(٢٥) ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ فصدهم لئلا يسجدوا أو زين لهم أن لا يسجدوا على أنه بدل من أعمالَهم، أو لا يهتدون إلى أن يسجدوا بزيادة لا. وقرأ الكسائي ويعقوبُ ألا بالتخفيف على أنها للتنبيه ويا للنداء، ومناداه محذوف أي: ألا يا قومُ اسجُدوا كقوله:

وقَـالَـتْ أَلاَ يَـا اسْمَـعْ أَعِظْـكَ بِخُطَّـةٍ   فقُلْـتُ سَمِيعـاً فَـانْطِقِـي وَأَصِيبِـي

وعلى هذا صح أن يكون استئنافاً من الله أو من سليمانَ والوقفُ على لا يهتدون، فيكون أمراً بالسجود وعلى الأول ذماً على تركه وعلى الوجهين يقتضي وجوبَ السجود في الجملة لا عند قراءتها، وقرىء هَلاّ وهَلاَ بقلب الهمزة هاءً وألا تسجُدون وهلا تسجُدون على الخطاب ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وصفٌ له تعالى بما يوجب اختصاصَه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القدرة والعلمِ حثاً على سجوده ورداً على من يسجُد لغيره، والخَبءُ ما خفِيَ في غيره، وإخراجُه إظهارُه، وهو يعُم إشراقَ الكواكب وإنزالَ الأمطار وإنباتَ النبات بل الإنشاءَ فإنه إخراجُ ما في الشيء بالقوة إلى الفعل، والإبداعَ، فإنه إخراجُ ما في الإمكان والعدمِ إلى الوجوب والوجود، ومعلوم أنه يختص بالواجب لذاته. وقرأ حفصٌ والكسائي ما تخفون وما تعلنون بالتاء.

(٢٦) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ الذي هو أولُ الأجرام وأعظمُها والمحيطُ بجملتها، فبين العظيمين بونٌ.

(٢٧) ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ﴾ سنعرِف، من النظر بمعنى التأمل ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي أم كذبت، والتغيير للمبالغة ومحافظة الفواصل.

(٢٨) ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ثم تنحّ عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ما يرجع بعضُهم إلى بعض من القول.

(٢٩) ﴿قَالَتْ﴾ أي بعد ما أُلقيَ إليها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ لكرم مضمونه أو مُرسِله، أو لأنه كان مختوماً أو لغرابة شأنه إذ كانت مستلقية في بيت مغلقةَ الأبوابَ فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به[1].

(٣٠) ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ استئنافٌ كأنه قيل لها ممن هو وما هو؟ فقالت إنه، أي إن الكتابَ أو العنوان من سليمان ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي وإن المكتوبَ أو المضمون وقرىء بالفتح على الإبدال من كتابٌ أو التعليلِ لكرمه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

---

(١) لم يذكر فعلُ الهدهد وما أُمر به إيذاناً بكمال مسارعته إلى إقامة ما أمر به من الخدمة، وإشعاراً باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره (س٦/ ٢٨٣).

أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ
نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

(٣١) ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ﴾ أنْ مفسرةٌ أو مصدريةٌ فتكون بصلتها خبرَ محذوفٍ أي هو، أو المقصودُ أن لا تعلوا، أو بدلٌ من كتابٌ ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين أو منقادين، وهذا كلامٌ في غاية الوجازة مع كمال الدِلالة على المقصود، لاشتماله على البسملة الدالةِ على ذات الصانع تعالى وصفاتِه صريحاً أو التزاماً، والنهْيِ عن الترفع الذي هو أمُّ الرذائل، والأمرُ بالإسلام الجامعِ لأمهات الفضائل، وليس الأمرُ فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاءً للتقليد فإن إلقاءَ الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلالة.

(٣٢) ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي﴾ أجيبوني في أمري الفتي واذكُروا ما تستصوبون فيه[1] ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ ما أبتّ أمراً ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ إلا بمَحضَركم. استعطفتْهم بذلك ليُمالئوها على الإجابة.

(٣٣) ﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ﴾ بالأجساد والعَدد ﴿وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ نجدةٍ وشجاعة ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ موكولٌ ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ من المقاتلة أو الصلح نُطِعْك ونتبَع رأيك.

(٣٤) ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً﴾ عُنوةً وغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ تزييفٌ لِما أحست منهم من الميل إلى المقاتلة بادعائهم القُوى الذاتيةَ والعرضيةَ، وإشعارٌ بأنها ترى الصلحَ مخافةَ أن يتخطى سليمانُ خططَهم فيُسرعَ إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعِماراتهم، ثم إن الحربَ سِجالٌ لا تدري عاقبتها ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم إلى غير ذلك من الإهانة والأسر ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيدٌ لِما وَصفت من حالهم وتقريرٌ بأن ذلك من عاداتهم الثابتةِ المستمرة، أو تصديقٌ لها من الله عز وجل.

(٣٥) ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ بيانٌ لما ترى تقديمَه في المصالحة، والمعنى إني مرسلةٌ رسلاً بهدية أدفعه بها عن ملكي ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من حاله حتى أعمل بحسب ذلك. روي[2] أنها بعثت منذرَ بنَ عمرٍو في وفد وأرسلت معهم غلماناً على زِي الجواري وجواريَ على زي الغلمان، وحُقا فيه دُرةٌ عذراءُ وجزعة مُعْوجةَ الثُقب وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري وثقب الدرةَ ثقباً مستوياً وسلك في الخَرْزة خيطاً، فلما وصلوا إلى معسكره ورأوا عظمةَ شأنه تقاصرت إليهم نفوسُهم، فلما وقفوا بين يديه وقد سبقهم جبريلُ بالحال فطلب الحق وأخبر عما فيه، فأمر الأَرَضَةَ فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأمر دودةً بيضاءَ فأخذت الخيط ونفذت في الجزعة، ودعا بالماء فكانت الجاريةُ تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها، والغلامُ كما يأخذه يضرِب به وجهه ثم رد الهدية.

---

(١) وكررت حكاية قولها (قالت) للإيذان بغاية اعتنائها بما في حيزه من قولها (س٦/ ٢٨٤).
(٢) هذه الرواية من الإسرائيليات. انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٥).

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي الرسولُ أو ما أهدت إليه وقرىء فلما جاؤوا ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ خطابٌ للرسول ومن معه، أو للرسول والمرسِلِ على تغليب المخاطب. وقرأ حمزةُ ويعقوبُ بالإدغام، وقرىء بنون واحدة وبنونين وحذفِ الياء. ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوة والمُلك الذي لا مزيدَ عليه، وقرأ نافعٌ وأبو عمْرٍو وحفصٌ بفتح الياء والباقون بإسكانها، وبإمالتها الكسائيُّ وحده ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ فلا حاجةَ لي إلى هديتكم ولا وقعَ لها عندي ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فتفرحون بما يُهدى إليكم حباً لزيادة أموالكم، أو بما تهدونه افتخاراً على أمثالكم، والإضرابُ عن إنكار الإمدادِ بالمال عليه وتقليلِه إلى بيان السبب الذي حملهم عليه، وهو قياسُ حاله على حالهم في قصور الهِمة بالدنيا والزيادة فيها.

(٣٧) ﴿ٱرْجِعْ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بِلْقيسَ وقومها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقةَ لهم بمقاومتها ولا قدرةَ لهم على مقابلتها وقرىء بهم. ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ من سبأ ﴿أَذِلَّةً﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أُسَراءُ مهانون.

(٣٨) ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ أراد بذلك أن يُريَها بعضَ ما خصه الله تعالى به من العجائب الدالةِ على عِظَم القدرة وصدقِه في دعوى النبوة، ويختبرَ عقلَها بأن ينكّر عرشَها فينظُرَ أتعرِفه أم تُنكره. ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فإنها إذا أتت مسلمةً لم يحِل أخذُه إلا برضاها.

(٣٩) ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ خبيثٌ مارد ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ بيانٌ له لأنه يقال للرجل الخبيثِ المنكَرِ المعفِّرِ أقرانَه، وكان اسمُه ذكوانَ أو صخراً ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ من مجلسك للحكومة وكان يجلس إلى نصف النهار، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ على حمله ﴿لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ لا أختزل منه شيئاً ولا أبدله.

(٤٠) ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ آصفُ بنُ برخيا وزيرُه، أو الخِضْرُ أو جبريلُ عليهما السلام أو ملَكٌ أيده الله به[1]، أو سليمانُ عليه السلام نفسُه فيكون التعبيرُ عنه بذلك للدِلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامةَ كانت بسببه، والخطاب في: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ للعِفريت كأنه استبطأه فقال له ذلك، أو أراد إظهارَ معجزة في نقله فتحداهم أولاً ثم أراهم أنه يتأتى له مالا يتأتى لعفاريت الجن فضلاً عن غيرهم، والمرادُ بالكتاب جنسُ الكتب المنزلةِ أو اللوحُ، وآتيك في الموضعين صالحٌ

(١) انظر هذه الأقوال في «جامع البيان» (١١/ج١٩/ ١٦٢ ـ ١٦٣) و«زاد المسير» (٦/ ١٧٥) و«الدر المنثور» (٦/ ٣٦٠ ـ ٣٦١).

للفعلية والاسمية، والطرفُ تحريكُ الأجفان للنظر فوُضع موضِعَه، ولما كان الناظرُ يوسف بإرسال الطرف كما في قوله:

وكُنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً   لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ

وُصف برد الطرف والطرفُ بالارتداد، والمعنى أنك تُرسل طرْفَك نحو شيء فقبل أن ترُدّه أُحضِر عرشَها بين يديك، وهذا غايةٌ في الإسراع ومثلٌ فيه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي العرشَ ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ حاصلاً بين يديه ﴿قَالَ﴾ تلقياً للنعمة بالشكر على شاكلة المخلِصين من عباد الله تعالى ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ تفضل به عليَّ من غير استحقاق، والإشارةُ إلى التمكن من إحضار العرش في مدة ارتداد الطرفِ من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره، والكلامُ في إمكان مِثْله قد مر في آية الإسراء ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾ بأن أراه فضلاً من الله تعالى بلا حولٍ مني ولا قوة وأقوم بحقه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجدَ نفسي في البين، أو أقصرَ في أداء مواجبه ومحلُّها النصبُ على البدل من الياء ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنه به يَستجلِب لها دوامَ النعمة ومزيدَها ويحط عنها عِبءَ الواجب ويحفظها عن وصمة الكفران ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بالأنعام عليه ثانياً.

قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾

(٤١) ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ بتغيير هيئته وشكلِه ﴿نَنظُرْ﴾ جوابُ الأمر، وقرىء بالرفع على الاستئناف ﴿أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى معرفته أو الجوابِ الصوابِ، وقيل إلى الإيمان بالله ورسولِه إذا رأت تقدُّم عرشِها وقد خلّفتْه مغلِقةً عليه الأبوابَ موكَّلةً عليها الحراسَ.

(٤٢) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ تشبيهاً عليها زيادةً في امتحان عقلها إذْ ذُكرت عنده بسخافة العقل ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ ولم تقل هو هو لاحتمال أن يكون مثلَه وذلك من كمال عقلها ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من تتمة كلامها كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبارَ عقلها وإظهارَ معجزة لها فقالت: وأوتينا العلمَ بكمال قدرة الله وصِحةِ نبوتك قبل هذه الحالة، أو المعجزة مما تقدم من الآيات. وقيل إنه من كلام سليمانَ عليه السلام وقومه، وعطفوه على جوابها لِما فيه من الدِلالة على إيمانها بالله ورسولِه حيث جوّزت أن يكون ذلك عرشَها تجويزاً غالباً، وإحضارُه ثَمةَ من المعجزات التي لا يقدِر عليها غيرُ الله تعالى ولا تظهر إلا على يد الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، أي وأوتينا العلمَ بالله وقدرتِه وصحةِ ما جاء به عنده قبلَها وكنا منقادين لحكمه ولم نَزَل على دينه، ويكون غرضُهم فيه التحدثَ بما أنعم الله عليهم من التقدم في ذلك شكراً لله تعالى.

(٤٣) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وصدها عبادتُها الشمسَ عن التقدم إلى الإسلام، أو وصدّها الله عن عبادتها بالتوفيق للإيمان. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ وقرىء بالفتح على الإبدال من فاعل صدها على الأول، أي صدها نُشوُّها بين أظهُر الكفار، أو التعليلِ له.

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ
صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ
لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ
بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٤) ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ القصرَ وقيل عَرصةُ الدار ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ روي أنه أَمر قبل قدومها ببناء قصر صحنُه من زجاج أبيضَ وأجرىٰ من تحته الماءَ وألقى فيه حيواناتِ البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماء راكداً فكشفت عن ساقيها. وقرأ ابنُ كثير برواية قنبلَ سأْقيها بالهمز حملاً على جمعه سُؤوق وأَسْؤُق. ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ إن ما تظنينه ماءً ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملّس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من الزجاج.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادتي الشمسَ، وقيل بظني بسليمانَ فإنها حسِبت أنه يُغرقها في اللُّجّة. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيما أمر به عبادَه، وقد اختُلف في أنه تزوجها أو زوجها من ذي تُبّع ملِكِ همْدانَ.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بأن اعبدوا الله، وقرىء بضم النون على إتباعها الباءَ ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ففاجؤوا التفرقَ والاختصامَ فآمن فريقٌ وكفر فريق، والواوُ لمجموع الفريقين.

(٤٦) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة فتقولون ائتنا بما تعدنا ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قبل التوبة فتؤخرونها إلى نزول العقاب فإنهم كانوا يقولون إنْ صدق إيعادُه تُبْنا حينئذ ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ قبل نزوله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقَبولها فإنها لا تقبل حينئذ.

(٤٧) ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا﴾ تشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ إذ تتابعت علينا الشدائدُ، أو وقع بيننا الافتراقُ منذ اخترعتم دينَكم ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ﴾ سببُكم الذي جاء منه شرُّكم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وهو قدَرُه أو عملُكم المكتوبُ عنده ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون بتعاقب السراء والضراء، والإضرابُ من بيان طائرهم الذي هو مبدأُ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه.

(٤٨) ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعةُ أنفسٍ، وإنما وقع تمييزاً للتسعة باعتبار المعنى، والفرقُ بينه وبين النفر أنه من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة، والنفر من الثلاثة إلى التسعة. ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي شأنُهم الإفسادُ الخالصُ عن شوب الصلاح.

---

(١) هذه الرواية من الإسرائيليات وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر بعض المرويات في ذلك (٣/٣٧٨ - ٣٧٩) «والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة، عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم... من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة» هـ.

قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا
دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ
ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

(٤٩) ﴿قَالُواْ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أمرٌ مَقول أو خبرٌ وقع بدلاً أو حالاً بإضمار قد ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ لَنُباغِتن صالحاً وأهلَه ليلاً. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض، وقرىء بالياء على أن تقاسموا خبر ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ فيه القراءاتُ الثلاثُ ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ لولي دمه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ فضلاً أن تَولّينا إهلاكَهم، وهو يحتمل المصدرَ والزمانَ والمكانَ وكذا مهلِكَ في قراءة حفصٍ فإن مفعِلاً قد جاء مصدراً كمرجع. وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدراً ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ ونحلِف إنا لصادقون، أو والحالُ إنا لصادقون فيما ذكرنا لأن الشاهدَ للشيء غيرُ المباشِر له عُرفاً، أو لأنا ما شهِدْنا مهلِكَهم وحده بل مهلِكَه ومهلِكَهم كقولك ما رأيت ثَمةَ رجلاً بل رجلين.

(٥٠) ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾ بهذه المواضعة ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، روي أنه كان لصالح في الحِجْر مسجدٌ في شِعْب يصلي فيه فقالوا: زعم أنه يفرُغ منا إلى ثلاث فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشِعْب ليقتلوه، فوقع عليهم صخرةٌ حيالهم فطبّقتْ عليهم فمَ الشِعْب فهلكوا ثَمةَ وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة كما أشار إليه قوله:

(٥١) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكان إن جُعلت ناقصةً فخبرُها كيف وإنا دَمَّرْنَاهُمْ استئنافٌ أو خبرٌ محذوفٌ لا خبرُ كان لعدم العائد، وإن جعلتها تامةً فكيف حال. وقرأ الكوفيون ويعقوبُ أنا دمرناهم بالفتح على أنه خبرُ محذوفٍ أو بدلٌ من اسم كان أو خبرٌ له وكيف حال.

(٥٢) ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ خاليةً من خَوى البطنُ إذا خلا، أو ساقطةً منْهدمةً من خوى النجمُ إذا سقط، وهي حالٌ عمِل فيها معنى الإشارة. وقرىء بالرفع على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوف ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ بسبب ظلمهم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتعظون.

(٥٣) ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صالحاً ومن معه ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الكفرَ والمعاصيَ فلذلك خُصّوا بالنجاة.

(٥٤) ﴿وَلُوطًا﴾ واذكر لوطاً، أو وأرسلنا لوطاً لدِلالة ولقد أرسلنا عليه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ بدلٌ على الأول وظرفٌ على الثاني ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون فُحشَها، مِنْ بصَرِ القلب، واقترافُ القبائح من العالِم بقُبحها أقبحُ، أو يبصرها بعضُكم من بعض لأنهم كانوا يُعلنون بها فتكون أفحشَ.

(٥٥) ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بيانٌ لإتيانهم الفاحشةَ، وتعليلُه بالشهوة للدِلالة على قُبحه، والتنبيهُ على أن الحكمةَ في المواقعة طلبُ النسل لاقضاءُ الوطر. ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللاتي خُلقْن لذلك

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ تفعلون فِعلَ من يجهل قبحَها، أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبيح، أو تجهلون العاقبةَ، والتاءُ فيه لكون الموصوف به في معنى المخاطب.

۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ
ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن
تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا
وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

(٥٦) ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي يتنزهون عن أفعالنا، أو عن الأقذار ويعُدّون فِعلَنا قذراً.

(٥٧) ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ قدّرنا كونَها من الباقين في العذاب.

(٥٨) ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ مر مثلُه.

(٥٩) ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ﴾ أمر رسولَه ﷺ ـ بعدما قص عليه القِصصَ الدالةَ على كمال قدرته وعِظَم شأنه وما خَص به رسلَه من الآيات الكبرى والانتصار من العِدا ـ بتحميده والسلامِ على المصطَفَينَ من عباده شكراً على ما أنعم عليهم، أو عِلْمِه ما جَهِل من أحوالهم وعرفاناً لفضلهم وحقِ تقدمهم واجتهادِهم في الدين، أو لوطاً بأن يحمَدَه على هلاك كفَرة قومه ويسلّمَ على من اصطفاه بالعِصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إلزامٌ لهم وتهكّمٌ بهم وتسفيه لرأيهم، إذ من المعلوم أنْ لا خيرَ فيما أشركوه رأساً حتى يُوازَن بينه وبين من هو مبدأُ كل خير. وقرأ أبو عمْرو وعاصمٌ ويعقوبُ بالتاء.

(٦٠) ﴿ أَمَّنْ ﴾ بل أَمَنْ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ التي هي أصولُ الكائنات ومبادىءُ المنافع. وقرىء أمَن بالتخفيف على أنه بدلٌ من الله ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم ﴾ لأجلكم ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ عدلَ به من الغَيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاصِ الفعل بذاته، والتنبيهِ على أن إنباتَ الحدائق البهيةِ المختلفةِ الأنواع المتباعدةِ الطباع من المواد المتشابهةِ لا يقدِر عليه غيرُه كما أشار إليه بقوله ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ ﴾ شجرَ الحدائق وهي البساتينُ من الإحداق وهو الإحاطة ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾ أغيرُه يُقرن به ويُجعل له شريكاً، وهو المنفردُ بالخلق والتكوين. وقرىء أإلهاً بإضمار فعلٍ مثلُ أتدعون أو أتشركون وبتوسيط مدةٍ بين الهمزتين وإخراجِ الثانية بينَ بينَ ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ عن الحق الذي هو التوحيد.

(٦١) ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ بدل من أمَن خلق السمواتِ وجعلها قراراً بإبداء بعضها من الماء وتسويتِها بحيث يتأتى استقرارُ الإنسان والدوابِّ عليها ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ ﴾ وسَطها ﴿ أَنْهَٰرًا ﴾ جاريةً

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً تتكون فيها المعادنُ وتنبع من حضيضها المنابعُ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذْب والمالح، أو خليجَيْ فارسَ والروم ﴿حَاجِزًا﴾ برزخاً وقد مر بيانه في سورة الفرقان ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ فيشركون به.

أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ
أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا
اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾

(٦٢) ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطرُّ الذي أحوجه شدةُ ما به إلى اللجوء إلى الله تعالى من الاضطرار، وهو افتعالٌ من الضرورة، واللامُ فيه للجنس لا للاستغراق فلا يلزم منه إجابةُ كل مضطر. ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ويدفع عن الإنسان ما يسوؤه ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ خلفاءَ فيها بأن ورّثكم سُكناها والتصرفَ فيها ممن قبلكم ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ الذي خصكم بهذه النعم العامةِ والخاصة ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكرون آلاءَه تذكراً قليلاً، وما مزيدةٌ والمرادُ بالقلة العدمُ أو الحقارةُ المُزيحةُ للفائدة. وقرأ أبو عمْرٍو وهشامٌ وروح بالياء، وحمزةُ والكسائي وحفصٌ بالتاء وتخفيف الذال[1].

(٦٣) ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالنجوم وعلاماتِ الأرض، والظلماتُ ظلماتُ الليالي، وإضافتُها إلى البر والبحر للملابسة، أو مشْتبِهاتُ الطرق، يقال طريقةٌ ظلماءُ وعمياءُ للتي لا منارَ بها ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني المطر، ولو صح أن السببَ الأكثرَ في تكوّن الرياح مُعاودةُ الأدخنةِ الصاعدة من الطبقة الباردةِ لانكسار حرّها وتمويجها الهواءَ فلا شك أن الأسبابَ الفاعليةَ والقابليةَ لذلك من خلْق الله تعالى، والفاعلُ للسبب فعلَ المُسبَّب. ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يقدر على مثل ذلك. ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعالى الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق.

(٦٤) ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ والكفرةُ وإن أنكروا الإعادةَ فهم محجوجون بالحُجج الدالةِ عليها ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بأسباب سماويةٍ وأرضية ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على أن غيرَه يقدِر على شيء من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إشراككم فإن كمالَ القدرة من لوازم الألوهية.

(٦٥) ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ لمّا بين اختصاصَه تعالى بالقُدرة التامة الفائقةِ العامةِ أتبعه ما هو كاللازم له، وهو التفردُ بعلم الغيب، والاستثناءُ منقطعٌ، ورفعُ المستثنى على اللغة التميميةِ للدِلالة على أنه تعالى إن كان ممن في السموات والأرض ففيها مَن يعلم الغيبَ مبالغةً في نفيه

---

(١) وفي تذييل الكلام بنفي التذكر عنهم إيذان بأن مضمونه مركوز في ذهن كل ذكي وغبي وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره (س٦/ ٢٩٥).

عنهم، أو متصلٌ على أن المرادَ ممن في السموات والأرض مَن تعلق علمُه بها واطلع عليها اطلاعَ الحاضر فيها، فإنه يعُم الله تعالى وأولي العلم من خلقه وهو موصولٌ أو موصوف ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ متى يُنشرون، مركبةٌ من أيّ وآن، وقُرئت بكسر الهمزة والضميرُ لمن وقيل للكفرة.

بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لما نفىٰ عنهم علمَ الغيب وأكد ذلك بنفي شعورهم بما هو مآلُهم لا محالة بالغة فيه، بأن أضرب عنه وبين أن ما انتهى وتكامل فيه أسبابُ علمهم من الحُجج والآيات وهو أن القيامةَ كائنةٌ لا محالة لا يعلمونه كما ينبغي ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ كمن تحير في الأمر لا يجد عليه دليلاً ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ لا يدركون دلائلَها لاختلال بصيرتهم، وهذا وإن اختص بالمشركين ممن في السموات والأرض نسُب إلى جميعهم كما يُسند فِعلُ البعض إلى الكل، والإضراباتُ الثلاثُ تنزيلٌ لأحوالهم، وقيل الأولُ إضرابٌ عن نفي الشعور بوقت القيامة عنهم إلى وصفهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً بهم، وقيل ادارك بمعنى انتهى واضمحلّ من قولهم أدركت الثمرةُ لأن تلك غايتُها التي عندها تعدَم. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر وحمزةُ والكسائي وحفصٌ بل ادّارك بمعنى تتابع حتى استحكم، أو تتابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك، وأبو بكر ادّرك وأصلهما تفاعل وافتعل. وقرىء أأدّرَك بهمزتين وآادّرك بألفٍ بينهما، وبل أدّرك، وبل تدارك وبلى أأدّرك وبلى أأدرك وأم ادّراك أو تدارك، وما فيه استفهامٌ صريح أو مُضمّن من ذلك فإنكارٌ، وما فيه بلى فإثباتٌ لشعورهم وتفسيرٌ له بالادِّراك على التهكم، وما بعده إضرابٌ عن التفسير مبالغةً في نفيه ودَلالةً على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل أنهم منها عَمونَ، أوْ ردٌّ وإنكارٌ لشعورهم.

(٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ كالبيان لِعَمَههم، والعاملُ في إذا ما دل عليه أئنا لمخرجون، وهو نُخرج لا مُخرجون لأن كلاً من الهمزة وإنّ واللامِ مانعةٌ من عمله فيما قبلها، وتكريرُ الهمزة للمبالغة في الإنكار، والمراد بالإخراج الإخراجُ من الأجداث أو من حال الفناء إلى الحياة، وقرأ نافع إذا كنا بهمزة واحدة مكسورة، وقرأ ابن عامر والكسائي إننا لمخرجون بنونين على الخبر.

(٦٨) ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبل وعْد محمد ﷺ، وتقديمُ هذا على نحن لأن المقصودَ بالذكر هو البعثُ وحيث أُخر فالمقصودُ به المبعوث ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ التي هي كالأسمار.

(٦٩) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تهديدٌ لهم على التكذيب وتخويفٌ بأن ينزل بهم مثلُ ما نزل بالمكذبين قبلهم، والتعبيرُ عنهم بالمجرمين ليكون لطفاً بالمؤمنين في ترك الجرائم.

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن
يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا
الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ
يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾

(٧٠) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على تكذيبهم وإعراضهم ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ في حرَج صدرٍ، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد وهما لغتان، وقرىء ضيّق أي أمرٍ ضيق ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكرهم فإن الله يعصِمك من الناس.

(٧١) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ العذابُ الموعود ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(٧٢) ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ تبِعكم ولحِقكم، واللامُ مزيدةٌ للتأكيد، أو الفعلُ مضمّنٌ معنى فعّل يتعدىٰ باللام مثل دنا. وقرىء بالفتح وهو لغة فيه[1] ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حلولَه وهو عذابُ يوم بدر، وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها وإنما يُطلقونها إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأن الرمزَ منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرىٰ وعدُ الله تعالى ووعيدُه.

(٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لتأخير عقوبتهم على المعاصي، والفضلُ والفاضلةُ الأفضال وجميعُها فضولٌ وفواضلُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يعرِفون حقَّ النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعَه.

(٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ما تُخفيه وقرىء بفتح التاء من كَننْتُ أي سترت ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من عداوتك فيجازيهم عليه.

(٧٥) ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ خافيةٍ فيهما، وهما من الصفات الغالبة والتاءُ فيهما للمبالغة كما في الراوية، أو اسمانِ لِما يغيب ويخفىٰ كالتاء في عافية وعاقبة ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بيّن، أو مُبيِّنٍ ما فيه لمن يطالِعه، والمراد اللوحُ أو القضاءُ على الاستعارة.

(٧٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كالتشبيه والتنزيهِ وأحوالِ الجنة والنار وعُزيرٍ والمسيح.

(٧٧) ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

(٧٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ بين بني إسرائيلَ ﴿بِحُكْمِهِ﴾ بما يحكم به وهو الحقُّ، أو بحكمته ويدل عليه أنه قرىء بحُكمه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يرد قضاؤه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحقيقة ما يقضي فيه وحُكمِه.

(٧٩) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تُبالِ بمعاداتهم ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ وصاحبُ الحق حقيقٌ بالوثوق بحفظ الله ونصره.

---

١) وإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال: عسىٰ أن يردفكم... لكونه أدل على تحقق الوقوع (س٦/٢٩٨).

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تعليلٌ آخرُ للأمر بالتوكل من حيث إنه يقطع طمعَه عن مشايعتهم ومعاضَدتهم رأساً، وإنما شُبّهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم، كما شُبّهوا بالصُمّ في قوله ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ فإن إسماعَهم في هذه الحالة أبعدُ. وقرأ ابن كثير ولا يَسمع الصُمّ.

(٨١) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ حيث الهدايةُ لا تحصُل إلا بالبصر. وقرأ حمزةُ وحده: وما أنت تَهدي العُمي ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي ما يُجدي إسماعُك ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ من هو في علم الله كذلك ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون، مِن أسلم وجهه لله[1].

(٨٢) ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دنا وقوعُ معناه وهو ما وُعدوا به من البعث والعذاب[2] ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الجَسّاسة، روي[3] أن طولها ستون ذراعاً ولها أربعُ قوائمَ وزَغَبٌ وريشٌ وجناحان، لا يفوتها هارب ولا يُدركها طالب. وروي[4] أنه عليه الصلاة والسلام سُئل من أين مخرجُها فقال: «من أعظم المساجد حرمةً على الله» يعني المسجدَ الحرام ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من الكلام، وقيل من الكَلْم إذ قرىء تَكْلِمُهم. وروي[5] أنها تخرج ومعها عصا موسى وخاتمُ سليمانَ عليهما الصلاة والسلام، فتنكُت بالعصا في مسجد المؤمن نُكتةً بيضاءَ فيبيض وجهُه، وبالخاتم في أنف الكافر نكتةً سوداءَ فيسودّ وجهه ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ خروجِها وسائرِ أحوالها فإنها من آيات الله تعالى. وقيل القرآنُ، وقرأ الكوفيون أن الناس بالفتح ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ لا يتيقنون، وهو حكايةُ معنى قولِها أو حكايتها لقول الله عز وجل أو علة خروجها، أو تَكلُّمِها على حذف الجار.

(٨٣) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ يعني يوم القيامة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيانٌ للفوج أي فوجاً مكذّبين، ومِن الأولى للتبعيض لأن أمةَ كلِّ نبي وأهلَ كل قرن شاملٌ للمصدقين والمكذبين ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو عبارةٌ عن كثرة عددِهم وتباعُد أطرافهم.

---

(١) وإيراد الإسماع في النفي والإثبات دون الهداية لأن طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية (س٦/ ٣٠٠).

(٢) عبر عن الساعة بالقول لأنه مصداق للقول الناطق بمجيئها، وعبر عنه بالوقوع للإيذان بشدة وقعها وتأثيرها (س٦/ ٣٠٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ج٢٠/ ١٥) عن حذيفة مرفوعاً وقال عنه ابن كثير (٣/ ٣٨٧): «إسناده لا يصح».

(٤) أخرجه ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد أراه رفعه ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٢).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢٠/ ١٥) عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً وإسناده لا يصح كما قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٨٧).

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟
فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾
وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى المحشر ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال أي أكذبتم بها بادىءَ الرأي غيرَ ناظرين فيها نظراً يُحيط علمُكم بكنهها وأنها حقيقةٌ بالتصديق أو التكذيب، أو للعطف أي أجمعتم بين التكذيب بها وعدمِ إلقاءِ الأذهان لتحققها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أم أيُّ شيء كنتم تعملونه بعد ذلك، وهو للتبكيت إذ لم يفعلوا غيرَ التكذيب من الجهل فلا يقدرون أن يقولوا فعلنا غير ذلك.

(٨٥) ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ حل بهم العذابُ الموعودُ وهو كبُّهم في النار بعد ذلك ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ بسبب ظلمهم وهو التكذيبُ بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ باعتذارٍ لشُغلهم بالعذاب.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ليتحقق لهم التوحيدُ ويرشدَهم إلى تجويز الحشر وبعثةِ الرسل، لأن تعاقبَ النور والظُّلمةِ على وجه مخصوص غيرِ متعيِّنٍ بذاته لا يكون إلا بقدرة قاهر، وأن من قدَر على إبدال الظلمة بالنور في مادة واحدة قدَر على إبدال الموت بالحياة في مواد الأبدان، وأن من جعل النهار لِيُبصروا فيه سبباً من أسباب معاشهم لعله لا يُخِلّ بما هو مناطُ جميع مصالحهم في معاشهم ومَعادِهم ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ بالنوم والقَرار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فإن أصله ليُبصِروا فيه فبولغ فيه بجعل الإبصار حالاً من أحواله المجعولِ عليها بحيث لا ينفك عنها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لدِلالتها على الأمور الثلاثة.

(٨٧) ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ في الصور أو القَرن، وقيل إنه تمثيلٌ لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نُفخ في البوق. ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الهول. وعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يفزَعَ بأن يُثبِّت قلبه. قيل هم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وعزرائيلُ، وقيل الحورُ والخزَنةُ وحملةُ العرش، وقيل الشهداء، وقيل موسى عليه الصلاة والسلام لأنه صُعق مرة، ولعل المرادَ ما يعم ذلك. ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ حاضرون الموقفَ بعد النفخة الثانية، أو راجعون إلى أمره، وقرأ حمزةُ وحفصٌ أَتَوه على الفعل، وقرىء أتاه على التوحيد للفظ الكل ﴿دَٰخِرِينَ﴾ صاغرين وقرىء دَخِرين.

(٨٨) ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ ثابتةً في مكانها ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ في السرعة، وذلك لأن الأجرامَ الكبارَ إذا تحركت في سمْتٍ واحد لا تكاد تَبين حركتُها ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لنفسه وهو لمضمون الجملة المتقدمةِ كقوله ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾[1] ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أحكم خلقَه وسوّاه على ما ينبغي ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ عالمٌ بظواهر الأفعال وبواطنِها فيجازيكم عليها كما قال:

---

(١) الروم: «٦».

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ
تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ
وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ
أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(٨٩) ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ إذ ثبت له الشريفُ بالخسيس والباقي بالفاني وسبعُمائة بواحدة، وقيل خيرٌ منها أي خيرٌ حاصل من جهتها وهو الجنة، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمْرٍو وهشام خبير بما يفعلون بالياء والباقون بالتاء ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ يعني به خوفَ عذاب يوم القيامة، وبالأول ما يلحق الإنسانَ من التهيب لِما يرى من الأهوال والعظائم لذلك يعمُّ الكافرَ والمؤمنَ، وقرأ الكوفيون بالتنوين لأنَّ المرادَ فزَعٌ واحدٌ من أفزاع ذلك اليوم، وآمنَ يتعدَّى بالجارِّ وبنفسه كقوله ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾(١). وقرأ الكوفيون ونافعٌ يومَئذ بفتحِ الميم والباقون بكسْرِها.

(٩٠) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قيلَ بالشركِ ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ فكُبّوا فيها على وجوهِهم، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بالوجوهِ أنفسُهم كما أُرِيدَتْ بالأيدي في قوله تعالى ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾(٢) ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ على الالتفاتِ أو بإضمارِ القولِ أي قيلَ لهم ذلك.

(٩١) ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أُمِرَ الرسولُ ﷺ بأنْ يقولَ لهم ذلك بعدَما بيَّن المبدأَ والمعادَ وشرحَ أحوالَ القيامةِ، إشعاراً بأنه قد أتمَّ الدعوةَ وقد كمُلَتْ وما عليه بعدُ إلا الاشتغالُ بشأنه والاستغراقُ في عبادة ربِّه، وتخصيصُ مكَّةَ بهذه الإضافةِ تشريفٌ لها وتعظيمٌ لشأنها. وقُرِىءَ التي حرَّمها. ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ خلْقاً ومُلْكاً. ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المنقادين أو الثابتين على ملة الإسلام.

(٩٢) ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾ وأنْ أواظِبَ على تلاوتِه لتنكشِفَ لي حقائقُه في تلاوته شيئاً فشيئاً، أو اتباعِه وقرىء واتلُ عليهم وأنِ اتلُ ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ باتباعِه إيايَ في ذلك ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ فإنَّ منافعَه عائدةٌ إليه. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بمخالفتي ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ فلا عليَّ مِن وَبالِ ضلالِه شيءٌ إذْ ما على الرسولِ إلا البلاغُ وقد بلّغتُ.

(٩٣) ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمةِ النبوَّةِ أو على ما علَّمني ووفَّقني للعملِ به. ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القاهرةَ في الدنيا كوقعةِ بدرٍ وخروجِ دابّةِ الأرض، أو في الآخرة ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾ أنها آياتُ اللهِ ولكنْ حينَ لا تنفعُكمُ المعرفةُ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فلا تحسَبوا أنَّ تأخيرَ عذابِكم لغفلتِه عن أعمالِكم. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمْرو وحمزةُ والكسائيُ بالياء. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورة طس كان له من الأجر عشرُ

(١) الأعراف: «٩٩».
(٢) البقرة: «١٩٥».

حسناتٍ بعددِ مَنْ صدَّقَ سليمانَ وكذَّبَ به وهوداً وصالحاً وإبراهيمَ وشعيباً، ويَخْرُجُ من قبرهِ وهو ينادي لا إله إلا اللهُ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الثعلبي، وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٦ رقم ١٣٠) وتقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

فهرس السور

☆ ☆ ☆

فهرس الأجزاء

☆ ☆ ☆

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المسمى

تفسير البيضاوي

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي حسن حلاق و محمود أحمد الأطرش

المجلد الثالث

دار الرشيد
دمشق - بيروت

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المسمى

تفسير البيضاوي

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي حسن حلاق و محمد أحمد الأطرش

المجلد الثالث

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

دار الرشيد
دمشق - بيروت

تفسير البيضاوي

المسمّى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق و الدكتور محمود أحمد الأطرش

المجلد الثالث

دار الرشيد

دمشق - بيروت

مؤسسة الإيمان

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م


بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ القَصَصِ

ترتيبها ٢٨ آياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ
وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

سورةُ القصص مكيةٌ[1]

وقيل إلا قولَه تعالى الذين آتيناهم الكتابَ إلى قوله لا نبتغي الجاهلين وهي ثمانٍ وثمانون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طسٓمٓ﴾.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

(٣) ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ نقرؤه بقراءة جبريلَ، ويجوز أنْ يكونَ بمعنى ننزِّلُه مجازاً ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ بعضِ نبئِهما، مفعولُ نتلو ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُحقِّينَ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفِعون به.

(٤) ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ مبينٌ لذلك البعضِ، والأرضُ أرضُ مِصرَ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٩) و«زاد المسير» (٦/ ٢٠٠).

﴿شِيَعًا﴾ فِرَقاً يُشيعونه فيما يريدُ، أو يشيعُ بعضُهم بعضاً في طاعته، أو أصنافاً في استخدامِه استُعْمِل كلُّ صِنفٍ في عملٍ، أو أحزاباً بأنْ أغرى بينَهم العداوةَ كي لا يتَّفِقُوا عليه ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيلَ، والجملةُ حالٌ من فاعلِ جَعَلَ، أو صفةٌ لشيعاً أو استئنافٌ، وقولُه ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾ بدلٌ منها، كان ذلك لأنَّ كاهناً قال له يولدُ مولودٌ في بني إسرائيلَ يَذهبُ مُلكُك على يده، وذلك كان من غايةِ حَمَقِهِ فإنه لو صَدَقَ لم يندفعْ بالقتلِ وإن كذَب فما وجهُه؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فلذلك اجترأ على قتلِ خلقٍ كثيرٍ من أولادِ الأنبياءِ لِتخيُّلٍ فاسدٍ.

(٥) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنْ نتفضَّلَ عليهم بإنقاذِهم من بأسِه، ونريدُ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ معطوفةٍ على (إن فرعونَ علا في الأرض) من حيثُ إنَّهما واقعانِ تفسيراً للنبأ، أو حالٌ مِنْ يستضعفُ ولا يلزمُ من مقارنةِ الإرادة للاستضعافِ مقارنةُ المرادِ له، لجوازِ أنْ يكونَ تعلُّقُ الإرادةِ به حينئذٍ تعلُّقاً استقبالياً مع أنَّ مِنَّةَ الله بخلاصِهم لمّا كانتْ قريبةَ الوقوعِ منه جازَ أنْ تجريَ مَجرىٰ المقارَنِ ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ مقدَّمين في أمرِ الدين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لِما كان في مُلك فرعونَ وقومِه.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ والشام، وأصلُ التمكينِ أنْ تجعلَ للشيءِ مكاناً يتمكَّنُ فيه ثم استُعيرَ للتسليط وإطلاقِ الأمن ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ من بني إسرائيلَ ﴿مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ من ذهابِ مُلكهم وهلاكِهم على يدِ مولودٍ منهم. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويرىٰ بالياءِ وفرعونُ وهامانُ وجنودُهما بالرفعِ.

(٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بإلهامٍ أو رؤيا ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ ما أمكَنكِ إخفاؤُه. ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يُحَسَّ به. ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحرِ يريد النيلَ. ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه ضَيعةً ولا شِدَّةً ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓۖ﴾ لفراقِه. ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريبٍ بحيثُ تأمنينَ عليه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ رُويَ أنَّها لما ضرَّ بها الطلقُ دعتْ قابلةً من الموكَّلاتِ بحَبَالى بني إسرائيلَ فعالجتْها، فلما وقعَ موسى على الأرض هالها نورٌ بين عينيه وارتعشتْ مفاصِلُها ودخلَ حبُّه في قلْبها بحيثُ منعها من السِّعاية، فأرضعتْه ثلاثةَ أشهرٍ ثم ألحَّ فرعونُ في طلبِ المواليدِ واجتهدَ العيونُ في تفحُّصِها فأخذتْ له تابوتاً فقذفتْه في النيلِ.

(٨) ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾ تعليلٌ لالتقاطِهم إياهُ بما هو عاقِبتُه ومؤدَّاه تشبيهاً له بالغرضِ الحامل عليه. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحُزْنا. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ

﴿خَٰطِـِٔينَ﴾ في كلِّ شيء فليسَ بِبِدْعٍ منهم أنْ قتلُوا ألوفاً لأجلِه ثمَّ أخذوه يربُّونه ليكبَرَ ويفعلَ بهم ما كانوا يحذَرون، أو مذنبينَ فعاقبهم اللهُ تعالى بأنْ ربَّى عدوَّهم على أيديهم، فالجملةُ اعتراضٌ لتأكيدِ خَطَئِهم أو لبيانِ الموجبِ لما ابتُلوا به، وقُرِىءَ خاطِيْنَ تخفيفُ خاطِئينَ أو خاطين الصوابَ إلى الخطأ.

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ أي لفرعونَ حين أخرجتْه من التابوتِ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ هو قرَّةُ عينٍ لنا لأنهما لما رأياه أُخرِجَ من التابوتِ أحبَّاه، أو لأنه كانتْ له ابنةٌ برصَاءُ وعالجها الأطباءُ بريقِ حيوانٍ بحريٍّ يشبه الإنسانَ فلطَّخَتْ برصَها بريقه فبرئَتْ، وفي الحديث أنه قال: لكِ لا لي[1]. ولو قال هو لي كما هو لك لهداهُ الله كما هداهَا. ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خطابٌ بلفظ الجَمع للتعظيم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنَّ فيه مخايلَ اليُمْنِ ودلائلَ النفعِ، وذلك لِما رأتْ من نورٍ بينَ عينيه وارتضاعِه إبهامَه لبناً وبُرءِ البرصاءِ بريقهِ ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أو نتبنّاه فإنه أهلٌ له ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حالٌ من الملتقطين أو من القائلةِ والمقولِ له أي وهم لا يشعُرون أنهم على الخطأ في التقاطِه أو في طمعِ النفعِ منه والتبنّي له، أو من أحدِ ضميرَيْ نتَّخِذَهُ على أنَّ الضميرَ للناسِ أي وهم لا يشعرونَ أنه لغيرِنا وقد تبنَّيناه.

(١٠) ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ صِفراً من العقلِ لما دَهمَهَا من الخوفِ والحَيْرةِ حين سمعتْ بوقوعِه في يدِ فرعونَ كقوله تعالى ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[2] أي خَلاءٌ لا عقولَ فيها، ويؤيدُه أنه قرىءَ فرغاً مِنْ قولهم دماؤُهم بينَهم فرغٌ أي هدرٌ، أو مِنَ الهمِّ لفرْطِ وثوقِها بوعدِ اللهِ تعالى أو سماعِها أنَّ فرعونَ عطَفَ عليه وتبنَّاه ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أنها كادت لَتُظهر بموسى أي بأمره وقِصَّته من فرْط الضجَر أوِ الفرحِ لتبنِّيه. ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر والثبات. ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدِّقين بوعْدِ الله، أو مِنَ الواثقَين بحفظِه لا بتبنِّي فرعونَ وعطفِه. وقرىء موسى إجراءً للضمة في جوارِ الواوِ مَجرى ضمَّتها في استدعاء همزِها همزَ واوِ وجوهٍ وهو عِلَّةُ الرَّبطِ، وجوابُ لولا محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

(١١) ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريمَ. ﴿قُصِّيهِ﴾ اتّبعي أثَرَهُ وتَتَبَّعي خبَرَهُ. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ عن بُعْدٍ، وقُرِىءَ عن جانبٍ وعن جَنْبٍ وهو بمعناهُ. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها تقصُّ أو أنَّها أختُه.

---

(١) أخرجه النسائي في التفسير كما في «تحفة الأشراف» (٤/٤٣٨).
(٢) إبراهيم: «٤٣».

۞وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ
ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن
شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿ ۞وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ ﴾ ومنعْناه أنْ يرتضعَ من المرضعات، جمعُ مرضِعٍ أو مرضَع وهو الرَّضاعُ، أو موضِعُه يعني الثديَ. ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبلِ قصِّها أثَرَهُ. ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ لأجلِكم. ﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ لا يقصِّرون في إرضاعِه وتربيتِه، رويَ[1] أنَّ هامانَ لما سمعهُ قال: إنها لتعرفُه وأهلَه فخذوها حتى تُخْبَرَ بحاله، فقالتْ: إنما أردتُ وَهُمْ لِلْمَلِكِ ناصحون، فأمرَها فرعونُ أنْ تأتيَ بِمَنْ يكفُله فأتتْ بأمِّها وموسى على يدِ فرعونَ يبكي وهو يعلِّلُه، فلما وجدَ ريحها استأنسَ والتقم ثَدْيَهَا فقال لها: مَنْ أنتِ منه فقد أبى كلَّ ثديٍ إلا ثديَك؟ فقالتْ: إني امرأةٌ طيبةُ الريحِ طيبةُ اللبنِ لا أُوْتَى بصبيٍّ إلا قَبِلَني فدفعَه إليها وأجرى عليها، فرجعتْ به إلى بيتها من يومِها، وهو قولُه تعالى:

(١٣) ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بولدِها. ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ بفراقِه. ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ عِلْمَ مشاهدةٍ. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنَّ وعْدَه حقٌّ فيرتابون فيه، أو أنَّ الغرضَ الأصليَّ من الردِّ عِلْمُها بذلك وما سواه تَبَعٌ، وفيه تعريضٌ بما فَرَطَ منها حين سمعتْ بوقوعِه في يدِ فرعونَ.

(١٤) ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ مبلغَه الذي لا يزيدُ عليه نشؤُه وذلك من ثلاثينَ إلى أربعينَ سنةً فإنَّ العقلَ يكمُلُ حينئذٍ. ورُوِيَ أنه لم يُبْعَثْ نبيٌّ إلا على رأسِ الأربعينَ سنةً[2]. ﴿ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ قدُّه أو عقلُه. ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا ﴾ أي نبوَّةً. ﴿ وَعِلْمًا ۚ ﴾ بالدين، أو عِلْمَ الحكماءِ والعلماءِ وسِمَتَهُم قبلَ استنبائِه، فلا يقولُ ولا يفعلُ ما يُسْتَجْهَلُ فيه، وهو أوفقُ لنظمِ القصةِ لأنَّ الاستنباءَ بعدَ الهجرةِ في المراجعةِ. ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ ومثلُ ذلك الذي فعلْنا بموسى وأمِّه. ﴿ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ على إحسانِهم.

(١٥) ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ ﴾ ودخلَ مصرَ آتياً من قصرِ فرعونَ وقيل منفٌ أو حائينُ، أو عينُ شمسٍ من نواحيها. ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ في وقْتٍ لا يُعْتَادُ دخولُها ولا يتوقَّعونه فيه، قيل كان وقْتَ القيلولةِ

---

(١) وهي من الإسرائيليات. ولكنه ليس ببعيد عن الطغات.
(٢) لم أجده. قاله ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٢٦ رقم ١٣١).

وقيل بينَ العشاءين. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أحدُهما ممن شايعَه على دينه وهم بنو إسرائيلَ، والآخرُ مِنْ مخالفيهِ وهمُ القِبْطُ، والإشارةُ على الحكايةِ. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى هو﴾ ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فسأله أنْ يغيثَهُ بالإعانةِ ولذلك عُدِّيَ بعلى وقُرِىءَ بعلى وقُرِىءَ استعانَه. ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ فضربَ القبطيَّ بِجُمْعِ كفِّه، وقرىءَ فلكزَهُ أي فضربَ به صدْرَهُ. ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتلَه وأصْلُه فأنْهَى حياتَه من قوله ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾[1]. ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنه لم يُؤْمَرْ بقتلِ الكفارِ أو لأنه كان مأموناً فيهم فلم يكنْ له اغتيالُهم، ولا يقدحُ ذلك في عصمتِه لكونه خطأً، وإنما عدَّه من عملِ الشيطانِ وسمَّاه ظلماً واستغفرَ منه على عادتِهم في استعظامِ محقَّراتٍ فَرَطَتْ منهم. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ العداوةِ.

قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ
قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى
كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتلِه. ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ ذنبي. ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ لاستغفارِه. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوبِ عبادِه. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

(١٧) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ قسمٌ محذوفُ الجوابِ أي أُقْسِمُ بإنعامِك عليَّ بالمغفرة وغيرها لأتُوبَنَّ. ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أوِ استعطافٌ أي بحقِّ إنعامِك عليَّ اعصمْني فلنْ أكونَ مُعِيناً لمن أدَّتْ معاونتُه إلى جُرْمٍ. وعن ابنِ عباسٍ رضي الله تعالى عنهما: أنه لم يستثنِ فأبْتُلِيَ به مرةً أخرى[2]، وقيل معناه بما أنعمتَ عليَّ من القوةِ أُعِيْنُ أولياءَكَ فلنْ أستعمِلَها في مظاهرةِ أعدائِك.

(١٨) ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يترقَّبُ الاستفادةَ. ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يستغيثُه مشتقٌ من الصُّراخِ. ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ بيِّنُ الغوايةِ لأنك تَسَبَّبْتَ لقتلِ رجلٍ وتقاتِلُ آخرَ.

(١٩) ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والإسرائيليِّ لأنه لم يكنْ على دينهما ولأنَّ القُبْطَ كانوا أعداءً لبني إسرائيلَ. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ قاله الإسرائيليُّ لأنه لما سمَّاه غوياً ظنَّ أنه يبطشُ عليه، أو القبطيُّ وكأنه توهَّم مِنْ قوله أنه الذي قتلَ القبطيَّ بالأمسِ لهذا الإسرائيليِّ. ﴿إِن تُرِيدُ﴾ ما تريدُ. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تطاوِلُ على الناس ولا تنظُر في العواقبِ. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بَيْنَ الناسِ فتدفعُ التخاصُمَ بالتي هي أحسنُ، ولما قال هذا انتشرَ الحديثُ وارتقى إلى فرعونَ ومَلَئِه وهمُّوا بقتلِه فخرجَ مؤمنُ آلِ فرعونَ وهو ابنُ عمِّه لِيُخْبِرَهُ كما قال تعالى:

---

(١) الحجر: «٦٦».

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/١٩٨).

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ
عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ
كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ يسرعُ صفةُ رجلٍ، أو حالٌ منه إذا جُعِلَ من أقصى المدينةِ صفةٌ له لا صلةٌ لجاءَ لأنَّ تخصيصه بها يُلْحِقُه بالمعارفِ. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يتشاورون بِسَبَبِكَ، وإنما سُمِّيَ التشاورُ ائتماراً لأنَّ كلاً من المتشاورَيْنِ يأمرُ الآخرَ ويأتمرُ. ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ اللامُ للبيانِ وليس صلةً للناصحين لأنَّ معمولَ الصلةِ لا يتقدَّمُ الموصولَ.

(٢١) ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من المدينة. ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوقَ طالِبٍ. ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خلِّصْني منهم واحفظْني من لحوقِهِم.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قُبالَةَ مدْيَنَ قريةَ شعيبٍ، سُمِّيَتْ باسمِ مدينَ بن إبراهيمَ عليهم الصلاةُ والسلام ولم تكنْ في سلطانِ فرعونَ وكان بينَها وبينَ مِصرَ مسيرةُ ثمانٍ. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ توكلاً على اللهِ وحسنَ ظنٍّ به، وكان لا يعرفُ الطريقَ فعنَّ له ثلاثَ طرقٍ فأخذَ في أوسطِها وجاء الطُّلابُ عقيبَهُ فأخذوا في الآخرينَ.

(٢٣) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وصلَ إليه وهو بئرٌ كانوا يسقُون منها. ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ وجد فوقَ شفيرِها. ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جماعةً كثيرة مختلِفينَ. ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشِيَهُم. ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفلَ من مكانِهِم. ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تمنعانِ أغنامَهُما عن الماءِ لئلا تختلِطَ بأغنامِهم. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنُكما تذودانِ. ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ تصرفَ الرعاةُ مواشِيَهُم عن الماءِ حذراً عن مزاحمةِ الرجالِ، وحُذِفَ المفعولُ لأنَّ الغرضَ هو بيانُ ما يدلُّ على عِفَّتِهما ويدعوه إلى السقيِ لهما ثمَّ دونَه. وقرأ أبو عمرو وابنُ عامر يَصدُرَ أي ينصرِفَ. وقُرِىءَ الرُّعاءُ بالضمِّ وهو اسمُ جمعٍ كالرُّخالِ. ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ كبيرُ السِّنِّ لا يستطيعُ أنْ يخرجَ للسقيِ فيرسِلنا اضطراراً.

(٢٤) ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مواشِيَهُما رحمةً عليهما. قيل[1] كانتِ الرعاةُ يضعون على رأسِ البئرِ حجراً لا يُقِلُّه إلا سبعةُ رجالٍ أو أكثرُ فأقلَّه وحدَه مع ما كان به من الوصَبِ والجوعِ وجراحةِ القدمِ، وقيل كانتْ بئراً أخرى عليها صخرةٌ فرفعَها واستقى منها. ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ لأيِّ

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥).

شيءٍ أَنْزَلْتَ إليَّ. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلٍ أو كثيرٍ وحمله الأكثرونَ على الطعام. ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاجٌ سائلٌ ولذلك عُدِّيَ باللامِ، وقيل معناه إني لما أنزلْتَ إليَّ من خيرِ الدينِ صرتُ فقيراً في الدنيا، لأنه كان في سَعَةٍ عند فرعونَ، والغرضُ منه إظهارُ التبجُّحِ والشكرِ على ذلك.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

(٢٥) ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي مستحيةً متخفِّرةً. قيل كانتِ الصُّغرى منهما وقيل الكُبرى، واسمُها صفوراءُ أو صفراءُ وهي التي تزوَّجها موسى عليه السلام. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ ليكافِئَك. ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ جزاءَ سقْيِكَ لنا، ولعلَّ موسى عليه الصلاة والسلام إنما أجابَها ليتبرَّكَ برؤيةِ الشيخِ ويستظهرَ بمعرفتهِ لا طمعاً في الأجْرِ، بل رُوِيَ[١] أنه لما جاءه قدَّم إليه طعاماً فامتنعَ عنه وقال: إنا أهلُ بيتٍ لا نبيعُ ديننا بالدنيا حتى قال له شعيبٌ عليه الصلاة والسلام: هذه عادتُنا مع كلِّ مَنْ ينزلُ بنا. هذا وأنَّ كلَّ مَنْ فعل معروفاً فأُهْدِيَ بشيء لم يحرمْ أخذُه. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يريدُ فرعونَ وقومَه.

(٢٦) ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ يعني التي استدعتْه. ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ لرعي الغنَم. ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تعليلٌ شائعٌ يجري مجرى الدليلِ على أنه حقيقٌ بالاستئجارِ وللمبالغةِ فيه، جعلَ خيرَ اسماً وذكرَ الفعلَ بلفظِ الماضي للدلالة على أنه امرؤٌ مجرَّبٌ معروفٌ. رُوِيَ[٢] أنَّ شعيباً قال لها وما أَعْلَمَكِ بقوَّتِهِ فذكرتْ إقلالَ الحجرِ وأنه صوَّبَ رأسَه حتى بلغتْه رسالتُه وأَمَرَهَا بالمشيِ خلْفَهُ.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٧) لابن عساكر عن أبي حازم. وما انفرد به ابن عساكر من الرواية فهو ضعيف. انظر مقدمة زوائد الجامع الصغير للسيوطي.

(٢) قال سيد قطب في «الظلال» (٥/ ٢٦٨٧):
«ولا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى، كرفع الحجر الذي يغطي البئر وكان لا يرفعه ـ فيما قالوا ـ إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل. فالبئر لم يكن مغطى، إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم وسقى للمرأتين، أو سقى لهما مع الرعاء» هـ.
وقال سيد قطب في «الظلال» (٥/ ٢٦٨٨) أيضاً:
«ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشِ خلفي ودلني على الطريق خوف أن يراها أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها فهذا كله تكلف لا داعي له. ودفع لريبة لا وجود لها.
وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عفيف النظر، نظيف الحسن، وهي كذلك، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة، فالعفة تنفح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع» هـ.
● أما ما يذكره القاضي من أن الشيخ الكبير هو «شعيب» فقد تقدم الرد عليه في سورة طه.

قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

(٢٧) ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾ أي تأْجُرَ نفسك منِّي أو تكونَ لي أجيراً، أو تثيبَني من أجْرِك اللهَ. ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ﴾ ظرفٌ على الأوَّلينِ ومفعولٌ به على الثالثِ بإضمارِ مضافٍ أي رعيةَ ثماني حِجَجٍ. ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ عملْتَ عشرَ حِجَجٍ. ﴿فَمِنْ عِندِكَۖ﴾ فإتمامُه من عندِك تفضُّلاً لا مِنْ عندي إلزاماً عليك. وهذا استدعاءُ العقدِ لا نفسُه، فلعلَّه جَرَى على أُجْرَةٍ معيَّنَةٍ وبمهرٍ آخرَ أو برعيةِ الأجلِ الأوَّلِ وَوَعَدَ له أنْ يوفِّيَ الأخيرَ إنْ تيسَّر له قبلَ العقدِ، وكانتِ الأغنامُ للمزوَّجةِ مع أنه يمكنُ اختلافُ الشرائعِ في ذلك. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ﴾ بإلزامِ إتمامِ العشرِ أو المناقشةِ في مراعاةِ الأوقاتِ واستيفاءِ الأعمالِ، واشتقاقِ المشقَّةِ من الشقِّ فإنَّ ما يصعبُ عليك يشقُّ عليك اعتقادُك في إطاقتِه ورأيك في مزاولتِه. ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حُسْنِ المعاملةِ ولينِ الجانبِ والوفاءِ بالمعاهدةِ.

(٢٨) ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ﴾ أي ذلك الذي عاهدْتَني فيه قائمٌ بينَنا لا نخرجُ عنه. ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ أطولُهما أو أقصرُهما. ﴿قَضَيْتُ﴾ وفَّيتك إياهُ. ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ لا تعتدي عليَّ بطلبِ الزيادةِ فكما لا أطالِبُ بالزيادةِ على العشرِ لا أطالبُ بالزيادةِ على الثَّمانِ، أو فلا أكونُ متعدياً بِتَرْكِ الزيادةِ عليه كقولِكَ لا إثْمَ عليَّ، وهو أبلغُ في إثباتِ الخيرةِ وتساوي الأَجَلَيْنِ في القضاءِ مِنْ أنْ يُقالَ إنْ قضيْتَ الأقصرَ فلا عدوانَ عليَّ. وقُرِىءَ أيْما كقولِه:

تنَظَّرْت نَصْراً وَالسماكينِ أيْمَا عليَّ مِنَ الغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُه[(١)]

وأيُّ الأجلينِ ما قضيتَ فتكونُ ما مزيدةً لتأكيدِ الفعلِ أي: أيُّ الأجلينِ جرَّدتَ عزمي لقضائِه، وعِدوانَ بالكسرِ. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من المشارطةِ. ﴿وَكِيلٌ﴾ شاهدٌ حفيظٌ.

(٢٩) ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ بامرأتِه. رُوِيَ أنه قضَى أقصَى الأجلينِ ومكثَ بعدَ ذلك عندَه عشراً أخرى ثم عزمَ على الرجوعِ[(٢)]. ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ﴾ أبصرَ من الجهةِ التي تلي

---

(١) من الطويل.

(٢) أخرج البخاري (٥/٢٨٩ ـ ٢٩٠ رقم ٢٦٨٤) عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حَبر العرب فأسأله. فقدمت فسألتُ ابن عباس فقال: قضى=

الطور. ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ بخبرِ الطريقِ. ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ عودٍ غليظٍ سواءٌ كان في رأسِه نارٌ أو لم يكنْ.

قال:

بَـاتَـتْ حَـوَاطِـبُ لَيْلَـى يَلْتَمِسْـنَ لَهَـا   جـزلَ الجـذى غَيْـرَ خـوارٍ وَلاَ دَعِـرِ[1]

وقال آخر:

وأَلْقَـى عَلَـى قَبس مِـنْ النَّـارِ جَـذْوَة   شَـدِيـداً عَلَيْـهِ حَـرُّهَـا وَالتِهَـابُهَـا[2]

ولذلك بيَّنه بقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وقرأ عاصمٌ بالفتحِ، وحمزةُ بالضمِّ وكلُّها لغاتٌ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدْفِئُون بها.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

(٣٠) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أتاه النداءُ من الشاطىءِ الأيمنِ لموسى. ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ متصل بالشاطىء أو صلةٌ لِنُودِيَ. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدلٌ من شاطىءٍ بدلَ الاشتمالِ لأنَّها كانتْ ثابتةً على الشاطىءِ. ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي يا موسى. ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا وإنْ خالفَ ما في طه والنملِ لفظاً فهو طِبْقُهُ في المقصودِ.

(٣١) ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أي فألقاها فصارتْ ثعباناً واهتزَّتْ فلما رآها تهتزُّ. ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ في الهيئةِ والجثةِ أو في السرعةِ. ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ منهزماً من الخوفِ. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجِعْ. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ نودي يا موسى. ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ من المخاوفِ، فإنه لا يخافُ لديَّ المرسلون.

(٣٢) ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أدخِلْها. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ عيبٍ. ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يديْكَ المبسوطتينِ تتقي بهما الحيةَ كالخائفِ الفزِعِ بإدخالِ اليمنى تحتَ عضُدِ اليسرى وبالعكسِ، أو

= أكثرهما وأطيبهما، إنّ رسول الله ﷺ إذا قال فعل».

● المقصود بقوله: رسول الله ﷺ: من اتصف بذلك ولم يرد شخصاً بعينه.

(١) من البسيط.

(٢) من الطويل.

بإدخالهما في الجيبِ فيكونُ تكريراً لغرضٍ آخرَ وهو أنْ يكونَ ذلك في وجهِ العدوِّ إظهارَ جراءةٍ ومبدأً لظهورِ معجزةٍ، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بالضمِّ التجلُّدُ والثباتُ عندَ انقلابِ العصَا حيةً استعارةً من حالِ الطائرِ فإنه إذا خافَ نشرَ جناحيهِ وإذا أَمِنَ واطمأنَّ ضمَّهما إليه. ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ من أجلِ الرَّهْبِ أي إذا عراكَ الخوفُ فافعلْ ذلك تجلُّداً وضبْطاً لنفسِك. وقرأ ابن عامر وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر بضمِّ الراءِ وسكونِ الهاءِ، وقُرِىءَ بضمِّهما، وقرأ حفصٌ بالفتحِ والسكونِ والكلُّ لغاتٌ. ﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارةً إلى العصا واليدِ، وشدَّده ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورويسٌ. ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ حجَّتانِ وبُرْهانُ فُعْلانُ لقولهم أَبْرَهَ الرجلُ إذا جاءَ بالبرهانِ من قولِهم بَرِهَ الرجلُ إذا ابيضَّ، ويُقَالُ برهاءُ وَبَرَهْرَهَةٌ للمرأةِ البيضاءِ وقيل فُعْلالُ لقولِهم بَرْهَنَ. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُرْسَلاً بهما. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ فكانوا أحِقَّاء بأنْ يُرْسَلَ إليهم.

قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بها.

(٣٤) ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ معيناً وهو في الأصل اسمُ ما يُعَانُ به كالدفءِ، وقرأ نافعٌ رِدَاً بالتخفيف. ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ بتخليصِ الحقِّ وتقريرِ الحجَّةِ وتزييفِ الشبهةِ. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يطاوِعُني عند المحاجَّةِ، وقيل المرادُ تصديقُ القوم لتقريرِهِ وتوضيحِه لكنَّه أُسْنِدَ إليه إسنادَ الفعلِ إلى السببِ. وقرأ عاصمٌ وحمزةُ يصدقُني بالرفع على أنه صفةٌ والجوابُ محذوفٌ.

(٣٥) ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقوِّيك به فإنَّ قوَّةَ الشخص بشدةِ اليدِ على مزاولةِ الأمورِ، ولذلك يُعَبَّرُ عنه باليد وشدَّتِها بشدةِ العضُدِ. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ غلبةً أو حَجَّةً. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاءٍ أو حِجَاجٍ. ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أي اذهبا بآياتِنا، أو بنجعلَ أيْ نسلِّطُكما بها، أو بمعنى لا يصِلُون أي تَمْتَنِعُون منهم، أو قسمٌ جوابُه لا يَصِلُون، أو بيانٌ للغالبونَ في قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ بمعنى أنه صلةٌ لما بينَه أو صلةٌ له على أنَّ اللامَ فيه للتعريفِ لا بمعنى الذي.

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ سحرٌ تختلِقُه لم يُفْعَلْ قبلُ مثلُه، أو سحرٌ تعملُه ثم تفتريه على اللهِ؛ أو سحرٌ موصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أنواعِ السحرِ. ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾ يعنُونَ السحرَ أو ادِّعاءَ النبوةِ. ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كائناً في أيامِهم.

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى
ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ
وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

(٣٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ فيعلمُ أني محقٌّ وأنتم مبطلونَ. وقرأ ابنُ كثير قال بغيرِ واوٍ. لأنه قال ما قاله جواباً لمقالِهم، ووجهُ العطفِ أنَّ المرادَ حكايةُ القولَيْنِ ليوازنَ الناظرُ بينَهما فيميِّز صحيحَهما من الفاسدِ. ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ﴾ العاقبةُ المحمودةُ فإنَّ المرادَ بالدارِ الدنيا وعاقبتُها الأصليةُ هي الجنةُ لأنها خُلِقَتْ مجازاً إلى الآخرةِ، والمقصودُ منها بالذاتِ هو الثوابُ والعقابُ إنما قُصِدَ بالعرضِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ يكون بالياءِ. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسنِ العاقبةِ في العُقْبى.

(٣٨) ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ نَفَى عِلْمَه بإلهٍ غيرِه دونَ وجودِه إذ لم يكنْ عندَه ما يقتضي الجزمَ بعدمِه، ولذلك أَمَرَ ببناءِ الصرحِ ليصعدَ إليه ويتطلَّعَ على الحالِ بقوله: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كأنه توهَّم أنه لو كان لكان جِسْماً في السماءِ يمكنُ الترقِّي إليه ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أو أرادَ أنْ يبنيَ له رَصَداً يترصَّدُ منه أوضاعَ الكواكبِ فيرى هل فيها ما يدلُّ على بِعْثَةِ رسولٍ وتبدُّلِ دولةٍ، وقيل المرادُ بنفي العلمِ نفيُ المعلومِ كقوله تعالى ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1] فإنَّ معناه بما ليس فيهنَّ، وهذا من خواصِّ العلومِ الفعليةِ فإنها لازمةٌ لتحقُّقِ معلوماتِها فيلزمُ منِ انتفائِها لك انتفاؤُها، ولا كذلك العلومُ الانفعاليةُ، قيل أولُ منِ اتخذَ الآجُرَّ فرعونُ ولذلك أمرَ باتخاذه على وجْهٍ يتضمَّن تعليمَ الصنعةِ مع ما فيه من تعظُّمٍ؛ ولذلك نادى هامانَ باسمِه بيا في وسطِ الكلامِ.

(٣٩) ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ بغير استحقاقٍ. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ بالنشور. وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي بفتحِ الياءِ وكسرِ الجيمِ.

(٤٠) ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ كما مر بيانُه، وفيه فخامةٌ وتعظيمٌ لشأنِ الآخذِ واستحقارٌ للمأخوذينَ كأنه أخذَهم مع كثْرتِهم في كفٍّ وطرحَهم في اليمِّ، ونظيرهُ قولُه تعالى ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾[2] ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾[3] ﴿فَٱنظُرۡ﴾

---

(١) يونس: «١٨».
(٢) الأنعام: «٩١».
(٣) الزمر: «٦٧».

يا محمدُ. ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وحذِّرْ قومَك عن مثلِها.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا
لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا
ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ
ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

(٤١) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ قدوةً للضلالِ بالحملِ على الإضلالِ، وقيل بالتسميةِ كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾(١)، أو بمنعِ الألطافِ الصارفةِ عنه. ﴿ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ إلى موجباتِها من الكفرِ والمعاصي. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفعِ العذابِ عنهم.

(٤٢) ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ طرداً عن الرحمةِ، أو لعنَ اللاعنينَ يلعنُهم الملائكةُ والمؤمنون. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ من المطرودين، أو ممن قَبُحَ وجوهُهم.

(٤٣) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراةَ. ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أقوامَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ. ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أنواراً لقلوبهم تتبصَّر بها الحقائقَ وتميزُ بينَ الحقِّ والباطل. ﴿ وَهُدًى﴾ إلى الشرائعِ التي هي سُبُلُ اللهِ تعالى. ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لأنهم لو عمِلوا بها نالوا رحمةَ الله سبحانه وتعالى. ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليكونوا على حالٍ يُرجَى منهم التذكُّرُ، وقد فسّر بالإرادةِ وفيه ما عرفْتَ.

(٤٤) ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ يريدُ الواديَ، أوِ الطورَ فإنه كان في شقِّ الغربِ من مقامِ موسى، أو الجانبِ الغربيِّ منه والخطابُ لرسولِ الله ﷺ أي ما كنتَ حاضِراً. ﴿ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ إذ أوحينا إليه الأمرَ الذي أردْنَا تعريفَه. ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للوحْيِ إليه أو على الوحْيِ إليه، وهم السبعونَ المختارونَ للميقاتَ، والمراد الدلالةُ على أنَّ إخبارَه عن ذلك من قبيلِ الإخبارِ عن المغيَّباتِ التي لا تُعْرَفُ إلا بالوحْيِ ولذلك استدرك عنه بقوله:

(٤٥) ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ أي ولكنّا أوحينا إليك لأنا أنشأْنا قروناً مختلفةً بعد موسى فتطاولتْ عليهم المددُ، فحُرِّفَتِ الأخبارُ وتغيَّرتِ الشرائعُ واندرستِ العلومُ، فحذفَ المستدرِكَ وأقامَ سببَهُ مُقَامَهُ. ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيماً. ﴿ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ شعيبِ والمؤمنين به. ﴿ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ تقرأُ عليهم تعلُّماً منهم. ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ التي فيها قِصّتُهم. ﴿ وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إياك ومخبرينَ لك بها.

(١) الزخرف: «١٩».

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا
بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ لعلَّ المرادَ به وقتُ ما أعطاهُ التوراةَ وبالأَولِ حينَ ما استنبأَه لأنهما المذكورانِ في القصْدِ. ﴿وَلَٰكِن﴾ علَّمناك. ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وقُرِئَتْ بالرفعِ على هذه رحمةٌ من ربِّك. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلِّقٌ بالفعلِ المحذوفِ. ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لوقوعِهم في فترةٍ بينَك وبينَ عيسى، وهي خمسُمِائةٍ وخمسونَ سنةً، أو بينَك وبينَ إسماعيلَ، على أنَّ دعوةَ موسى وعيسى عليهما الصلاةُ والسلام كانتْ مختصَّةً ببني إسرائيلَ وما حَوالَيْهِم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتَّعِظُون.

(٤٧) ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لولا الأُولى امتناعيةٌ والثانية تحضيضيةٌ واقعةٌ في سياقِها، لأنها إنما أُجِيبَتْ بالفاءِ تشبيهاً لها بالأمرِ مفعولُ يقولوا المعطوفُ على تصيبُهم بالفاءِ المعطِيَةِ معنَى السببيَّةِ المنبهةِ على أنَّ القولَ هو المقصودُ بأنْ يكونَ سبباً لانتفاءِ ما يُجابُ به، وأنه لا يصدُر عنهم حتى تلجِئَهم العقوبةُ والجوابُ محذوفٌ والمعنى: لولا قولُهم إذا أصابتْهم عقوبةٌ بسبب كفرهم ومعاصِيهم ربَّنا هلاَّ أرسلْت إلينا رسولاً يبلِّغنا آياتِك فنتَّبعَها ونكونَ من المصدِّقينَ، ما أرسلناك أي إنما أرسلناك قَطْعاً لِعُذْرِهم وإلزاماً للحجَّةِ عليهم. ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ يعني الرسولَ المصدَّقَ بنوعٍ من المعجزات. ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٤٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الكتابِ جملةً واليدِ والعصا وغيرِها اقتراحاً وتعنُّتاً. ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ يعني أبناءَ جِنْسِهم في الرأي والمذهبِ وهم كفرةُ زمانِ موسى، أو كان فرعونُ عربياً من أولادِ عادٍ. ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ يعني موسى وهارونَ، أو موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام. ﴿تَظَٰهَرَا﴾ تعاونا بإظهارِ تلك الخوارقِ أو بتوافُقِ الكتابين. وقرأ الكوفيونَ سِحْرانِ بتقديرِ مضافٍ أو جعلَهما سِحْرَيْنِ مبالغةً، أو إسنادُ تظاهُرِهما إلى فعلِهما دلالةً على سببِ الإعجازِ. وقُرِىءَ اظَّاهرا على الإدغامِ. ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ اي بكلٍّ منهما أو بكلِّ الأنبياءِ.

(٤٩) ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ مما أُنْزِلَ على موسى وعلى محمدٍ، وإضمارُهما لدلالةِ المعنى، وهو يؤيدُ أنَّ المرادَ بالساحرينِ موسى ومحمدٌ عليهما الصلاة والسلام. ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إنا ساحرانِ مختلفانِ، وهذا من الشروط التي يُرادُ بها الإلزامُ والتبكيتُ، ولعلَّ مجيءَ حرفِ الشكِ للتهكُّم بهم.

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِۚ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ
الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾

(٥٠) ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ دعاءَك إلى الإتيانِ بالكتابِ الأَهْدَى فحَذَفَ المفعولَ للعلمِ به، ولأنَّ فعلَ الاستجابةِ يُعَدَّى بنفسه إلى الدعاءِ وباللامِ إلى الداعي، فإذا عُدِّيَ إليه حُذِفَ الدعاءُ غالباً كقوله:

وداعٍ دعـا يـا مَـنْ يُجيـبُ إلَـى النِّـدَا فلَـمْ يَسْتَجِبْـهُ عِنْـدَ ذَاكَ مُجِيـبُ

﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ﴾ إذ لو اتَّبعوا حجَّةً لأَتَوْا بها. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ استفهامٌ بمعنى النفي. ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِۚ﴾ في موضعِ الحالِ للتأكيدِ أو التقييدِ، فإنَّ هوى النَّفْسِ قد يوافِقُ الحقَّ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسَهم بالانهماكِ في اتباعِ الهوى.

(٥١) ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أتبعْنا بعضَه بعضاً في الإنزالِ ليتصلَ التذكيرُ، أو في النظمِ لتتقررَ الدعوةُ بالحجَّةِ والمواعظِ بالمواعيد والنصائحِ بِالعِبَرِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون ويطيعون.

(٥٢) ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ نزلتْ في مؤمني أهلِ الكتابِ[١]، وقيل في أربعينَ مِنْ أهلِ الإنجيلِ اثنانِ وثلاثونَ جاءوا مع جعفرٍ من الحبشةِ وثمانيةٌ من الشام[٢]، والضميرُ في مِنْ قبلِه للقرآنِ كالمستكِنِّ في:

(٥٣) ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي بأنه كلامُ الله تعالى. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ استئنافٌ لبيانِ ما أوجبَ إيمانَهم به. ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ استئنافٌ آخرُ للدلالةِ على أنَّ إيمانَهم به ليس مما أحدثوه حينئذٍ، وإنما هو أمرٌ تقادَم عهدُه لما رأوا ذِكْرَهُ في الكتُبِ المتقدِّمةِ وكونُهم على دين الإسلام قبلَ نزولِ القرآنِ، أو تلاوتِه عليهم باعتقادِهم صِحَّته في الجملةِ.

(٥٤) ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرةً على إيمانهم بكتابِهم ومرةً على إيمانهم بالقرآنِ. ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبْرِهم وثباتِهم على الإيمانَيْنِ، أو على الإيمان بالقرآنِ قبلَ النزولِ وبعدَه، أو على أذى المشركينَ

(١) انظر «زاد المسير» (٦/ ٢٠٢٩) و«الدر المنثور» (٦/ ٤٢٦).
(٢) انظر «زاد المسير» (٦/ ٢٢٩).
وقال سيد قطب في «الظلال» (٥/ ٢٧٠٠ ـ ٢٧٠١):
وأياً من كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع، يعلمونه ولا ينكرونه كي يقفهم وجهاً لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن، وتطمئن إليه، وترى فيه الحق وتعلم مطابقته لما بين أيديها من الكتاب. ولا يصدها عنه صاد من هوى، ولا من كبر، وتحتمل في سبيل الحق الذي آمنت به ما يصيبها من أذى وتطاول من الجهلاء، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء» هـ.

ومَنْ هاجَرَهُم من أهل دينهم. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون بالطاعةِ المعصيةَ لقوله ﷺ: «أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها»[1]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ تكرُّماً. ﴿وَقَالُواْ﴾ للاَّغينَ. ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ متاركةً لهم وتوديعاً، أو دعاءً لهم بالسلامةِ عمَّا هم فيه. ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نطلبُ صُحْبَتَهم ولا نريدُها.

(٥٦) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدِرُ على أنْ تُدْخِلَهم في الإسلامِ. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فيدخلُه في الإسلام. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بالمستعِدِّين لذلك. والجمهورُ على أنها نزلتْ في أبي طالبٍ فإنه لما احتضرَ جاءه رسولُ الله ﷺ وقال: «يا عمِّ قلْ لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عندَ الله» قال: يا ابنَ أخي قد علمتُ إنك لصادقٌ ولكنْ أكرهُ أنْ يُقَالَ خُدِعَ عندَ الموتِ[2].

(٥٧) ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ نُخْرَجْ منها. نزلتْ في الحرثِ بنِ عثمانَ بنِ نوفلِ بنِ عبدِ منافٍ، أتى النبيَّ ﷺ فقال: نحن نعلمُ أنك على الحقِّ ولكنَّا نخافُ إنِ اتبعناك وخالفْنا العربَ ـ وإنما نحن أكَلَةُ رأسٍ ـ أنْ يتخطَّفونا من أرضنا[3] فردَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أَوَلَمْ نجعلْ مكانَهم حَرَماً ذا أَمْنٍ بحُرمةِ البيتِ الذي فيه يتناحرُ العربُ حولَه وهم آمِنُون فيه. ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ يُحْمَلُ إليه ويُجْمَعُ فيه، وقرأ نافع ويعقوبُ في روايةٍ بالتاءِ. ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من كلِّ أَوْبٍ. ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كانَ هذا حالُهم وهم عَبَدَةُ الأصنامِ فكيف نعرِّضُهم للتخوُّفِ والتخطُّفِ إذا ضمُّوا إلى حرمةِ البيتِ حُرْمَةَ التوحيد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جَهَلَةٌ لا يتفطَّنون له ولا يتفكَّرون

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٧٧) والترمذي (٤/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦ رقم ١٩٨٧).
وقال حديث حسن صحيح. وأخرجه الحاكم (١/ ٥٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وأخرجه الدارمي (٢/ ٣٢٣) من حديث أبي ذر.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٥ رقم ٤١ و٤٢/ ٢٥) من حديث أبي هريرة.
وأخرجه البخاري مطولاً بلفظ آخر (٨/ ٥٠٦ رقم ٤٧٧٢) من حديث المسيَّب.

(٣) أخرجه النسائي في «التفسير» (رقم: ٤٠٥) عن ابن عباس بسند منقطع.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ج٢٠/ ٩٤) بسند ضعيف.
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

ليعلموه، وقيل إنه متعلِّقٌ بقوله من لدنَّا أي قليلٌ منهم يتدبَّرون فيعلمونَ أنَّ ذلك رزقٌ من عند اللهِ، وأكثرُهم لا يعلمون إذ لو علِمُوا لما خافوا غَيْرَهُ، وانتصابُ رزقاً على المصدرِ من معنى يُجْبَى، أو حالٌ من الثمراتِ لتخصُّصِها بالإضافةِ، ثم بيَّنَ أنَّ الأمرَ بالعكسِ فإنهم أحِقَّاءُ بأنْ يخافوا من بأسِ اللهِ على ما هم عليه بقوله:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

(٥٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي وكم من أهلِ قريةٍ كانتْ حالُهم كحالهم في الأمْنِ وخفْضِ العيشِ حتى أَشِرُوا فدمَّر اللهُ عليهم وخرَّبَ ديارَهم. ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاويةٌ. ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السُّكْنى إذ لا يسكُنها إلا المارَّةُ يوماً أو بعضَ يوم، أو لا يبقَى مَنْ يسكُنها من شؤْمِ معاصِيهم. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم إذ لم يخلُفْهم أحدٌ يتصرَّفُ تصرُّفَهم في ديارهم وسائرِ متصرَّفاتِهم، وانتصابُ معيشتها بنزعِ الخافضِ أو بجعْلِها ظرفاً بنفسِها كقولك: زيد ظَنِّي مقيمٌ، أو بإضمارِ زمانٍ مضافٍ إليها أو مفعولاً على تضمينِ بَطِرتْ معنى كَفَرَتْ.

(٥٩) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما كانت عادتُه. ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ في أصلِها التي هي أعمالُها، لأنَّ أهلَها تكون أفطنَ وأنبلَ. ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ لإلزامِ الحجَّةِ وقطْعِ المعذرةِ. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بتكذيبِ الرسلِ والعتوِّ في الكفرِ.

(٦٠) ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ من أسباب الدنيا. ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تتمتَّعون وتتزيَّنون به مُدَّةَ حياتِكم المنقضيةِ. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو ثوابُه. ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسِه من ذلك لأنه لذَّةٌ خاصَّةٌ وبهجةٌ كاملةٌ. ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبديٌّ. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتستبدلونَ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، وقرأ أبو عمرو بالياءِ وهو أبلغُ في الموعظةِ.

(٦١) ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وعْداً بالجنة فإنَّ حُسْنَ الوعدِ بحسنِ الموعودِ. ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ مدركُه لا محالةَ، لامتناعِ الخلْفِ في وعدِه، ولذلك عطفَه بالفاءِ المعطيةِ معنَى السببيةِ. ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوبٌ بالآلامِ مكدَّرٌ بالمتاعبِ مستعْقَبٌ بالتحسُّرِ على الانقطاع. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب أو العذابِ، وثُم للتراخي في الزمان أوِ الرتبةِ. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر في روايةٍ والكسائيُّ ثمَّ هْو بسكونِ الهاءِ تشبيهاً للمنفصِلِ بالمتصلِ، وهذه الآيةُ كالنتيجةِ للتي قبلَها ولذلك رُتِّبَتْ عليها بالفاءِ.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ
أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ
يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطفٌ على يومِ القيامة أو منصوبٌ باذكرْ. ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فحُذِفَ المفعولانِ لدلالةِ الكلامِ عليهما.

(٦٣) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بثبوتِ مقتضاهُ وحصولِ مؤدَّاهُ **وهو قوله تعالى:** ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] وغيرُه من آيات الوعيد. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي هؤلاءِ الذين أغوينَاهم فحُذِفَ الراجعُ إلى الموصولِ. ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي أغويناهم فغَوَوْا غيّاً مثلَ ما غوينَا، وهو استئنافٌ للدلالةِ على أنهم غَوَوْا باختيارِهم وأنهم لم يفعلُوا بهم إلا وسوسةً وتسويلاً، ويجوزُ أنْ يكونَ الذين صفةً وأغويناهم الخبرَ لأجلِ ما اتصلَ به فإفادةُ زيادةٍ على الصفةِ، وهو إنْ كانَ فضْلَةً لكنَّه صارَ من اللوازمِ. ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم ومما اختاره من الكفرِ هَوَى منهم، وهو تقريرٌ للجملةِ المتقدمةِ ولذلك خلتْ عن العاطِفِ وكذا. ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدونَنا، وإنما كانوا يعبدُون أهواءَهم. وقيل ما مصدريةٌ متصلةٌ بتبرّأنا أي تبرأنا من عبادتِهم إيَّانا.

(٦٤) ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾ من فَرْطِ الحيرةِ. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ لعجزِهم عن الإجابة والنُّصْرةِ. ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ لازماً بهم. ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ لوجْهٍ من الحيلِ يدفعونَ به العذابَ، أو إلى الحقِّ لما رَأَوا العذابَ لو للتَّمنِّي أي تمنَّوا أنهم كانوا مهتدينَ.

(٦٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطفٌ على الأولِ فإنه تعالى يسألُ أولاً عن إشراكِهم به ثم عن تكذيبهم الأنبياءَ.

(٦٦) ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ فصارتِ الأنباءُ كالعمي عليهم لا تهتدي إليهم، وأصلُه فعمُوا عن الأنباءِ لكنه عكسَ مبالغةً ودلالةً على أنَّ ما يحضرُ الذهنَ إنما يُفْبَضُ ويَرِدُ عليه من خارجٍ فإذا أخطأه لم يكنْ له حيلةٌ إلى استحضارِه، والمرادُ بالأنباءِ ما أجابوا به الرسلَ أو ما يعمُّها وغيرَها، فإذا كانتِ الرسل يتتعتَعُونَ في الجوابِ عن مثلِ ذلك من الهولِ ويفوِّضُون إلى علمِ اللهِ تعالى فما ظَنُّك بالضُّلَّالِ من أُمَمِهم، وتعديةُ الفعلِ بِعَلَى لتضمُّنه معنى الخفاءِ. ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسألُ بعضُهم بعضاً عن الجوابِ لفرطِ الدهشةِ والعلمِ بأنه مثلُه في العجزِ.

---

(١) هود: «١١٩».

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ
مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا
يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا
تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾

(٦٧) ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشركِ. ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وجمع بينَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ. ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ عندَ الله وعسى تحقيقٌ على عادةِ الكرامِ، أو ترجٍّ من التائبِ بمعنى فلْيتوقعْ أنْ يفلحَ.

(٦٨) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ لا موجِبَ عليه ولا مانعَ له. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي التخيُّر كالطِّيَرَةِ بمعنَى التطيُّرِ، وظاهرهُ نفيُ الاختيارِ عنهم رأساً والأمرُ كذلك عندَ التحقيقِ، فإنَّ اختيارَ العبادِ مخلوقٌ باختيارِ اللهِ منوطٌ بدواعٍ لا اختيارَ لهم فيها، وقيل المرادُ أنه ليس لأحدٍ من خلْقه أنْ يختارَ عليه ولذلك خلا عن العاطفِ، ويؤيده ما رُوِيَ أنه نزلَ في قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1]. وقيل ما موصولةٌ مفعولٌ ليختارَ والراجعُ إليه محذوفٌ والمعنَى: ويختارُ الذي كان لهم فيه الخِيَرَةُ أي الخيرُ والصلاحُ. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهٌ له أنْ ينازِعَه أحدٌ أو يزاحِمَ اختيارَه اختيارٌ. ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو مشاركةِ ما يشركونَه.

(٦٩) ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعداوةِ الرسولِ وحِقْدِهِ. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كالطعنِ فيه.

(٧٠) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المستحقُّ للعبادةِ. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحدَ يستحِقُّها إلا هو. ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأنه المولي للنِّعَمِ كلِّها عاجلِها وآجلِها يحمدُه المؤمنونَ في الآخرةِ كما حمدُوه في الدنيا بقولِهم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[2] ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[3] ابتهاجاً بفضلِه والتذاذاً بحمْدِه. ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاءُ النافِذُ في كلِّ شيءٍ. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالنشورِ.

(٧١) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائماً من السَّرْدِ وهو المتابعةُ والميمُ مزيدةٌ كميمِ دلامِصٍ. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإسكانِ الشمسِ تحتَ الأرضِ أو تحريكِها حولَ الأُفُقِ الغائرِ. ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ كان حقُّه هل إلهٌ فذُكِرَ بِمَنْ على زعْمِهم أنَّ غيرَهُ آلهةٌ. وعن ابنِ كثيرٍ بضئاءٍ بهمزتينِ. ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تدبُّرٍ واستبصارٍ.

---

(١) الزخرف: «٣١» وانظر أسباب النزول للسيوطي ص١٥٣.

(٢) فاطر: «٣٤».

(٣) الزمر: «٧٤».

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ
تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾
وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ
بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

(٧٢) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بإسْكَانِها في وَسَطِ السماءِ أو تحريكِها على مدارٍ فوقَ الأفقِ. ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةٌ عن متاعبِ الأشغالِ، ولعلَّه لم يصفِ الضياءَ بما يقابلُه لأنَّ الضوءَ نعمةٌ في ذاتِه مقصودٌ بنفسِه ولا كذلك الليلُ، ولأنَّ منافعَ الضوءِ أكثرُ مما يقابلُه ولذلك قَرَنَ أفلا تسمعونَ وبالليلِ. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنَّ استفادةَ العقلِ من السمعِ أكثرُ مِن استفادتِه من البصرِ.

(٧٣) ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ في الليلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار بأنواعِ المكاسبِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تعرِفُوا نعمةَ الله في ذلك فتشكروه عليها.

(٧٤) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريعٌ بعدَ تقريعٍ للإشعارِ بأنه لا شيءَ أجلبُ لغضبِ اللهِ منَ الإشراكِ به، أوِ الأولُ لتقريرِ فسادِ رأيِهم والثاني لبيانِ أنه لم يكنْ عن سندٍ وإنما كان محضَ تَشَهٍّ وهَوًى.

(٧٥)﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجْنا. ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيُّهم يشهدُ عليهم بما كانوا عليه. ﴿فَقُلْنَا﴾ للأُمم. ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ على صحةِ ما كنتم تَدِيْنُونَ به. ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ حينئذ. ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشارِكُه فيها أحدٌ. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغابَ عنهم غيبةَ الضائعِ. ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الباطلِ.

(٧٦) ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان ابنَ عمِّه يصهرُ بنُ قاهثِ بنِ لاوى وكان ممن آمنَ به. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فطلبَ الفضلَ عليهم وأن يكونوا تحتَ أمرِه، أو تكبَّر عليهم أو ظَلَمَهُم. قيل وذلك حين ملَّكَهُ فرعونُ على بني إسرائيلَ، أو حسدَهم لما رُوِيَ أنه قال لموسى عليه السلام: لك الرسالةُ ولهارونَ الحبورةُ وأنا في غيرِ شيءٍ إلى متى أصبرُ؟ قال موسى هذا صنعُ اللهِ. ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ من الأموالِ المدَّخرةِ. ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ مفاتيحَ صناديقِه جمعُ مِفْتَحٍ بالكسر وهو ما يُفْتَحُ به، وقيل خزائنُه وقياسُ واحدِها المفتحُ. ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ خبرُ إنَّ، والجملةُ صلةٌ وهو ثاني مفعولي آتى، وناء به الحِملُ إذا أثقلَه حتى أمالَه، والعُصْبَةُ والعِصَابةُ الجماعةُ الكثيرةُ واعصَوْصَبُوا اجتمعُوا. وقرىء

لَيَنوءُ بالياءِ على إعطاء المضافِ حكْمَ المضافِ إليه. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ منصوبٌ بتنوءُ. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطرْ والفرحُ بالدنيا مذمومٌ مطلقاً لأنه نتيجةُ حبِّها والرِّضَا بها والذهولُ عن ذهابِها، فإنَّ العلمَ بأنَّ ما فيها مِنَ اللذَّةِ مفارَقَةٌ لا محالةَ يوجبُ التَّرحَ كما قيلَ:

أشـدّ الغَـمَّ عِنـدي فِـي سُـرُورٍ … تيَقّـن عَنْـهُ صَـاحِبَـهُ انْتِقَـالاً

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1]، وعلَّل النهيَ ها هنا بكونه مانِعاً من محبةِ اللهِ تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي بزخارفِ الدنيا.

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

(٧٧) ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الغِنَى. ﴿ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ بصرفِه فيما يوجِبُها لك فإنَّ المقصودَ منه أنْ يكونَ وصْلةً إليها. ﴿وَلَا تَنسَ﴾ ولا تتركْ تركَ المنسيِّ. ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو أنْ تحصلَ بها آخرتَك وتأخذَ منها ما يكفيك. ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عبادِ الله. ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعمَ الله عليك. وقيل أحسنْ بالشكرِ والطاعةِ كما أحسنَ إليك بالإنعام. ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأمرٍ يكون عِلَّةً للظُّلمِ والبغي، نهيٌ له عما كان عليه من الظلمِ والبغي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوءِ أفعالهم.

(٧٨) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فُضِّلْتُ به على الناس واستوجبتُ به التفوُّقَ عليهم بالجاهِ والمالِ، وعلى علمٍ في موضعِ الحالِ وهو علمُ التوراةِ وكان أعْلَمَهُم بها، وقيل هو الكيمياءُ، وقيل علمُ التجارةِ والدهْقَنَةِ وسائرُ المكاسب، وقيل العلمُ بكنوز يوسفَ، وعندي صفةٌ له أو متعلِّقٌ بأوتيتُه كقولك: جاز هذا عندي أي في ظنِّي واعتقادي. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ تعجُّبٌ وتوبيخٌ على اغتراره بِقوَّته وكثرةِ مالِه، مع علمِه بذلك لأنه قرأهُ في التوراةِ وسمعَه من حفَّاظِ التواريخِ، أو ردٌّ لادِّعائِه للعلمِ وتعظُّمِه به بنفي هذا العلمِ عنه أي أعِنْدَهُ مِثْلُ ذلك العلمِ الذي ادَّعى. ولم يعلمْ هذا حتَّى يقيَ به نفسَه مصارعَ الهَالِكينَ. ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ سؤالُ استعلامٍ فإنه تعالى مطَّلِعٌ عليها، أو معاتبةٍ فإنهم يُعَذَّبونَ بها بغتةً، كأنه لما هُدِّدَ قارونُ بذكرِ إهلاكِ مَنْ قبلَه ممَّنْ كانوا أقوى منه وأغنى أكَّدَ ذلك بأنْ بيَّنَ أنه لم يكنْ مطَّلِعاً على ما يخصُّهم بلِ اللهُ مطَّلِعٌ على ذنوبِ المجرمينَ كلِّهم معاقِبُهم عليها لا محالةَ.

---

(١) الحديد: ٢٣.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ كما قيل إنه خرجَ على بغلةٍ شهباءَ عليه الأُرجوانُ وعليها سَرْجٌ من ذهبٍ ومعه أربعةُ آلافٍ على زِيِّه. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على ما هو عادةُ الناسِ من الرغبةِ. ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾ تمنوا مثلَه لا عينَه حذَراً عن الحسدِ. ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الدنيا.

(٨٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بأحوالِ الآخرة للمتمنِّيْنَ. ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاءٌ بالهلاكِ اسْتُعْمِلَ للزَّجْرِ عما لا يُرْتَضَى. ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ مما أوتي قارونُ بل من الدنيا وما فيها. ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ الضميرُ فيه للكلمةِ التي تكلَّم بها العلماءُ أو للثواب، فإنه بمعنَى المثوبةِ أو الجنةِ أو للإيمانِ والعملِ الصالحِ فإنهما في معنى السيرةِ والطريقةِ. ﴿إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ على الطاعاتِ وعن المعاصي.

(٨١) ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ رُوِيَ[1] أنه كان يؤذي موسَى عليه السلام كلَّ وقتٍ وهو يداريه لقرابتِه حتى نزلتِ الزكاةُ، فصالحه عن كلِّ ألفٍ على واحدٍ فَحَسَبَهُ فاستكثرهُ، فعمدَ إلى أنْ يفضحَ موسى بينَ بني إسرائيلَ ليرفُضُوهُ، فَبَرْطَلَ بَغِيَّةً لترميه بنفسِها فلما كان يومُ العيد قام موسى خطيباً فقال: مَنْ سرقَ قطعْناه، ومن زَنَى غيرَ محصَنٍ جلدْناه، ومن زنى محصَناً رجمناه، فقال قارون ولو كنتَ قال: ولو كنتُ، قال إنَّ بني إسرائيلَ يزعمونَ أنك فَجَرْتَ بفلانةَ فأُحْضِرَتْ، فناشدَها موسى عليه السلام باللهِ أنْ تصدقَ فقالتْ: جعلَ لي قارونُ جُعَلًا على أنْ أرمِيَكَ بنفسي، فخرَّ موسى شاكياً منه إلى ربِّه فأوحَى إليه أنْ مُرِ الأرضَ بما شِئْتَ فقال: يا أرضُ خذيه فأخذتْه إلى ركبتيه، ثم قال خذيهِ إلى وسطِه، ثم قال خذيهِ فأخذتْه إلى عُنُقِه، ثم قال خذيه فخُسِفَتْ به وكان قارونُ يتضرَّع إليه في هذه الأحوالِ فلم يرحمْه، فأوحَى اللهُ إليه ما أفظَّك استرحمكَ مراراً فلم ترحَمْهُ، وعزَّتي وجلالي لو دعاني مرةً لأجبتُه، ثم قال بنو إسرائيلَ: إنما فعلَه ليرثَه، فدعا اللهَ تعالى حتى خَسَفَ بدارِه وأموالِه. ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أعوانٍ مشتقةً من فَأَوْتُ رأسَه إذا ميَّلْتَه. ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيدفعونَ عنه عذابَه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ الممتنِعين منه مِنْ قولهم نصرهُ من عدوِّه فانتصرَ إذا منعَه منه فامتنعَ.

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٢٤) عن ابن عباس.

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ
لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل
رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾

(٨٢) ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ منزلتَهُ. ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ منذُ زمانٍ قريبٍ. ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يبسطُ ويقدرُ بِمقتضَى مشيئتِه لا لكرامةٍ تقتضي البسْطَ ولا لهوانٍ يوجِبُ القبضَ، وويكأنَّ عندَ البصريينَ مركبٌ من ويْ للتعجبِ وكأنّ للتشبهِ والمعنى: ما أشبهَ الأمرَ أنَّ اللهَ يبسطُ الرزقَ. وقيل مِنْ ويْكَ بمعنى ويْلَكَ وأنَّ تقديره ويْكَ اعلمْ أنَّ اللهَ. ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعْطِنا ما تمنَّيْنَا. ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ لتوليدِه فينا ما ولَّدَهُ فيه، فخسفَ بنا لأجلِه. وقرأ حفصٌ بفتحِ الخاءِ والسينِ. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمةِ الله أو المكذِّبونَ بِرُسُلِه وبما وعدوا لهم من ثوابِ الآخرة.

(٨٣) ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ إشارةُ تعظيمٍ كأنه قال: تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها، والدار صفة والخبر: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ غلبة وقهراً. ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ ظلماً على الناس كما أراد فرعون وقارون. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما لا يرضاه الله.

(٨٤) ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذاتاً وقدراً ووصفاً. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وضعَ فيه الظاهرَ موضعَ الضمير تهجيناً لحالِهم بتكريرِ إسنادِ السيئةِ إليهم. ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي إلا مثلَ ما كانوا يعملون فحُذِفَ المِثْلُ وأُقيمَ ما كانوا يعملون مقامَهُ مبالغةً في المماثَلَةِ.

(٨٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجبَ عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ بما فيه. ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيِّ معادٍ، وهو المقامُ المحمودُ الذي وعدَكَ أنْ يبعثَك فيه، أو مكة[1] التي اعْتَدْتَ بها على أنه من العادةِ ردُّه إليها يومَ الفتحِ، كأنه لما حكمَ بأنَّ العاقبةَ للمتقين وأكَّدَ ذلك بوعدِ المحسنينَ ووعيدِ المسيئينَ وَعَدَهُ بالعاقبةِ الحسنى في الدارين. روي أنه لما بلغَ جحفةَ في مهاجَرِهِ اشتاقَ إلى مولدِهِ ومولدِ آبائه فنزلتْ[2]. ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يستحقُّه من الثوابِ والنصرِ ومَنْ منتصِبٌ بفعلٍ يفسِّره أعلمُ. ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما استحقَّه من العذابِ والإذلالِ يعني به نفسَه والمشركين، وهو تقريرٌ للوعد السابقِ وكذا قولُه:

---

(١) أخرجه البخاري (٨/٥٠٩ ـ ٥١٠ رقم ٤٧٧٣) عن ابن عباس.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤١٤): «وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية، وإن كان مجموع السورة مكياً، والله أعلم» هـ.

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ أي سيردُّك إلى معادِك كما ألقى إليك الكتابَ وما كنتَ ترجوه. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولكنْ ألقاه رحمةً منه، ويجوزُ أنْ يكونَ استثناءً محمولاً على المعنى كأنه قال: وما ألقي إليك الكتابَ إلا رحمةً. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ بمداراتِهم والتحمُّلِ عنهم والإجابةِ إلى طِلْبَتِهم.

(٨٧) ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ عن قراءتها والعملِ بها. ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وقرىء يُصِدنَّكَ من أَصَدَ. ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادته وتوحيدِه. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمساعدتِهم.

(٨٨) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا وما قبلَه للتهييجِ وقطعِ أطماعِ المشركينَ عن مساعدته لهم. ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إلا ذاتَه فإنَّ ما عداهُ ممكِنٌ هالِكٌ في حدِّ ذاته معدومٌ. ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاءُ النافذُ في الخلْقِ. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاءِ بالحقِّ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ طسمَ القصصَ كان له من الأجر بعددِ مَنْ صدَّقَ موسى وكذَّبَ ولم يبقَ مَلَكٌ في السموات والأرضِ إلا شهدَ له يومَ القيامة أنه كان صادِقاً»[1].



(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب. كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٧ رقم ١٤٣) وهو حديث موضوع تقدم الكلام في آخر آل عمران.

سُورَةُ العَنْكَبُوتِ

ترتيبها ٢٩ — آياتها ٦٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾

سورة العنكبوت مكية وآيها تسع وستون آية[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾ سبق القولُ فيه، ووقوعُ الاستفهامِ بعدَه دليلُ استقلالِه بنفسِه أو بما يُضْمَرُ معهُ.

(٢) ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحسبانُ مما يتعلَّق بمضامينِ الجملِ للدلالةِ على جهةِ ثبوتها ولذلك اقتضَى مفعولينِ متلازمينِ أو ما يسدُّ مسدَّهما كقوله: ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ فإنَّ معناه أحسبوا تركَهم غيرَ مفتونينَ لقولهم آمنَّا، فالتركُ أولُ مفعولَيْه وغيرَ مفتونينَ من تمامِه ولقولهم آمنا هو الثاني كقولك: حسبتُ ضربَه للتأديبِ، أو أنفسَهم متروكينَ غيرَ مفتونينَ لقولهم آمنا بل يمتحنُهم الله بمشاقِّ التكاليفِ، كالمهَاجَرةِ والمجاهَدَةِ ورفضِ الشهواتِ ووظائفِ الطاعاتِ وأنواعِ المصائبِ في الأنفس

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/٤٤٩) و«زاد المسير» (٦/٢٥٣) والبحر المحيط (٧/١٣٩) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/٣٢٣) وفي ظلال القرآن (٥/٢٧١٨).

والأموالِ ليتميَّزَ المخلِصُ من المنافقِ والثابتُ في الدين من المضْطَرِب فيه، ولينالوا بالصبر عليها عواليَ الدرجاتِ، فإنَّ مجرَّدَ الإيمانِ وإنْ كان عن خلوصٍ لا يقتضي غيرَ الخلاصِ من الخلودِ في العذابِ. رُوِيَ أنها نزلتْ في ناسٍ من الصحابة جزِعُوا من أذى المشركين[١]، وقيل في عمَّارٍ وقد عُذِّبَ في الله تعالى[٢]، وقيل في مهجعٍ مولى عمرَ بنِ الخطاب رماه عامر بنُ الحضرمي بسهمٍ يومَ بدرٍ فقتلَه فجزِعَ عليه أبواهُ وامرأتُه[٣].

(٣) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ متصلٌ بِأَحَسِبَ أو بلا يفتنونَ، والمعنى أنَّ ذلك سنةٌ قديمة جاريةٌ في الأمم كلِّها فلا ينبغي أنْ يُتَوَقَّعَ خلافُه. ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فليتعلَّقنَّ علمُه بالامتحان تعلُّقاً حالياً يتميَّزُ به الذين صدقوا في الإيمان والذين كذَّبوا فيه، وينوطُ به ثوابَهم وعقابَهم ولذلك قيل المعنى وليُمَيِّزَنَّ أو ليجازينَّ، وقرىء وليُعْلِمَنَّ من الإعلامِ أي وليعرفنَّهم اللهُ الناسَ أو ليَسِمَنَّهُمْ بِسِمَةٍ يُعْرَفُونَ بها يومَ القيامة كبياضِ الوجوهِ وسوادِها.

(٤) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفرَ والمعاصيَ فإنَّ العملَ يعمُّ أفعالَ القلوب والجوارح. ﴿أَن يَسْبِقُونَا۟﴾ أنْ يفوتُونا فلا نقدِرُ أنْ نجازِيَهُم على مساويهم وهو سادٌّ مسدَّ مفعولي حسِبَ لاشتمالَه على مسندٍ ومسندٍ إليه، ويجوزُ أنْ يضمَّنَ حسبَ معنى قَدَرَ أو أمْ منقطعةٌ والإضرابُ فيها لأنَّ هذا الحسبانَ أبطلُ من الأولِ ولهذا عقَّبه بقولِه: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئسَ الذي يحكمونَه، أو حكماً يحكمونَه حكمَهم هذا فحذفَ المخصوصَ بالذمِّ.

(٥) ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ في الجنة، وقيل المرادُ بلقاء الله الوصولُ إلى ثوابه، أو إلى العاقبةِ من الموت والبعثِ والحساب والجزاء، على تمثيلِ حاله بحالِ عبدٍ قَدِمَ على سيِّده بعد زمانٍ مديدٍ وقد اطَّلعَ السيدُ على أحواله، فإما أنْ يلقاهُ ببِشْرٍ لما رضيَ من أفعاله أو بسخطٍ لما سخِطَ منها. ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ الوقْتَ المضروبَ لِلِقَائِه. ﴿لَءَاتٍ﴾ لجاءٍ وإذا كان وقتُ اللقاء آتياً كان اللقاءُ كائناً لا محالةَ، فلْيبادرْ ما يحققُ أملَه ويصدِّقُ رجاءَه أو ما يستوجِبُ به القربةَ والرضا. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالِ العباد. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعقائدِهم وأفعالِهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ج٢٠/١٢٩) عن الشعبي، وذكره الواحدي في الأسباب (ص٣٤٠).

(٢) أخرجه ابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن عبدالله بن عبيد بن عمير ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٠) ـ.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٢٧ رقم ١٤٤) «ذكره الثعلبي عن مقاتل. . .».
ثم قال: «وسنده إلى مقاتل في أول كتابه، وفي «الدلائل» لابن أبي شيبة من طريق القاسم بن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن مسعود قال: «أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر» هـ.
وذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٤٠).
● قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠): «وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب وفي هذه الجماعة فهي بمعناها باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها، بقية الدهر وذلك أن الفتنة من الله تعالى، والاختبار باق في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ولكن التي تشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدو في كل ثغر» هـ.

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا
لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ
وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه بالصبر على مضضِ الطاعة والكفِّ عن الشهوات. ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأنَّ منفعتَهُ لها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا حاجةَ به إلى طاعتِهم، وإنما كلَّف عبادَه رحمةً عليهم ومراعاةً لصلاحهم.

(٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الكفرَ بالإيمانِ والمعاصي بما يتبعُها من الطاعاتِ. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي أحسنَ جزاءِ أعمالِهم.

(٨) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ بإيتائهما فعلاً ذا حُسْنٍ، أو كأنه في ذاتِه حَسَنٌ لفرْطِ حُسْنِه ووصَّى يجري مجرى أَمَرَ معنًى وتصرُّفاً. وقيل هو بمعنى قالَ أي وقلنا له أحسنْ بوالديك حسناً. وقيل حسناً منتصبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ على تقدير قولٍ مفسِّر للتوصيةِ أي قلنا، أَوْلهما، أوِ افعلْ بهما حسناً، وهو أوفقُ لما بعدَه وعليه يحسنُ الوقفُ على بوالديه. وقرىء حَسَناً وإحساناً. ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بإلهيته، عبَّر عن نفيها بنفي العلم بها إشعاراً بأنَّ ما لا يُعْلَمُ صحتُه لا يجوزُ اتباعُه وإن لم يعلمْ بطلانَه فضلاً عما علم بطلانَه. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك فإنه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق، ولا بدَّ من إضمار القولِ إنْ لم يُضمَرْ قبلُ. ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجعُ مَنْ آمنَ منكم ومَنْ أشرك ومن برَّ بوالديه ومن عقَّ. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاءِ عليه، والآية نزلتْ[1] في سعد بنِ أبي وقاص وأمِّه حمنةَ، فإنها لما سمعتْ بإسلامه حلفتْ أنها لا تنتقلُ من الضَّحِّ ولا تطعمُ ولا تشربُ حتى يرتدَّ ولبثتْ ثلاثةَ أيام كذلك، وكذا التي في لقمانَ[2] والأحقافِ[3].

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في جملتهم، والكمالُ في الصلاح منتهى درجاتِ المؤمنينَ ومتمنَّى أنبياءِ الله المرسلينَ، أو في مُدْخَلِهم وهو الجنةُ.

(١٠) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ بأنْ عذَّبهم الكفرةُ على الإيمان. ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ ما يصيبه من أذيَّتهم في الصرفِ عن الإيمان. ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الصرفِ عن الكفرِ. ﴿وَلَئِن

---

(١) ذكره الواحدي في الأسباب (ص٣٤٠ ـ ٣٤١) والثعلبي والواقدي هكذا بغير سند، والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص (٤/١٨٧٧ رقم ١٧٤٨) بغير هذا السياق ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٧ رقم ١٤٦) ـ.
(٢) الآية: «١٥».
(٣) الآية: «١٥».

جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ فتحٌ وغنيمةٌ. ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ في الدِّين فأشركُونا فيه، والمراد المنافقونَ أو قومٌ ضَعُفَ إيمانُهم فارتدوا من أذى المشركين ويؤيدُ الأولَ. ﴿أَوَ لَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ من الإخلاصِ والنفاقِ.

وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ
سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾
وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا
نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ
وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم. ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فيجازي الفريقينِ.

(١٢) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ الَّذي نسلُكه في ديننا. ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ إنْ كان ذلك خطيئةً أو إن كان بعثٌ ومؤاخذةٌ، وإنما أَمَرُوا أنفسَهم بالحمْلِ عاطفينَ على أمرِهم بالاتباعِ مبالغةً في تعليقِ الحمْلِ بالاتباعِ والوعْدِ بتخفيفِ الأوزارِ عنهم إنْ كانتْ تشجيعاً لهم عليه، وبهذا الاعتبار ردَّ عليهم وكذَّبهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ مِنَ الأُولَى للتبيينِ والثانيةُ مزيدةٌ والتقدير: وما هم بحاملينَ شيئاً من خطاياهُم.

(١٣) ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ أثقالَ ما اقترفتْه أنفسُهم. ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ وأثقالاً أُخَرَ معَها لما تسبَّبوا له بالإضلالِ والحمْلِ على المعاصي من غير أنْ ينقصَ من أثقالِ مَنْ تبعَهم شيءٌ[1]. ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سؤالُ تقريعٍ وتبكيتٍ. ﴿عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من الأباطيلِ التي أضلُّوا بها.

(١٤) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ بعدَ المبعثِ، إذ رُوِيَ أنه بُعِثَ على رأسِ الأربعينَ ودعا قومه تسعَمائةٍ وخمسينَ وعاشَ بعد الطوفانِ ستينَ، ولعل اختيارَ هذه العبارةِ للدلالة على كمالِ العددِ فإن تسعَمائةٍ وخمسينَ قد يطلق على ما يقربُ منه ولما في ذِكْرِ الألفِ من تخييلِ طولِ المدةِ إلى السامعِ، فإنَّ المقصودَ من القصةِ تسليةُ رسولِ الله ﷺ وتثبيتُه على ما يكابدُه من الكفَرَةِ، واختلاف المميِّزَيْنِ لما في التكريرِ من البشاعةِ. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ طوفانُ الماءِ وهو لِمَا طافَ بكثرةٍ من سيلٍ أو ظلامٍ أو نحوِهما. ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ بالكفر.

(١٥) ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ أي نوحاً عليه الصلاة والسلام. ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ ومَنْ أَرْكَبَ معه من أولادِه وأتباعِه وكانوا ثمانينَ، وقيل ثمانيةً وسبعينَ، وقيل عشرةً نصفُهم ذكورٌ ونصفُهم إناثٌ. ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ﴾ أي السفينةَ أو الحادثةَ. ﴿ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يتَّعِظون ويستدلُّون بها.

---

(١) التعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة (س٧/ ٣٣).

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى
ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ عطفٌ على نوحاً أو نُصِبَ بإضمار اذْكُرْ، وقرىء بالرفع على تقدير ومِنَ المرسلين إبراهيمُ. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ظرفٌ لأرسلْنا أي أرسلْناه حينَ كَمُلَ عقلُه وتمَّ نظرهُ بحيثُ عرفَ الحقَّ وأمرَ الناسَ به، أو بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ إنْ قدِّر باذْكُرْ. ﴿وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخيرَ والشرَّ وتميِّزونَ ما هو خيرٌ مما هو شرٌّ، أو كنتم تنظرونَ في الأمورِ بنظرِ العلمِ دون نظرِ الجهلِ.

(١٧) ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وتكذِبون كذباً في تسميتِها آلهةً وادِّعاءِ شفاعتِها عندَ الله تعالى، أو تعملونَها وتنحِتُونها للإفكِ، وهو استدلالٌ على شرارةِ ما هم عليه من حيثُ إنه زورٌ وباطلٌ. وقرىء تُخَلِّقون من خَلَّقَ للتكثير وتَخَلَّقون من تَخَلق للتكلُّفِ. وإفكاً على أنه مصدرٌ كالكذبِ أو نعتٌ بمعنى خلقاً ذا إفكٍ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ دليلٌ ثانٍ على شرارةِ ذلك من حيثُ إنه لا يجدي بطائلٍ، ورزقاً يحتملُ المصدرَ بمعنى لا يستطيعون أنْ يرزقُوكم وأن يُرَادَ المرزوقُ وتنكيره للتعميم. ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ كلَّه فإنه المالكُ له. ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ متوسِّلينَ إلى مطالبِكُم بعبادته مقيِّدينَ لما حفَّكم من النِّعم بشكرِه، أو مستعدِّين للقائِه بهما، فإنه: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقرىء بفتحِ التاءِ.

(١٨) ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ وإنْ تكذِّبوني. ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ من قبلِي مِنَ الرسلِ فلم يضرَّهم تكذيبُهُم وإنما ضرَّ أنفسَهم حيثُ تسبَّبَ لما حلَّ بهم من العذابِ فكذا تكذيبكُم. ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي يُزَالُ معه الشكُّ وما عليه أنْ يُصَدَّقَ ولا يكذَّبَ، فالآية وما بعدَها من جملة قصةِ إبراهيمَ إلى قوله ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾[1] ويحتملُ أنْ تكونَ اعتراضاً بذكرِ شأنِ النبيِّ ﷺ وقريشٍ وهدْمِ مذهبِهم والوعيد على سوءِ صنيعِهم، توسَّطَ بينَ طَرَفَيْ قصَّته من حيثُ إنَّ مساقَها لتسليةِ رسولِ الله ﷺ والتنفيسِ عنه، بأنَّ أباه خليلَ الله ِصلواتُ الله ِعليهما كان ممنوَّاً بنحو ما مُنِيَ به من شركِ القومِ وتكذيبِهم وتشبيهِ حالِه فيهم بحالِ إبراهيمَ في قومِه.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ من مادةٍ ومن غيرِها. وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو بكر بالتاء على تقدير القولِ، وقرىء يبدأ. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ إخبارٌ بالإعادة بعدَ الموت معطوفٌ على أو لم يروا لا على يبدىءُ، فإنَّ الرؤيةَ غيرُ واقعةٍ عليه، ويجوز أنْ تؤوَّلَ الإعادةُ بأنْ ينشىءَ في كلِّ سنةٍ مثلَ

---

(١) العنكبوت: «٢٤».

ما كان في السنةِ السابقةِ من النباتِ والثمار ونحوهما وتُعْطَفُ على يبدئُ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإشارةُ إلى الإعادةِ أو إلى ما ذُكِرَ من الأمرينِ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقرُ في فعلِه إلى شيءٍ.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ
حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حكايةُ كلامِ الله لإبراهيمَ أو محمدٍ عليهما الصلاة والسلام. ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ على اختلافِ الأجناسِ والأحوالِ. ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ بعدَ النشأةِ الأولى التي هي الإبداءُ، فإنه والإعادةُ نشأتانِ من حيثُ أنَّ كلاً اختراعٌ وإخراجٌ من العدمِ، والإفصاحُ باسمِ اللهِ مع إيقاعِه مبتدأً بعدَ إضمارِه في بَدَأَ والقياسُ الاقتصارُ عليه للدلالةِ على أنَّ المقصودَ بيانُ الإعادةِ، وأنَّ مَنْ عُرِفَ بالقدرةِ على الإبداءِ ينبغي أنْ يُحْكَمَ له بالقدرة على الإعادةِ لأنها أهونُ والكلامُ في العطفِ ما مرَّ، وقرىء النشاءةَ كالرآفةِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنَّ قدرتَه لذاتِه ونسبةُ ذاتِه إلى كلِّ الممكناتِ على سواءٍ فيقدرُ على النشأةِ الأخرى كما قَدَرَ على النشأةِ الأولى.

(٢١) ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبَهُ. ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رحمتَهُ. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تُرَدُّونَ.

(٢٢) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ربَّكم عن إدراكِكم. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إنْ فَرَرْتُم من قضائِه بالتواري في الأرضِ أو الهبوطِ في مهاويها، والتحصُّنِ في السماء أو القِلاعِ الذاهبةِ فيها وقيل ولا مَنْ في السماء كقولِ حسانَ:

أَمَــنْ يَهْجُــو رَسُــولَ الله مِنْكُــمْ وَيَمْــدَحُــهُ وَيَنْصُــرهُ سَــوَاء

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرُسكم عن بلاءٍ يظهرُ من الأرضِ أو ينزلُ من السماء ويدفعُه عنكم.

(٢٣) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلائلِ وحدانيتِه أو بكُتبِه. ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ بالبعثِ. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي ييأسُونَ منها يومَ القيامة، فعبَّر عنه بالماضي للتحقُّقِ والمبالغةِ، أو أَيِسُوا في الدنيا لإنكارِ البعثِ والجزاءِ. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرِهم.

(٢٤) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ قوم إبراهيمَ له، وقرىء بالرفعِ على أنه الاسمُ والخبرُ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وكان ذلك قولَ بعضِهم لكنْ لما قيل فيهم ورضيَ به الباقونَ أُسْنِدَ إلى كلِّهم. ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي فقذفوه في النار فأنجاهُ الله منها بأنْ جعلَها عليه برداً وسلاماً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في إنجائه منها. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ هي حفظُه من أذى النارِ، وإخمادُها مع عِظَمِها في زمانٍ يسرٍ وإنشاءِ روضٍ مكانَها. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعونَ بالتفحُّصِ عنها والتأملِ فيها.

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

(٢٥) ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لتتوادُّوا بينكم وتتواصلُوا لاجتماعِكم على عبادتها، وثاني مفعولي اتخذتُم محذوفٌ، ويجوز أنْ تكونَ مودةُ المفعولَ الثاني بتقدير مضافٍ أي اتخذتم أوثانَ سببِ المودةِ بينِكم أو بتأويلها بالمودودةِ. وقرأها نافعٌ وابن عامر وأبو بكر منونةً ناصبةً بينَكم والوجْهُ ما سبقَ، وابنُ كثير وأبو عمرو والكسائي ورويسٌ مرفوعةً مضافةً على أنها خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أي هي مودودةٌ أو سببُ مودَّةٍ بينَكم. والجملةُ صفةُ أوثاناً أو خبرُ إنَّ على أنَّ ما مصدريةٌ أو موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ وهو المفعولُ الأولُ. وقُرِئَتْ مرفوعةً منونةً ومضافةً بفتحِ بينَكم كما قرىء ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[1] وقرىءَ إنما مودةُ بينِكم. ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يقومُ التناكرُ والتلاعُنُ بينكم، أو بينَكُم وبينَ الأوثانِ على تغليبِ المخاطَبينَ كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[2]. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلِّصونكُم منها.

(٢٦) ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ هو ابنُ أخيهِ وأولُ مَنْ آمن به، وقيل إنه آمنَ به حينَ رأى النارَ لم تحرقْه. ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ﴾ من قومي. ﴿إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ إلى حيثُ أمرني. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي. رُوِيَ[3] أنه هاجرَ من كُوثَى من سوادِ الكوفةِ مع لوطٍ وامرأتِه سارةُ ابنةُ عمِّه إلى حرَّانَ، ثم منها إلى الشامِ فنزلَ فلسطينَ، ونزلَ لوطٌ سدومَ.

(٢٧) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولداً ونافلةً حين أَيِسَ من الولادةِ من عجوزٍ عاقرٍ، ولذلك لم يذكرْ إسماعيلَ. ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ فكثُر منهم الأنبياءُ. ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ يريدُ به الجنسَ ليتناولَ الكتبَ الأربعةَ. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ على هجرتِه إلينا. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بإعطاءِ الولدِ في غير أوانه، والذريةِ الطيبةِ واستمرارِ النبوةِ فيهم وإنماءِ أهلِ المللِ إليه والثناءِ والصلاةِ عليه إلى آخرِ الدهرِ. ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لفي عِدَادِ الكاملينَ في الصلاحِ.

(٢٨) ﴿وَلُوطًا﴾ عطفٌ على إبراهيمَ أو على ما عُطِفَ عليه. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفِعْلةَ البالغةَ في القُبْحِ. وقرأ الحرميانِ وابن عامر وحفص بهمزةٍ مكسورةٍ على

(١) الأنعام: «٩٤».
(٢) مريم: «٨٢».
(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/٢٣٨).

الخبرِ[١] والباقونَ على الاستفهام وأجمعوا على الاستفهامِ في الثاني. ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لفاحِشَتِها من حيثُ إنها مما اشمأزَّتْ منه الطباعُ وتحاشَتْ عنه النفوسُ حتى أقدموا عليها لخبثِ طينتِهم.

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا
كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا
تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾

(٢٩) ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وتتعرَّضون للسابلةِ بالقتلِ وأخذِ المالِ أو بالفاحشةِ حتى انقطعتِ الطرقُ، أو تقطعونَ سبيلَ النسلِ بالإعراضِ عن الحرثِ وإتيانِ ما ليسَ بحرثٍ. ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾ في مجالسِكم الغاصَّةِ بأهلِها ولا يُقَالُ للنادي إلا لما فيه أهلُه. ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كالجماعِ والضراطِ وحلِّ الإزارِ وغيرها من القبائحِ عدمَ مبالاةٍ بها. وقيل الخَذفُ ورميُ البنادقِ. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في استقباحِ ذلك أو في دعوى النبوةِ المفهومةِ من التوبيخِ.

(٣٠) ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإنزالِ العذابِ. ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ باتباعِ الفاحشةِ وسنِّها فيمنْ بعدَهم، وصفَهم بذلك مبالغةً في استنزالِ العذابِ وإشعاراً بأنهم أحِقَّاءُ بأنْ يُعَجَّلَ لهم العذابُ.

(٣١) ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بالولدِ والنافلةِ. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قريةِ سدوم، والإضافةُ لفظيةٌ لأن المعنى على الاستقبالِ. ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ لإهلاكِهم لهم بإصرارِهم وتماديهم في ظلمهم الذي هو الكفر وأنواعُ المعاصي.

(٣٢) ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ اعتراضٌ عليهم بأنَّ فيها مَنْ لم يَظْلِمْ، أو معارضةٌ للموجِبِ بالمانعِ وهو كونُ النبيِّ بين أظهُرِهم. ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ تسلمٌ لقوله مع ادِّعاءِ مزيد العِلْمِ به وأنهم ما كانوا غافلينَ عنه وجوابٌ عنه بتخصيصِ الأهل بِمَنْ عداهُ وأهله، أو تأقيتُ الإهلاكِ بإخراجِهم منها، وفيه تأخيرٌ للبيانِ عن الخطابِ. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقينَ في العذابِ أو القريةِ.

(٣٣) ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ جاءته المساءةُ والغمُّ بِسَبَبِهِم مخافةَ أنْ يقصِدَهم قومُه بسوءٍ، وأنْ صلةٌ لتأكيد الفعلينِ واتصالِهما. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاقَ بشأنِهم وتدبيرِ أمرِهم ذرْعُه أي

(١) أي قرؤوا «إذ قال لقومه إنكم» بهمزة واحدة، بينما قرأ الباقون «أئنكم»، وأجمعوا على الاستفهام في الثاني أي في قوله «أئنكم لتأتون الرجال. . .».

طاقتُه كقولهم ضاقتْ يدُه وبإزائه رَحُبَ ذرْعُه بكذا إذا كان مطيقاً له، وذلك لأنَّ طويلَ الذراعِ ينالُ ما لا ينالُه قصيرُ الذراعِ. ﴿وَقَالُوا۟﴾ لما رأوا فيه أثرَ الضجرةِ. ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ على تمكُّنِهم منّا. ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وقرأ حمزةُ والكسائيُ ويعقوبُ لَنُنجِينّه ومُنجُوك بالتخفيف، ووافقهم أبو بكر وابنُ كثير في الثاني. وموضعُ الكافِ الجرُّ على المختارِ، ونَصْب أهْلَكَ بإضمارِ فعلٍ، أو بالعطفِ على محلِّها باعتبارِ الأصلِ.

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ
ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ
ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم
مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٤) ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذاباً منها، سُمِّيَ بذلك لأنه يُقلِقُ المعذَّبَ مِنْ قولهم ارتجزَ إذا ارتجسَ أي اضطربَ. وقرأ ابن عامر مُنَزِّلُونَ بالتشديدِ. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسببِ فِسْقِهم.

(٣٥) ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ هي حكايتُها الشائعةُ أو آثارُ الديارِ الخرِبةِ، وقيل الحجارةُ الممطَرةُ فإنها كانتْ باقيةً بعدُ، وقيل بقيةُ أنهارِها المسودَّةِ. ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملونَ عقولَهم في الاستبصارِ والاعتبارِ، وهو متعلِّق بتركنا أو آية.

(٣٦) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ وافعلوا ما ترجُون به ثوابه فأُقِيمَ المسبَّبُ مقامَ السببِ، وقيل إنه من الرجاءِ بمعنى الخوفِ. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

(٣٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلةُ الشديدةُ وقيل صيحةُ جبريلَ عليه السلام لأنَّ القلوبَ ترجُفُ لها. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ في بلدِهم أو دورِهم، ولم يُجْمَعْ لأَمْنِ اللَّبْسِ. ﴿جَٰثِمِينَ﴾ باركينَ على الرُّكبِ ميّتينَ.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ منصوبانِ بإضمارِ اذكرْ أو فعلٍ دلَّ عليه ما قبلَه مثلُ أهلكْنا. وقرأ حمزةُ وحفص ويعقوبُ وثمودَ غيرَ منصرفٍ على تأويلِ القبيلةِ. ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ أي تبيَّن لهم بعضُ مساكِنهم، أو إهلاكِهم من جهةِ مساكِنهم إذا نظرتُم إليها عندَ مرورِكم بها. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السويِّ الذي بيَّنه الرسلُ لهم. ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ متمكِّنينَ من النظرِ والاستبصارِ ولكنَّهم لم يفعلوا، أو متبينينَ أنَّ العذابَ لاحِقٌ بهم بإخبارِ الرسلِ لهم ولكنَّهم لجُوا حتى هلكُوا.

(٣٩) ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوف على عاداً، وتقديمُ قارونَ لشرفِ نسبِه. ﴿وَلَقَدْ

جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ فائتينَ بل أدركَهم أمرُ الله مِنْ سبق طالبَه إذا فاتَه.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿فَكُلًّا﴾ من المذكورين. ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ عاقبناه بذنبه. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصباءُ، أو مَلَكاً رماهُم بها كقوم لوطٍ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كمدينَ وثمودَ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارونَ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقومِ نوحٍ وفرعونَ وقومه. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ليعامِلَهم معاملةَ الظالم فيعاقِبَهُم بغير جُرْمٍ إذ ليس ذلك من عادته عزَّ وجلَّ. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتعرُّضِ للعذابِ.

(٤١) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ فيما اتخذوه مُعْتَمَداً ومتَّكلاً. ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فيما نسجتْه في الوهْنِ والخورِ بل ذاك أوهنُ فإن لهذا حقيقةً وانتفاعاً ما، أو مثلُهم بالإضافة إلى الموحد كمثلِها بالإضافة إلى رجلٍ بنَى بيتاً من حجرٍ وجصٍّ، والعنكبوتُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ والمذكرِ والمؤنثِ، والتاءُ فيه كتاء طاغوتٍ ويجمعُ على عناكيبَ وعناكبَ وعكابٍ وعكبةٍ وأعكُبٍ. ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيتَ أوهنُ وأقلُّ وقايةً للحرِّ والبردِ منه. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يرجعونَ إلى علمٍ لعلِموا أنَّ هذا مثلُهم وأنَّ دينَهم أوهنُ من ذلك، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ ببيتِ العنكبوتِ دينُهم سمَّاه به تحقيقاً للتمثيلِ فيكون المعنَى: وإنَّ أوهنَ ما يعتمدُ به في الدينِ دينُهم.

(٤٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ على إضمارِ القولِ أي قلْ للكفرة إنَّ الله يعلم، وقرأ البصريانِ بالياءِ حملاً على ما قبلَه وما استفهاميةٌ منصوبةٌ بتدْعُونَ ويعلمُ معلَّقَةٌ عنها ومِنْ للتبيينِ أو نافيةٌ ومِنْ مزيدةٌ وشيءٌ مفعولُ تدعون أو مصدريةٌ وشيءٌ مصدرٌ أو موصولةٌ مفعولٌ ليعلمَ ومفعولُ تدعون عائدُهَا المحذوفُ، والكلامُ على الأوَّلينِ تجهيلٌ لهم وتوكيدٌ للمَثَلِ وعلى الأخيرينِ وعيدٌ لهم. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليلٌ على المعنيينِ فإنَّ مِنْ فَرْطِ الغباوةِ إشراكُ ما لا يُعَدُّ شيئاً بِمَنْ هذا شأنُه، وأنَّ الجمادَ بالإضافةِ إلى القادرِ القاهرِ على كلِّ شيءِ البالغِ في العلمِ وإتقانِ الفعلِ الغايةَ كالمعدومِ، وأنَّ مَنْ هذا وصْفُه قادرٌ على مجازاتِهم.

(٤٣) ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ يعني هذا المثلَ ونظائرَه. ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لما بَعُدَ مِنْ أفهامِهم. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ ولا يعقلُ حُسْنَها وفائدتَها. ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ الذين يتدبَّرون الأشياءَ على ما ينبغي. وعنه ﷺ أنه تلا هذهِ الآيةَ فقال: «العالِمُ مَنْ عقلَ عن اللهِ فعمِلَ بطاعتِه واجتنبَ سُخْطَه»[1].

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٢٧ رقم ١٤٩): «ـ أخرجه ـ داود بن المحبر في كتاب «العقل» =

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

(٤٤) ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُحِقًّا غيرَ قاصِدٍ به باطلاً، فإنَّ المقصودَ بالذاتِ مَنْ خلقَها إفادةُ الخيرِ والدلالةُ على ذاتِه وصفاتِه كما أشارَ إليه بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم المنتفِعونَ به.

(٤٥) ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءته وتحفُّظاً لألفاظِه واستكشافاً لمعانيه، فإنَّ القارئَ المتأمِّلَ قد ينكشفُ له بالتكرارِ ما لم ينكشفْ له أولَ ما قَرَعَ سمعَه. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بأنْ تكونَ سبباً للانتهاءِ عن المعاصي حالَ الاشتغالِ بها وغيرِها منْ حيثُ إنها تذكِّرُ اللهَ وتورِّثُ النفسَ خشيةً منه. رُوِيَ أنَّ فتًى من الأنصارِ كان يصلِّي مع رسولِ الله ﷺ الصلواتِ ولا يدعُ شيئاً من الفواحشِ إلا ارتكَبه، فَوُصِفَ له عليه السلام فقال: «إنَّ صلاته ستنهاهُ» فلم يلبثْ أنْ تابَ[1]. ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وللصلاة أكبرُ مِنْ سائر الطاعاتِ، وإنما عبَّر عنها به للتعليل بأنَّ اشتمالها على ذكرِه هو العمدةُ في كونِها مفضَّلةً على الحسناتِ ناهيةً عن السيئاتِ، أو لَذِكْرُ اللهِ إيَّاكم برحمته أكبرُ مِنْ ذكرِكم إياه بطاعتِه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ منه ومن سائرِ الطاعاتِ فيجازيكم به أحسنَ المجازاةِ.

والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» ـ (بقية الباحث رقم ١٠٣٠) ـ عنه من حديث جابر. وأخرجه من طريق الحارث الثعلبي والواحدي، والبغوي ـ في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٤٣) ـ وذكره ابن الجوزي في الموضوعات» هـ.

وذكر ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦) أحاديث من كتاب «العقل» لداود بن المحبر. ثم قال: «وهذه الأحاديث من كتاب العقل لداود بن المحبر، وكلها موضوعة ذكرها الحارث في مسنده عنه».

قلت: وأورد ابن عراق الحديث في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢١٤).

وقال الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٦٠) في ترجمة (داود بن المحبر).

«حدثنا الصُّوريُّ قال: سمعتُ الحافظ عبدالغني بن سعيد يقول: قال الدارقطني: إن كتاب «العقل» وضَعَه أربعة: أولهم مَيْسَرَة بن عبدرَبِّه، ثم سَرَقه منه داود بن المحبر، فركَّبَه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبدالعزيز بن أبي رجاءٍ، فركَّبه بأسانيد أُخَر، ثم سَرَقه سليمان بن عيسى السِّجْزي فأتى بأسانيد أخر» هـ.

والخلاصة أنه لا يصح في العقل حديث. انظر «المنار المنيف» لابن قيم الجوزية ص٦٦ ـ ٦٧.

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٢٨ رقم ١٥٢): «ولم أجده».

وقد قال الشيخ عبدالفتاح أبو غدة في مقدمة كتاب «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» للقاري (ص٢٥): «قولهم في الحديث: لا أعرفه، أو: لم أعرفه، أو: لم أقف عليه، أو: لا أعرف له أصلاً، أو: لم أجد له أصلاً، أو: لم أقف له على أصل، أو: لا أعرفه بهذا اللفظ، أو: لم أره بهذا اللفظ. أو: لم أجده، أو: لم أجده هكذا، أو: لم يَرِد فيه شيء، أو: لا يُعلَمَ من أخرجه ولا إسنادُهُ، ونحوَ هذه العبارات إذا صَدَر من أحَدِ الحفاظ المعروفين، ولم يتعقَّبه أحد كفى للحكم على ذلك الحديث بالوضع» هـ.

۞ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٦) ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ إلا بالخصلةِ التي هي أحسنُ كمعارضةِ الخشونةِ باللينِ والغضبِ بالكظمِ والمشاغبةِ بالنُّصح، وقيل هو منسوخٌ بآيةِ السيفِ إذْ لا مجادلةَ أشدُّ منه وجوابُه أنه آخِرُ الدواءِ، وقيل المرادُ به ذو العهدِ منهم. ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ بالإفراطِ في الاعتداءِ والعنادِ أو بإثباتِ الولدِ وقولهم ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾[1] أو بنبذِ العهدِ ومنعِ الجزيةِ. ﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ هو من المجادلةِ بالتي هي أحسنُ. وعن النبيِّ ﷺ «لا تصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تكذِّبوهم وقولُوا آمنا بالله وبكتبِه ورسلِه فإنْ قالوا باطلاً لم تصدِّقوهم وإنْ قالوا حقاً لم تكذِّبوهم»[2]. ﴿ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ مطيعونَ له خاصَّةً وفيه تعريضٌ باتخاذِهم أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله.

(٤٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ ومثلُ ذلك الإنزالِ. ﴿ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وحياً مصدِّقاً لسائرِ الكتبِ الإلهيةِ وهو تحقيقٌ لقوله ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ هم عبدُالله بنُ سلام وأضرابُه، أو مَنْ تقدَّم عهدَ الرسول ﷺ من أهل الكتاب. ﴿ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ومن العرب أو أهلِ مكةَ أو مِمَّنْ في عهدِ الرسول من أهل الكتابَيْنِ. ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ بالقرآنِ. ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ مع ظهورِها وقيامِ الحجةِ عليها. ﴿ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ إلا المتوغِّلونَ في الكفرِ فإنَّ جزمَهُم به يمنعُهم عن التأمُّلِ فيما يفيدُ لهم صدقَها لكونها معجزةً بالإضافةِ إلى الرسولِ ﷺ كما أشارَ إليه بقوله:

(٤٨) ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ فإنَّ ظهورَ هذا الكتابِ الجامعِ لأنواعِ العلومِ الشريفةِ أميٌّ لم يُعْرَفْ بالقراءةِ والتعلُّمِ خارقٌ للعادةِ، وذِكْرُ اليمينِ زيادةُ تصويرٍ للمنفي، ونُفِيَ للتجوُّزِ في الإسنادِ. ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي لو كنتَ ممنْ يخطُّ ويقرأُ لقالوا لعلَّه تعلَّمه أوِ التقطه من كتبِ الأولينَ الأقدمينَ، وإنما سمَّاهم مبطلينَ لكفرِهم أو لارتيابِهم بانتفاءِ وجْهٍ واحدٍ من وجوهِ الإعجاز المكاثرةِ، وقيل لارتابَ أهلُ الكتابِ لوجدانِهم نعتَك على خلافِ ما في كتُبِهم فيكونُ إبطالُهم باعتبارِ الواقعِ دونَ المقدَّرِ.

---

(١) المائدة: «٦٤».

(٢) أخرجه أبو داود (٤/٥٩ رقم ٣٦٤٤) وابن حبان (ص٥٨ رقم ١١٠ ـ موارد) وأحمد في المسند (٤/١٣٦) والطبراني في الكبير (٢٢/٣٤٩ ـ ٣٥١ رقم ٨٧٤ ـ ٨٧٩) وعبدالرزاق في المصنف (١١/١١٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/١٠) كلهم من طريق الزهري عن ابن أبي نملة الأنصاري عن أبيه في سياق أطول من ذلك.
وقال الحافظ في «التقريب» (٢/٣٠٧ رقم ١٤٨): «نملة بن أبي نملة» مقبول.
فالحديث بهذا الإسناد فيه ضعف يسير يجبره حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (٨/١٧٠ رقم ٤٤٨٥) و(١٣/٣٣٣ رقم ٧٣٦٢) و(١٣/٥١٦ رقم ٧٥٤٢).

بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾

(٤٩) ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ بل القرآنُ. ﴿ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ يحفظونه لا يقدِرُ أحدٌ على تحريفِه. ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ المتوغِّلونَ في الظُّلمْ بالمكابرةِ بعدَ وضوحِ دلائلِ إعجازِها حتى لم يعتدُّوا بها.

(٥٠) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ مثلُ ناقةِ صالح وعصا موسى ومائدةِ عيسى، وقرأ نافع وابنُ عامر والبصريانِ وحفصٌ آياتٌ. ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ينزِّلُها كما يشاءُ لستُ أملِكُها فآتيكم بما تقترِحونه. ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ليس من شأني إلاّ الإنذارُ وإبانته بما أُعْطِيْتُ من الآياتِ.

(٥١) ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ آيةٌ مغنيةٌ عما اقترحوه. ﴿ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ تدومُ تلاوتُه عليهم متحدِّين به فلا يزالُ معهم آيةٌ ثابتةٌ لا تضمحلُّ بخلافِ سائرِ الآياتِ، أو يُتْلَى عليهم يعني اليهودَ بتحقيقِ ما في أيديهم من نعتِكَ ونعتِ دينك. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الكتابِ الذي هو آيةٌ مستمرةٌ وحجةٌ مبيِّنةٌ. ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ لنعمةً عظيمةً. ﴿ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وتذكرةٌ لمن همُّه الإيمانُ دونَ التعنُّتِ. وقيل إنَّ أُناساً من المسلمينَ أَتَوْا رسولَ اللهِ ﷺ بكتبٍ كُتِبَ فيها بعضُ ما يقول اليهودُ، فقال: «كَفَى بها ضَلالةَ قومٍ أنْ يرغَبوا عما جاءهم به نبيُّهم إلى ما جاء به غيرُ نبيهم» فنزلتْ[١].

(٥٢) ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ بصدقي وقدْ صدَّقني بالمعجزاتِ، أو بتبليغي ما أُرْسِلْتُ به إليكم ونُصْحي ومقابلتُكم إيايَ بالتكذيب والتعنُّتِ. ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فلا يَخفَى عليه حالي وحالُكم. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وهو ما يُعْبَدُ من دونِ الله. ﴿ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ منكم. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ في صفقتِهم حيثُ اشتروا الكفرَ بالإيمان.

(٥٣) ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ بقولهم: أمطِرْ علينا حجارةً من السماء. ﴿ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ لكلِّ عذابٍ أو قومٍ. ﴿ لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ عاجلاً. ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ فجأةً في الدنيا كوقعةِ بدرٍ أو الآخرةِ عندَ نزولِ الموتِ بهم. ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه.

(٥٤) ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ستحيطُ بهم يومَ يأتيهم العذابُ، أو هي كالمحيطةِ بهم الآنَ لإحاطةِ الكفرِ والمعاصي التي توجبُها بهم. واللامُ للعهدِ على وضعِ الظاهرِ موضعَ

---

(١) أخرجه الدارمي (١/ ١٢٤) وأبو داود في «المراسيل» (ص٣٢٠ رقم ٤٥٤) وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/٧) من حديث ابن جعدة مرسلاً ـ وإسناد الدرامي صحيح وهو مرسل ـ.

المضمَرِ للدلالةِ على موجبِ الإحاطةِ، أو للجنسِ فيكونُ استدلالاً بحكمِ الجنسِ على حُكْمِهم.

يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ
أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟
وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

(٥٥) ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرفٌ لمحيطةٌ أو مقدرةٌ مثلَ كانَ كيتَ وكيتَ. ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ من جميع جوانبهم. ﴿وَيَقُولُ﴾ اللهُ أو بعضُ ملائكتِه بأمرِه لقراءةِ ابنِ كثير وابنِ عامر والبصريينَ بالنونِ. ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءَه.

(٥٦) ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتسهَّلْ لكم العبادةُ في بلدةٍ ولم يتيسَّرْ لكم إظهارُ دينِكم فهاجِروا إلى حيثُ يتمشَّى لكم ذلك، وعنه عليه الصلاة والسلام: «من فرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو كان شبراً استوجبَ الجنةَ وكانَ رفيقَ إبراهيمَ ومحمدٍ عليهما السلام»[1]. والفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ إذِ المعنى إنَّ أرضِي واسعةٌ إن لم تخلِصُوا العبادة لي في إرضٍ فأخلِصُوها في غيرِها.

(٥٧) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تنالُه لا محالةَ. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للجزاءِ ومَنْ هذا عاقبتُه ينبغي أنْ يجتهدَ في الاستعدادِ له. وقرأ أبو بكر بالياءِ.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ لننزلَنَّهم. ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ علاليَ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ لنثوينَّهم أي لنقيمَنَّهم من الثَّواءِ فيكون انتصابُ غرفاً لإجرائِه مجرى لننزلنَّهم، أو بنزعِ الخافضِ، أو بتشبيهِ الظرفِ المؤقَّتِ بالمبهَمِ. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وقرىء فَنِعْمَ والمخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

(٥٩) ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أذيَّةِ المشركينَ والهجرةِ للدين إلى غيرِ ذلك من المِحَنِ والمشاقِّ. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ولا يتوكلون إلا على اللهِ.

(٦٠) ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيقُ حملَه لضعفِها أو لا تدَّخره، وإنما تصبحُ ولا معيشةَ عندَها. ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ثم إنها مع ضعفِها وتوكُّلِها وإياكم مع قوَّتِكم واجتهادِكم سواءٌ في أنه لا يرزقُها وإيَّاكم إلا اللهُ، لأنَّ رزقَ الكلِّ بأسبابٍ هو المسبِّبُ لها وحدَه فلا تخافوا على معاشِكم بالهجرةِ، فإنَّهم لما أُمِرُوا بالهجرةِ قال بعضُهم كيفَ نقدمُ بلدةً ليس لنا فيها معيشةٌ فنزلتْ[2]. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولِكم هذا. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضميرِكم.

---

(١) التصريح بذكرهم، وإنما عدل عنه إلى الغائب فذكر صفتهم.

(٢) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٦/ ٢٨٢) والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٣٦٠) والبغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٥٢).

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ
دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

(٦١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ المسؤولُ عنهم أهلُ مكَّةَ. ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لما تقرَّر في العقولِ من وجوبِ انتهاءِ الممكِناتِ إلى واحدٍ واجبِ الوجودِ. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُونَ عن توحيدِه بعد إقرارِهم بذلك.

(٦٢) ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ الموسَعُ له والمضيَّقُ عليه واحداً على أنَّ البسطَ والقبضَ على التعاقُبِ وألا يكونَ على وضعِ الضميرِ موضِعَ مَنْ يشاءُ وإبهامُه لأنَّ مَنْ يشاء مُبْهَمٌ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلمُ مصالِحَهُم ومفاسِدَهم.

(٦٣) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ معترفِين بأنه الموجِدُ للممكناتِ بأسْرِها أصولِها وفروعِها، ثم إنَّهم يشركونَ به بعضَ مخلوقاتِه الذي لا يقدرُ على شيءٍ من ذلك. ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عَصَمَكَ من مِثْلِ هذه الضلالةِ، أو على تصديقِك وإظهارِ حجَّتك. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيتناقضونَ حيثُ يقرُّون بأنه المبدئُ لكلِّ ما عداه ثم إنهم يشركونَ به الصَّنَمَ، وقيل لا يعقلونَ ما تريدُ بتحميدِك عندَ مقالِهم.

(٦٤) ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارة تحقيرٍ وكيفَ لا وهي لا تزنُ عند الله جناحَ بعوضةٍ. ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ إلا كما يلْهى ويلعبُ به الصبيانُ يجتمعونَ عليه ويبتهجُون به ساعةً ثم يتفرَّقون متعبينَ. ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ لهي دارُ الحياة الحقيقيةِ لامتناعِ طريانِ الموتِ عليها، أو هي في ذاتها حياةٌ للمبالغةِ، والحيوانُ مصدرُ حيٍّ سُمِّيَ به ذو الحياةِ وأصلُه حَيَيَانٌ فقلبتِ الياءُ الثانيةُ واواً وهو أبلغُ من الحياةِ لما في بناء فعلانَ من الحركةِ والاضطرابِ اللازمِ للحياةِ، ولذلك اخْتِيْرَ عليها ههنا. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لم يؤثِروا عليها الدنيا التي أصلُها عدمُ الحياةِ، والحياةُ فيها عارضةٌ سريعةُ الزوالِ.

(٦٥) ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ متصلٌ بما دلَّ عليه شرحُ حالِهم أي هم على ما وُصِفُوا به من الشركِ فإذا ركبوا البحرَ. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كائنينَ في سورةِ مَنْ أخلصَ دينَه من المؤمنينَ حيثُ لا يذكرون إلا اللهَ ولا يدْعُونَ سواهُ لِعِلْمِهم بأنه لا يكشفُ الشدائدَ إلا هو. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجؤُوا المعاودةَ إلى الشركِ.

(٦٦) ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللامُ فيه لامُ كي أي يشركون ليكونوا كافرينَ بشركِهم نعمةَ النجاةِ. ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ باجتماعِهم على عبادةِ الأصنامِ وتوادِّهم عليها، أو لامُ الأمرِ على التهديدِ ويؤيدُه قراءةُ ابنِ كثير وحمزةَ والكسائيِّ وقالونَ عن نافعٍ ولْيتمتعوا بالسكونِ. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ ذلك حين يُعاقَبُوْنَ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

(٦٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أهلَ مكَّةَ. ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ أي جعلْنا بلدَهم مصوناً عن النَّهْبِ والتعدِّي آمناً أهلُه عن القتلِ والسبي. ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يُخْتَلَسُونَ قتلاً وسبياً إذ كانتِ العربُ حولَه في تغاورٍ وتناهُبٍ. ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أبعدَ هذه النعمةِ المكشوفةِ وغيرِها مما لا يقدرُ عليه إلا اللهُ يؤمنون بالصنمِ أو الشيطانِ. ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ حيثُ أشركوا به غيرَهُ وتقديمُ الصِّلتينِ للاهتمامِ أوِ الاختصاصِ على طريقِ المبالغةِ.

(٦٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأنْ زعمَ أنَّ له شريكاً. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ يعني الرسولَ أو الكتابَ، وفي لمَّا تسفيهٌ لهم بأنْ لم يتواقفُوا ولم يتأملوا قطُّ حينَ جاءَهم بل سارعُوا إلى التكذيبِ أولَ ما سمعُوه. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ تقريرٌ لثوائِهم كقوله: أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا أي ألا يستوجبونَ الثواءَ فيها وقدِ افتروا مثلَ هذا الكذبِ على اللهِ وكذَّبوا بالحقِّ مثلَ هذا التكذيبِ، أو لاجترائِهم أي ألم يعلَموا أنَّ في جهنَّمَ مثوًى للكافرين حتى اجترؤوا مثلَ هذه الجراءةِ.

(٦٩) ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ في حقِّنا، وإطلاقُ المجاهدةِ ليعمَّ جهادَ الأعادي الظاهرةِ والباطنةِ بأنواعِه. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سبلَ السيرِ إلينا والوصولِ إلى جَنَابِنَا، أو لنزيدنَّهم هدايةً إلى سبيلِ الخيرِ وتوفيقاً لسلوكِها كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[١] وفي الحديثِ: «من عملَ بما علِمَ ورَّثهُ اللهُ عِلْمَ ما لم يعلمْ»[٢]. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصرِ والإعانةِ. قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قرأ سورةَ العنكبوتِ كان له من الأجر عشرُ حسناتٍ بعدد كلِّ المؤمنينَ والمنافقينَ»[٣].

☆ ☆ ☆

(١) محمد: «١٧».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٤ ـ ١٥) من حديث أنس بن مالك.
وقال أبو نعيم رحمه الله «ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل» هـ.
وأورده الألباني في «الضعيفة» رقم (٤٢٢) وحكم عليه بالوضع، وقال: وفي الطريق إليه جماعة لم أعرفهم فلا أدري من وضعه منهم.

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٢٨ رقم ١٥٨) وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الرُّومِ

ترتيبها ٣٠ آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ
الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

سورة الروم مكية
إلا قولَه «فسبحانَ اللهِ» الآيةَ
وآيُها ستونَ أو تسعٌ وخمسونَ آية(١)
بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾.

(٢) ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾.

(٣) ﴿فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أرضِ العرب منهم لأنها الأرضُ المعهودةُ عندَهم، أو في أدنى أرضِهم منَ العربِ، واللامُ بدلٌ من الإضافةِ. ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ من إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ. وقُرِىءَ غَلْبِهم وهو لغةٌ كالجَلَب والجَلْبِ. ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾.

---

(١) مكية بالإجماع دون خلاف. انظر «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٨) و«زاد المسير» (٦/ ٢٨٦) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١) و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٤١).

(٤) ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ رُوِيَ(١) أنَّ فارسَ غزوا الرومَ فوافُوهم بأذرعاتٍ وبُصْرى، وقيل بالجزيرةِ وهي أدنى أرضِ الرومِ من الفرسِ فغَلَبوا عليهم وبلَغَ الخبرُ مكّةَ ففرحَ المشركونَ وشمِتُوا بالمسلمينَ وقالوا: أنتم والنصارى أهلُ كتابٍ ونحنُ وفارسُ أميونَ وقد ظهرَ إخوانُنا على إخوانِكم ولَنَظْهَرَنَّ عليكم فنزلتْ، فقال لهم أبو بكر: لا يقرَّنَّ اللهُ أعينَكم فوالله لتظهرنَّ الرومُ على فارسَ بعدَ بضعِ سنينَ، فقال له أبيُّ بنُ خلفٍ: كذبْتَ اجعلْ بينَنا أجلاً أُناحِبْك عليه، فناحَبَه(٢) على عشرِ قلائصَ(٣) من كلِّ واحدٍ منهما وجعلا الأجلَ ثلاثَ سنينَ، فأَخْبَرَ أبو بكر رضيَ الله عنه رسولَ اللهِ ﷺ فقال البِضْعُ ما بينَ الثلاثِ إلى التسعِ فزايدَه في الخطرِ ومادَّه في الأجلِ، فجعلاهُ مائةَ قلوصٍ إلى تسعِ سنينَ وماتَ أبيٌّ من جرحِ رسولِ الله ﷺ بعدَ قفولِه من أُحُدٍ وظهرتِ الرومُ على فارسَ يومَ الحديبيةِ فأخذ أبو بكر الخطرَ من ورثةِ أبيٍّ، وجاءَ به إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: «تصدَّقْ به»(٤) واستدلَّتْ به الحنفيةُ على جوازِ العقودِ الفاسدةِ في دارِ الحربِ، وأُجِيبَ بأنه كان قبلَ تحريمِ القمارِ، والآيةُ من دلائلِ النبوةِ لأنها إخبارٌ عن الغيبِ. وقرىء غَلَبَتْ بالفتحِ وسيُغْلَبونَ بالضمِّ ومعناهُ أنَّ الرومَ غَلَبوا على ريفِ الشامِ والمسلمونَ سيغلبونَهم، وفي السنةِ التاسعةِ من نزولِه غزاهم المسلمونَ وفتحُوا بعضَ بلادِهم وعلى هذا تكونُ إضافةُ الغَلْبِ إلى الفاعلِ. ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ منْ قبلِ كونِهم غالبينَ وهو وقتُ كونِهم مغلوبينَ، ومن بعدِ كونِهم مغلوبينَ وهو وقتُ كونِهم غالبينَ أي له الأمرُ حين غَلَبوا وحين يُغْلَبُونَ ليس شيءٌ منهما إلا بقضائِه، وقُرِىءَ من قبلٍ ومن بعدٍ من غير تقديرِ مضافٍ إليه كأنه قيلَ قبلاً وبعداً أي أولاً وآخراً. ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ويومَ تَغْلِبُ الرومُ. ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

(٥) ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ مَنْ له كتابٌ على من لا كتابَ له لما فيه من انقلابِ التفاؤلِ وظهورِ صدقِهم فيما أخبرا به المشركينَ وغلبتِهم في رهانِهم وازديادِ يقينِهم وثباتِهم في دينِهم، وقيلِ بنصرِ اللهِ المؤمنينَ بإظهارِ صدقِهم أو بأنْ وليَ بعضُ أعدائهم بعضاً حتى تفانَوا. ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فينصرُ هؤلاءِ تارةً وهؤلاءِ أخرى. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ينتقمُ من عباده بالنصرِ عليهم تارةً ويتفضَّلُ عليهم بنصرِهم أخرى(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٤٤ رقم ٣١٩٤) من حديث نيار بن مُكَرَّم الأسلمي.
قال الترمذي: هذا حديث صحيح حسن غريب.
وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٧٦، ٣٠٤) والترمذي (٥/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤ رقم ٣١٩٣) وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/ ١٦) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٩ رقم ١٢٣٧٧) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٠).
وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي وصححه أيضاً أحمد شاكر في المسند (رقم: ٢٤٩٥).

(٢) المناحبة: المخاطرة والمراهنة.

(٣) القلُوص من الإبل بمنزلة الجارية من النساء وهي الشابة (المصباح المنير ـ مادة قلص).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٣) إليه. من حديث البراء.

(٥) وتقديم «العزيز» على «الرحيم» لتقدمه في الاعتبار (س٧/ ٥٠).

وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا
عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ﴾ مصدرٌ مؤكِّد لنفسِه لأنَّ ما قبلَه في معنى الوعدِ. ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لامتناعِ الكذبِ عليه تعالى. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعْدَه ولا صِحَّةَ وعْدِه لجهلِهم وعدمِ تفكُّرِهم.

(٧) ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ما يشاهدونه منها والتمتُّع بزخارفها. ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ التي هي غايتُها والمقصودُ منها. ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا تخطرُ ببالهم، وهم الثانيةُ تكريرٌ للأُولى أو مبتدأٌ وغافلونَ خبرُه، والجملةُ خبرُ الأولى، وهو على الوجهينِ منادٍ على تمكُّنِ غفلتِهم عن الآخرةِ المحقَّقةِ لمقتضى الجملةِ المتقدِّمة المبدلَةِ من قولِه: لا يعلمون تقريراً لجهالَتِهم وتشبيهاً لهم بالحيواناتِ المقصورِ إدراكُها من الدنيا ببعضِ ظاهرِها، فإنَّ مِنَ العلم بظاهرِها معرفةَ حقائقِها وصفاتِها وخصائِصِها وأفعالِها وأسبابِها وكيفيةِ صدورِها منها وكيفيةِ التصرُّفِ فيها ولذلك نُكِّرَ ظاهراً، وأما باطنُها فإنَّها مجازٌ إلى الآخرة ووصلةٌ إلى نيلِها وأنموذجٌ لأحوالِها، وإشعاراً بأنه لا فرقَ بينَ عدمِ العلمِ والعلمِ الذي يختصُّ بظاهرِ الدنيا.

(٨) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ أولم يحدثُوا التفكُّرَ فيها، أو أَوَلَمْ يَتَفكروا في أمر أنفسِهم فإنها أقربُ إليهم من غيرِها، ومرآةٌ يُجْتَلَى فيها للمستبصِر ما يُجْتَلَى له في الممكناتِ بأسْرِها ليتحقَّقَ لهم قدرةُ مبدِعها على إعادتِها مثلَ قدرته على إبدائِها. ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بقولٍ أو علمٍ محذوفٍ يدلُّ عليه الكلامُ. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾ تنتهي عندَه ولا تبقى بعدَه. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ﴾ بلقاءِ جزائِه عند انقضاءِ الأجلِ المسمَّى أو قيامِ الساعةِ. ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾ جاحدونَ يحسبونَ أنَّ الدنيا أَبَدِيةٌ وأنَّ الآخرةَ لا تكون.

(٩) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ تقريرٌ لِسَيْرِهم في أقطارِ الأرضِ ونظرِهم في آثارِ المدمَّرين قبلَهم. ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعادٍ وثمودَ. ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ وقلَبوا وجْهَها لاستنباطِ المياهِ واستخراجِ المعادنِ وزرعِ البذورِ وغيرِها. ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ وعَمَرُوا الأرضَ. ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ من عمارةِ أهلِ مكَّةَ إياها فإنَّهم أهلُ وادٍ غيرِ ذي زرعٍ لا تُبْسَطُ لهم في غيرِها، وفيه تهكُّمٌ بهم من حيثُ إنهم مغترُّون بالدنيا مفتخِرون بها، وهم أضعفُ حالاً فيها، إذْ مدارُ أمرِها على التبسُّطِ في البلاد والتسلُّطِ على العبادِ والتصرُّفِ في أقطارِ الأرض بأنواعِ العمارةِ وهم ضعفاءُ ملْجَئُونَ إلى دارٍ لا نفعَ لها. ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ﴾ بالمعجزاتِ أو الآياتِ الواضحاتِ. ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ليفعلَ بهم ما تفعلُ الظَّلَمةُ فيدمِّرُهم من غيرِ جرمٍ ولا تذكيرٍ. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيثُ عملوا ما أدى إلى تدميرهم.

ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾

(١٠) ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي ثم كان عاقبتُهم العاقبةَ السَّوءى أو الخصلةَ السَّوءى، فوضعَ الظاهرَ موضعَ الضميرِ للدلالةِ على ما اقتضَى أنْ تكون تلك عاقبتَهم وأنَّهم جاؤوا بمثلِ أفعالِهم، والسوءى تأنيثُ الأسوأ كالحسنَى أو مصدرٌ كالبشرى نَعَتَ به. ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ علةٌ أو بدلٌ أو عطفُ بيانٍ للسَّوءى، أو خبرُ كان والسوءى مصدرُ أساؤوا أو مفعولُه بمعنى، ثم كانَ عاقبةَ الذين اقترفوا الخطيئةَ أنْ طبعَ اللهُ على قلوبهم حتى كذَّبوا بآياتِ الله واستهزؤوا بها، ويجوزُ أنْ تكونَ السوءى صلةَ الفعلِ وأنْ كذَّبوا تابِعَها والخبرُ محذوفٌ للإبهام والتهويلِ، وأنْ تكونَ أنْ مفسِّرةً لأنَّ الإساءةَ إذا كانتْ مفسَّرةً بالتكذيبِ والاستهزاءِ كانت متضمِّنةً معنى القولِ، وقرأ ابنُ عامرٍ والكوفيونَ عاقبةَ بالنصبِ على أنَّ الاسمَ السوءى وأنْ كذَّبوا على الوجوهِ المذكورةِ[1].

(١١) ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ ينشئُهم. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يبعثُهم. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاءِ، والعدول إلى الخطابِ للمبالغةِ في المقصودِ، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وروحٌ بالياءِ على الأصلِ.

(١٢) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يسكتُون متحيِّرين آيسينَ يقالُ ناظرتُه فأبلسَ إذا سكتَ وآيَسَ من أنْ يحتجَّ ومنه الناقةُ المبلاسُ التي لا ترغُو، وقرىء بفتحِ اللامِ من أبلَسَه إذا أسكتَهُ.

(١٣) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ ممن أشركوهم باللهِ. ﴿شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾ يجيرونَهم من عذابِ الله، ومجيئُه بلفظِ الماضي لتحقُّقه. ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ يكفرونَ بآلهتِهم حينَ يَئِسوا منهم، وقيل كانوا في الدنيا كافرينَ بسَببِهم، وكُتِبَ في المصحفِ شفعؤا وعلمؤا بني إسرائيلَ بالواوِ وكذا السَّوْأَى بالألفِ إثباتاً للهمزةِ على صورةِ الحرفِ الذي منه حركتُها.

(١٤) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي المؤمنونَ والكافرونَ لقوله تعالى:

(١٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ أرضٍ ذاتِ أزهارٍ وأنهارٍ. ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُسَرُّونَ سروراً تهللُ له وجوهُهم.

(١٦) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مُدْخَلُون لا يغيبونَ عنه.

(١٧) ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

---

(١) وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع «يستهزئون» للدلالة على استمراره وتجدده (س٧/ ٥٣).

وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إخبارٌ في معنى الأمرِ بتنزيه اللهِ تعالى والثناءِ عليه في هذه الأوقاتِ التي تظهرُ فيها قدرتُه وتتجدَّدُ فيها نعمتُه، أو دلالةٌ على أنَّ ما يحدثُ فيها من الشواهدِ الناطقةِ بتنزُّهِهِ واستحقاقِهِ الحمدَ ممن له تمييزٌ من أهلِ السمواتِ والأرضِ. وتخصيصُ التسبيحِ بالمساءِ والصباحِ لأنَّ آثار القدرةِ والعظمةِ فيهما أظهرُ، وتخصيصُ الحمدِ بالعشيِّ ـ الذي هو آخِرُ النهار من عَشَى العينُ إذا نقصَ نورُها ـ والظهيرةِ التي هي وسطُه لأنَّ تجدُّدَ النِّعمِ فيهما أكثرُ. ويجوزُ أنْ يكونَ عشياً معطوفاً على حينَ تمسون وقولُه ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضاً. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنَّ الآيةَ جامعةٌ للصلواتِ الخمس تمسونَ صلاتا المغرب والعشاءِ وتصبحون صلاةُ الفجرِ. وعشياً صلاةُ العصرِ وتظهرون صلاةَ الظهرِ[١]، ولذلك زعم الحسن[٢] أنها مدنيةٌ لأنه كان يقولُ كان الواجبُ بمكَّةَ ركعتينِ في أيِّ وقتٍ اتفقتا وإنما فرضُه الخمسَ بالمدينة، والأكثرُ على أنها فُرِضَتْ بمكَّةَ. وعنه عليه الصلاةُ والسلام: «من سرَّه أن يُكَالَ له بالقفيزِ الأوفَى فلْيقلْ فسبحانَ اللهِ حين تمسونَ الآيَةَ»[٣]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قال حينَ يصبح فسبحانَ الله حين تمسونَ إلى قوله وكذلك تُخرَجونَ أدركَ ما فاته في ليلته، ومن قاله حين يمسي أدركَ ما فاته في يومه»[٤]. وقرىء حيناً تمسونَ وحيناً تصبحون، أي تمسونَ فيه وتصبحونَ فيه.

(١٩) ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسانِ من النطفةِ والطائرِ من البيضةِ. ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالنطفةِ والبيضةِ، أو يعقبُ الحياةُ الموتَ وبالعكس. ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنباتِ. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبْسِها. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ ذلك الإخراجُ. ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم فإنه أيضاً تعقيبُ الحياةِ الموتَ، وقرأ حمزة والكسائيُّ بفتحِ التاء.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/٢٩) والطبراني في الكبير (١٠/٣٠٤ رقم ١٠٥٩٦) والحاكم في المستدرك (٢/٤١٠ ـ ٤١١) عنه.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢١/١٦) ثم قال وهو خلاف مذهب الجمهور.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٢٩ رقم ١٦٣) «أخرجه الثعلبي من حديث أنس وفي إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط» هـ.
قلت: انظر ترجمة بشر هذا في «الجرح والتعديل» (٢/ ٣٥٥) والميزان (١/ ٣١٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٥/٣١٦ رقم ٥٠٧٦) والطبراني في الكبير (١٢/٢٣٩ رقم ١٢٩٩١) وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢٢٦) والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٠٠) من حديث ابن عباس.
قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٢٩ رقم ١٦٤) «وإسناده ضعيف» وقال البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٤٦٠): لا يصح. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥/ ٢٢٧).

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي في أصلِ الإنشاءِ لأنه خلقَ أصلَهم منه. ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ثم فاجأتم وقتَ كونِكم بشراً منتشرين في الأرض.

(٢١) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ لأنَّ حوَّاءَ خُلِقَتْ من ضِلَعِ آدمَ وسائرُ النساءِ خلقنَ من نطفِ الرجالِ، أو لأنهنَّ من جِنسِهم لا من جنسٍ آخرَ. ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ لتميلُوا إليها وتألفوا بها فإن الجنسيةَ علةٌ للضمِّ، والاختلافُ سببٌ للتنافرِ. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي بينَ الرجالِ والنساءِ، أو بينَ أفرادِ الجنسِ. ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بواسطةِ الزواجِ حالَ الشبقِ وغيرِها بخلافِ سائرِ الحيواناتِ نظماً لأمرِ المعاشِ، أو بأنَّ تعيُّشَ الإنسانِ متوقِّفٌ على التعارُفِ والتعاونِ المحْوجِ إلى التوادِّ والتراحُمِ، وقيل المودة كناية عن الجماعِ والرحمةُ عن الولدِ كقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾[1]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون ما في ذلك من الحِكَمِ.

(٢٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ لغاتِكم بأنْ علَّم كلَّ صِنفٍ لغتَه أو ألهمَه وضعَها وأقدره عليها، أو أجناس نطقكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية. ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ بياض الجلدِ وسوادَه، أو تخطيطاتِ الأعضاءِ وهيئاتِها وألوانَها، وحلاَّها بحيثُ وقعَ التمايُزُ والتعارُفُ حتى أنَّ التوأمين مع توافُقِ موادِّهما وأسبابِهما والأمورِ الملاقيةِ لهما في التخليقِ يختلفانِ في شيء من ذلك لا محالَة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ لا تكادُ تَخفَى على عاقلٍ من مَلَكٍ أو إنسٍ أو جنٍّ. وقرأ حفصٌ بكسرِ اللامِ ويؤيده قولُه ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[2].

(٢٣) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ منامُكم في الزمانينِ لاستراحةِ القِوَى النفسانيةِ وتقوِّي القوى الطبيعيةِ وطلبِ معاشِكم فيهما، أو منامُكم بالليلِ وابتغاؤُكم بالنهار فلفَّ وضمَّ بين الزمانينِ والفعلينِ بعاطفينِ إشعاراً بأنَّ كلاًّ من الزمانين وإنِ اختصَّ بأحدِهما فهو صالحٌ للآخرِ عندَ الحاجةِ، ويؤيده سائرُ الآياتِ الواردةِ فيه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تفهُّمٍ واستبصارٍ فإنَّ الحكمةَ فيه ظاهرةٌ.

(٢٤) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ مقدَّرٌ بأنْ المصدريةِ كقولِه:

---

(١) ص: ٤٣.
(٢) العنكبوت: ٤٣.

أَلاَ أَيُّهَـذَا الـزَّاجِـرِي أَحْضُـرَ الـوَغَـى وَأن أشْهَـدَ اللَّـذَّاتِ، هَـلْ أَنْـتَ مُخلـدِي

أوِ الفعلُ فيه منزلةَ المصدرِ كقولِهم: تسمعُ بالمعيديِّ خيرٌ من أنْ تراهُ، أو صفةٌ لمحذوفٍ تقديره آيةٌ يريكم بها البرقَ كقوله:

فَمَـا الـدَّهْـرُ إلاَّ تَـارَتَـانِ فَمِنْهُمَـا أَمُـوتُ وَأُخْـرَى أَبْتَغِـي العَيْـشَ أَكْـدَحُ

﴿خَوۡفٗا﴾ من الصاعقةِ للمسافرِ. ﴿وَطَمَعٗا﴾ في الغيثِ للمقيمِ، ونَصْبُهُما على العلةِ لفعلٍ يلزمُ المذكورَ فإنَّ إراءَتَهُم تستلزمُ رؤيتَهم أولَه على تقدير مضافٍ نحو إرادةِ خوفٍ وطمعٍ، أو تأويلُ الخوفِ والطمعِ بالإخافةِ والإطماعِ، كقولك فعلْته رغماً للشيطان، أو على الحال مثل كَلَّمْتُهُ شِفاهاً. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ وقرىء بالتشديد. ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالنبات. ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾ يُبْسِها. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في استنباطِ أسبابها وكيفيةِ تكوُّنها ليظهرَ لهم كمالُ قدرةِ الصانعِ وحِكْمتُه.

وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ قيامُهما بإقامَتِه لهما وإرادتِه لقيامِهما في حيِّزَيْها المعينينِ من غير مقيمٍ محسوسٍ، والتعبيرُ بالأمرِ للمبالغةِ في كمالِ القدرةِ والغِنَى عن الآلة. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾ عطفٌ على أنْ تقومَ على تأويلِ مفرد كأنه قيل: ومن آياتِه قيامُ السمواتِ والأرض بأمرِهِ ثم خروجُكم من القبور إذا دعاكم دعوةً واحدةً فيقولُ أيُّها الموتَى اخرجُوا، والمرادُ تشبيهُ سرعةِ ترتُّبِ حصولِ ذلك على تعلُّقِ إرادتِه بلا توقُّفٍ واحتياجٍ إلى تجشُّمِ عملٍ بسرعة ترتُّبِ إجابةِ الداعي المطاعِ على دعائِه، وثُمَّ إما لتراخي زمانِه أو لعظمِ ما فيه ومن الأرضِ متعلِّقٌ بدعا كقولك: دعوتُه من أسفلِ الوادي فطلعَ إلي لا بتخرجونَ لأنَّ ما بعدَ إذا لا يعملُ فيما قبلَها، وإذا الثانيةُ للمفاجأةِ ولذلك نابتْ منابَ الفاءِ في جوابِ الأولى.

(٢٦) ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ منقادون لفعلِه فيهم لا يمتنعونَ عنه.

(٢٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعدَ هلاكِهم. ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ والإعادةُ أسهلُ عليه من الأصلِ بالإضافةِ إلى قدرِكم والقياسِ على أصولِكم وإلا فهما عليه سواءُ ولذلك قيل الهاءُ للخلقِ، وقيل أهونُ بمعنَى هيِّنٍ وتذكيرُ هو لأهونُ أو لأنَّ الإعادةَ بمعنى أنْ يعيدَ. ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ﴾ الوصْفُ العجيبُ الشأنِ كالقدرةِ العامةِ والحكمةِ التامةِ ومَنْ فسَّره بقول لا إله إلا الله أرادَ به الوصْفَ بالوحدانية. ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ الذي ليس لغيرهِ ما يساويه أو يدانيه. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يصفُه به ما فيها دلالةً ونطقاً. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القادرُ الذي لا يعجزُ عن إبداءِ ممكنٍ وإعادتِه. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يجري الأفعالَ على مقتضَى حِكْمَتِه.

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ منتزعاً من أحوالِها التي هي أقربُ الأمور إليكم. ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ من مماليكِكُم. ﴿مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الأموالِ وغيرِها.. ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فتكونون أنتمْ وهم فيه شرعاً يتصرَّفون فيه كتصرُّفِكم مع أنَّهم بشرٌ مثلُكم وأنها معارةٌ لكم، ومِنَ الأولى للابتداءِ والثانيةُ للتبعيضِ والثالثةُ مزيدةٌ لِتأكيدِ الاستفهام الجاري مجرى النفيِ. ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أنْ يستبدُّوا بتصرُّفٍ فيه. ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ كما يخافُ الأحرارُ بعضُهم من بعضٍ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك التفصيلِ. ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾[1] نبيِّنُها فإنَّ التفصيلَ مما يكشفُ المعاني ويوضِّحُها. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولَهم في تدبُّرِ الأمثال.

(٢٩) ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالإشراكِ. ﴿أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاهلينَ لا يكفُّهم شيءٌ فإنَّ العالِمَ إذا اتَّبعَ هواهُ ربَّما ردعه علمُه. ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ فمَنْ يقدرُ على هدايتِه. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يخلِّصونَهم من الضلالةِ ويحفظونَهم عن آفاتِها.

(٣٠) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فقوِّمه له غيرَ ملتفتٍ أو ملْتَفَتٍ عنه، وهو تمثيلٌ للإقبال والاستقامةِ عليه والاهتمام به. ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ خِلقَتَه نُصِبَ على الإغراءِ أو المصدرِ لما دلَّ عليه ما بعدَها. ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ خلقَهم عليها وهي قبولُهم للحقِّ وتمكُّنهم من إدراكه، أو ملَّةَ الإسلامِ فإنَّهم لو خُلُّوا وما خُلِقُوا عليه أدَّى بهم إليها، وقيل العهدُ المأخوذُ من آدمَ وذرِّيتِه. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لا يقدرُ أحدٌ يغيِّرُهُ أو ما ينبغي أنْ يُغيَّرَ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الدين المأمورِ بإقامةِ الوجْه له، أو الفطرةِ إنْ فُسِّرتْ بالمِلَّة. ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيمُ الذي لا عِوَجَ فيه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استقامتَه لعدمِ تدبُّرِهم.

(٣١) ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعينَ إليه مِنْ أنابَ إذا رجعَ مرةً بعدَ أخرى، وقيل منقطعينَ إليه من النابِ وهو حالٌ منَ الضميرِ في الناصبِ المقدَّرِ لفطرةِ اللهِ أو في أَقِمْ لأنَّ الآيَةَ خطابٌ للرسول ﷺ والأُمَّةِ لقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ غيرَ أنَّها صُدِّرَتْ بخطابِ الرسولِ ﷺ تعظيماً له.

(٣٢) ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بدلٌ من المشركينَ وتفريقِهم اختلافَهم فيما يعبدونَه على اختلافِ أهوائهم، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ فارقُوا بمعنى تركُوا دينَهم الذي أُمِرُوا به. ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ فِرَقاً تشايعُ

(١) وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها (س٧/ ٥٩).

كلٌّ إمامَها الذي أضلَّ دينَها. ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ مسرورونَ ظناً بأنه الحقُّ، ويجوزُ أنْ يُجْعَلَ فرحونَ صفةَ كلٌّ على أنَّ الخبرَ من الذين فرّقوا.

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾
لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ
يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ
وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ
أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٣) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ﴾ شِدَّةٌ. ﴿ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعينَ من دعاءِ غيرِه. ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ خلاصاً من تلك الشدةِ. ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فاجأَ فريقٌ منهم بالإشراكِ بربِّهم الذي عافاهم.

(٣٤) ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ اللامُ فيه للعاقبةِ وقيل للأمرِ بمعنى التهديدِ لقوله: ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ غير أنه التفتَ فيه مبالغةً، وقرىء وليتمتَّعوا. ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبةَ تمتُّعِكم، وقرىء بالياء التحتيةِ على أنَّ تمتَّعوا ماضٍ.

(٣٥) ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ حجَّةً وقيل ذا سلطانٍ أي مَلَكاً معه برهانٌ. ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ تكلُّمَ دلالةٍ كقوله ﴿ كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾[1] أو نطقَ. ﴿ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ بإشراكِهم وصحَّته، أو بالأمرِ الذي بسببه يشركونَ به في ألوهيته.

(٣٦) ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً ﴾ نعمةً من صِحَّةٍ وَسَعةٍ. ﴿ فَرِحُواْ بِهَا ﴾ بَطِرُوا بسببها. ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ ﴾ شدَّةٌ. ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤمِ معاصِيهم. ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجؤُوا القنوطَ من رحمته. وقرأ الكسائيُّ وأبو عمرو بكسرِ النون.

(٣٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فما لهم لم يشكُروا ولم يحتسِبوا في السَّرَّاءِ والضرَّاءِ كالمؤمنين. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيستدلون بها على كمالِ القدرةِ والحكمة.

(٣٨) ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ كصلةِ الرحمِ، واحتجَّ به الحنفيةُ على وجوبِ النفقةِ للمحارمِ وهو غيرُ مشعِرٍ به. ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ما وظِّفَ لهما من الزكاة، والخطابُ لرسولِ الله ﷺ أو لمن بُسِطَ له ولذلك رُتِّب على ما قبلَه بالفاءِ. ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ ذاتَه أو جِهَتَه أي يقصدُون بمعروفهم إياهُ خالصاً، أو جهةَ التقرُّبِ إليه لا جهةً أخرى. ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ حيثُ حصلوا بما بُسِطَ لهم النعيمُ المقيمُ.

(٣٩) ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا ﴾ زيادةً محرمةً في المعاملة أو عطيةً يتوقع بها مزيدَ مكافأةٍ، وقرأ ابن كثير بالقصرِ بمعنى ما جئتُم به من إعطاءِ ربا. ﴿ لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ ﴾ ليزيدَ ويزكُوَ في أموالِهم. ﴿ فَلَا يَرْبُواْ

(١) سورة الجاثية: ٢٩.

عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا يزكُو عندَه ولا يباركُ فيه، وقرأ نافع ويعقوبُ لتربُوا أي لتزيدوا أو لتصيروا ذوي ربا. ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تبتغون به وجْهَهُ خالِصاً ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ذوو الأضعافِ من الثواب ونظيرُ المضعِفِ المقويِّ والموسِرِ لذي القوةِ واليسارِ، أو الذين ضعَّفُوا ثوابَهم وأموالهم ببركةِ الزكاةِ. وقرئ بفتحِ العينِ. وتغييرُهُ عن سَنَنِ المقابلة عبارةً ونظماً للمبالغةِ، والالتفاتُ فيه للتعظيمِ كأنه خاطبَ به الملائكةَ وخواصَّ الخلْقِ تعريفاً لحالِهم، أو للتعميم كأنه قال: فمن فعلَ ذلك فأولئك هم المضعِفُون، والراجعُ منه محذوفٌ إنْ جُعِلَتْ ما موصولةً تقديره المضعفونَ به، أو فَمُؤْتُوه أولئكَ هم المضعِفونَ.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أثبتَ له لوازمَ الألوهيةِ ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاءَ له من الأصنام وغيرِها مؤكّداً بالإنكار على ما دلَّ عليه البرهانُ والعيانُ ووقعَ عليه الوفاقُ، ثم استنتجَ من ذلك تقدُّسَه عن أنْ يكونَ له شركاءُ فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويجوزُ أنْ تكونَ الكلمةُ الموصولةُ صفةً والخبرُ هل مِنْ شركائكم والرابطُ من ذلكم لأنه بمعنًى من أفعالِه، ومِنْ الأولى والثانيةُ تفيدُ أنَّ شيوعَ الحكمِ في جنسِ الشركاءِ والأفعالِ والثالثةُ مزيدةٌ لتعميمِ المنفي وكلٌّ منها مستقلةٌ بتأكيدٍ لتعجيزِ الشركاءِ. وقرأ حمزة والكسائيُّ بالتاء.

(٤١) ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كالجدْبِ والموتانِ وكثرةِ الحرقِ والغرقِ وإخفاقِ الغاصةِ ومحقِ البركاتِ وكثرةِ المضارِّ، أو الضلالةِ والظلمِ. وقيل المرادُ بالبحرِ قُرى السواحلِ. وقرئ والبحورِ. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بشؤمِ معاصيهم أو بكسْبِهم إياه، وقيل ظهرَ الفسادُ في البرِّ بقتلِ قابيلَ أخاهُ وفي البحر بأنَّ جلندا ملِكَ عمانَ كان يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً. ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ بعضَ جزائِه فإنَّ تمامه في الآخرةِ. واللامُ للعلَّةِ أو للعاقبةِ. وعن ابنِ كثيرٍ ويعقوبَ لِنذيقَهم بالنونِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه.

(٤٢) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ لتشاهدوا مصداقَ ذلك وتحقّقُوا صدقَه. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئنافٌ للدلالةِ على أنَّ سوءَ عاقِبَتِهم كان لِفُشُوِّ الشركِ وغلبتِه فيهم، أو كانَ الشركُ في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليلٍ منهم.

(٤٣) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ البليغِ الاستقامةِ. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ لا يقدرُ أنْ يردَّه أحدٌ، وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّقٌ بيأتي، ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ بمردَّ لأنه مصدرٌ على معنى لا يردُّه اللهُ لتعلُّقِ إرادتهِ القديمةِ بمجيئِه. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتصدعون أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير كما قال:

مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(٤٤) ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي وبالُه وهو النارُ المؤبَّدةُ. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ يُسَوُّوْنَ منزلاً في الجنة، وتقديمُ الظرفِ في الموضعينِ للدلالة على الاختصاصِ.

(٤٥) ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ عِلَّةٌ ليمهدون أو ليصدعونَ، والاقتصارُ على جزاءِ المؤمنين للإشعارِ بأنه المقصودُ بالذاتِ والاكتفاءِ على فحوى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنَّ فيه إثباتَ البُغْضِ لهم والمحبةِ للمؤمنين، وتأكيدُ اختصاصِ الصلاحِ المفهوم من تركِ ضميرِهم إلى التصريحِ بهم تعليلٌ له ومن فضلِه دالٌّ على أنَّ الإثابةَ تفضُّلٌ محضٌ، وتأويلُه بالعطاءِ أو الزيادةِ على الثوابِ عدولٌ عن الظاهرِ.

(٤٦) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ الشمالَ والصَّبا والجنوبَ فإنَّها رياحُ الرحمة وأما الدَّبُوْرُ فريحُ العذابِ، ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ اجعلْها رياحاً ولا تجعلْها ريحاً»[1] وقرأ ابنُ كثير وحمزةُ والكسائي الريحَ على إرادة الجنسِ. ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطرِ. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني المنافعَ التابعةَ لها، وقيل الخِصْبُ التابعُ لنزولِ المطرِ المسبَّبِ عنها أو الروحُ الذي هو معَ هبوبها والعطفُ على عِلَّةٍ محذوفة دلَّ عليها مبشراتٍ أو عليها باعتبارِ المعنى، أو على يرسل بإضمارِ فعلٍ معلَّلٍ دلَّ عليه. ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني تجارةَ البحرِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمةَ اللهِ تعالى فيها.

(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ بالتدمير. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشعارٌ بأنَّ الانتقامَ لهم وإظهارٌ لكرامتهم حيثُ جعلَهم مستحقِّينَ على اللهِ أنْ ينصرَهم،

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٢٩ رقم ١٦٨): «ـ أخرجه الشافعي في ترتيب المسند (١/ ١٧٥ رقم ٥٠٢) ـ أخبرني من لا أتهم عن العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. ومن طريقه أخرجه ـ البيهقي ـ في المعرفة وفي الدعوات. وهذا المبهم. هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف.
وله طرق أخرى عن أبي يعلى ـ في المسند (٤/ ٣٤١ رقم ١٢٩/ ٢٤٥٦) ـ والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٣ ـ ٢١٤ رقم ١١٥٣٢) ـ وابن عدي ـ في الكامل (٢/ ٧٦٣) من رواية حسين بن قيس عن عكرمة به. وحسين ضعيف أيضاً» هـ.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦) وقال «رواه الطبراني وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ.
قلت: وقال الحافظ في التقريب (١/ ١٧٨ رقم ٣٨٣) «متروك» وقال الهيثمي فيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك. وقد وثقه الحصين بن نمير وبقية رجاله رجال الصحيح [المجمع ١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦].

وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما من امرىء مسلم يردُّعن عرضِ أخيه إلا كان حقاً على الله أنْ يردَّ عنه نارَ جهنَّم» ثمَّ تلا ذلك(١). وقد يُوْقَفُ على حقاً على أنه متعلِّقٌ بالانتقام.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

(٤٨) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ متصلاً تارةً. ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ في سَمْتِها. ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ سائراً أو واقفاً مطبقاً وغيرَ مطبق من جانبٍ دون جانب إلى غيرِ ذلك. ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قطعاً تارةً أخرى، وقرأ ابنُ عامر بالسكونِ على أنه مخففٌ أو جمعُ كسفةٍ أو مصدرٌ وُصِفَ به. ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطرَ. ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في التارتين. ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ يعني بلادَهم وأراضيَهم. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لمجيء الخِصْب.

(٤٩) ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطرُ. ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تكريرٌ للتأكيدِ والدلالةِ على تطاولِ عهدِهم بالمطرِ واستحكام يأسِهم، وقيل الضميرُ للمطرِ أو السحابِ أو الإرسالِ. ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ لآيسينَ.

(٥٠) ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أثرِ الغيثِ من النباتِ والأشجارِ وأنواعِ الثمار ولذلك جمعَهُ ابنُ عامر وحمزة والكسائيُّ وحفصٌ. ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ وقرىء بالتاءِ على إسنادِه إلى ضمير الرحمةِ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني إنَّ الذي قدرَ على إحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها. ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لقادرٌ على إحيائِهم فإنه إحداثٌ لِمثْلِ ما كان في موادِّ أبدانِهم من القِوى الحيوانيةِ، كما أنَّ إحياءَ الأرضِ إحداثٌ لمثلِ ما كان فيها من القِوى النباتيةِ، هذا ومن المحتملِ أنْ يكونَ من الكائناتِ الراهنةِ ما يكون من موادَّ ما تفتتتْ وتبدَّدتْ من جنسِها في بعض الأعوامِ السالفةِ. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن نسبةَ قدرته إلى جميعِ الممكناتِ على سواءٍ.

(٥١) ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ فرأوا الأثرَ أو الزرعَ فإنه مدلولٌ عليه بما تقدَّم، وقيل السحابُ لأنه إذا كانَ مصفرّاً لم يمطرْ، واللامُ موطِّئةٌ للقسم دخلتْ على حرفِ الشرطِ، وقوله: ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ جوابٌ سدَّ مسدَّ الجزاءِ ولذلك فُسِّرَ بالاستقبالِ. وهذه الآيةُ ناعيةٌ على الكفار بقلةِ تثبُّتِهم وعدمِ تدبُّرِهم وسرعةِ تزلزُلِهم لعدمِ تفكُّرِهم وسوءِ رأيِهم، فإنَّ النظرَ السويَّ يقتضي أنْ يتوكَّلوا على اللهِ ويلتجئُوا إليه بالاستغفارِ إذا احتبسَ القطرُ عنهم، ولا ييأسُوا من رحمته، وأنْ يبادروا إلى الشكرِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٢٧ رقم ١٩٣١) وأحمد (٦/ ٤٥٠) عن أبي الدرداء.
وقال الترمذي هذا حديث حسن.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٧٥ ـ ١٧٦ رقم ٤٤٢) وابن عدي في الكامل (٤/ ١٦٣٥) وأحمد (٦/ ٤٦١) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٧) عن أسماء بنت يزيد مرفوعاً نحوه والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

والاستدامةِ بالطاعةِ إذا أصابهم برحمتِهِ ولم يفرِّطوا في الاستبشارِ، وأنْ يصبروا على بلائه إذا ضربَ زرْعَهم بالاصفرارِ ولا يكفروا نِعَمَهُ.

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٢) ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وهم مثلُهم لما سدُّوا عن الحقِّ مشاعِرَهم. ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ قيدَ الحكمَ به ليكون أشدَّ استحالةً، فإنَّ الأصمَّ المقبِلَ وإنْ لم يسمعِ الكلامَ يفطنُ منه بواسطةِ الحركاتِ شيئاً، وقرأ ابنُ كثير بالياء مفتوحةً ورفعِ الصمِّ.

(٥٣) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ سمَّاهم عمياً لفقْدِهم المقصودَ الحقيقيَّ من الأبصار أو لِعَمَى قلوبِهم، وقرأ حمزةُ وحدَه تهدي العميَ. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإنَّ إيمانَهم يدعوهم إلى تلقِّي اللفظِ وتدبُّرِ المعنى، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بالمؤمنِ المشارِفُ للإيمان. ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لما تأمرهُم به.

(٥٤) ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي ابتدأكم ضعفاءَ وجعلَ الضَّعْفَ أساسَ أمرِكم كقوله ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[١] أو خلقكم من أصلٍ ضعيفٍ وهو النطفةُ. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك إذا بلغتُمُ الحلُمَ أو تعلَّقَ بأبدانِكم الروحُ. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ إذا أخذَ منكم السنُّ، وفتحَ عاصمٌ وحمزةُ الضادَ في جميعِها والضمُّ أقوى لقولِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: قرأتُها على رسولِ الله ﷺ من ضَعْفٍ فأقرأني من ضُعفٍ[٢]. وهما لغتانِ كالفَقْر والفُقر. والتنكيرُ مع التكريرِ لأنَّ المتأخِّرَ ليس عينَ المتقدِّمِ. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من ضعفٍ وقوةٍ وشبيبةٍ وشيبةٍ. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ فإنَّ الترديدَ في الأحوالِ المختلفةِ مع إمكانِ غيرِهِ دليلُ العلمِ والقدرةِ.

(٥٥) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامةُ سُمِّيَتْ بها لأنَّها تقومُ في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الدنيا، أو لأنها تقعُ بغتةً وصارتْ عَلماً لها بالغلبةِ كالكوكبِ للزهرةِ. ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟﴾ في الدنيا أو في القبورِ أو فيما بين فناءِ الدنيا والبعثِ وانقطاعِ عذابِهم، وفي الحديث: «ما بين فناءِ الدنيا والبعثِ أربعونَ»[٣]

(١) النساء: «٢٨».
(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٨٣ رقم ٣٩٧٨) والترمذي (٥/ ١٨٩ رقم ٢٩٣٦) وأحمد في المسند (٢/ ٥٨ ـ ٥٩) عنه.
وفيه عطية بن سعد العوفي: ضعيف.
وحسن الألباني الحديث في صحيح أبي داود.
(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٢٩ رقم ١٧٢) «لم أجده هكذا. وفي الصحيحين ـ البخاري (٨/ ٥٥١ رقم ٤٨١٤) و(٨/ ٦٨٩ رقم ٥٩٣٥) ومسلم (٤/ ٢٢٧١ رقم ١٤١) ـ عن أبي هريرة ، فوعاً «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون يوماً، قال: أبيت».

وهو محتملٌ الساعاتِ والأيامَ والأعوامَ. ﴿غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ استقلوا مدَّةَ لُبثِهم إضافةً إلى مدةِ عذابهم في الآخرة أو نسياناً. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الصَّرْفِ عن الصدقِ والتحقيقِ. ﴿كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُون في الدنيا.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ من الملائكة والإنس. ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في علمه أو قضائِه، أو ما كتبه لكم أي أوجبه أو اللوحُ أو القرآنُ وهو قوله ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾[1]. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ ردُّوا بذلك ما قالوه وحلفُوا عليه. ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي أنكرتُموه. ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حقٌّ لتفريطِكم في النظرِ، والفاءُ لجوابِ شرطٍ محذوفٍ تقديره: إنْ كنتم منكرينَ البعثَ فهذا يومُه، أي فقد تبيَّنَ بُطْلَانُ إنكارِكم.

(٥٧) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وقرأ الكوفيونَ بالياءِ لأنَّ المعذرةَ بمعنى العذْرِ، أو لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقي وقد فصل بينهما. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يُدعَون إلى ما يقتضي إعتابَهم، أي إزالةَ عَتَبِهم من التوبة والطاعة كما دُعوا إليه في الدنيا، من قولهم استعتبني فلانٌ فأعتبته أي استرضاني فأرضيته.

(٥٨) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ ولقد وصفناهم فيه بأنواع الصفات التي هي في الغرابة كالأمثال، مثْلُ صفة المبعوثين يوم القيامة فيما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون من الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب، أو بيّنا لهم من كل مَثَل ينبههم على التوحيد والبعثِ وصدقِ الرسول. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ من آيات القرآن. ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ من فَرْطِ عِنادهم وقساوة قلوبهم. ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين. ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ مزوّرون.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الطبعِ. ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يطلبُون العلم ويُصِرون على خُرافات اعتقدوها، فإن الجهل المركبَ يمنع إدراكَ الحق ويوجب تكذيب المُحق.

(٦٠) ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على أذاهم. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنُصرتك وإظهار دينك على الدين كلِّه. ﴿حَقٌّۖ﴾ لا بد من إنجازه. ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ ولا يحملنَّك على الخِفّة والقلق. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم، فإنهم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك. وعن يعقوبَ بتخفيف النون، وقرىء

(١) المؤمنون: ١٠٠.

ولا يَستَحِقنّك أي لا يُزيغَنك فيكونوا أحقَّ بك مع المؤمنين. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشرُ حسنات بعدد كل مَلَك سبح الله بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيَّع في يومه وليلته»[١].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٩ رقم ١٧٣) وهو حديث موضوع.

سُورَةُ لُقْمَان

ترتيبها ٣١ آياتها ٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سورة لقمان مكية

إلا آية وهي ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[١] فإن وجوبهما بالمدينة، وهو ضعيفٌ لأنه لا ينافي شرعيتهما بمكة. وقيل إلا ثلاثاً من قوله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾[٢]. وهي أربع وثلاثون آية، وقيل ثلاث وثلاثون.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ سبق بيانه في يونس.

(٣) ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ حالان من الآيات والعاملُ فيهما معنى الإشارة. وَرَفَعَهما حمزةُ على الخبر بعد الخبر، أو الخبرِ لمحذوف.

(٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بيانٌ لإحسانهم، أو تخصيص لهذه الثلاثةِ

(١) لقمان: «٤».
(٢) لقمان: «٢٧».

من شُعَبِه لفضل اعتدادٍ بها. وتكرير الضمير للتوكيد ولِمَا حيل بينه وبين خبره.

(٥) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ لاستجماعهم العقيدةَ الحقّةَ والعملَ الصالح.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾

(٦) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ ما يُلهي عما يعني كالأحاديث التي لا أصل لها والأساطيرِ التي لا اعتبارَ بها والمَضاحكِ وفضولِ الكلام. والإضافة بمعنى مِنْ، وهي تبيينية إن أراد بالحديث المنكرَ، وتبعيضيةٌ إن أراد به الأعمَّ منه. وقيل نزلت في النضْر بنِ الحارث اشترى كتب الأعاجم، وكان يحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عادٍ وثمودَ فأنا أحدثكم بحديث رُسْتم وإسفَنْديار والأكاسرة[١]. وقيل كان يشتري القِيَان ويحمِلُهن على معاشرة من أراد الإسلام ومنْعِه عنه[٢]. ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينِه أو قراءة كتابه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، بمعنى ليَثْبُتَ على ضلاله ويزيدَ فيه. ﴿ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن. ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ ويتخذُ السبيلَ سُخرية. وقد نصبه[٣] حمزة والكسائي ويعقوبُ وحفصٌ عطفاً على ليُضِلَّ. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ لإهانتهم الحقَّ باستئثار الباطلِ عليه.

(٧) ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ متكبراً لا يَعبأ بها. ﴿ كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ مُشَابِهاً حالُه حال من لم يسمعها. ﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ مشابهاً مَنْ في أذنيه ثِقَلٌ لا يقدر أن يسمع، والأُولى حال من المستكنّ في ولّىٰ أو في مستكبراً، والثانية بدل منها أو حال من المستكن في لم يسمعها، ويجوز أن يكونا استئنافين. وقرأ نافع في أُذْنَيْه. ﴿ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَعْلِمْهُ بأن العذاب يحيق به لا محالة. وذِكْر البشارة على التهكم.

(٨) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي لهم نعيمُ الجنات، فعكس للمبالغة.

(٩) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ حال من الضمير في لهم أو من جنات النعيم، والعامل ما تعلق به اللام. ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ مصدران مؤكدان، الأول لنفسه والثاني لغيره، لأن قوله لهم جنات وعد وليس كلُ وعد حقاً. ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾. الذي لا يغلِبه شيء فيمنَعه عن إنجاز وعدِه ووعيدِه. ﴿ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تستدعيه حكمتُه.

---

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٣٥٦) من قول الكلبي ومقاتل، وأخرج البيهقي في الشعب نحوه عن ابن عباس (فتح القدير ٤/ ٢٣٦).

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٣٥٦) عن مجاهد. قال: نزلت في شراء القينات والمغنيات.

(٣) أي نصب «يتخذها».

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

(١٠) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قد سبق في الرعد[١]. ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً شوامخَ. ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهةَ أن تميد بكم، فإنّ تشابُهَ أجزائها يقتضي تبدلَ أحيازها وأوضاعِها لامتناع اختصاص كلٍّ منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيّز ووضع معينين. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من كل صنف كثير المنفعة[٢]. وكأنه استدل بذلك على عزته التي هي كمالُ القدرة، وحكمتِه التي هي كمالُ العلم، ومهّد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله:

(١١) ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ هذا الذي ذُكِرَ مخلوقُه فماذا خلق آلهتُكم حتى استحقوا مشاركته؟. وماذا نُصِبَ بخَلَقَ، أو ما مرتفعٌ بالابتداء وخبره ذا بصلَته فأروني معلَّقٌ عنه. ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إضرابٌ عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفىٰ على ناظر، ووضعُ الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني لقمانَ بنَ باعوراءَ من أولاد آزرَ ابنِ أخت أيوب[٣] أو خالتِه، وعاش حتى أدرك داودَ عليه الصلاة والسلام وأخذ منه العلم وكان يُفتي قبل مبعثه، والجمهورُ على أنه كان حكيماً[٤] ولم يكن نبياً. والحكمةُ في عرف العلماء: استكمالُ النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتسابُ الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحِب داود شهوراً وكان يَسْرُد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال: نِعْمَ لَبُوسُ الحرب أنتِ، فقال: الصمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلُه[٥]، وأن داود عليه السلام قال له يوماً كيف أصبحتَ؟ فقال أصبحتُ في

---

(١) الرعد: «٢».
(٢) والالتفات إلى نون العظمة في أنزلنا وأنبتنا لإبراز مزيد الاعتناء بأمرها (س٧/ ٧٠).
(٣) انظر البحر المحيط (٧/ ١٨٦).
(٤) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣).
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٦٤ رقم ٥٠٢٦) وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٧٠) كلهم من طريق ثابت عن أنس به.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
● قلت: وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ١٦٨ رقم ٢٤٠) عن أنس مرفوعاً.
وفي إسناده (زكريا بن يحيى المنقري ـ أو المقري ـ) ضعفه ابن يونس كما في الميزان (٢/ ٧٩) واللسان (٢/ ٤٨٨).
وفيه أيضاً (علي بن مسعدة) وهو صدوق له أوهام [التقريب (٢/ ٤٤)]. وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٠٨ رقم التعليقة ٢) «أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس ـ (٢/ ٤١٧ رقم ٣٨٥١) ـ من حديث =

يدَي غيري، فتفكر داودُ فيه فصعِق صعقة، وأنه أمره بأن يذبح شاة ويأتيَ بأطيبِ مُضْغتين منها فأتىٰ باللسان والقلب ثم بعد أيام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها فأتىٰ بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال: هما أطيبُ شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبُثا. ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ لأنِ اشكُر، أو أي أشكر فإن إيتاء الحكمة في معنى القول. ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن نفعه عائدٌ إليها وهو دوامُ النعمة واستحقاقُ مزيدها. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ لا يحتاج إلى الشكر. ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيقٌ بالحمد وإن لم يُحْمَد، أو محمود ينطِق بحمده جميعُ مخلوقاته بلسان الحال.

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ أَنْعَمَ أو أَشْكَمَ أو ما ثانَ. ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾ تصغيرُ إشفاقٍ، وقرأ ابن كثير هنا وفي يا بني أقم الصلاة بإسكان الياء، وحفصٌ فيهما وفي يا بني إنها إن تَكُ بفتح الياء، ومثله البَزِّيُّ في الأخير، وقرأ الباقون في الثلاثة بكسر الياء. ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ قيل كان كافراً فلم يزل به حتى أسلم، ومَنْ وَقَفَ على لا تشرك جعل بالله قَسَماً. ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنه تسويةٌ بين من لا نعمةَ إلا منه ومن لا نعمة منه.

(١٤) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾ ذاتَ وهْنٍ، أو تَهِنُ وَهْناً ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي تضعُف ضعفاً فوق ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضَعْفُها. والجملة في موضع الحال. وقرىء بالتحريك[1]، يقال: وَهَنَ يَهِنُ وَهْناً ووَهُن يَوْهُنُ وَهَناً. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ وفِطامه في انقضاء عامين وكانت تُرضعه في تلك المدة. وقرىء وفِصْلُه في عامين. وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حَولان. ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تفسير لوصينا، أو علة له، أو بدلٌ من والديه بَدَلَ الاشتمال. وذكر الحمل والفصال في البين اعتراض مؤكد للتوصية في حقها خصوصاً، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام لمن قال مَنْ أَبَرُّ؟ أُمَّكَ ثم أمك ثم أمك، ثم قال بعد ذلك ثم أباك[2]. ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأحاسبك على شكرك وكفرك.

= ابن عمر بسند ضعيف، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٢٦٤ رقم ٥٠٢٧) من حديث أنس بلفظ (حكم) بدل (حكمة) وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال: والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب روضة العقلاء ـ ص٧٠ ـ بسند صحيح إلى أنس» هـ.

(١) أي بتحريك الهاء في وهناً ووهن.

(٢) وهو حديث حسن.
أخرجه أبو داود (٥/ ٣٥١ رقم ٥١٣٩) والترمذي (٤/ ٣٠٩ رقم ١٨٩٧) وعبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ١٣٢) وأحمد في «المسند» (٥/ ٢، ٣، ٤، ٥) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٥٠) والطبراني في الكبير (١٩/ ٤٠٤ ـ ٤٠٦) وهناد (رقم ٩٦٥) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن وهو كما قال.
وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وحسنه الألباني في الإرواء (رقم ٨٣٠٧).

وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ باستحقاقه الإشراك تقليداً لهما، وقيل أراد بنفي العلم به نفيَه. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك. ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صَحَاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم. ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ في الدين ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة. ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجعُكَ ومرجعُهما. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازيَك على إيمانك وأجازيَهما على كفرهما. والآيتان معترِضتان في تضاعيف وصية لقمانَ تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصى به، وذِكْر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع أنهما تِلْوَ البارى في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقاه في الإشراك فما ظنك بغيرهما؟! روي نزولهما في سعد بن أبي وقاص وأمِّه، مكثت لإسلامه ثلاثاً لم تَطْعَم فيها شيئاً[١]، ولذلك قيل من أناب إليه أبو بكر رضي الله عنه فإنه أسلم بدعوته.

(١٦) ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي أن الخَصلة من الإحسان أو الإساءة إن تكُ مَثَلاً في الصِغَر كحبة الخردل. ورفع نافعٌ «مثقال» على أن الهاء ضمير القصة، وكان تامّةٌ، وتأنيثُها لإضافة المثقال إلى الحبة كقول الشاعر:

كما شرِقَتْ صدرُ القناة من الدم

أو لأن المراد به الحسنة أو السيئة. ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في أخفىٰ مكان وأحرزه كجوف صخرة، أو أعلاه كمَحْدَب السموات[٢]، أو أسفله كمَقْعَر الأرض. وقرىء بكسر الكاف، مِنْ وَكَنَ الطائرُ إذا استقر في وُكْنَتِه. ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يُحضرها فيحاسب عليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يَصِل علمه إلى كل خفي. ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

(١٧) ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلاً لنفسك. ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك. ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشدائد، سِيَما في ذلك. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر، أو إلى كل ما أُمِر به. ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قَطْعَ إيجاب، مصدر أطلق للمفعول، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله «فإذا عزم الأَمْرُ» أي جَدّ.

(١٨) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تُمِلْه عنهم ولا تولِّهم صفحةَ وجهك كما يفعله المتكبرون، مِنَ

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول بدون سند ص٣٤٦.

(٢) مَحْدَب السموات أي ما ارتفع منها، والحَدَبُ هو ما ارتفع من الأرض (مختار الصحاح مادة حدب).

الصَّعَر وهو ـ أو الصَّيَد[١] ـ داءٌ يعتري البعيرَ فيلوي عنقه. وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي ولا تُصَاعِرْ، وقرىء ولا تُصْعِرْ، والكل واحد مثل عَلَاه وأعلاه وعالاه. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي فرَحاً، مصدر وقع موقع الحال أي تمرح مرحاً. أو لأجل المرح وهو البطر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ علة للنهي. وتأخيرُ الفخور وهو مقابل للمصَعِّر خدَّه والمختال للماشي مرحاً لتوافق رؤوس الآي.

وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ توسطْ فيه بين الدبيب والإسراع. وعنه عليه الصلاة والسلام، «سرعةُ المشي تُذهِب بهاء المؤمن»[٢] وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع[٣] فالمراد ما فوق دبيب المتماوت. وقرىء بقطع الهمزة من أَقْصَد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية. ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ وانقُص منه وأقصر. ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أوحشها. ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ والحمار مَثَلٌ في الذمّ سيما نهاقُه، ولذلك يكنى عنه فيقال طويل الأذنين. وفي تمثيل الصوت المرتفع بصوته ثم إخراجُه مخرج الاستعارة مبالغةٌ شديدة، وتوحيدُ الصوت لأن المراد تفضيل الجنس في النكير دون الآحاد أو لأنه مصدر في الأصل.

(٢٠) ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بأن جعله أسباباً محصِّلة لمنافعكم. ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بأنْ مكنكم من الانتفاع به بوَسْط أو غير وسط ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ محسوسة ومعقولة ما تعرفونه وما لا تعرفونه، وقد مر شرح النعمة وتفصيلها في الفاتحة. وقرىء وأصبغ بالإبدال، وهو جارٍ في كل

---

(١) أي هو من الصعَر بمعنى الصيد وهو داء يعتري البعير... (روح المعاني ٢١/ ٩٠).

(٢) وهو حديث منكر جداً.

● أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٢٧) من حديث أبي هريرة، وفيه عمار بن مطر العنبري، أحاديثه بواطيل. قاله ابن عدي.

● وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه الوليد بن سلمة عامة أحاديثه غير محفوظ. قاله ابن عدي.

● وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٦٧٣) من حديث عبدالله بن عمر، وفيه عمر بن محمد بن صهبان الأسلمي وعامة أحاديثه ما لا يتابعه الثقات عليه والغلبة على حديثه المناكير. قاله ابن عدي.

● وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٩٠) من طريق أبي معشر عن سعيد عن أبي هريرة، وإسناده ضعيف جداً. قاله الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣٠ رقم ١٨١).

وقال الألباني في «الضعيفة» (١/ ٧٤) «ويكفي في رد هذا الحديث أنه مخالف لهدي النبي ﷺ في مشيه».

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣٠ رقم ١٨٢): «ذكره ابن الأثير في «النهاية» (٤/ ٣٧٠).

قلت: لعله أخذه من الفائق. وفي الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٩٠) من رواية سليمان بن أبي حثمة.

قال: قالت الشفاء بنت عبدالله، وهي أم سليمان: كان عمر إذا مشى. فذكره» هـ.

سين اجتمع مع الغين أو الخاء أو القاف كصَلَخ وصقر. وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص نِعَمَهُ بالجمع والإضافة. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته. ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ مستفاد من دليل. ﴿وَلَا هُدٗى﴾ راجع إلى رسول. ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أنزله الله، بل بالتقليد كما قال:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾

(٢١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ وهو منعٌ صريح من التقليد في الأصول. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ﴾ يحتمل أن يكون الضمير لهم ولآبائهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إلى ما يؤول إليه من التقليد أو الإشراك وجواب لو محذوف مثلُ لاتّبعوه، والاستفهام للإنكار والتعجب.

(٢٢) ﴿۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأنْ فوض أمره إليه وأقبل بشَرَاشِره عليه، مِنْ أسلمت المتاع إلى الزبون، ويؤيده القراءة بالتشديد، وحيث عدِّي باللام فلتضمُّن معنى الإخلاص. ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في عمله. ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ تعلق بأوثق ما يُتعلق به، وهو تمثيل للمتوكل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثقِ عُرَى الحبل المتدلي منه. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ إذ الكلُّ صائر إليه.

(٢٣) ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة. وقرىء فلا يُحْزِنْكَ مِنْ أَحْزَن وليس بمستفيض. ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ في الدارين. ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ بالإهلاك والتعذيب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فمُجازٍ عليه فضلاً عما في الظاهر.

(٢٤) ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ تمتيعاً أو زماناً قليلاً، فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ يَثْقُل عليهم ثِقلَ الأَجْرام الغِلاظ، أو يَضُمّ إلى الإحراق الضغطَ.

(٢٥) ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ لوضوح الدليل المانعِ من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطُروا إلى إذاعته. ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم. ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم.

(٢٦) ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لا يستحق العبادةَ فيهما غيرُه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين. ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يُحْمَد.

(٢٧) ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ ولو ثبت كونُ الأشجار أقلاماً. وتوحيدُ شجرة لأن المراد

تفصيل الآحاد. ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والبحرُ المحيط بسَعَته مِدَاداً ممدوداً بسبعة أبحر، فأغنى عن ذكر المِداد بمدّه لأنه مِنْ مَدَّ الدواةَ وأمدها[١]. ورفعُهُ للعطف على محل أنّ ومعمولَيها ويمده حال، أو للابتداء على أنه مستأنف أو الواو للحال. ونَصَبَه البصريان بالعطف على اسم أَنّ أو إضمارِ فعل يفسره يمدُّه. وقرىء تَمُدُّه ويُمِدُّه بالياء والتاء. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بكَتْبها بتلك الأقلامِ بذلك المداد. وإيثارُ جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر. والآية جواب لليهود سألوا رسول الله ﷺ أو أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢] وقد أَنْزَلَ التوراة وفيها علمُ كل شيء.

مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

(٢٨) ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلا كخلقها وبعثها إذ لا يشغله شأن عن شأن لأنه يكفي لوجود الكل تعلقُ إرادته الواجبةِ مع قدرته الذاتية كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كلَّ مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل مُبصَر لا يشغله إدراكُ بعضها عن بعض فكذلك الحق.

(٢٩) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ﴾ كلٌّ من النَّيِّرَيْنِ يجري في فَلَكه. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى منتهًى معلوم، الشمسُ إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر، وقيل إلى يوم القيامة. والفرق بينه وبين قوله: ﴿لأجل مسمى﴾ أن الأجل ههنا منتهى الجري وثمةَ غرضُه حقيقةً أو مجازاً، وكلا المعنيين حاصل في الغايات. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الذي ذكر من سعة العلم وشمولِ القدرة وعجائبِ الصنع واختصاص الباري بها. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بسبب أنه الثابتُ في ذاته الواجب من جميع جهاته، أو الثابتُ إلٰهيّتُه. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته لأنه لا يوجد ولا يتصف إلا بجعله، أو الباطلُ إلٰهيتُه[٤]، وقرأ البصريان والكوفيون غيرَ أبي بكر بالياء. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ مترفع على كل شيء ومتسلط عليه.

---

(١) إسناد المد إلى الأبحر السبعة دون البحر المحيط ـ مع كونه أعظم منها ـ لأنها هي المجاورة للجبال ومنابع المياهِ الجارية، وإليها تنصب الأنهار العظام أولاً ومنها ينصبّ إلى البحر المحيط ثانياً (س٧/ ٧٥).

(٢) الإسراء: «٨٥».

(٣) النحل: «٤٠».

(٤) والتصريح ببطلان ما يدعون من دونه ـ مع أنه يشير إليه قوله «هو الحق» ـ وذلك لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد، وللإيذان بأن الدلالة على بطلان ما ذكر ليست بطريق الاستتباع فقط بل بطريق الاستقلال أيضاً (س٧/ ٧٦).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ
وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن
وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا
يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى
نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه، وهو استشهاد آخرُ على باهر قدرته وكمالِ حُكمه وشمول إنعامه. والباء للصلة أو الحال. وقرىء الفُلُك بالتثقيل، وبنعْمات الله بسكون العين، وقد جوز في مثله الكسر والفتح والسكون. ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ دلائله. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المشاق فيتعب نفسه بالتفكر في الآفاق والأنفس. ﴿شَكُورٍ﴾ يعرِف النعم ويتعرّف مانحَها، أو للمؤمنين فإن الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ ونصف شكر.

(٣٢) ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ علاهم وغطاهم. ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ كما يُظِلّ من جبل أو سحاب أو غيرهما. وقرىء كالظِلال، جمع ظُلّة كقُلّة وقلال. ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لزوال ما ينازع الفطرةَ من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد. ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ مقيم على الطريق القصْد الذي هو التوحيدُ، أو متوسط في الكفر لانزجاره بعضَ الانزجار. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدّار فإنه نقضٌ للعهد الفطري، أو لِما كان في البحر. والخَتْرُ أشدُّ الغدر. ﴿ كَفُورٍ﴾ للنعم.

(٣٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ لاَ يقضي عنه. وقرىء لا يُجزىء مِنْ أجزأ إذا أغنى، والراجع إلى الموصوف محذوف أي لا يجزي فيه. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ عطف على والدٌ، أو مبتدأ خبرُه: ﴿ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وتغييرُ النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يَجزيَ، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافرَ في الآخرة. ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب. ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن خُلْفُه. ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ الشيطان بأن يُرَجِّيَكم التوبةَ والمغفرة فيُجْسِرَكم على المعاصي.

(٣٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ علمُ وقت قيامها. لما روي أن الحٰرثَ بنَ عمرو أتى رسول الله ﷺ فقال: متى قيامُ الساعة؟ وإني قد ألقيتُ حبّاتي في الأرض فمتى السماءُ تمطر؟ وحَملُ امرأتي أذكر أم أنثى؟ وما أعمل غداً وأين أموت؟ فنزلت[1]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «مفاتح الغيب خمسٌ» وتلا

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣١ رقم ١٨٥): «هكذا ذكره الواحدي ـ في الأسباب (ص٣٤٧) ـ والثعلبي بغير سند، وأخرجه الطبري ـ في «جامع البيان» (١١/ج٢١/ ٨٧ ـ ٨٨) ـ وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠) ـ من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، قال: جاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد إن امرأتي حبلى فأخبرني متى تلد؟ فذكره» هـ.

هذه الآية[١]. ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في إبّانه المقدَّر له والمحلِّ المعين له في علمه. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتشديد. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى أتام أم ناقص. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر، وربما تعزم على شيء وتفعل خلافه. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت. روي أن ملك الموت مر على سليمانَ فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل مَنْ هذا؟ قال: ملك الموت، فقال كأنه يريدني فمُرِ الريحَ أن تحملني وتُلقِيَني بالهند، ففعل، فقال الملَك: كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذ أُمرتُ أن أقبِضَ روحه بالهند وهو عندك[٢]. وإنما جعل العلمَ لله تعالى والدرايةَ للعبد لأن فيها معنى الحيلة فيشعر بالفرق بين العِلْمين، ويدل على أنه إن أعمل حيلة وأنفذ فيها وُسعه لم يعرف ما هو الحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم يُنصَب له دليلٌ عليه. وقرىء بأية أرض، وشبّه سيبويهِ تأنيثها بتأنيث كل في كلهنَّ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء كلها. ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها. وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة لقمانَ كان له لقمانُ رفيقاً يوم القيامة، وأعطِيَ من الحسنات عشراً عشراً بعدد من عمِل بالمعروف ونهى عن المنكر»[٣].



(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥١٣ ـ ٥١٤ رقم ٤٧٧٨) من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٧١ رقم ٢٢٢) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢٠٥) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١١٨) عن شهر بن حوشب. وشهر هذا صدوق كثير الأوهام والإرسال ـ كما في التقريب (١/ ٣٥٥) ـ.

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب، وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

ترتيبها ٣٢ آياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

سورة السجدة مكية، وآيُها ثلاثون آيةً، وقيل تسعٌ وعشرون آية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾ إن جُعل اسماً للسورة أو القرآن فمبتدأٌ خبرُه:

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على أن التنزيل بمعنى المُنزَل، وإن جُعل تعديداً للحروف كان تنزيلُ خبرَ مبتدإٍ محذوف أو مبتدأً خبرُه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فيكونُ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حالاً من الضمير في فيه، لأن المصدرَ لا يعمل فيما بعد الخبر، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً، ولا ريب فيه حالٌ من الكتاب، أو اعتراض والضميرُ فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله:

(٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فإنه إنكار لكونه من رب العالمين، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنه تقريرٌ له. ونظمُ الكلام على هذا أنه أشار أولاً إلى إعجازه، ثم رتب عليه أن تنزيلَه من رب العالمين؛ وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجيباً منه؛ فإنّ أمْ منقطعةٌ، ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزّل من الله وبيّن المقصودَ من تنزيله فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ إذا كانوا أهل الفترة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم.

(٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ مر بيانه في

---

[1] انظر «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٤) و«زاد المسير» (٦/ ٣٣٢).

الأعراف[١]. ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ ما لكم إذا جاوزتم رضا الله أحدٌ ينصركم ويشفع لكم. أو ما لكم سواه وليٌّ ولا شفيع، بل هو الذي يتولى مصالحكم وينصركم في مواطنِ نصركم، على أن الشفيع متجوَّز به للناصر، فإذا خذلكم لم يبقَ لكم وليٌّ ولا ناصر. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بمواعظ الله تعالى.

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

(٥) ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يدبر أمرَ الدنيا بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلةٍ آثارُها إلى الأرض. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ثم يصعَد إليه ويثبت في علمه موجوداً. ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في برهة من الزمان متطاولةٍ يعني بذلك استطالةَ ما بين التدبير والوقوع، وقيل يدبر الأمر بإظهاره في اللوح فينزل به الملكُ ثم يعرُج إليه في زمان هو كألف سنة لأن مسافة نزوله وعروجه مسيرةُ ألف سنة فإن ما بين السماء والأرض مسيرةُ خمسِمائة سنة، وقيل يقضي قضاءَ ألف سنةٍ فينزل به الملك ثم يعرُج بعد الألف لألف آخرَ، وقيل يدبر الأمر إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمرُ كلُّه يوم القيامة، وقيل يدبر المأمورَ به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحي. ثم لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة المخلِصين والأعمال الخُلّص. وقرىء يُعْرَج ويَعُدُّون.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيدبر أمرهما على وَفق الحكمة. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على العباد في تدبيره، وفيه إيماءٌ بأنه سبحانه يراعى المصالحَ تفضلاً وإحساناً.

(٧) ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ خلقه موفَّراً عليه ما يستعد له ويليق به على وَفق الحكمة والمصلحة، وخلقه بدلٌ من كلَّ بدلَ الاشتمال، وقل علِمَ كيف يخلقه من قولهم قيمةُ المرء ما يحسنه أي يحسن معرفته، وخلْقه مفعول ثان. وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام على الوصف، فالشيء على الأول مخصوص بمنفصل وعلى الثاني بمتصل. ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يعني آدم. ﴿مِن طِينٍ﴾.

(٨) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ ذريته، سميت بذلك لأنها تنسُل منه أي تنفصل. ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ممتَهن.

(٩) ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ قوّمه بتصوير أعضائه على ما ينبغي. ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضافه إلى نفسه تشريفاً له وإشعاراً بأنه خلق عجيب وأن له شأناً له مناسبة مَا إلى الحضرة الربوبية، ولأجله قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ خصوصاً لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا[٢]. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون شكراً قليلاً.

---

(١) الأعراف: «٥٤».

(٢) وتقديم «لكم» على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق للمؤخر (س٧/ ٨٠).

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ
ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ
رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ
هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ
لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾

(١٠) ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض لا نتميز منه، أو غبنا فيها. وقرىء ضَلِلْنا بالكسر من ضل يضل، وصَلَلْنا من صلّ اللحم إذا أنتن، وقرأ ابن عامر إذا على الخبر؛ والعاملُ فيه ما دل عليه: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ وهو: نُبعثُ أو يُجدّد خلقُنا. وقرأ نافع والكسائي ويعقوب أنّا على الخبر. والقائل أبيّ بن خلف، وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به. ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ بالبعث أو بتلقي ملك الموت وما بعده. ﴿كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون.

(١١) ﴿۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً ولا يُبقي منكم أحداً. والتفعّل والاستفعال يلتقيان كثيراً كتقصيتُه واستقصيتُه وتعجلته واستعجلتُه. ﴿مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ بقبْض أرواحكم وإحصاء آجالكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء.

(١٢) ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ من الحياء والخزي. ﴿رَبَّنَآ﴾ قائلين ربنا. ﴿أَبۡصَرۡنَا﴾ ما وعدتَنا. ﴿وَسَمِعۡنَا﴾ منك تصديق رسلك. ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾ إلى الدنيا. ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذْ لم يبقَ لنا شك بما شاهدنا، وجواب لو محذوفٌ تقديره لرأيتَ أمراً فظيعاً. ويجوز أن تكون للتمني، والمضيُّ فيها وفي إذ لأن الثابت في علم الله بمنزلة الواقع. ولا يُقَدَّر لترى مفعول، لأن المعنى لو يكون منك رؤيةٌ في هذا الوقت، أو يُقدّر ما دل عليه صلةُ إذ. والخطابُ للرسول ﷺ، أو لكل أحد[1].

(١٣) ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ ما تهتدي به إلى الإيمان والعملِ الصالح بالتوفيق له. ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾ ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ وذلك تصريحٌ بعدم إيمانهم ـ لعدم المشيئة ـ المسبَّب عن سبق الحكم بأنهم من أهل النار، ولا يدفعه جعْلُ ذوْق العذاب مسبَّباً عن نسيانهم العاقبةَ وعدمِ تفكرهم فيها بقوله:

(١٤) ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ فإنه من الوسائط والأسباب المقتضية له. ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ تركناكم من الرحمة، أو في العذاب تَرْكِ المنسيّ. وفي استئنافِه وبناءِ الفعل على إنّ واسمها تشديدٌ في الانتقام منهم. ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ كَرّر الأمر للتأكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله، وتعليلُه بأفعالهم السيئة من التكذيب والمعاصي ـ كما علله بتركهم تدبُّرَ أمرِ العاقبة والتفكيرَ فيها ـ دلالةٌ على أن كلاً منهما يقتضي ذلك.

---

(١) عدلوا للجملة الاسمية «إنّا موقنون» وذلك لإظهار ثباتهم على الإيقان وكمال رغبتهم فيه (س٧/ ٨٢).

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

(١٥) ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ وُعظوا بها. ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ خوفاً من عذاب الله. ﴿وَسَبَّحُوا۟﴾ نزهوه عما لا يليق به كالعجز عن البعث. ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حامدين له شُكْراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدى[١]. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ عن الإيمان والطاعة كما يفعل مَنْ يُصِرّ مستكبراً.

(١٦) ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ ترتفع وتتنحّىٰ. ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الفُرُش ومواضع النوم. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ داعين إياه. ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه. ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته. وعن النبي ﷺ في تفسيرها: «قيام العبد من الليل»[٢]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد جاء منادٍ ينادي بصوت يُسمعُ الخلائقَ كلهم: سيعلم أهل الجمع اليومَ مَنْ أوْلىٰ بالكرم، ثم يرجع فينادي: لِيَقُم الذين كانت تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يَرجع فينادي: لِيقُم الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسب سائرَ الناس»[٣] وقيل كان أناس من الصحابة يُصلّون من المغرب إلى العشاء فنزلت فيهم[٤]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

(١٧) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ لا ملَك مقرب ولا نبيّ مرسل. ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مما تَقَرُّ به عيونُهم. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بلْه ما أطلعتهم عليه، أقرؤوا إن شئتم «فلا تعلم نفس ما أُخفِيَ لهم»[٥]. وقرأ حمزة ويعقوب أُخفِي لهم على أنه مضارِعُ أَخفيْتُ، وقرىء نُخفي وأُخفِي

---

(١) والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلة التسبيح والتحميد، وبأنهم يفعلونها بملاحظة ربوبيته تعالى لهم (س/٧ ٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٨) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣) من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً به.
والترمذي (٥/ ١١ ـ ١٢ رقم ٢٦١٦) وابن ماجة (٢/ ١٣١٤ رقم ٣٩٧٣) وعبد بن حميد رقم (١١٢) وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٣٠ رقم ٢٦٦) عن معاذ في أثناء حديث مرفوع نحوه. وهو حديث صحيح. انظر إرواء الغليل (رقم: ٤١٣).

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣١ رقم ١٩١) «ـ أخرجه ـ إسحاق وأبو يعلى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مطولاً وهو عند الحاكم ـ (٢/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩) ـ» هـ.
قلت: صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أبو داود (٧٩/ ١٣٢١، ١٣٢٣) من حديث أنس. ويشهد له ما أخرجه الترمذي (٥/ ٣٤٦ رقم ٣١٩٦) أيضاً من حديث أنس وقوى إسناده الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط في تخريج جامع الأصول (٢/ ٣٠٣).

(٥) أخرجه البخاري (٨/ ٥١٥، ٥١٦ رقم ٤٧٧٩ و٤٧٨٠) ومسلم (٤/ ٢١٧٤ ـ ٢١٧٥ رقم ٢، ٣، ٤/ ٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة.

والفاعل للكل هو الله، وَقُرَّاتِ أعْيُن لاختلاف أنواعها. والعلمُ بمعنىٰ المعرفة، وما موصولةٌ أو استفهامية معلق عنها الفعل. ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي جُزُوا جزاء، أو أُخْفِيَ للجزاء فإن إخفاءه لعلوّ شأنه. وقيل هذا لقومٍ أخْفَوْا أعمالهم فأخفى الله ثوابَهم.

أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ
ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ
ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ
ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢

(١٨) ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ خارجاً عن الإيمان ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ في الشرف والمثوبةِ، تأكيدٌ وتصريحٌ، والجمعُ للحمل على المعنىٰ.

(١٩) ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ فإنها المأوىٰ الحقيقي والدنيا منزل مرتحلٌ عنها لا محالةَ. وقيل المأوى جنةٌ من الجِنان. ﴿نُزُلَۢا﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران[1]. ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم أو على أعمالهم.

(٢٠) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ مكانَ جنة المأوى للمؤمنين. ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ عبارةٌ عن خلودهم فيها. ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إهانة لهم وزيادة في غيظهم.

(٢١) ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ عذابَ الدنيا، يريد ما مُحِنوا به من السَّنَةِ سبعَ سنين والقتلِ والأسر. ﴿دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ عذابِ الآخرة. ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ لعل مَنْ بقي منهم. ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر. روي أن الوليد بن عقبة فاخَرَ علياً رضي الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات[2].

(٢٢) ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ فلم يتفكرْ فيها. وثُمّ لاستبعاد الإعراض عنها ـ مع فرض وضوحها ـ وإرشادِها إلى أسباب السعادة بعد التذكير بها عقلاً كما في بيت الحماسة.

وَلاَ يَكْشِـفُ الغُمَّـاءَ إِلاَّ ابْـنُ حُـرَّةٍ يَـرَى غَمَـرَاتِ المَـوْتِ ثُـمَّ يَـزُورهـا[3]

﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف ممن كان أظلمَ من كل ظالم؟!.

---

(١) آل عمران: «١٩٨».

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣١ رقم ١٩٤): «ـ أخرجه ـ ابن مردويه، والواحدي ص٣٤٩ ـ ٣٥٠ من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي: أنا أحد منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملأ منك لكتيبة. فقال علي: اسكت يا فاسق، فإنما أنت فاسق. فنزلت».
وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.
«تنبيه»: «قوله إن ذلك شجر بينهما يوم بدر غلط فاحش. فما كان الوليد حينئذٍ رجلاً».

(٣) من الطويل.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ
أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا
كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كما آتيناك. ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك. ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ من لقائك الكتاب كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾[1] فإنّا آتيناك من الكتاب مثلَ ما آتيناه منه فليس ذلك ببدْع لم يكن قطّ حتى ترتاب فيه، أو من لقاء موسىٰ للكتاب، أو من لقائك موسىٰ. وعنه عليه الصلاة والسلام: «رأيت ليلةَ أُسْريَ بي موسى عليه السلام رجلاً آدم طوالاً جَعْداً كأنه من رجال شنوأة»[2]. ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي المنزّلَ على موسى. ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

(٢٤) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الحِكَم والأحكام. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم به أو بتوفيقنا له. ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ وقرأ حمزة والكسائي ورويس لِمَا صبروا أي لصبرهم على الطاعة أو عن الدنيا. ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر.

(٢٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يقضي فيميز الحق من الباطل بتمييز المُحِقّ من المبطل. ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

(٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الواو للعطف على مَنْويٍّ من جنس المعطوف. والفاعلُ ضميرُ ما دلّ عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي كَثْرةُ مَنْ أهلكناهم من القرون الماضية، أو ضميرُ الله بدليل القراءة بالنون. ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ يعني أهلَ مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم. وقرىء يَمَشُّون بالتشديد. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تدبرٍ واتعاظ.

(٢٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ التي جُرِزَ نباتُها أي قُطع وأزيل، لا التي لا تُنبت لقوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ وقيل اسمُ موضعٍ باليمن. ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع. ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتين والورق. ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحب والثمر. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فيستدلون به على كمال قدرته وفضله.

(٢٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ النصرَ أو الفصْل بالحكومة من قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾[3] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الوعد به.

---

(١) النحل: «٦».
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣١٤ رقم ٣٢٣٩) و(٦/٤٢٨ رقم ٣٣٩٤) ومسلم (١/ ١٥١ رقم ٢٢٦) من حديث ابن عباس.
(٣) الأعراف: «٨٩».

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾

(٢٩) ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وهو يومُ القيامة فإنه يومُ نَصْرِ المؤمنين على الكفرة والفَصْلِ بينهم، وقيل يوم بدر أو يوم فتح مكة. والمرادُ بالذين كفروا المقتولون منهم فيه فإنهم لا ينفعهم إيمانُهم حالَ القتل ولا يُمْهَلون، وانطباقُه جواباً على سؤالهم من حيث المعنى باعتبار ما عُرِف من غرضهم؛ فإنهم لما أرادوا به الاستعجال تكذيباً واستهزاء أُجيبوا بما يَمْنَع الاستعجال.

(٣٠) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبالِ بتكذيبهم، وقيل هو منسوخ بآية السيف. ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ النصرةَ عليهم. ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ الغلبةَ عليك. وقرىء بالفتح، على معنى أنهم أحقاءُ بأن يُنْتَظَرَ هلاكُهم، أو أن الملائكة ينتظرونه. عن النبي ﷺ: «من قرأ ألم تنزيلُ وتبارك الذي بيده الملك أُعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر»[1] وعنه: «من قرأ ألم تنزيلُ في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام»[2].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب، وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية أبي عصمة عن زيد العمي عن أبي بصرة عن ابن عباس عن أبي، وعند ابن مردويه من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر. وفي إسناده داود بن معاذ وهو ساقط. كما في «الكافي الشاف» (ص١٣١ رقم ١٩٥).

(٢) قال ابن حجر في «المرجع السابق» (ص١٣١ ـ ١٣٢ رقم ١٩٦): لم أجده.

سُورَةُ الأَحْزَابِ

ترتيبها ٣٣ — آياتها ٧٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ
ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ
أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾

سورة الأحزاب مدنية وآيها ثلاثٌ وسبعون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ناداهُ بالنبيِّ وأَمَرَهُ بالتقوى تعظيماً له وتفخيماً لشأن التقوى، والمرادُ به الأمرُ بالثبات عليه ليكونَ مانعاً له عما نُهِيَ عنه بقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يعودُ بوهْن في الدين[1]. رويَ أنَّ أبا سفيانَ وعِكْرِمةَ بنَ أبي جهل وأبا الأعور السلميَّ قدِموا عليه في الموادَعةِ التي كانت بينَه وبينهم وقام معهم ابنُ أبيّ ومعتبُ بنُ قشير والجدُّ بنُ قيس فقالوا له: ارفضْ ذِكْرَ آلهتنا وقلْ إن لها شفاعةً وندعُك وربَّك فنزلت. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكُم إلا بما تقتضيه الحِكْمةُ.

(٢) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ كالنهي عن طاعَتِهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فمُوحٍ إليك ما تصلُح به أعمالُكَ ويغني عن الاستماع إلى الكفرةِ، وقرأ أبو عمرو بالياءِ على أنَّ الواوَ ضميرُ الكفرةِ والمنافقين أي أنَّ اللهَ خبيرٌ بمكايدهم فيدفعُها عنك.

(٣) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وكِلْ أمْرَك إلى تدبيره. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكُولاً إليه الأمورُ كلُّها.

---

(١) ذكره الثعلبي والواحدي في الأسباب ص٣٥١ بغير إسناد كما في «الكافي الشافِ» (ص١٣٢ رقم ٢٠٠).

(٤) ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ أي ما جمعَ قلبينِ في جوفٍ لأنَّ القلبَ معدِنُ الروح الحيواني المتعلِّقُ بالنفس الإنساني أولاً ومنعُ القوى بأسْرِها وذلك يمنعُ التعددَ. ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وما جمع الزوجيةَ والأُمومةَ في امرأةٍ ولا الدعوةَ والبنوةَ في رجلٍ، والمرادُ بذلك ردُّ ما كانتِ العربُ تزعم مِنْ أنَّ اللبيبَ الأريبَ له قلبانِ ولذلك قيل لأبي معمر أو جميلِ بنِ أسد الفِهري ذو القلبينِ، والزوجةُ المظاهَرُ عنها كالأمِّ ودعيُّ الرجلِ ابنُه ولذلك كانوا يقولون لزيد بنِ حارثةَ الكلبي عتيقِ رسولِ الله ﷺ ابنَ محمد، أو المرادُ نفيُ الأمومةِ والبنوَّةِ عن المظاهَرِ عنها والمتبنَّى ونفيُ القلبينِ لتمهيدِ أصلٍ يُحْمَلانِ عليه. والمعنى كما لم يجعلِ اللهُ قلبينِ في جوفٍ لأدائِه إلى التناقُضِ، وهو أنْ يكونَ كلٌّ منهما أصلاً لكلِّ القوى، وغيرَ أصلٍ لم يجعلِ الزوجةَ والدعيَّ اللذينِ لا وِلادةَ بينَهما وبينَه أمَّه وابنَه اللذين بينَهما وبينه ولادةٌ، وقرأ أبو عمرٍو اللاي بالياءِ وحْدَه على أنَّ أصله اللاءُ بهمزةٍ فَخُفِّفَتْ، وعن الحجازيينَ مِثْلُه، وعنهما وعن يعقوبَ بالهمزِ وحْدَه، وأصلُ تظاهِرون تتظاهرونَ فأُدغِمَتِ التاءُ الثانية في الظاء. وقرأ ابنُ عامر تظَّاهرون بالإدغام وحمزةُ والكسائي بالحذفِ وعاصمٌ تُظَاهِرون مِنْ ظاهَرَ، وقُرِىءَ تَظْهَرُونَ مِنْ ظهرَ بمعنى ظاهَرَ كعقدَ بمعنى عاقَدَ وتَظْهَرُونَ من الظُّهور. ومعنى الظِّهارِ: أنْ يقولَ للزوجةِ أنتِ عليَّ كظهْرِ أميِّ، مأخوذٌ من الظَّهْرِ باعتبارِ اللفظِ كالتلبيةِ من لبَّيْكَ وتعديتُه بِمنْ لتضمُّنِه معنى التجنُّبِ لأنه كان طَلَاقاً في الجاهلية وهو في الإسلام يقتضي الطلاقَ أوِ الحرمةَ إلى أداءِ الكفَّارة كما عدَّى آلى بها، وهو بمعنى حلفَ وذَكَرَ الظَّهْرَ للكنايةِ عن البطنِ الذي هو عمودُه فإنَّ ذِكْرَهُ يقارب ذِكْرَ الفرْجِ، أو للتغليظ في التحريم، فإنَّهم كانوا يحرِّمون إتيانَ المرأةِ وَظَهْرُها إلى السماء، وأدعياءُ جمعُ دعيٍّ على الشذوذِ وكأنه شُبِّهَ بفعيل بمعنى فاعِلٍ فَجُمِعَ جمعَه. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ أو إلى الأخير. ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ لا حقيقةَ له في الأعيانِ كقول الهاذي. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ ماله حقيقةٌ عينيةٌ مطابِقةٌ له. ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ سبيلَ الحقِّ.

ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

(٥) ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ﴾ أنْسُبوهم إليهم، وهو إفرادٌ للمقصودِ من أقواله الحقَّةِ وقوله: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعليلٌ له، والضمير لمصدرِ ادْعُوهم وأقسطُ أفعلُ تفضيلٍ قَصَدَ به الزيادةَ مطلقاً من القِسْطِ بمعنى العدْلِ، ومعناه البالغُ في الصدقِ. ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ فتنسِبُوهم إليهم. ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي فَهُمْ إخوانُكم في الدين. ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ وأولياؤُكم فيه فقولوا هذا أخي ومولاي بهذا التأويلِ. ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ ولا إثمٌ عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطِئِينَ قبلَ النهي أو بعدَه على النسيانِ أو سَبْقِ اللسان. ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكنَّ الجُناحَ فيما تعمَّدتْ قلوبُكم أو ولكنْ ما تعمَّدتْ قلوبكم فيه الجناحَ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لِعَفْوِهِ عن المخطىءِ. واعلم أنَّ التبنيَ لا عبرةَ به عندنا وعندَ أبي حنيفة يوجِبُ عِتْقَ مملوكِه ويثبتُ النَّسب لمجهولِه الذي يمكن إلحاقُه به.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

(٦) ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ في الأمور كلِّها فإنه لا يأمرُهم ولا يرضَى منهم إلا بما فيه صلاحُهم ونجاحُهم بخلافِ النفسِ، فلذلك أُطلِقَ، فيجب عليهم أنْ يكونَ أحبَّ إليهم من أنفسِهم وأمرُه أنفذَ عليهم من أمرِها وشفقتُهم عليه أتمَّ من شفقتهم عليها. رُوِيَ: أنه عليه الصلاةُ والسلام أراد غزوةَ تبوكَ فأمر الناسَ بالخروج فقال ناسٌ نستأذِنُ آباءَنا وأمهاتِنا فنزلت[1]. وقُرِىءَ وهو أبٌ لهم أي في الدين فإنَّ كلَّ نبيٍّ أبٌ لأُمَّتِه من حيثُ أنه أصلٌ فيما به الحياةُ الأبديةُ ولذلك صارَ المؤمنون أُخوةً. ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ منزَّلاتٌ منزلتَهُنَّ في التحريم واستحقاقِ التعظيم وفيما عدا ذلك فكما الأجنبياتِ، ولذلك قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: لسنا أمهاتِ النساءِ[2]. ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ وذوو القراباتِ. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارُثِ وهو نسخٌ لما كان في صدرِ الإسلام من التوارُثِ بالهجرةِ والموالاةِ في الدين. ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في اللوح أو فيما أُنزِلَ، وهو هذه الآيةُ أو آيةُ المواريثِ أو فيمَ فرضَ الله. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيانٌ لأولي الأرحامِ، أو صِلةٌ لأولي أي أولو الأرحام بحقِّ القرابة أَوْلَى بالميراثِ من المؤمنينَ بحقِّ الدين ومن المهاجرين بحقِّ الهجرة. ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ استثناءٌ من أعمِّ ما يقدر الأولوية فيه من النفع! والمراد بفعل المعروفِ التوصيةُ، ومنقطعٌ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ كان ما ذُكِرَ في الآيتين ثابتاً في اللوح أو القرآن. وقيل في التوراة.

(٧) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ مقدَّرٌ باذْكُرْ وميثاقُهم عهودُهم بتبليغ الرسالة والدعاءِ إلى الدين القيِّم. ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ خصَّهم بالذِّكْرِ لأنهم مشاهيرُ أربابِ الشرائعِ وقدَّمَ نبيَّنا عليه الصلاةُ والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنِه. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ عظيمَ الشأن أو مؤكداً باليمين، والتكريرُ لبيانِ هذا الوصف تعظيماً له.

(٨) ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي فعلنا ذلك ليسألَ اللهُ يومَ القيامة الأنبياءَ الذين صدقوا عهدَهم عما قالوه لقومهم، أو تصديقِهم إيَّاهم تبكيتاً لهم أو المصدِّقين لهم عن تصديقهم فإنَّ مصدِّقَ الصادقِ صادقٌ، أو المؤمنينَ الذين صدقوا عهدَهم حينَ أشْهَدَهُم على أنفسِهم عن صدْقِهم عهدَهم. ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطفٌ على أخذْنا من جهة أنَّ بعثةَ الرسل وأخْذَ الميثاق منهم لإثابةِ المؤمنينَ، أو على ما دلَّ عليه لِيَسْأَلَ كأنه قال فأثابَ المؤمنينَ وأعدَّ للكافرين.

---

(١) ذكره الماوردي في تفسيره (٤/ ٣٧٣) عن النقاش.

(٢) أخرج الدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٩٣٦) من طريق مطر الأعنق عن خرقاء، قالت: قلتُ لعائشة: يا أُمّه. قالت «لستُ أمَّ نسائِكم. إنما أنا أمُّ الرجال». وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٦٤) من طريق مسروق أنَّ امرأة قالت لعائشة: يا أُمّه. فقالت: لست بأمّك، أنا أمّ رجالكم».

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ
ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ
لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

(٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزابَ وهم قريشٌ وغطفانُ ويهودُ قريظةَ والنضيرِ وكانوا زهاءَ اثني عَشَرَ ألفاً. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ ريحَ الصَّبا. ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الملائكةَ. روي أنه عليه الصلاةُ والسلام لما سمعَ بإقبالهم ضربَ الخندقَ على المدينة ثم خرجَ إليهم في ثلاثةِ آلافٍ والخندقُ بينَه وبينَهم، ومضَى على الفريقين قريبٌ من شهر لا حربَ بينهم إلا الترامي بالنبلِ والحجارةِ حتى بعثَ الله عليهم ريحاً باردة في ليلة شاتيةٍ، فأخصرتْهم وسفَّتِ الترابَ في وجوههم وأطفأتْ نيرانَهم وقلعتْ خيامَهم وماجتِ الخيلُ بعضُها في بعض وكبَّرتِ الملائكةُ في جوانب العسكر، فقال طليحة بنُ خويلد الأسدي أما محمدٌ فقد بدأكم بالسِّحرِ فالنجاءَ النجاءَ فانهزموا من غير قتالٍ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفرِ الخندق، وقرأ البصريانِ بالياء أي بما يعملُ المشركون من التحزُّبِ والمحاربةِ. ﴿بَصِيرًا﴾ رائياً.

(١٠) ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدلٌ من إذا جاءتكم. ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من أعلى الوادي من قِبَلِ المشرق بنو غطفانَ. ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفلِ الوادي من قِبَلِ المغربِ قريشٌ. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ مالتْ عن مستوى نظرِها حيرةً وشخوصاً. ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ رُعْباً فإنَّ الرئةَ تنتفخُ من شدَّةِ الرَّوْعِ فيرتفعُ القلبُ بارتفاعها إلى رأس الحنجُرةِ، وهي منتهَى الحلقوم مَدْخَلُ الطعام والشراب. ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ الأنواعَ من الظنِّ فظنَّ المخلصونَ الثُّبتُ القلوبِ أنَّ الله منجزُ وعْدِهِ في إعلاء دينه، أو ممتحِنُهم فخافوا الزَّلَلَ وضَعْفَ الاحتمالِ والضِّعافُ القلوبِ والمنافقون ما حُكِيَ عنهم[1]، والألفُ مزيدةٌ في أمثاله تشبيهاً للفواصِلِ بالقوافي وقد أَجْرَى نافعٌ وابن عامرٍ وأبو بكر فيها الوصْلَ مجرى الوقْفِ، ولم يزدْها أبو عمرو وحمزةُ ويعقوب مطلقاً وهو القياسُ.

(١١) ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اختُبِروا فظهر المخلِصُ من المنافقِ والثابتُ من المتزلْزِل. ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ من شدَّةِ الفزعِ وقرىء زلزالاً بالفتح.

(١٢) ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفُ اعتقادٍ. ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من الظَّفرِ وإعلاء الدين. ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وعْداً باطلاً. قيل قائلُه معتِبُ بنُ قشير قال يعِدُنا محمدٌ بفتحِ فارسَ والرومِ وأحدُنا لا يقدرُ أنْ يتبرَّزَ فَرَقاً ما هذا إلا وعْدُ غرور.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني أوسُ بنُ قيظي وأتباعُه. ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أهلَ المدينةِ، وقيل هو

(١) وصيغة المضارع في «تظنون» لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار (س٧/ ٩٤).

اسمُ أرضٍ وقعتِ المدينة في ناحية منها ﴿لَا مُقَامَ﴾ لا موضِعَ قيام. ﴿لَكُمْ﴾ ها هُنا، وقرأ حفصٌ بالضمِّ على أنه مكانٌ أو مصدرٌ من أقام. ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ إلى منازلكم هاربينَ، وقيل المعنى لا مقامَ لكم على دين محمد فارجِعُوا إلى الشركِ وأسْلِمُوه لتسلموا، أو لا مقامَ لكم بيثربَ فارجعوا كفاراً ليمكِنَكُمُ المقامُ بها. ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ للرجوع[1]. ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غيرُ حصينة وأصلُها الخللُ، ويجوزُ أنْ يكونَ تخفيفُ العورة من عَوِرَتِ الدارُ إذا اختَلَتْ وقد قرىء بها. ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينةٌ. ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي وما يريدون بذلك إلا الفرارَ من القتال.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

(١٤) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ دُخِلَتِ المدينةُ أو بيوتُهم. ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها وحَذَفَ الفاعلَ للإيماءِ بأنَّ دخولَ هؤلاءِ المتحزبين عليهم ودخولَ غيرهم من العساكر سِيَّانِ في اقتضاءِ الحكْم المرتَّبِ عليه. ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ﴾ الرِّدَّةَ ومقاتلةَ المسلمينَ. ﴿لَآتَوْهَا﴾ لأَعْطَوْهَا، وقرأ الحجازيانِ بالقصْرِ بمعنى لجاءُوها وفعلُوها. ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ﴾ بالفتنة أو بإعطائها. ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ رَيْثَما يكونُ السؤالُ والجوابُ، وقيل ما لبثوا بالمدينة بعدَ تمامِ الارتداد إلا يسيراً.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ يعني بني حارثةَ عاهدوا رسولَ الله ﷺ يومَ أُحُدٍ حين فَشِلُوا ثمَّ تابوا أنْ لا يعودوا لمثلِه. ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ عن الوفاءِ به مجازى عليه.

(١٦) ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ فإنه لا بدَّ لكلِّ شخصٍ من حَتْفِ أنفٍ، أو قَتْلٍ في وقتٍ معين سبقَ به القضاءُ وجرى عليه القلمُ. ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإنْ نفعكمُ الفرارُ مثلاً فمنعتُم بالتأخير لم يكنْ ذلك التمتيعُ إلا تمتيعاً، أو زماناً قليلاً.

(١٧) ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي أو يصيبُكم بسوءٍ إنْ أرادَ بكم رحمةً فاختَصَرَ الكلامَ كما في قوله:

متقلِّداً سيفاً ورُمحاً

أو حملَ الثاني على الأول لما في العصمةِ من معنى المنْعِ. ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضُّرَّ عنهم.

(١٨) ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ المثبِّطين عن رسولِ الله ﷺ وهم المنافقون. ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾

---

(١) صيغة المضارع في «يستأذن» لاستحضار الصورة (س٧/ ٩٤٠).

من ساكني المدينةِ. ﴿هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ﴾ قرِّبوا أنفسَكم إلينا وقد ذَكَرَ أصْلَه في الإنعام. ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا إتياناً أو زماناً أو بأساً قليلاً، فإنهم يعتذرونَ ويتثبَّطون ما أمكن لهم، أو يخرُجُون مع المؤمنين ولكنْ لا يقاتلونَ إلا قليلاً كقوله ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] وقيل إنه من تتمةِ كلامهم ومعناه لا يأتي أصحابُ محمدٍ حربَ الأحزابِ ولا يقاومونَهم إلا قليلاً.

أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٩﴾ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾

(١٩) ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾ بخلاءَ عليكم بالمعاونةِ أو النفقة في سبيل الله أو الظَّفرِ أو الغنيمة، جمعُ شحيح ونَصْبُها على الحال من فاعل يأتونَ أو المعوِّقينَ أو على الذمِّ. ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ في أحداقهم. ﴿كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ﴾ كنظر المغشيِّ عليه أو كَدَوَرَانِ عينيةٍ، أو مشبَّهينَ به أو مشبَّهةً بعينه. ﴿مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ من معالجة سكراتِ الموت خوفاً ولِوَاذاً بك. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ﴾ وحِيزَتِ الغنائم. ﴿سَلَقُوكُم﴾ ضربوكم. ﴿بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذَرِبَةٍ يطلبون الغنيمةَ، والسَّلْقُ البسْطُ بقهرٍ باليدِ أو اللسان. ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ نُصِبَ على الحال أو الذمِّ، ويؤيده قراءةُ الرفع وليس بتكرير لأنَّ كلاً منهما مقيَّدٌ من وجْهٍ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ إخلاصاً. ﴿فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ فأظهر بُطْلاَنَها إذ لم تَثْبُتْ لهم أعمالٌ فتبطُلُ أو أبطلَ تصنُّعَهم ونفاقَهم. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباطُ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ هيناً لتعلُّقِ الإرادة به وعدمِ ما يمنعه عنه.

(٢٠) ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ أي هؤلاءِ لجُبْنِهم يظنون أنَّ الأحزاب لم ينهزِمُوا، وقدِ انهزموا ففرُّوا إلى داخل المدينة. ﴿وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ كرَّةً ثانيةً. ﴿يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ تمنَّوا أنهم خارِجون إلى البذْوِ حاصلون بينَ الأعراب. ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾ كلَّ قادم من جانبِ المدينة. ﴿عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ﴾ عما جَرَى عليكم. ﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم﴾ هذهِ الكرَّةَ ولم يرجِعوا إلى المدينة وكان قتالٌ. ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ رياءً وخوفاً من التعيير.

(٢١) ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ خَصْلَةٌ حسنةٌ من حقِّها أنْ يُؤْتَسَى بها كالثباتِ في الحربِ ومقاساةِ الشدائدِ، أو هو في نفسِه قدوةٌ يحسنُ التأسي به كقولك في البيضةِ عشرونَ منًّا حديداً أي هي في نفسِها هذا القدْرُ من الحديد، وقرأ عاصمٌ بضمِّ الهمزة وهو لغةٌ فيه. ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي ثوابَ اللهِ أو لقاءَه ونعيمَ الآخرةِ، أو أيامَ الله واليومَ الآخر خصوصاً. وقيل هو كقولك أرجو زيداً وفضْلَه، فإنَّ اليومَ الآخِرَ داخلٌ فيها بِحَسَبِ الحكْمِ والرجاءُ يحتملُ الأملَ والخوفَ

---

(١) الأحزاب: «٢٠».

ولمن كان صلةً لحسنةٍ أو صفةً لها. وقيل بدلٌ من لكم والأكثرُ على أنَّ ضميرَ المخاطبِ لا يُبْدَلُ منه. ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وقَرَنَ بالرجاءِ كثرةَ الذِّكْرِ المؤديةَ إلى ملازمةِ الطاعة، فإنَّ المؤتسي بالرسولِ مَنْ كان كذلك.

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

(٢٢) ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بقوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾[١] الآيةَ، وقولِه عليه الصلاةُ والسلام «سيشتدُّ الأمرُ باجتماعِ الأحزاب عليكم والعاقبةُ لكم عليهم»[٢]. وقوله عليه الصلاةُ والسلام: «إنهم سائرون إليكم بعد تِسْعٍ أو عشرٍ»[٣] وقرأ حمزة وأبو بكر بكسرِ الراء وفتح الهمزة[٤]. ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ظهرَ صِدْقُ خبرِ الله ورسولِه، أو صدقاً في النُّصْرةِ والثواب كما صَدَقَا في البلاءِ، وإظهارُ الاسمِ للتعظيم. ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ فيه ضميرٌ لما رأوا، أو الخطبُ أوِ البلاءُ. ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله ومواعيده. ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره ومقاديرِه.

(٢٣) ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثباتِ مع الرسول ﷺ والمقاتلةِ لإعلاء الدينِ من صَدَقَني إذا قال لك الصِّدقَ، فإنَّ المعاهِدَ إذا وفَّى بعهده فقد صدقَ فيه. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ نَذْرَهُ بأنْ قاتل حتى استُشْهِدَ كحمزةَ ومصعبِ بنِ عمير وأنسِ بنِ النضرِ، والنَّحْبُ النذرُ واسْتُعِيرَ للموتِ لأنه كنذرٍ لازمٍ في رقبةِ كلِّ حيوانٍ. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الشهادة كعثمانَ وطلحةَ رضي الله عنهما. ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ العهدَ ولا غيَّروهُ. ﴿تَبْدِيلًا﴾ شيئاً من التبديل. رُوِيَ أنَّ طلحةَ ثَبَتَ مع رسولِ الله ﷺ يومَ أُحُدٍ حتى أُصِيبَتْ يدُه فقال عليه الصلاة والسلام: «أَوْجَبَ طلحةُ»[٥] وفيه تعريضٌ لأهل النفاق ومرضِ القلبِ بالتبديلِ، وقوله:

---

(١) البقرة: «٢١٤».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٣٣ رقم ٢٠٨): «لم أجده».
وذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢١/١٦٩) عن ابن عباس نقلاً عن البحر المحيط.

(٤) من (رأى) أي بكسر الراء وفتح همزة (رأى).

(٥) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣٣ رقم ٢١٠) «ـ أخرجه ـ الثعلبي من رواية جرير بن حازم عن عروة في قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا﴾ ـ الآية ـ منهم طلحة بن عبيدالله فذكره.
وقد روى مفرقاً من غير هذا الوجه، فقضيته أن يده أصيبت، أخرجها البخاري (٧/ ٨٢ رقم ٣٧٢٤) و(٧/ ٣٥٩ رقم ٤٠٦٣) من رواية قيس بن أبي حازم «رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها رسول الله ﷺ يوم أحد» والنسائي من طريق عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر قال «لما كان يوم أحد كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثنى عشر رجلاً من الأنصار. فذكر القصة مطولة».
قوله «أوجب طلحة» أخرجها الترمذي (٤/ ٢٠١ رقم ١٦٩٢) و(٥/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤ رقم ٣٧٣٨) وابن حبان (ص٥٤٦ رقم ٢٢١٢ ـ موارد) والحاكم (٣/ ٢٥) وابن أبي شيبة وإسحاق وأبو يعلى والبزار من طريق محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبيدالله بن الزبير عن أبيه به» هـ.

لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ تعليلٌ للمنطوقِ والمعرَّضِ به، فكأنَّ المنافقين قصدُوا بالتبديل عاقبةَ السوءِ كما قصدَ المخلصون بالثباتِ والوفاءِ العاقبةَ الحسنى، والتوبةُ عليهم مشروطةٌ بتوبتهم أو المرادُ بها التوفيقُ للتوبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني الأحزابَ. ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ متغيِّظينَ. ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ غيرَ ظافرِينَ وهما حالانِ بتداخلٍ أو تعاقُبٍ. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالريحِ والملائكةِ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداثِ ما يريدُه. ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على كلِّ شيءٍ.

(٢٦) ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم﴾ ظاهروا الأحزابَ. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعني قريظةَ. ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم جمعُ صَيْصِيَةٍ وهي ما يُتَحَصَّنُ به ولذلك يُقَالُ لِقَرْنِ الثورِ والظبي وشوكةِ الديك. ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوفَ وقُرِىءَ بالضمِّ. ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وقرىء بضمِّ السين روي: أنَّ جبريلَ أتى رسولَ الله ﷺ صبيحةَ الليلةِ التي انهزمَ فيها الأحزابُ، فقال: أتنزعُ لأمَتَكَ والملائكةُ لم يضعوا السلاحَ؟ إنَّ اللهَ يأمركَ بالسيرِ إلى بني قريظةَ وأنا عامِدٌ إليهم فأذِّنْ في الناس أنْ لا يصلُّوا العصرَ إلا في بني قريظةَ، فحاصَرَهم إحدى وعشرين أو خمساً وعشرينَ حتى جَهِدَهم الحصارُ فقال لهم: تنزلون على حُكْمي فأبَوْا فقال: على حكمِ سعد بنِ معاذ فرضُوا به، فحكمَ سعدٌ بقتلِ مقاتليهم وسَبْيِ ذراريْهم ونسائِهم، فكبَّر النبيُّ عليه الصلاة والسلام فقال: «لقد حكمْتَ بحكمِ الله من فوقِ سبعةِ أرقعةٍ» فَقَتَلَ منهم سِتَّمائةٍ أو أكثرَ وأسرَ منهم سبعَمِائة[1].

---

(١) هذه الرواية تشمل أحاديث عدة:
أ) حديث (أوقد وضعت السلاح): أخرجه البخاري (٧/ ٤٠٧ رقم ٤١١٧) وأحمد (٢١/ ٨٢ ـ الفتح الرباني) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٥) عن عائشة رضي الله عنها.
ب) حديث (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة): ـ أخرجه البخاري (٧/ ٤٠٧ رقم ٤١١٩) ـ ومسلم (٣/ ١٣٩١ رقم ٦٩/ ١٧٧٠) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٦ ـ ٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.
جـ) حديث (حكم سعد بن معاذ في بني قريظة): ـ أخرجه البخاري (٦/ ١٦٥ رقم ٣٠٤٣) و(٧/ ١٢٣ رقم ٣٨٠٤) و(٧/ ٤١١ رقم ٤١٢١) و(١١/ ٤٩ رقم ٦٢٦٢) ومسلم (٣/ ١٣٨٨ ـ ١٣٨٩ رقم ٦٤/ ١٧٦٨) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل
لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن
كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ
ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

(٢٧) ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ مزارِعَهم. ﴿وَدِيَـٰرَهُمْ ﴾ حصونَهم. ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾ نقودَهم ومواشِيْهم وأثاثَهم. روي أنه عليه الصلاةُ والسلام جعلَ عَقَارَهُم للمهاجرينَ فتكلَّم فيه الأنصارُ فقال: «إنكم في منازلكم» وقال عمرُ رضي الله عنه: أَمَا تُخمِّسُ كما خَمَّسْتَ يومَ بدْرٍ فقال: «لا إنما جُعِلَتْ هذه لي طُعْمَةً»[١]. ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ كفارسَ والرومِ، وقيل خيبرُ وقيل كلُّ أرض تُفْتَحُ إلى يوم القيامة. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فيقدِرُ على ذلك.

(٢٨) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ السَّعةَ والتنعُّمَ فيها. ﴿وَزِينَتَهَا ﴾ زخارِفَها. ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ أعطِكُنَّ المتعةَ. ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ طلاقاً من غير ضِرارٍ وبِدْعَةٍ. روي أنهم سألْنَهُ ثيابَ الزينة وزيادةَ النفقةِ فنزلتْ[٢]. فبدأ بعائشةَ رضي الله عنها فخيَّرها فاختارتِ اللهَ ورسولَه، ثم اختارتِ الباقياتِ اختيارَها فشكرَ اللهُ لهنَّ ذلك فأنزلَ ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾[٣] وتعليقُ التسريحِ بإرادتهنَّ الدنيا وجَعْلِها قسيماً لإرادتهنَّ الرسولَ يدلُّ على أنَّ المخيَّرةَ إذا اختارتْ زَوْجَها لم تُطَلَّقْ خلافاً لزيدٍ والحسن ومالكٍ وإحدى الروايتين عن عليٍّ، ويؤيدُه قولُ عائشةَ رضيَ الله عنها «خيَّرنا رسولُ الله ﷺ فاختَرْناه»[٤]. ولم يعدَّه طلاقاً، وتقديمٌ للتمتُّع على التسريحِ المسبَّبِ عنه من الكرمِ وحُسْنِ الخلقِ. قيلَ لأنَّ الفرقةَ كانتْ بإرادتهنَّ كاختيارِ المخيَّرةِ نفسَها فإنه طَلْقَةٌ رجعيةٌ عندنا وبائنةٌ عند الحنفيةِ، واخْتُلِفَ في وجوبه للمدخولِ بها وليس فيه ما يدلُّ عليه. وقُرِىءَ أُمَتِّعُكُنَّ وأسرِّحُكُنَّ بالرفعِ على الاستئنافِ.

(٢٩) ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يُسْتَحْقَرُ دونه الدنيا وزينتُها ومِنْ للتبيينِ لأنهنَّ كلَّهنَّ كنَّ محسناتٍ.

(٣٠) ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ ﴾ بكبيرةٍ. ﴿ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ ظاهرٍ قُبْحُها على قراءةِ ابن كثير وأبي بكر والباقونَ بكسْرِ الياء. ﴿يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ ضعفيْ عذابِ غيرِهِنَّ أي مِثْلَيْه، لأنَّ الذَّنْبَ منهنَّ أقبحُ فإنَّ زيادةَ قُبْحِهِ تتبعُ زيادةَ فَضْلِ المذْنِبِ، والنعمةَ عليه ولذلك جعلَ حدَّ الحرِّ ضعفي

---

(١) أخرجه الواقدي باب غزوة بني النضير (١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) عن أم العلاء وأخرجه الواقدي أيضاً (١/ ٣٧٧) من طريق المسور بن رفاعة.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/ ١٥٧) من حديث الحسن مرسلاً بنحوه، بإسناد صحيح إلى الحسن.

(٣) الأحزاب: «٥٢».

(٤) أخرجه البخاري (٩/ ٣٦٧ رقم ٥٢٦٢) ومسلم (٢/ ١١٠٣ رقم ١٤٧٧).

حدِّ العبدِ، وعُوتِبَ الأنبياءُ بما لا يعاتَبُ به غيرُهم وقرأ البصريانِ يُضَعَّفْ على البناءِ للمفعول ورَفْعِ العذابِ، وابنُ كثير وابنُ عامر نُضَعِّفْ بالنونِ وبناءِ الفاعلِ ونَصْبِ العذابِ. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعهُ عن التضعيفِ كونُهُنَّ نساءَ النبيِّ وكيفَ وهو سببُهُ.

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ ومَنْ يدمْ على الطاعةِ. ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولعلَّ ذِكْرَ الله للتعظيمِ أو لقوله: ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرةً على الطاعةِ ومرةً على طلبِهِنَّ رضا النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام بالقناعةِ وحُسْنِ المعاشرةِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويعملْ بالياءِ حملاً على لفظِ مَنْ ويؤتِها على أنَّ فيه ضميرَ اسمِ اللهِ. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنة زيادةً على أَجْرِها.

(٣٢) ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أَصْلُ أحدٍ وَحَدٍ بمعنَى الواحدِ، ثم وُضِعَ في النفي العامِّ مستوياً فيه المذكَّرُ والمؤنَّث والواحدُ والكثيرُ، والمعنى لَسْتُنَّ كجماعةٍ واحدة من جماعاتِ النساء في الفضلِ. ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفةَ حُكْمَ الله ورضا رسولِه. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ فلا تَجِئْنَ بقولِكُنَّ خاضعاً لَيِّناً مِثْلَ قولِ المريباتِ. ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ فُجُورٌ. وقرىءَ بالجزم[1] عطفاً على محلِّ فِعْلِ النهي على أنه نَهْيُ مريضِ القلبِ عن الطمعِ عقيبَ نهيِهِنَّ عن الخضوعِ بالقولِ. ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ حسناً بعيداً عن الريبةِ.

(٣٣) ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ مِنْ وَقَرَ يقِرُ وقاراً أو من قرَّ يقرُّ حُذِفَتِ الأولى من راءِيِ اقْرُرْنَ ونُقِلَتْ كسرتُها إلى القافِ، فاستُغْنِيَ عن همزةِ الوصْلِ ويؤيدُه قراءةُ نافعٍ وعاصمٍ بالفتح من قَرِرْتُ أقرُّ وهو لغةٌ فيه، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ من قارَ يقارُ إذا اجتمعَ. ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ ولا تتبخْتَرْنَ في مَشْيِكُنَّ. ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ تبرُّجاً مِثْلَ تبرُّجِ النساءِ في أيامِ الجاهلية القديمةِ، وقيل هي ما بينَ آدمَ ونوحٍ، وقيلَ الزمانُ الذي وُلِدَ فيه إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام كانتِ المرأةُ تلبسُ درعاً من اللُّؤْلؤِ فتمشي وَسَطَ الطريقِ تعرضُ نفسَها على الرجالِ والجاهليةُ الأخرى ما بَيْنَ عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام، وقيل الجاهلية الأولى جاهليةُ الكفرِ قبلَ الإسلام، والجاهليةُ الأخرى جاهليةُ الفسوق في الإسلام، ويعضِّدُه قولُه عليه الصلاة والسلام لأبي الدرداءِ رضي الله عنه: «إنَّ فيك جاهليةً، قال جاهليةُ كُفْرٍ أو إسلام قال بل جاهليةُ كفرٍ»[2]. ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في سائر ما أَمَرَكُنَّ

---

(١) قوله وقرىء بالجزم أي بجزم الفعل (فيطمعْ).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٣٤ رقم ٢١٧): «لم أجده عن أبي الدرداء. وإنما هو في الصحيحين ـ البخاري (١/٨٤ رقم ٣٠) و(٥/١٧٣ ـ ١٧٤ رقم ٢٥٤٥) و(١٠/٤٦٥ رقم ٦٠٥٠) ـ ومسلم (٣/١٢٨٢ ـ =

به ونهاكنَّ عنه. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الذَّنْبَ المدنِّسَ لِعِرْضِكم وهو تعليلٌ لأمرهنَّ ونَهْيِهِنَّ على الاستئنافِ ولذلك عمَّمَ الحكْمَ. ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نُصِبَ على النداءِ أوِ المدحِ. ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ عن المعاصي. ﴿تَطْهِيرًا﴾ واستعارةُ الرِّجْسِ للمعصية والترشيح بالتطهير للتنفير عنها. وتخصيصُ الشيعةِ أهلِ البيتِ بفاطمةَ وعلي وابنيهما رضي الله عنهم لما روي أنه عليه الصلاةُ والسلام خرجَ ذاتَ غُدْوَةٍ وعليه مِرْطٌ مرجَّلٌ من شعرٍ أسودَ فجلسَ فأتتْ فاطمةُ رضي الله عنها فأدخلَها فيه، ثم جاءَ عليٌّ فأدخله فيه ثم جاء الحسنُ والحسينُ رضي الله عنهما فأدخلَهما فيه ثم قال: إنما يريدُ الله ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت»[1]، والاحتجاجُ بذلك على عِصْمَتِهم وكونِ إجماعِهم حُجَّةً ضعيفٌ لأنَّ التخصيصَ بهم لا يناسِبُ ما قبلَ الآية وما بعدَها، والحديثُ يقتضي أنهم من أهلِ البيت لا أنه ليسَ غيرُهم.

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

(٣٤) ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ من الكتاب الجامع بينَ الأمرَيْنِ وهو تذكيرٌ بما أنعمَ اللهُ عليهم من حيثُ جَعْلُهنَّ أهلَ بيتِ النبوَّةِ ومهبطَ الوحْي وما شاهدْنَ من بَرْحَاءِ الوحي مما يوجِبُ قوةَ الإيمان والحرصَ على الطاعة حثاً على الانتهاءِ والائتمارِ فيما كُلِّفْنَ به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعلم ويدبِّر ما يصلُح في الدين ولذلك خيَّرَكُنَّ ووعَظَكُنَّ، أو يعلمُ مَنْ يصلحُ لنبوَّته ومَنْ يصلُحُ أنْ يكونَ أهلَ بيتِه.

(٣٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الداخلين في السِّلمِ المنقادِيْنَ لحكْمِ الله. ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المصدِّقين بما يجبُ أنْ يُصَدَّقَ به. ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ المداوِمينَ على الطاعةِ. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القول والعمل. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعاتِ وعن المعاصي. ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعينَ لله بقلوبهم وجوارِحهم. ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما وَجَبَ في مالِهم. ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصومَ المفروضَ. ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرام. ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بقلوبهم وألسنَتِهم. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لما اقْتَرَفُوا من الصغائرِ لأنهم مكفراتٌ. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعتِهم، والآيةُ وعْدٌ لهنَّ ولأمثالِهم على الطاعةِ

= ١٢٨٣ رقم ٣٨ ـ ٤٠) من حديث أبي ذر أنه ﷺ قال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٨٣ رقم ٦١/ ٢٤٢٤) من حديث عائشة.

● المرط: هو كساء، جمعه مروط.

● المرجَّل: هو الموش المنقوش عليه صور رحال الإبل.

والتدرُّع بهذه الخصالِ. روي أنَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ قلْنَ: يا رسولَ الله ذَكَرَ الله الرجالَ في القرآنِ بخير فما فينا خيرٌ نُذْكَرُ به فنزلت[1]. وقيل: لما نزل فيهنَّ ما نزل قال نساءُ المسلمينَ فما نَزَلَ فينا شيءٌ فنزلت[2] وعَطْفُ الإناثِ على الذكور لاختلاف الجِنْسَيْنِ وهو ضروريٌّ، وعطْفُ الزوجينِ على الزوجين لتغايُرِ الوصْفينِ فليس بضروريٍّ ولذلك تُرِكَ في قوله ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾[3] وفائدتُه الدلالةُ على أنَّ إعدادَ المعدِّ لهم للجمْعِ بين هذه الصفاتِ.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

(٣٦) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ ما صحَّ له. ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي قضى رسولُ الله، وذُكِرَ اللهُ لتعظيم أمره والإشعارِ بأنَّ قضاءَه قضاءُ الله، لأنه نزلَ في زينبَ بنتِ جحشٍ بنتِ عمَّته أميمةَ بنتِ عبدالمطلب خطبها رسولُ الله ﷺ لزيدِ بنِ حارثةَ فأبتْ هي وأخوها عبدُالله[4]. وقيل في أمِّ كلثومِ بنتِ عقبةَ وهَبَتْ نفسَها للنبيِّ ﷺ فزوَّجها من زيدٍ[5]. ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أنْ يختاروا من أمرهم شيئاً بل يجبُ عليهم أنْ يجعلُوا اختيارَهم تِبْعاً لاختيارِ اللهِ ورسوله، والخِيَرَةُ ما يُتَخَيَّرُ وجُمِعَ الضميرُ الأولُ لعموم مؤمنٍ ومؤمنة من حيثُ إنهما في سياقِ النفي، وجُمِعَ الثاني للتعظيم. وقرأ الكوفيون وهشامٌ «يكون» بالياءِ. ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ بَيِّنَ الانحرافَ عن الصوابِ.

(٣٧) ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقِك لِعِتْقِهِ واختصاصه. ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بما وفَّقك اللهُ فيه وهو زيد بنُ حارثةَ. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ زينبَ. وذلك: أنه عليه الصلاة والسلام

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٢/ ١٠) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٠٨ رقم ١٢٦١٤).
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩١): «رواه الطبراني وفيه قابوس وهو ضعيف، وقد وثق، وبقية رجاله ثقات» هـ.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥٤ رقم ٣٢١١) والطبراني في الكبير (٢٥/ ٣١ ـ ٣٢ رقم ٥١، ٥٢، ٥٣).
مرسلاً وموصولاً من حديث عكرمة عن أم عمارة الأنصارية.
وخلاصة القول أن الحديث صحيح لغيره والله أعلم.

(٣) التحريم: «٥».

(٤) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٣٠١ رقم ٢٠٦) من حديث زينب بنت جحش.
في سياق أطول من هذا، وإسناده ضعيف. انظر «الكافي الشاف» (ص١٣٤ رقم ٢٢٢).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٢/ ١٢) من حديث ابن زيد. فالحديث معضل لأن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم من أتباع التابعين.

أبصَرها بعدَ ما أنكحَها إياهُ فوقعتْ في نفسِه فقال سبحانَ اللهِ مقلِّبِ القلوبِ، وسمعتْ زينبُ بالتسبيحةِ فذكرتْ لزيدٍ ففطِنَ لذلك، ووقعَ في نفسِه كراهةُ صُحْبَتِها، فأتى النبيَّ عليه الصلاة والسلام وقال: أريدُ أنْ أفارِقَ صاحِبَتي، فقال: «مالَكَ؟ أرابَكَ منها شيءٌ» فقال: لا واللهِ ما رأيتُ منها إلا خيراً ولكنَّها لشرفِها تتعظَّمُ عليَّ، فقال له: «أمسِكْ عليك زوجَك»[1] ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أَمْرِها فلا تطلِّقْهَا ضِراراً وتعلُّلاً بتكبُّرِها. ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وهو نكاحُها إنْ طلَّقها أو إرادةَ طلاقِها. ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ تعييرَهم إيَّاك. به. ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ إنْ كان فيه ما يَخْشَى، والواو للحالِ، وليستِ المعاتبةُ على الإخفاءِ وحْدَه فإنه حَسَنٌ بل على الإخفاءِ مخافةَ قَالَةِ الناس وإظهارِ ما ينافي إضمارَه، فإن الأَوْلَى في أمثال ذلك أنْ يصمُتَ أو يفوِّضَ الأمرَ إلى ربِّه. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ حاجةً بحيثُ ملَّها ولم يبقَ له فيها حاجةٌ وطلَّقها وانقضتْ عدَّتُها. ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وقيل قضاءُ الوطرِ كنايةٌ عن الطلاقِ مثْلَ لا حاجةَ لي فيك. وقرىء زَوَّجْتُكَها، والمعنى أنه أُمِرَ بتزويجها منه أو جعلَها زوجَتَهُ بلا واسطةِ عقدٍ. ويؤيدُه أنها كانت تقولُ لسائر نساءِ النبيِّ ﷺ: إنَّ اللهَ تعالى تولَّى إنكاحي وأنتنَّ زوَّجكُنَّ أولياؤُكن[2]. وقيل كان زيدٌ السفيرَ في خُطْبَتِها وذلك ابتلاءٌ عظيم وشاهِدٌ بيِّنٌ على قوةِ إيمانه. ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ﴾ علَّةٌ للتزويج، وهو دليلٌ على أنَّ حكمه وحَكْمَ الأمَةِ واحدةٌ إلا ما خصَّه الدليلُ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أمرهُ الذي يريدُه ﴿مَفْعُولًا﴾ مكوناً لا محالةَ كما كانَ تزويجُ زينبَ.

(٣٨) ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ﴾ قَسَمَ له وقدَّر من قولهم فرضَ له في الديوان، ومنه فروضُ العسكرِ لأرزاقِهم. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ سنَّ ذلك سُنَّةً. ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ﴾ من الأنبياء، وهو نفيُ الحرجِ عنهم فيما أباحَ لهم. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ قضاء مقضياً وحكماً مبتوتاً.

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣٤ رقم ٢٢٤) «ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرج الطبري ـ في «جامع البيان» (١٠٢/ ج٢٢/ ١٣) ـ معناه من رواية عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم» هـ.
وهو حديث معضل لأن ابن زيد من أتباع التابعين. بالإضافة أن ابن زيد ضعيف.
● وأخرج ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٠١ ـ ١٠٢) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٣ ـ ٢٤) من رواية الواقدي عن عبدالله بن عامر الأسلمي، عن محمد بن يحيى بن حبان نحوه.
وهو حديث مرسل لأن محمد بن يحيى من صغار التابعين، بالإضافة إلى ضعف الواقدي.
والخلاصة أن الحديث باطل سنداً ومتناً.
فكيف يجوز أن يستند إلى مثل هذين الإسنادين الهالكين في إثبات خبر فيه نيل من عصمة المعصوم ﷺ.
● وقال الأستاذ سيد قطب بعدما فسر الآية على تأويلها الصحيح: «وفي هذا ما يهدينا إلى كل الروايات التي رويت عن هذا الحادث، والتي تشبث بها أعداء الإسلام قديماً وحديثاً، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات» هـ. «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٨٦٩).
وانظر كلام الأستاذ محمد الغزالي في فقه السيرة ص٤٣٩ ـ ٤٤١، فقد أجاد وأفاد ولولا ملال الطول لنقلته لك.
وانظر كلام ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٢٤) عن الآثار التي لا ينبغي التشاغل بها.
(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤ رقم ٧٤٢٠) من حديث أنس.

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ
مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟
ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

(٣٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ صفةٌ للذين خَلَوْا أو مدحٌ لهم منصوبٌ أو مرفوعٌ، وقرىء رسالة الله. ﴿ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ تعريضٌ بعد تصريح. ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ كافياً للمخاوِفِ أو محاسباً فينبغي أن لا يُخْشَى إلا منه.

(٤٠) ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ على الحقيقة فيثبتُ بينَه وبينَه ما بَيْنَ الوالدِ وولدِه من حُرْمَةِ المصاهرةِ وغيرِها، ولا ينتقضُ عمومُه بكونه أباً للطاهرِ والقاسمِ وإبراهيمَ لأنهم لم يبلُغوا مَبْلَغَ الرجالِ ولو بلغوا كانوا رجالَه لا رجالَهم. ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ وكلُّ رسولٍ أبو أُمَّته لا مطلقاً بل منْ حيثُ إنه شفيقٌ ناصحٌ لهم، واجبُ التوقير والطاعة عليهم وزيدٌ منهم ليس بينه وبينه ولادةٌ. وقرىء رسولُ اللهِ بالرفع على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ، ولكنَّ بالتشديد على حذفِ الخبر أي ولكنَّ رسولَ الله مَنْ عرفتُم أنه لم يعِشْ له ولدٌ ذكرٌ. ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ وآخِرَهم الذي ختمَهُم أو خُتِمُوا به على قراءةِ عاصم بالفتح، ولو كان له ابنٌ بالغ لاقَ بمنصِبه أنْ يكونَ نبياً كما قال عليه الصلاة والسلام في إبراهيمَ حين تُوُفِّيَ: «لو عاشَ لكان نبياً»[1] ولا يقدحُ فيه نزولُ عيسى بعدَه لأنه إذا نزل كان على دينه، مع أنَّ المرادَ منه أنه آخِرُ مَنْ نُبِّىءَ. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلمُ مَنْ يليق بأنْ يَخْتِمَ به النبوَّةَ وكيفَ ينبغي شأنُه.

(٤١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ يغلبُ الأوقاتَ ويعمُّ الأنواعَ بما هو أهلُه من التقديسِ والتحميدِ والتهليل والتمجيد.

(٤٢) ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أولَ النهارِ وآخِرَهُ خصوصاً، وتخصيصُهما بالذِّكْرِ للدلالة على فَضْلِهما على سائر الأوقاتِ لكونهما مشهودَيْنِ كإفرادِ التسبيح من جملة الأذكار لأنه العمدةُ فيها. وقيل الفعلانِ موجَّهانِ إليهما. وقيل المراد بالتسبيح الصلاةُ.

(٤٣) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ بالرحمة. ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ بالاستغفارِ لكم والاهتمام بما يُصْلِحُكم، والمراد بالصلاة المشتركُ وهو العناية بصلاحِ أمرِكم وظهورِ شرفِكم مستعارٌ من الصَّلْوِ. وقيل الترحُّم والانعطافُ المعنوي مأخوذٌ من الصلاةِ المشتَمِلَةِ على الانعطافِ الصُّوري الذي هو الركوعُ والسجود،

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١/ ٤٨٤ رقم ١٥١١) من حديث ابن عباس.
وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٢٦٩ رقم ٥٤٥) «هذا إسناد ضعيف لضعف إبراهيم بن عثمان أبي شيبة» هـ.
● وأخرج البخاري (١٠/ ٥٧٧ رقم ٦١٩٤) وابن ماجة (١/ ٤٨٤ رقم ١٥١٠) من حديث ابن أبي أوفى.
ولو قضَى أن يكونَ بعدَ محمد ﷺ نبيٌّ عاشَ ابنهُ ولكن لا نبيَّ بعدَه».

واستغفارُ الملائكة ودعاؤُهم للمؤمنين ترحُّمٌ عليهم سيَّما وهو السببُ للرحمة من حيثُ إنهم مجابو الدعوةِ. ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلماتِ الكفر والمعصيةِ إلى نورِ الإيمان والطاعةِ. ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حيثُ اعتنى بصلاحِ أمرِهم وإنافةِ قَدْرِهم واستعملَ في ذلك ملائكتَهُ المقرَّبينَ.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ
ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا
نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ
وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

(٤٤) ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدرِ إلى المفعول أو يحيَّونَ. ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يومَ لقائِه عند الموت أو الخروجِ من القبور، أو دخولِ الجنة. ﴿سَلَٰمٌ﴾ إخبارٌ بالسلامة عن كلِّ مكروه وآفةٍ. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ هي الجنة، ولعلَّ اختلافَ النَّظْمِ لمحافظة الفواصلِ والمبالغة فيما هو أهمُّ.

(٤٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَنْ بُعِثْتَ إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتِهم وضلالهم، وهو حال مقدَّرةٌ. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

(٤٦) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى الإقرار به وبتوحيدِه وما يجبُ الإيمانُ به من صفاته. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بتيسيرِه وأُطْلِقَ له من حيثُ أنه من أسبابه وقيِّد به الدعوةَ إيذاناً بأنه أمرٌ صعبٌ لا يتأتَّى إلا بمعونةٍ من جَنابِ قُدْسِه. ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يُسْتَضاءُ به عن ظلماتِ الجهالاتِ ويُقْتَبَسُ من نوره أنوارُ البصائرِ.

(٤٧) ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ على سائر الأُمَمِ أو على جزاءِ أعمالهم، ولعله معطوفٌ على محذوفٍ مثلُ فراقِبْ أحوالَ أُمَّتِكَ.

(٤٨) ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تهييجٌ له على ما هو عليه من مخالفتِهم. ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ إيذاءَهم إياكَ ولا تحتفلْ به، أو إيذاءَكَ إيَّاهم مجازاةً أو مؤاخذةً على كُفْرِهم، ولذلك قيل إنه منسوخٌ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه يكفيكَهُمْ. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمرُ في الأحوالِ كلِّها، ولعلَّه سبحانه وتعالى لما وَصَفَهُ بخمسِ صفاتٍ قابلَ كلاً منها بخطابٍ يناسِبُهُ، فحذفَ مقابلَ الشاهدِ وهو الأمرُ بالمراقبةِ لأن ما بعدَه كالتفصيلِ له، وقابلَ المبشِّرَ بالأمر ببشارةِ المؤمنينَ والنذيرِ بالنهي عن مراقبةِ الكفار، والمبالاةِ بأذاهم، والداعي إلى الله بتيسيره بالأمرِ بالتوكُّلِ عليه، والسراجِ المنيرِ بالاكتفاء به فإنَّ مَنْ أناره اللهُ برهاناً على جميع خلقِه كان حقيقاً بأنْ يُكْتَفَى به عن غيرِه.

(٤٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ تجامِعُوهنَّ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بألفٍ وضمِّ التاءِ. ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ أيام يتربَّصْنَ فيها بأنفسِهنَّ. ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ تَسْتَوْفُونَ عَدَدَهَا من عَدَدْتُ الدراهمَ فاعتدَّها كقولك: كِلْتُهُ فاكْتَالَهُ، أو تعدُّونَها. والإسنادُ إلى الرجالِ للدلالة

على أنَّ العدَّة حقُّ الأزواجِ كما أشعرَ به فما لكم، وعن ابن كثير تعتدُونها مجففاً على إبدالِ إحدى الدالين بالياءِ أو على أنه مِنَ الاعتداءِ بمعنى تعتدُون فيها، وظاهره يقتضي عدمَ وجوبِ العدَّةِ بمجرَّدِ الخلْوةِ وتخصيصِ المؤمناتِ. والحكْمُ عامٌّ للتنبيه على أنَّ من شأنِ المؤمن أنْ لا ينكِحَ إلا مؤمنةً تخييراً لنطفتِه، وفائدةُ ثمَّ إزاحةُ ما عَسَى أنْ يُتَوَهَّمَ تراخي الطلاقِ ريثَما تمكنُ الإصابةُ كما يؤثر في النسبِ يؤثر في العدَّةِ. ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي إنْ لم يكن مفروضاً لها فإن الواجبَ للمفروضِ لها نصفُ المفروضِ دون المتعةِ ويجوز أنْ يُؤَوَّلَ التمتيعُ بما يعمُّهما، أو الأمرُ بالمشتركِ بين الوجوب والندبِ فإنَّ المتعةَ سُنَّةٌ للمفروض لها. ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أخرجوهنَّ من منازِلكم إذ ليس لكم عليهنَّ عدَّةٌ. ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من غير ضِرَارٍ ولا منعِ حقٍّ، ولا يجوزُ تفسيرُهُ بالطلاقِ السُّني لأنه مرتَّبٌ على الطلاقِ، والضمير لغيرِ المدخول بهنَّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٠﴾

(٥٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورَهنَّ لأنَّ المهرَ أَجْرٌ على البِضعِ، وتقييدُ الإحلال له بإعطائها معجَّلةً لا لتوقُّفِ الحِلِّ عليه بل لإيثارِ الأفضلِ له كتقييدِ إحلال المملوكةِ بكونها مسبيةً بقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ فإنَّ المشتراةَ لا يتحققُ بَدْءُ أمرِها وما جَرى عليها، وتقييدُ القرائبِ بكونها مهاجراتٍ معه في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ ويُحتَمَلُ تقييدُ الحِلِّ بذلك في حقِّه خاصَّة ويعضِّدُه قولُ أمِّ هانىءٍ بنتِ أبي طالب: خَطَبني رسولُ الله ﷺ فاعتذرْتُ إليه فعذَرني، ثم أنزلَ الله هذه الآيةَ فلم أَحُلَّ له لأني لم أهاجِرْ معه، كنتُ من الطُّلَقَاءِ[(١)]. ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ نُصِبَ بفعلٍ يفسِّره ما قبلَه أو عطفٌ على ما سبقَ، ولا يدفعُه التقييدُ بأنَّ التي للاستقبالِ فإنَّ المعنى بالإحلالِ والإعلام بالحِلِّ أي: أعلمْنَاك حِلَّ امرأةٍ مؤمنةٍ تهبُ لك نفسَها ولا تطلُبُ مهراً إنِ اتفقَ ولذلك نكَّرها. واختُلِفَ في اتفاق

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥٥ رقم ٣٢١٤) والحاكم (٢/ ٤٢٠ و٤/ ٥٣) والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٠٥ ـ ٤١٦ رقم ٩٨٥) و(٢٤/ ٤١٣ رقم ١٠٠٧) وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ج٢٢/ ٢٠ ـ ٢١). كلهم من رواية السدي عن أبي صالح عن أم هانىء. قال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدي. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٤٣ رقم ١٠٠٥) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عن أم هانىء.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٣٦ رقم ١٠٦٧) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن أم هانىء. وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٧١): «رجاله ثقات».

ذلك، والقائلُ به ذَكَرَ أربعاً: ميمونةَ بنتَ الحارث، وزينبَ بنتَ خزيمةَ الأنصاريةَ، وأمَّ شريك بنتَ جابر، وخولةَ بنتَ حكيم. وقُرِىءَ أنْ بالفتح أي لأَنْ وهبتْ أو مدَّةَ أن وهبت كقولك: اجلسْ ما دامَ زيدٌ جالساً. ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ شرطٌ للشرطِ الأول في استيجابِ الحِلِّ فإن هِبَتَهَا نفسَها منه لا توجبُ له حِلَّها إلا بإرادتِه نِكاحَها، فإنها جاريةٌ مجرى القبولِ. والعدولُ عن الخطابِ إلى الغيبةِ بلفظ النبيِّ ﷺ مكرَّراً، ثم الرجوعُ إليه في قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إيذانٌ بأنه مما خُصَّ به لشرفِ نبوَّته وتقريرٌ لاستحقاقِ الكرامة لأَجْلِه. واحتجَّ به أصحابُنا على أنَّ النكاحَ لا ينعقدُ بلفظِ الهِبَةِ لأنَّ اللفظَ تابعٌ للمعنى وقد خُصَّ عليه الصلاةُ والسلام بالمعنى فيختصُّ باللفظِ، والاستنكاحُ طلبُ النكاح والرغبةُ فيه، وخالِصةً مصدرٌ مؤكِّدٌ أي خَلُصَ إحلالُها أو إحلالُ ما أحْلَلْنا لك على القيود المذكورةِ خُلُوصاً لك، أو حالٌ من الضمير في وَهَبَتْ أو صفةٌ لمصدر محذوفٍ أي هبةً خالصةً. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ من شرائطِ العقدِ ووجوبِ القَسْم والمهرِ بالوطءِ حيثُ لم يُسَمَّ. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ من توسيع الأمر فيها أنه كيف ينبغي أنْ يفرضَ عليهم، والجملةُ اعتراضٌ بين قوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ومتعلَّقِهُ وهو خالصةً للدلالة على أنَّ الفرقَ بينه وبين المؤمنينَ في نحو ذلك لا لمجرَّدِ قَصْدِ التوسيع عليه، بل لمعانٍ تقتضي التوسيعَ عليه والتضييقَ عليهم تارةً وبالعكسِ أُخرَى. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما يعسُرُ التحرزُ عنه. ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتوسعَةِ في مظانِّ الحَرَجِ.

۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

(٥١) ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ تؤخِّرها وتتركُ مضاجعَتَهَا. ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ وتضمُّ إليك مَنْ تشاءُ وتضاجِعُها، أو تطلِّقُ مَنْ تشاء وتمسِكُ مَنْ تشاء. وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي وحفصٌ ترجي بالياءِ والمعنى واحدٌ. ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ طلبْتَ. ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ طلَّقْتَ بالرَّجْعَةِ. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في شيء مِنْ ذلك. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ذلك التفويضُ إلى مشيئتكَ أقربُ إلى قرَّةِ عيونهنَّ وقِلَّةِ حُزْنِهِنَّ ورضاهنَّ جميعاً، لأنَّ حكْمَ كلِّهنَّ فيه سواءٌ، ثمَّ إنْ سوَّيْتَ بينهنَّ وجدْنَ ذلك تفضُّلاً منك وإنْ رجَّحْتَ بعضَهنَّ عَلِمْنَ أنه بحكمِ الله تعالى فتطمئنُّ به نفوسُهم. وقرىء تُقِرَّ بضمِّ التاء وأعينَهُنَّ بالنصب، وتُقَرَّ بالبناء للمفعول، وكلُّهنَّ تأكيدُ نونِ يرضَيْنَ، وقرىء بالنصب تأكيداً لهنَّ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فاجتهدوا في إحسَانه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذاتِ الصدور. ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجِلُ بالعقوبة فهو حقيقٌ بأنْ يُتَّقَى.

(٥٢) ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ بالياء لأنَّ تأنيثَ الجمع غيرُ حقيقيٍّ، وقرأ البصريانِ بالتاء. ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ من بعدِ التسعِ وهو في حقِّه كالأربعِ في حقِّنا، أو من بعدِ اليوم حتى لو ماتتْ واحدةٌ لم يحلَّ له نكاحُ أُخرى. ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ فتطلِّقُ واحدةً وتنكِحُ مكانَهَا أُخرى ومِنْ مزيدةٌ لتأكيدِ الاستغراقِ. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ حسنُ الأزواجِ المستبدلَةِ، وهو حالٌ من فاعلِ تَبَدَّلَ دونَ مفعوله وهو من

أزواجٍ لتوغُّلِه في التنكير، وتقديرُه مفروضاً إعجابَك بهنَّ. واخْتُلِفَ في أنَّ الآيةَ محكَمةٌ أو منسوخةٌ بقوله ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾(١) على المعنى الثاني فإنه وإنْ تقدَّمها قراءةٌ فهو مسبوقٌ بها نزولاً. وقيل المعنى لا يحلُّ لك النساءُ من بعدِ الأجناسِ الأربعةِ اللاتي نصَّ على إحلالهنَّ لك ولا أنْ تَبَدَّلَ بهنَّ أزواجاً من أجناس أُخرَ. ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ استثناءٌ من النساءِ لأنه يتناولُ الأزواجَ والإماءَ، وقيل منقطِعٌ. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ فتحفَّظوا أمْرَكم ولا تتخطَّوْا ما حدَّ لكم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

(٥٣) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ إلا وقْتَ أنْ يُؤْذَنَ لكم، أو إلاَّ مأذوناً لكم. ﴿ إِلَىٰ طَعَامٍ ﴾ متعلِّقٌ بيؤْذَنَ لأنه متضمِّنٌ معنى يُدْعَى للإشعار بأنه لا يحسنُ الدخولُ على الطعام من غير دعوةٍ وإنْ أَذِنَ كما أشْعَرَ به قولُه: ﴿ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ غيرَ منتظرين وقْتَهُ، أو إدراكَه حالٌ من فاعل لا تدخلُوا أو المجرورِ في لكم. وقُرِىءَ بالجرِّ صفةٌ لطعام فيكون جارياً على غيرِ مَنْ هولَهُ بلا إبراز الضمير، وهو غيرُ جائزٍ عند البصريينَ وقد أمالَ حمزةُ والكسائيُّ إناهُ لأنه مصدرُ أَنَىٰ الطعامُ إذا أَدْرَكَ. ﴿ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ ﴾ تفرَّقوا ولا تمكُثُوا، ولأنه خطابٌ لقوم كانوا يتحيَّنونَ طعامَ رسولِ الله ﷺ فيدخلُونَ ويقعدُونَ منتظرِيْنَ لإدراكِه، مخصوصةٌ بهم وبأمثالِهم وإلا لما جازَ لأَحدٍ أنْ يدخل بيوتَه بالإذْنِ لغيرِ الطعامِ ولا اللُّبْثِ بعدَ الطعامِ لهم. ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ لحديثِ بعضِكم بعضاً، أو لحديثِ أهلِ البيتِ بالتسمُّع له، عطفٌ على ناظرِيْنَ أو مقدَّرٌ بفعلٍ أي: ولا تدخلوا أو ولا تمكُثوا مستأنِسينَ. ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ ﴾ اللَّبْثَ. ﴿ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ ﴾ لتضييقِ المنزلِ عليه وعلى أهلِه وإشغالِه بما لا يَعْنيه. ﴿ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ من إخراجِكم بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ يعني أنَّ إخراجَكم حقٌّ فينبغي أنْ لا يُتْرَكَ حياءً كما لم يتركْه اللهُ تركَ الحيِيِّ فأَمَرَكُم بالخروج، وقرىء لا يستحِي بحذفِ الياءِ الأُولَى وإلقاءِ حركَتِها على الحاءِ. ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا ﴾ شيئاً يُنْتفَعُ به. ﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ ﴾ المتاعَ. ﴿ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ سِتْرٍ. روي أن عمرَ رضيَ الله عنه قال: «يا رسولَ الله يدخلُ عليك البَرُّ والفاجرُ فلو أمرتَ أمهاتِ المؤمنينَ بالحجاب؟ فنزلتْ»(٢). وقيل نه عليه الصلاة والسلام كان يُطْعَمُ ومعه بعضُ أصحابه، فأصابتْ يدُ رجلٍ يدَ عائشةَ رضيَ الله عنها فكرِهَ النبيُّ ﷺ ذلك

---

(١) الأحزاب: «٥١».

(٢) أخرجه النسائي في تفسيره (رقم: ٤٣٨) من رواية أنس عن عمر رضي الله عنه: وقد أخرجه البخاري في سياق (وافقت ربي في ثلاث) انظر (١/ ٥٠٤ رقم ٤٠٢) و(٨/ ١٦٨ رقم ٤٤٨٣) و(٨/ ٥٢٧ رقم ٤٧٩٠).

فنزلتْ[(١)]. ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الخواطر النفسانيةِ الشيطانيةِ. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ وما صحَّ لكم. ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أنْ تفعلُوا ما يكرَهُهُ. ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ من بعدِ وفاته أو فراقِه، وخصَّ التي لم يدخلْ بها، لما روي أنَّ أشعثَ بنَ قيسٍ تزوجَ المستعيذةَ في أيام عمرَ رضيَ الله عنه فهمَّ برجْمِها، فأُخْبِرَ بأنه عليه الصلاة والسلام فارَقَها قبلَ أنْ يمسَّها فتركَها من غير نكيرٍ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ يعني إيذاءَه ونكاحَ نسائِه. ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ ذنباً عظيماً، وفيه تعظيمٌ من اللهِ لرسوله وإيجابٌ لحرمتِه حيّاً وميّتاً ولذلك بالغَ في الوعيدِ عليه فقال:

إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

(٥٤) ﴿إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا﴾ كنكاحِهنَّ على ألسِنَتِكُم. ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلمُ ذلك فيجازيْكُم به، وفي هذا التعميمِ مع البرهانِ على المقصود مزيدُ تهويل ومبالغةٌ في الوعيد.

(٥٥) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ استثناءٌ لمن لا يجبُ الاحتجابُ عنهم. روي أنه لما نزلتْ آيةُ الحجابِ قال الآباءُ والأبناءُ والأقاربُ: يا رسولَ الله أَوَ نكلِّمُهنَّ أيضاً مِنْ وراء حجاب؟ فنزلتْ[(٢)]. وإنما لم يُذْكَرِ العمُّ والخال لأنهما بمنزلةِ الوالدين ولذلك سُمِّيَ العمُّ أباً في قوله ﴿وإله ابائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾[(٣)] أو لأنه كرهَ تركَ الاحتجابِ عنهما مخافةَ أنْ يصِفَا لأبنائهما. ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني نساءَ المؤمناتِ. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من العبيد والإماءِ، وقيل من الإماءِ خاصَّةً، وقد مرَّ في سورة النور. ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما أُمِرْتُنَّ به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفَى عليه خافيةٌ.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ يعتنونَ بإظهارِ شرفه وتعظيمِ شأنه. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ اعْتَنُوا أنتم أيضاً فإنكم أَوْلَى بذلك وقولُوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ. ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم: ١٠٥٣) والنسائي في تفسيره (رقم: ٤٣٩) والطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ٨٣ ـ ٨٤) عن عائشة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٣) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير موسى بن أبي كثير وهو ثقة».
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ج٢٢/ ٣٩) من طريق ليث بن أبي سليم عن مجاهد مرسلاً وليث ضعيف.

(٢) انظر «جامع البيان» للطبري (١٢/ ج٢٢/ ٤١ ـ ٤٢).

(٣) الأحزاب: «٥١».

وقولوا السلامُ عليك أيُّها النبيُّ وقيل وانقادوا لأوامرِه، والآيةُ تدلُّ على وجوبِ الصلاةِ والسلام عليه في الجملةِ، وقيل تجبُ الصلاةُ كلَّما جَرَى ذِكرُهُ لقوله عليه الصلاةُ والسلام: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليَّ»[1] وقوله «مَنْ ذُكِرْتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليَّ فدخلَ النارَ فأبعده الله»[2]، وتجوزُ الصلاةُ على غيرِهِ تبعاً، وتُكرَهُ استقلالاً لأنه في العُرْفِ صارَ شِعاراً لِذِكْرِ الرسول ﷺ، ولذلك كُرِهَ أنْ يُقالَ محمدٌ عزَّ وجلَّ وإنْ كان عزيزاً وجليلاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

(٥٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يرتكبونَ ما يكرهانِه من الكُفْرِ والمعاصي، أو يؤذونَ رسولَ اللهِ بكسْرِ رُبَاعِيَّتِهِ. وقولُهم شاعرٌ مجنونٌ ونحوُ ذلك، وذِكْرُ اللهِ للتعظيم له. ومَنْ جوَّزَ إطلاقَ اللفظِ على معنيينِ فسَّره بالمعنيينِ باعتبار المعمولَيْنِ. ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبعدَهم من رحمته. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يهينُهم مع الإيلام.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ بغير جناية استحقُّوا بها الإيذاءَ. ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ظاهراً. قيل إنها نزلتْ في منافقين كانوا يؤذونَ علياً رضيَ الله عنه[3]، وقيل في أهلِ الإفك[4]، وقيل في زُناةٍ كانوا يتَّبِعونَ النساءَ وهُنَّ كارهاتٌ[5].

(٥٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ يغطِّينَ وجوهَهُنَّ وأبدانَهُنَّ بملاحِفهنَّ إذا برزْنَ لحاجةٍ، ومِنْ للتبعيضِ فإنَّ المرأةَ ترخي بعضَ جِلْبابِها وتتلفَّعُ ببعضٍ و﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ يُمَيَّزْنَ من الإماءِ والقَيْنَاتِ. ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ فلا يؤذِيْهِنَّ أهلُ الريبةِ بالتعرُّضِ لهنَّ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلفَ. ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده حيثُ يراعي مصالِحَهُم حتى الجزئياتِ منها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٥٠ رقم ٣٥٤٥) وأحمد في المسند (٢/ ٢٥٤) وابن حبان في «الموارد» (ص٤٩٧ رقم ٢٠٢٨) من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: هذا حديث حسن وهو كما قال. وله شاهد من حديث مالك بن الحويرث. أخرجه ابن حبان في «الموارد» (ص٥٩٣ رقم ٢٣٨٦).

(٢) وهو جزء من حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن حبان في «الموارد» (ص٤٩٧ رقم ٢٠٢٨). وكذلك من حديث مالك بن حويرث الذي أخرجه ابن حبان كما في «الموارد» (ص٥٩٣ رقم ٢٣٨٦).

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٢) عن مقاتل بدون سند.

(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٣٧٦).

(٥) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٢) عنهما بدون سند.

۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا
يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ
وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا
يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾

(٦٠) ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم. ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفُ إيمانٍ وقِلَّةُ ثباتٍ عليه، أو فجورٍ عن تَزَلْزُلِهم في الدين أو فجورِهم. ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يرجفونَ أخبارَ السوءِ عن سرايا المسلمينَ ونحوها من إرجافِهم، وأصلُه التحريكُ من الرجفةِ وهي الزلزلةُ سُمِّيَ به الإخبارُ الكاذبُ لكونه متزلزلاً غيرَ ثابتٍ. ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنأمرنَّك بقتالهم وإجلائِهم، أو ما يَضْطَرُّهم إلى طلبِ الجلاءِ. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطفٌ على لنغرينَّكَ، وثمَّ للدلالةِ على أنَّ الجلاءَ ومفارقةَ جوارِ الرسولِ أعظمُ ما يصيبُهم. ﴿فِيهَآ﴾ في المدينة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً أو جواراً قليلاً.

(٦١) ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نُصِبَ على الشَّتْم أو الحالِ، والاستثناءُ شاملٌ له أيضاً أي: لا يجاوِرُونك إلا ملعونينَ، ولا يجوزُ أنْ يُنْصَبَ عن قوله: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ لأنَّ ما بعدَ كلمةِ الشرطِ لا يعملُ فيما قبلَها.

(٦٢) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ مصدرٌ مؤكِّد أي سنَّ الله ذلك في الأمم الماضيةِ، وهو أنْ يَقْتُلَ الذين نافقوا الأنبياءَ وسَعَوْا في وَهْنِهم بالإرجافِ ونحوه أينما ثُقِفُوا. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لأنه لا يبدِّلها ولا يقدرُ أحدٌ أنْ يبدِّلَها.

(٦٣) ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ عن وقْتِ قيامِها استهزاءً وتعنُّتاً أوِ امتحاناً. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لم يُطْلِعْ عليه مَلَكاً ولا نبياً. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ شيئاً قريباً أو تكونُ الساعةُ عن قريبٍ، وانتصابُه على الظرفِ، ويجوزُ أنْ يكونَ التذكيرُ لأنَّ الساعةَ في معنى اليوم، وفيه تهديدٌ للمستعجِلينَ وإسكاتٌ للمتعنِّتينَ.

(٦٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدةَ الاتِّقادِ.

(٦٥) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفظُهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفعُ العذابَ عنهم.

(٦٦) ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ تُصْرَفُ من جهة إلى جهةٍ كاللحم يُشْوَى بالنار، أو من حالٍ إلى حال، وقرِىءَ تَقَلَّبُ بمعنى تتقلَّب، وتُقَلِّبُ. ومتعلقُ الظرفِ[1]. ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فلن نُبْتَلى بهذا العذابِ.

---

(١) وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أعظم الأعضاء، ففيه مزيد تفظيع للأمر وتهويل للخطب (س٧/ ١١٦).

وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا
كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا
وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾

(٦٧) ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ يعنون قادتَهم الذين لقَّنوهم الكُفرَ، وقرأ ابنُ عامر ويعقوبُ ساداتِنا على جمعِ الجمعِ للدلالة على الكثْرةِ. ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ بما زيَّنوا لنا.

(٦٨) ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ مِثلَيْ ما آتيتنا منه لأنَّهم ضلُّوا وأضلُّوا. ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ كثيرَ العددِ، وقرأ عاصمٌ بالباء أي لعناً هو أشدُّ اللَّعنِ وأعظمُهُ.

(٦٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ فأظهر براءَتَهُ من مقُولِهم يعني مؤدَّاهُ ومضمونَه، وذلك أنَّ قارونَ حرَّضَ امرأةً على قذْفِهِ بنفسِها فعصمَه الله كما مرَّ في القصصِ، أو اتَّهمه ناسٌ بِقَتْلِ هُرونَ لما خرجَ معه إلى الطور فماتَ هناك، فحملتْه الملائكةُ ومرُّوا به حتَّى رأَوْهُ غيرَ مقتولٍ. وقيل أحياه اللهُ فأخبَرَهُم ببراءتِه، أو قذفوه بعيبٍ في بدنِه من بَرَصٍ أو أَدَرَةٍ لفرْطِ تستُّره حياءً فأطْلَعَهُم الله على أنه بريءٌ منه. ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ ذا قُربةٍ وَوَجاهةٍ، وقُرِئَ وكان عبدُ الله وجيهاً.

(٧٠) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ارتكاب ما يكرهُه فضلاً عما يؤذي رسولَه. ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ قاصداً إلى الحقِّ من سدَّ يسدُّ سَدَاداً، والمرادُ النهيُ عن ضِدِّه كحديث زينبَ من غير قصْدٍ.

(٧١) ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يوفِّقكُم للأعمال الصالحة، أو يصلِحُها بالقبولِ والإثابةِ عليها. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ ويجعلُها مكفَّرةً باستقامتكم في القولِ والعملِ. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامرِ والنواهي. ﴿فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ يعيش في الدنيا حميداً وفي الآخرة سعيداً.

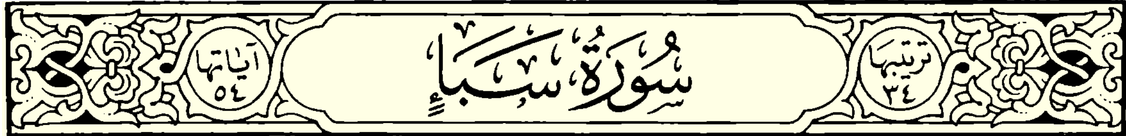
(٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ تقريرٌ للوعدِ السابقِ بتعظيمِ الطاعةِ، وسمَّاها أمانةً من حيثُ إنها واجبةُ الأداءِ، والمعنى أنها لعظمةِ شأنِها بحيثُ لو عُرِضَتْ على هذه الأجرام العِظامِ وكانتْ ذاتَ شعورٍ وإدراكٍ لأَبَيْنَ أنْ يحملْنَها، وأشفقْنَ منها وحملها الإنسانُ مع ضعْفِ بُنْيَتِهِ ورخاوةِ قوتِه، لا جَرمَ فإنَّ الراعيَ لها والقائمَ بحقوقها بخيرِ الدارين. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا﴾ حيثُ لم يفِ بها ولم يراعِ حقَّها. ﴿جَهُولٗا﴾ بِكُنْه عاقِبتها، وهذا وصفٌ للجنسِ باعتبار الأغلبِ. وقيل المرادُ بالأمانةِ الطاعةُ التي تعمُّ الطبيعيةَ والاختياريةَ، وبعرضِها استدعاؤُها الذي يعمُّ طلبَ الفعلِ من المختارِ وإرادةَ صدوره من غيره، وبِحَمْلِها الخيانةَ فيها والامتناعَ عن أدائِها، ومنه قولُهم حاملُ الأمانة ومحتمِلُها لمن لا يؤدِّيها فتبرأ ذمَّتُهُ، فيكونُ الإباءُ عنه إتياناً بما يمكنُ أنْ يتأتَّى منه، والظلمُ والجهالةُ الخيانةُ والتقصير. وقيل إنه تعالى لما خلقَ هذه الأجرامَ خلقَ فيها فهماً وقال

لها: إني فرضتُ فريضةً وخلقتُ جنةً لمن أطاعني فيها، وناراً لمن عصاني، فقلْنَ نحنُ مسخَّراتٌ على ما خلقْتَنا لا نحتملُ فريضةً ولا نبتغي ثواباً ولا عقاباً، ولما خلقَ آدمَ عرضَ عليه مثلَ ذلك فحملَه، وكان ظلوماً لنفسِه بتحمُّله ما يشقُّ عليها جهولاً بوخامةِ عاقبتِه، ولعلَّ المرادَ بالأمانةِ العقلُ أوِ التكليفُ، وبعرضِها عليهنَّ اعتبارُها بالإضافة إلى استعدادهنَّ، وبإبائهنَّ الإباءَ الطبيعيَّ الذي هو عدمُ اللياقةِ والاستعدادِ، وبحمْلِ الإنسانِ قابليَّته واستعداده لها وكونَه ظلوماً جهولاً لما غُلِبَ عليه من القوةِ الغضبية والشَّهويَّةِ، وعلى هذا يحسنُ أنْ يكونَ علةً للحمْلِ عليه فإنَّ من فوائدِ العقلِ أنْ يكونَ مهيمناً على القوتينِ حافظاً لهما عن التعدِّي ومجاوزةِ الحدِّ، ومعظمُ مقصودِ التكليفِ تعديلُهما وكسْرُ سَوْرَتِهما.

(٧٣) ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ تعليلٌ للحمْلِ من حيثُ إنه نتيجتُه كالتأديبِ للضربِ في ضربته تأديباً، وذِكْرُ التوبةِ في الوعْدِ إشعارٌ بأنهم كونُهم ظلوماً جهولاً في جِبِلَّتِهم لا يخلِّيهم عن فرطاتٍ. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ حيثُ تابَ عن فرطاتِهم وأثابَ بالفوز على طاعاتِهم. قال عليه الصلاةُ والسلام «مَنْ قرأ سورةَ الأحزابِ وعلَّمها أهله أو ما ملكتْ يمينُه أُعْطِيَ الأمانَ من عذابِ القبرِ»[1].



(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.
وانظر آخر سورة آل عمران.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

سورةُ سبأ مكيةٌ

وقيلَ إلا قولَه: «ويرى الذين أوتو العلم» الآيةَ، وآيُها أربعُ وخمسونَ آيةً[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً ونعمةً، فله الحمدُ في الدنيا لكمالِ قدرته وعلى تمام نعمتِه. ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لأنَّ ما في الآخرة أيضاً كذلك، وليس هذا من عطفِ المقيَّدِ على المطلقِ فإنَّ الوصْفَ بما يدلُّ على أنه المنعِمُ بالنِّعمِ الدنيوية قيَّد الحمدَ بها، وتقديمُ الصلةِ للاختصاصِ فإنَّ النِّعمَ الدنيويةَ قد تكون بواسطةِ مَنْ يستحقُّ الحمدَ لأجلِها ولا كذلك نعمُ الآخرةِ. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحْكَم أمورَ الداريْنِ. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطنِ الأشياءِ.

(٢) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالغيثِ ينفذُ في موضعٍ وينبعُ في آخرَ، وكالكُنوزِ والدفائنِ والأمواتِ.

---

(١) قال الضحاك وابن السائب، ومقاتل: فيها آية مدنية. وهي قوله «ويرى الذين أوتوا العلم» [سبأ: ٦] ـ كما في «زاد المسير» (٦/ ٤٣١) ـ.
وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٣): «أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة سبأ بمكة.
وأخرج ابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال: سورة سبأ مكية.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيوان والنبات والفِلِزَّاتِ وماءِ العيون. ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالملائكة والكتب والمقاديرِ والأرزاقِ والأنداءِ والصواعقِ. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة وأعمالِ العباد والأَبْخِرَةِ والأدخنةِ. ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرِّطينَ في شكر نعمتِه مع كَثْرَتِها، أو في الآخرة مع مالَهُ من سوابقِ هذه النِّعمِ الفائتة للحصْر.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ إنكارٌ لمجيئها أو استبطاءٌ استهزاءً بالوعد به. ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم وإثباتٌ لما نَفَوْهُ. ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ تكريرٌ لإيجابه مؤكَّداً بالقسَم مقرَّراً لوصْفِ المقسَم به بصفاتٍ تقرِّرُ إمكانَه وتنفي استبعادَه على ما مرَّ غيرَ مرَّةٍ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ علاَّم الغيبِ للمبالغةِ، ونافعٌ وابن عمر ورويسٌ عالمُ الغيبِ بالرفع على أنه خبرٌ محذوفٌ أو مبتدأٌ خبرُهُ. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقرأ الكسائيُّ لا يعزِبُ بالكسْرِ. ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ جملةٌ مؤكِّدةٌ لنفي العزوبِ، ورفعُهما بالابتداءِ، ويؤيدُه القراءةُ بالفتح على نفي الجنسِ، ولا يجوز عطفُ المرفوع على مثقال والمفتوحِ على ذَرةٍ بأنه فتحَ في موضعِ الجرِّ لامتناع الصرفِ لأنَّ الاستثناءَ بمنعِه، اللَّهمَّ إلا إذا جُعِلَ الضميرُ في عنهُ للغيبِ وجُعِلَ المثْبَتُ في اللوحِ خارجاً عنه لظهورهِ على المطالِعينَ له فيكونُ المعنَى لا ينفصلُ عن الغيبِ شيءٌ إلا مسطوراً في اللوحِ.

لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

(٤) ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عِلَّةٌ لقوله لتأتينَّكم وبيانٌ لما يقتضي إتيانَها. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تعبٌ فيه ولا منٌّ عليه.

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بإبطال وتزهيدِ الناس فيها. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقينَ كي يفوتُونا. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو معجزينَ أي مثبِّطينَ عن الإيمان مَنْ أرادَهُ. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ من سَيِّءِ العذابِ. ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلمٌ، ورفعَهُ ابن كثير ويعقوبُ وحفصٌ.

(٦) ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ ويعلمُ أولو العلم من الصحابةِ ومَنْ شايَعَهُم من الأُمَّةِ، أو من مسلمي أهلِ الكتاب. ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآنُ. ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ ومَنْ رَفَعَ الحقَّ جعلَ هو مبتدأً والحقُّ خبرَهُ، والجملةُ ثاني مفعولي يَرَى، وهو مرفوع مستأنَفٌ للاستشهادِ بأولي العلم على الجهَلَةِ الساعينَ في الآياتِ. وقيل منصوبٌ معطوفٌ على ليجزيَ أي وليَعْلَمَ أولو العلم عند مجيءِ الساعة أنه الحقُّ عياناً كما علموه الآنَ برهاناً ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الذي هو التوحيدُ والتدرُّع بلباسِ التقوى.

(٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال بعضُهم لبعض. ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنُونَ محمداً عليه الصلاةُ والسلام. ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يحدِّثُكُم بأعجبِ الأعاجيبِ. ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إنكم

تَنْشَؤُونَ خلقاً جديداً بعدَ أنْ تُمَزَّقَ أجسادُكم كلَّ تمزيقٍ وتفريقٍ بحيث تصيرُ تراباً[1]. وتقديمُ الظرف للدلالة على البعدِ والمبالغة فيه، وعاملُه محذوفٌ دلَّ عليه ما بعدَه فإنَّ ما قبلَه لم يقارِنْهُ وما بعدَه مضافٌ إليه، أو محجوبٌ بينه وبينَه بإنَّ، وممزَّقٌ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ مكاناً بمعنى إذا مُزِّقْتُم وذهبتْ بكم السيولُ كلَّ مذهبٍ وطُرِحْتُم كلَّ مطرحٍ، وجديدٌ بمعنى فاعلٍ من جدَّ كحديدٍ من حدَّ؛ وقيل بمعنى مفعولٍ من جدَّ النساجُ الثوبَ إذا قطعهُ.

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ جنونٌ يوهمه ذلك ويلقيه على لسانِه، واستُدِلَّ بِجَعْلِهِم إياه قسيمَ الافتراءِ غيرَ معتقدِينَ صِدْقَهُ على أنَّ بينَ الصدقِ والكذبِ واسطةً، وهو كلُّ خبرٍ لا يكون عن بصيرةٍ بالمخْبَرِ عنه، وضعفُه بيِّنٌ لأنَّ الافتراءَ أخصُّ من الكذبِ. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ ردٌّ من الله تعالى عليهم ترديدَهم، وإثباتٌ لهم ما هو أفظعُ من القِسْمَيْنِ، وهو الضلالُ البعيدُ عن الصوابِ بحيث لا يُرْجَى الخلاصُ منه وما هو مؤدَّاه من العذابِ، وجَعَلَه رسيلاً له في الوقوعِ ومقدَّماً عليه في اللفظِ للمبالغةِ في استحقاقِهم له، والبعدُ في الأصل صفةُ الضالِّ، ووصفَ الضَّلَالَ به على الإسناد المجازي.

(٩) ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تذكيرٌ بما يعاينُونه مما يدلُّ على كمالِ قدرة الله، وما يُحْتَمَلُ فيه إزاحةٌ لاستحالَتِهم الإحياءَ حتى جعلوهُ افتراءً وهُزُؤاً، وتهديداً عليها. والمعنى أعمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاطَ بجوانبهم من السماءِ والأرضِ ولم يتفكَّروا أهمْ أشدُّ خلقاً أم السماءُ، وإنا إنْ نشأْ نخسفْ بهم الأرضَ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً، لتكذيبِهم بالآياتِ بعدَ ظهورِ البيناتِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ يشأْ ويخسفْ ويسقطْ بالياءِ لقوله أَفْتَرى على اللهِ، والكسائيُّ وحْدَه بإدغامِ الفاءِ في الباءِ، وحفصٌ كِسَفاً بالتحريكِ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النظرِ والتفكُّرِ فيهما وما يدلانِ عليه. ﴿لَـَٔايَةً﴾ لدلالةٍ. ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجعٍ إلى ربه فإنه يكون كثيرَ التأمُّل في أمرِه.

(١٠) ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي على سائرِ الأنبياءِ وهو ما ذُكِرَ بعدُ، أو على سائرِ الناسِ فيندرجُ فيه النبوَّةُ والكتابُ والملك والصوتُ الحسنُ[2]. ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ رجِّعي معه التسبيحَ أو

---

(١) أتىٰ بالجملة الاسمية حيثُ عدل عن الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون أو تخلقون خلقاً جديداً وذلك للإشباع في الاستبعاد والتعجب (س٧/ ١٢٣).

(٢) تنكير كلمة «فضلاً» للتفخيم.

وقوله «منّا» لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية، وتقديمه على المفعول الصريح وهو «فضلاً» وذلك للاهتمام =

النوحةَ على الذَّنْبِ، وذلك إما بخلقِ صوتٍ مِثْلَ صوتِه فيها أو بحملِها إياه على التسبيحِ إذا تأمَّلَ ما فيها أو سيري معه حيثُ سارَ. وقرئ أُوْبي من الأَوْبِ أي ارْجِعي في التسبيح كلما رجعَ فيه، وهو بدلٌ من فضلاً أو من آتينا بإضمارِ قولنا أو قلْنا. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطفٌ على محلِّ الجبال ويؤيدُه القراءةُ بالرفعِ عطفاً على لفظِها تشبيهاً للحركةِ البنائيةِ العارضةِ بالحركةِ الإعرابيةِ أو على فضلاً، أو مفعولٌ معه لأوِّبي، وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ الرفعُ بالعطفِ على ضميره وكان الأصلُ ولقد آتينا داودَ منا فضلاً تأويبَ الجبال والطير، فبدَّل بهذا النظمِ لما فيه من الفخامةِ والدلالة على عِظَمِ شأنه وكبرياءِ سلطانه، حيث جعلَ الجبالَ والطيورَ كالعقلاءِ المناقدينَ لأمرِه في نفاذِ مشيئته فيها. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ جعلْناه في يده كالشمعِ يُصَرِّفه كيف يشاءُ من غيرِ إحماءٍ وطَرْقٍ بإلانَتِه أو بقوتِه.

أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

(١١) ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أمرناه أنِ اعملْ فأنْ مفسِّرةٌ أو مصدريةٌ. ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ دروعاً واسعاتٍ، وقرئ صابغاتٍ. وهو أولُ منِ اتَّخذها. ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ وقدِّرْ في نسجِها بحيثُ يتناسبُ حِلَقُها، أو قدِّرْ مساميرَهَا فلا تجعلْها دقاقاً فتقلقُ ولا غلاظاً فتنخرقُ. وَرُدَّ بأنَّ دروعَهُ لم تكن مسمَّرةً ويؤيدُه قولُه ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾. ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ الضميرُ فيه لداودَ وأهلِه. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

(١٢) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي وسخَّرنا له الريحَ. وقرئ الريحُ بالرفع أي ولسليمانَ الريحُ مسخَّرةٌ، وقرئ الرياحُ. ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ جريُها بالغداةِ مسيرةَ شهرٍ وبالعشي كذلك، وقرئ غُدْوَتُها ورَوْحَتُها. ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ النحاسَ المذابَ أساله له من معدنِه فنبعَ منه نبوعَ الماء من الينبوعِ، ولذلك سمَّاه عيناً، وكان ذلك باليمن. ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ عطفٌ على الريح ومنَ الجنِّ حالٌ مقدَّمةٌ، أو جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمرِه. ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ ومَنْ يعدلْ منهم. ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ عما أمرناه من طاعة سليمانَ. وقرئ يُزِغْ من أزاغه. ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذابِ الآخرة.

(١٣) ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قصورٌ حصينةٌ ومساكنُ شريفةٌ، سمِّيَتْ بها لأنها يُذَبُّ عنها ويُحارَبُ عليها. ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وصوراً هي تماثيلُ للملائكةِ والأنبياءِ على ما اعتادوا من العبادات ليراها الناسُ فيعبدوا نحوَ عبادتِهم. وحرمةُ التصاوير شرعٌ مجدَّدٌ. روي[1] أنهم عملُوا له أسدينِ في أسفلِ كرسيِّه ونَسْرَيْنِ فوقَه، فإذا أراد أن يصعدَ بسطَ الأسدانِ له ذراعيهما وإذا قعدَ أظلَّه النَّسْرانِ بأجنحَتِهما.

= بالمقدم والتشويق إلى المؤخر.

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٢/ ١١٩) ثم قال معقباً: «فأمر غير مستبعد فإن ذلك يكون بآلات تتحرك عند الصعود وعند القعود فتحرك الذراعين والأجنحة وقد انتهت صنائع البشر إلى مثل ذلك في الغرابة» هـ.

﴿وَجِفَانٍ﴾ وصحافٍ. ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ كالحياضِ الكبارِ جمعُ جابيةٍ من الجبايةِ وهي من الصفاتِ الغالبة كالدابَّةِ. ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتاتٍ على الأثافي لا تنزلُ عنها لِعظَمِها. ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكايةٌ عما قيل لهم، وشكراً نُصِبَ على العِلَّةِ أي اعملوا له واعبدُوه شكراً، أو المصدرِ لأنَّ العملَ له شكر، أو الوصفِ له أو الحالِ أو المفعولِ به. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ المتوفرُ على أداءِ الشكر بقلبِه ولسانه وجوارحِه أكثرَ أوقاتِه ومع ذلك لا يوفِّي حقَّه، لأنَّ توفيقَه الشكرَ نعمةٌ تستدعي شكراً آخرَ لا إلى نهايته، ولذلك قيلَ الشَّكُور مَنْ يرى عَجْزَهُ عن الشكرِ.

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ
كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ
وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

(١٤) ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي على سليمانَ. ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ ما دل الجنَّ وقيل آلَهُ. ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي الأَرَضَةُ أضيفتْ إلى فِعْلها، وقرىء بفتح الراء وهو تأثُّر الخشبة من فِعْلِها يُقالُ: أَرَضَتِ الأَرَضَةُ الخشبةَ أَرَضاً فأُرِضَتْ[1] أَرَضاً مثلَ أكلتِ القوادحُ الأسنانَ أكلاً فأُكِلَتْ أكلاً. ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ عصاهُ من نسأتُ البعيرَ إذا طردْتَهُ لأنها يُطْرَدُ بها. وقُرِىءَ بفتح الميم وتخفيفِ الهمزةِ قلباً وحذفاً على غير قياسٍ إذِ القياسُ إخراجُها بَيْنَ بَيْنَ، ومَنْساءَتَه على مفعالةٍ كميضاءةٍ في مَيْضاةٍ، ومن سأته أي طرفُ عصاهُ مستعارٌ من سَأَةِ القوس وفيه لغتانِ كما في قُحَّةٍ وقَحَةٍ، وقرأ نافع وأبو عمرو مِنْسَاتَه بألِفٍ بدلاً من الهمزةِ، وابنُ ذكوانَ بهمزةٍ ساكنة، وحمزةُ إذا وقفَ جعلَها بينَ بينَ. ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ علمتِ الجنُّ بعد التباسِ الأمرِ عليهم. ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أنهم لو كانوا يعلمون الغيبَ كما يزعمون لعلموا موتَه حينَما وقع فلم يلْبَثُوا حولاً في تسخيرِه إلى أنْ خرَّ، أو ظهرتِ الجنُّ، وأنَّ بما في حيِّزه بدلٌ منه أي ظهرَ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمونَ الغيبَ ما لبثوا في العذاب. وذلك[2] أنَّ داودَ أَسَّسَ بيتَ المقدس في موضع فسطاطِ موسى عليهما الصلاة والسلام فماتَ قبل تمامه، فوصَّى به إلى سليمانَ عليه السلام فاستعملَ الجنَّ فيه فلم يتمَّ بعدُ إذ دنا أجَلُه وأُعْلِمَ به، فأراد أنْ يعمِّيَ عليهم موتَه ليتمُّوه فدعاهم فَبَنَوْا عليه صرحاً من قواريرَ ليس له بابٌ، فقام يصلِّي متكئاً على عصاهُ فَقُبِضَ روحُه وهو متكِىءٌ عليها، فبقِيَ كذلك حتى أكَلَتْهَا الأَرَضَةُ فخرَّ ثم فتحُوا عنه وأرادوا أنْ يعرفوا وقْتَ موتِه، فوضعوا الأَرَضَةَ على العصَا فأكلتْ يوماً وليلةً مقداراً فَحَسَبُوا على ذلك فوجدُوه قد ماتَ منذ سنةٍ، وكان عمرُه ثلاثاً وخمسينَ سنةً، ومُلِّكَ وهو ابنُ ثلاثةَ عَشْرَةَ سنةً، وابتدأ عمارةَ بيتِ المقدس لأربعِ مَضَيْنَ من مُلْكِه.

(١٥) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ لأولادِ سبأ بنِ يشجبَ بنِ يعربَ بنِ قحطانَ، ومنعَ الصرفَ عنه ابنُ كثير

---

(١) أرضت أرضاً، على ما لم يسمّ فاعله.
(٢) انظر «روح المعاني» للألوسي (٢٢/١٢٣ ـ ١٢٤).

وأبو عمرو لأنه صارَ اسمَ القبيلة، وعن ابنِ كثير قلبُ همزتِه ألفاً ولعله أخرجَه بينَ بينَ فلم يؤدِّه الراوي كما وجبَ. ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ في مواضعِ سُكْناهم، وهي باليمنِ يقال لها مأربُ بينها وبينَ صنعاءَ مسيرةُ ثلاثةِ أيام. وقرأ حمزة وحفصٌ بالإفرادِ والفتحِ، والكسائي بالكسرِ حملاً على ما شذَّ من القياس كالمسجِد والمطْلِع. ﴿ءَايَةٌ﴾ علامةٌ دالةٌ على وجودِ الصانع المختارِ، وأنه قادرٌ على ما يشاءُ من الأمور العجيبةِ مُجازٍ للمحسنِ والمسيءِ معاضدةً للبرهانِ السابقِ كما في قصَّتَيْ داودَ وسليمانَ عليهما الصلاة والسلام. ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدلٌ من آيةٍ أو خبرٌ محذوف تقديره الآيةُ جنتانِ. وقرىء بالنصبِ على المدحِ، والمرادُ جماعتانِ من البساتينِ. ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعةٌ عن يمينِ بلدِهم وجماعةٌ عن شمالِه، كلُّ واحدةٍ منهما في تقاربُها وتضامُنها كأنَّها جنةٌ واحدةٌ، أو بستاناً كُلِّ رجلٍ منهم عن يمينِ مسكنه وعن شمالِه. ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكايةٌ لما قال لهم نبيُّهم، أو لسانُ الحالِ أو دلالةٌ بأنهم كانوا أحِقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم ذلك. ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئنافٌ للدلالة على موجبِ الشكرِ، أي هذه البلدةُ التي فيها رِزْقُكمْ بلدةٌ طيبة وربُّكم الذي رزقكم وطلبَ شكرَكُم ربٌّ غفور فرطات مَنْ يشكرهُ. وقرىء الكلُّ بالنصبِ على المدحِ(١). قيل كانت أخصبَ البلادِ وأَطْيَبَهَا لم يكن فيها عاهةٌ ولا هامَةٌ.

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾

(١٦) ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكرِ. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ سيلَ الأمرِ العرِمِ أي الصعبِ من عرِمَ الرجلُ فهو عارمٌ وعرِمٌ إذا شرسَ خلُقه وصَعُبَ، أوِ المطرِ الشديدِ، أو الجرُذِ أضافَ إليه السيلَ لأنه نقبَ عليهم سكراً ضربتْه لهم بلقيسُ فحقنتْ به ماءَ الشحرِ وتركتْ فيه ثقباً على مقدارِ ما يحتاجون إليه، أو المسناةِ التي عقدتْ سكراً على أنه جمعُ عرِمةٍ وهي الحجارةُ المركومةُ. وقيل اسمُ وادٍ جاء السيلُ من قِبَلِه وكان ذلك بينَ عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ ثمرٍ بشعٍ فإنَّ الخمطَ كلُّ نَبْتٍ أَخَذَ طعماً من مرارةٍ، وقيل الأراكُ أو كلُّ شجر لا شوكَ له، والتقدير أُكُلٍ أُكُلِ خمطٍ فحُذِفَ المضافُ وأُقِيمَ المضافُ إليه مقامهُ في كونه بدلاً أو عطفَ بيانٍ. ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفانِ على أكلٍ لا على خمطٍ، فإنَّ الأثْلَ هو الطرفاءُ ولا ثمرَ له، وقرئا بالنصبِ عطفاً على جنتينِ، ووصَفَ السدرَ بالقلَّةِ فإنَّ جَناهُ وهو النَّبِقُ مما يطيبُ أَكْلُه ولذلك يغرسُ في البساتينِ، وتسميةُ البدلِ جنتينِ للمشاكلةِ والتهكُّم. وقرأ أبو عمرو وذواتيْ أُكُلِ بغيرِ تنوينِ الكلام، وقرأ الحرميانِ بتخفيفِ أكلٍ.

(١٧) ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ بكفرانِهم النعمةَ أو بكفرهم بالرسلِ، إذ رُوِيَ أنه بعثَ إليهم ثلاثةَ

---

(١) أي قرىء بلدةً طيبةً ورباً غفوراً، وذلك على تقدير اسكنوا بلدة طيبة واعبدوا رباً غفوراً. انظر روح المعاني (١٢٦/٢٢).

عشرَ نبياً فكذَّبوهم، وتقديمُ المفعولِ للتعظيمِ لا للتخصيصِ. ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ وهل يجازَى بمثلِ ما فعلْنا بهم إلا البليغُ في الكفرانِ أو الكفرِ. وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب وحفصٌ نُجَازِي بالنونِ والكفورَ بالنصبِ.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

(١٨) ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعةِ على أهلها وهي قُرَى الشامِ. ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ متواصلةً يظهرُ بعضُها لبعض، أو راكبةً مَتْنَ الطريق ظاهرةً لأبناءِ السبيل. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ بحيثُ يقيلُ الغادي في قريةٍ، ويبيتُ الرائحُ في قرية إلى أنْ يبلغَ الشامَ. ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ على إرادةِ القولِ بلسانِ الحالِ أو الميالِ. ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ متى شِئْتُم من ليلٍ أو نهار. ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا يختلفُ الأمنُ فيها باختلافِ الأوقاتِ، أو سيروا آمنينَ وإنْ طالتْ مدةُ سفرِكم فيها، أو سيروا فيها لياليَ أعمارِكم وأيامَها لا تَلْقَوْنَ فيها إلا الأمنَ.

(١٩) ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أشِروا النعمةَ وملُّوا العافيةَ كبني إسرائيلَ فسألوا اللهَ أنْ يجعلَ بينَهم وبينَ الشامِ مفاوِزَ ليتطاولُوا فيها على الفقراءِ بركوبِ الرواحلِ وتزوُّدِ الأزوادِ، فأجابهم الله بتخريبِ القُرى المتوسِّطَةِ. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وهشام بَعِّدْ، ويعقوبُ رَبُّنا باعَدَ بلفظِ الخبرِ على أنه شكْوى منهم لِبُعْدِ سفرهم إفراطاً في الترفُّه وعدمِ الاعتدادِ بما أنعمَ الله عليهم فيه، ومثلُه قراءةُ مَنْ قرأ ربَّنا بَعَّدَ، أو بَعُدَ على النداءِ وإسنادِ الفعل إلى بينَ. ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيثُ بطِروا النعمةَ ولم يعتدُّوا بها. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدَّثُ الناسُ بهم تعجُّباً، وضَرْبَ مَثَلٍ فيقولون: تفرَّقوا أيدي سبأٍ. ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ففرَّقْناهم غايةَ التفريقِ حتى لحقَ غسَّانُ منهم بالشأمِ، وأنمارُ بيثربَ، وجذامُ بتهامةَ، والأزدُ بعُمَانَ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكِرَ. ﴿لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي. ﴿شَكُورٍ﴾ على النعم.

(٢٠) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي صدقَ في ظنِّه أو صدقَ بظنٍّ ظنَّه مِثْلُ فعلْته جُهْدَك، ويجوزُ أنْ يُعدَّى الفعلُ إليه بنفسه كما في ﴿صدق وعده﴾. لأنه نوعٌ من القولِ، وشدَّدهُ الكوفيونَ بمعنى حقَّقَ ظنَّه أو وجدَه صادقاً. وقرىء بنصبِ إبليسَ ورفعِ الظنِّ مع التشديدِ بمعنى وجدَ ظنَّه صادقاً، والتخفيفُ بمعنى قال له ظنُّه الصدقَ حين خيَّله إغواءَهم، وبرفْعِهما والتخفيفِ على الأبدانِ وذلك إما ظنُّه بسبأٍ حين رأَى انهمَاكَهُم في الشهوات أو ببني آدمَ حين رأى أباهم النبيَّ ضعيفَ العزمِ، أو ما ركَّبَ فيهم من الشهوةِ والغضبِ، أو سمعَ من الملائكة قولَهم ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ﴾[١] فقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾[٢] و﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾[٣]. ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلا فريقاً هم المؤمنونَ لم

---

(١) البقرة: «٣٠».
(٢) النساء: «١١٩».
(٣) الحجر: «٣٩».

يتَّبعوه، وتقليلُهم بالإضافة إلى الكفارِ، أو إلا فريقاً من فِرَقِ المؤمنين لم يتبعوهُ في العِصيان وهم المخلصونَ.

وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ تسلطٌ واستيلاءٌ بالوسوسة والاستغواءِ. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ إلا ليتعلق عِلْمُنا بذلك تعلقاً يترتبُ عليه الجزاءُ، أو ليتميَّزَ المؤمنُ من الشاكِّ، أو ليؤمنَ مَنْ قدَّرَ إيمانُه ويشكَّ من قدِّر ضلالُه، والمرادُ من حصول العلم حصولُ متعلَّقة مبالغةً وفي نظمِ الصِّلَتَيْنِ نكتةٌ لا تَخفَى. ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ محافظٌ والزِّنتان متآخيتانِ.

(٢٢) ﴿قُلِ﴾ للمشركين. ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي زعمتُموهم آلهةً، وهما مفعولا زعمَ حُذِفَ الأولُ لطولِ الموصولِ بصلتِه والثاني لقيامِ صفته مُقامَهُ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ هو مفعولَه الثاني لأنه لا يلتئِمُ مع الضمير كلاماً ولا لا يملكونَ لأنَّهم لا يزعُمونه. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى ادعوهم فيما يهمُّكم من جَلْبِ نفعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ لعلَّهم يستجيبونَ لكم إنْ صحَّ دعواكُم، ثم أجابَ عنهم إشعاراً بتعيُّنِ الجوابِ وأنه لا يقبلُ المكابرةَ فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أمرٍ ما، وذِكْرُهُما للعموم العُرْفيِّ، أو لأنَّ آلِهتَهم بعضُها سماويةٌ كالملائكة والكواكب وبعضُها أرضيةٌ كالأصنام، أو لأنَّ الأسبابَ القريبةَ للشرِّ والخير سماويةٌ وأرضيةٌ والجملة استئنافٌ لبيانِ حالهم. ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ من شركةٍ لا خلقاً ولا مُلْكاً. ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعينه على تدبيرِ أمرِهما.

(٢٣) ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ فلا ينفعُهم شفاعةٌ أيضاً كما يزعمون إذ لا تنفعُ الشفاعةُ عندَ الله. ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أَذِنَ له أنْ يشفَعَ، أو أذنَ أنْ يشفعَ له لعلوِّ شأنه ولم يثبتْ ذلك، واللامُ على الأولِ كاللامِ في قولك: الكرمُ لزيدٍ وعلى الثاني كاللام في قولك: جئتكَ لزيدٍ. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُ بضمِّ الهمزة. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ غايةٌ لمفهوم الكلام مِنْ أنَّ ثَمَّ توقفاً وانتظاراً للإذْنِ أي يتربَّصون فَزِعينَ حتى إذا كُشِفَ الفزعُ عن قلوب الشافعينَ والمشفوعِ لهم بالإذْنِ، وقيل الضميرُ للملائكةِ وقد تقدَّم ذِكْرُهم ضِمناً. وقرأ ابنُ عامر ويعقوبُ فَزَّعَ على البناءِ للفاعل. وقرىء فُرِّغَ أي نُفِيَ الوجَلُ من فَرَغَ الزادُ إذا فنيَ. ﴿قَالُوا۟﴾ قال بعضُهم لبعض. ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة. ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ قالوا قال القولَ الحقَّ وهو الإذنُ بالشفاعةِ لمنِ ارْتَضَى وهم المؤمنون، وقرىء بالرفع أي مقولُه الحقُّ. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ذو العلوِّ والكبرياءِ ليس لِمَلِكٍ ولا نبيٍّ من الأنبياء أنْ يتكلَّمَ ذلك اليومَ إلا بإذنه.

(٢٤) ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد به تقريرَ قوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواهُ، وفيه إشعارٌ بأنهم إنْ سكتُوا أو تلعثَموا في الجواب مخافةَ الإلزام فهم مُقِرُّونَ به

بقلوبهم. ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي وإنَّ أحدَ الفريقينِ من الموحِّدينَ المتوحِّدُ بالرزقِ والقدرةِ الذاتيةِ بالعبادة، والمشركينَ به الجمادَ النازلَ في أدنى المراتبِ الإمكانيةِ لَعَلى أحدِ الأمرينِ من الهدى والضلالِ المبيَّنَيْنِ، وهو بعدَ ما تقدَّم من التقرير البليغِ الدال على مَنْ هو على الهدى ومَنْ هو في الضلال أبلغُ من التصريحِ لأنه في صورةِ الإنصاف المُسْكِتِ للخصْم المشاغِبِ، ونظيره قولُ حسانَ:

أَتَهْجُـــوهُ وَلَسْـــتَ لَـــهُ بكـــفْءٍ فشَـــرُّكُمَـــا لِخَيْـــرِكمَـــا الفِـــدَاءُ

وقيل إنه على اللَّفِّ والنَّشرِ وفيه نظرٌ واختلافُ الحرفينِ لأنَّ الهاديَ كَمَنْ صعِدَ مناراً ينظر الأشياءَ ويتطلَّعُ عليها أو ركبَ جواداً يركضُه حيثُ يشاء، والضالُّ كأنه منغمِسٌ في ظلامٍ مرتبِك لا يرى شيئاً أو محبوسٌ في مطمورةٍ لا يستطيعُ أنْ يتفصَّى منها.

قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

(٢٥) ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ هذا أَدْخَلُ في الإنصافِ وأبلغُ في الإخباتِ حيث أَسْنَدَ الإجرامَ إلى أنفسِهم والعملَ إلى المخاطَبِيْنَ.

(٢٦) ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾ يومَ القيامة. ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ يحكُم ويفصِلُ بأنْ يُدْخِلَ المحقِّيْنَ الجنةَ والمبطلينَ النارَ. ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾ الحاكم الفاصِلُ في القضايا المتغلقةِ. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أنْ يُقْضَى به.

(٢٧) ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ لأَرى بأيِّ صفةٍ ألحقتموهم بِالله في استحقاقِ العبادةِ، وهو استفسارٌ عن شُبْهَتِهم بعدَ إلزام الحجَّةِ عليهم زيادةً في تبكيتِهم. ﴿كَلَّاۚ﴾ ردعٌ لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايَسَةِ. ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الموصوفُ بالغلَبَةِ وكمالِ القدرةِ والحكمةِ، وهؤلاءِ المُلحَقُونَ به متَّسِمُونَ بالذلَّةِ متأبيةٌ عن قبولِ العلم والقدرة رأساً، والضميرُ لله أو للشأنِ.

(٢٨) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ إلا إرسالةً عامةً لهم من الكفِّ فإنَّها إذا عمَّتهم قد كَفَتْهُم أنْ يخرجَ منها أحدٌ منهم، أو إلا جامعاً لهم في الإبلاغ فهي حال منَ الكافِ والتاءُ للمبالغةِ، ولا يجوزُ جَعْلُها حالاً من الناس على المختارِ. ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيحملُهم جهلُهم على مخالفتِكَ.

(٢٩) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من فَرْطِ جهْلِهم. ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ يعنونَ المبشَّر به والمنذَرَ عنه أو الموعودَ بقوله تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾[1] ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ يخاطِبُونَ به رسولَ الله ﷺ والمؤمنينَ.

---

(١) سبأ: «٢٦».

قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا
الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾

(٣٠) ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ وعدُ يومٍ أو زمانُ وعدٍ، وإضافتُه إلى اليوم للتبيينِ ويؤيدُه أنه قرىء يومٌ على البدلِ، وقرىء يومَ بإضمار أعني. ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ إذا فاجَأكم وهو جوابُ تهديدٍ جاء مطابقاً لما قصدُوه بسؤالِهم منَ التعنُّتِ والإنكارِ.

(٣١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولا بما تقدَّمه من الكتُبِ الدالَّةِ على النعتِ. قيل إنَّ كفَّارَ مكَّةَ سألوا أهلَ الكتابِ عن الرسولِ ﷺ فأخبروهم أنَّهم يجدُون نَعْتَهُ في كُتُبِهم فغضِبُوا وقالوا ذلك، وقيل الذي بينَ يديه يومَ القيامة. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في موضعِ المحاسبَةِ. ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ يتحاورونَ ويتراجعونَ القولَ. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ يقولُ الأتْباعُ. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ للرؤساءِ. ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ لولا إضلالُكم وصدُّكم إيَّانا عن الإيمان. ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتباعِ الرسولِ ﷺ.

(٣٢) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أنكروا أنهم كانوا صادِّينَ لهم عن الإيمانِ وأثْبَتُوا أنهم هم الذينَ صدُّوا أنفسَهم حيثُ أعرضُوا عن الهدى وآثروا التقليدَ عليه، ولذلك بنوا الإنكارَ على الاسم.

(٣٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إضرابٌ عن إضرابِهم أي: لم يكنْ إجرامُنا الصادَّ بل مكرُكم لنا دائباً ليلاً ونهاراً حتى أَغوَرْتُم علينا رأيَنا. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ والعاطفُ يعطفُه على كلامِهم الأولِ، وإضافةُ المكرِ إلى الظرفِ على الاتساعِ. وقرىء مكرَ الليلِ بالنصبِ على المصدرِ، ومكرٌ الليلَ بالتنوينِ ونَصْبِ الظرفِ، ومَكَرُّ الليلِ من الكُرورِ. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وأضمرَ الفريقانِ الندامةَ على الضلالِ والإضلال وأخفاها كلٌّ عن صاحبه مخافةَ التعييرِ، أو أظهَرُوها فإنه من الأضدادِ إذِ الهمزةُ تصلحُ للإثبات والسلبِ كما في أشكَيْتُهُ. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في أعناقِهم فجاءَ بالظاهرِ تنويهاً بذمِّهم وإشعاراً بموجِبِ أغلالِهم. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يفعلُ بهم ما يفعلُ إلا جزاءً على أعمالِهم، وتعديةُ يجزى إما لتضمينِ معنى يقضي أو بنزعِ الخافضِ.

(٣٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ تسليةٌ لرسولِ الله ﷺ مما مُنِيَ به من قومه،

وتخصيصُ المتنعِّمِينَ بالتكذيبِ لأنَّ الداعيَ المعظَّمَ إليه التكبرُ والمفاخرةُ بزخارفِ الدنيا والانهماكُ في الشهواتِ والاستهانةُ بِمَنْ لم يحظَ منها، ولذلك ضمُّوا التهكُّمَ والمفاخرةَ إلى التكذيب فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ.

وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ
جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ
مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ
وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾

(٣٥) ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ فنحنُ أَوْلَى بما تدعونه إنْ أمكنَ. ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إما لأنَّ العذابَ لا يكون، أو لأنه أكرمَنا بذلك فلا يهينُنا بالعذاب.

(٣٦) ﴿قُلۡ﴾ رداً لِحُسْبانهم. ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ ولذلك يختلفُ فيه الأشخاصُ المتماثلةُ في الخصائصِ والصفاتِ، ولو كان ذلك لكرامةٍ وهوانٍ يوجبانِه لم يكنْ بمشيئتِه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيظنُّونَ أنَّ كثْرةَ الأموالِ والأولادِ للشرفِ والكرامةِ وكثيراً ما يكونُ للاستدراجِ كما قال:

(٣٧) ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ قربةً والتي إما لأنَّ المرادَ وما جماعةُ أموالكم وأولادِكم، أو لأنَّها صفةُ محذوفٍ كالتقوى والخصْلَةِ. وقرىء بالذي أي بالشيء الذي يقرِّبكم. ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ استثناءٌ من مفعولِ تقرِّبُكم، أي الأموالُ والأولادُ لا تقرِّبُ أحداً إلا المؤمنَ الصالحَ الذي ينفقُ مالَهُ في سبيلِ الله ويعلِّمُ ولدَه الخيرَ ويربِّيه على الصَّلاحِ، أو مِنْ أموالِكم وأولادِكم على حذْفِ المضافِ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾ أنْ يُجَازَوْا الضِّعْفَ إلى عشرٍ فما فوقَه، والإضافةُ إضافةُ المصدرِ إلى المفعولِ. وقُرِىءَ بالإعمالِ على الأصْلِ، وعن يعقوبَ رفعُهما على إبدالِ الضعفِ ونَصْبِ الجزاءِ على التمييزِ أو المصدرِ لفعلِه الذي دلَّ عليه لهم. ﴿بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ من المكارهِ. وقرىء بفتح الراءِ وسكونِها، وقرأ حمزةُ في الغرفةِ على إرادة الجنسِ.

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالرد والطعنِ فيها. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقينَ لأنبيائِنا أو ظانِّينَ أنهم يفوتُونَنا. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾.

(٣٩) ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ يوسِّع عليه تارةً ويضيِّقُ عليه أُخرَى، فهذا في شخص واحدٍ باعتبار وقتينِ وما سبقَ في شخصينِ فلا تكريرَ. ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ عِوضاً إما عاجِلاً أو آجِلاً. ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنَّ غيرَهُ وَسَطٌ في إيصالِ رِزْقه لا حقيقةَ لرازقيَّته.

(٤٠) ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ المستكبرينَ والمستَضْعَفِينَ. ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ تقريعاً للمشركينَ وتبكيتاً لهم وإقناطاً لهم عما يتوقَّعون من شفاعَتِهم، وتخصيصُ الملائكة لأنهم أشرفُ شركائِهم والصالحونَ للخطابِ منهم، ولأنَّ عبادَتَهُم مبدأُ الشركِ وأصْلُه. وقرأ حفصٌ ويعقوبُ بالياءِ فيهما.

قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن
نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ
أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ
يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

(٤١) ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أنتَ الذي نواليه من دونهم لا موالاةَ بينَنَا وبينَهم، كأنهم بيَّنوا بذلك براءَتَهم مِن الرِّضَا بعبادتِهم ثم أضْرَبُوا عن ذلك ونَفَوْا أنهم عَبَدُوْهُم على الحقيقة بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي الشياطينَ حيثُ أطاعوهم في عبادةِ غير الله. وقيل كانوا يتمثَّلُونَ لهم ويخيِّلُون إليهم أنهم الملائكةُ فيعبدُونهم. ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ الضميرُ الأول للإنسِ أو للمشركينَ، والأكثرُ بمعنى الكلِّ والثاني للجنِّ.

(٤٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إذِ الأمرُ فيه كلُّه له لأنَّ الدارَ دارُ جزاءٍ وهو المجازي وحْدَه. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عطفٌ على لا يملكُ مبيِّنٌ للمقصودِ من تمهيدِه.

(٤٣) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنُونَ محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيستَتْبِعُكم بما يستبدعُه. ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنونَ القرآنَ. ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ لعدمِ مطابقةِ ما فيه الواقعَ. ﴿مُّفْتَرًى﴾ بإضافتِهِ إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ لأمرِ النبوة أو للإسلام أو للقرآنِ، والأول باعتبارِ معناهُ وهذا باعتبارِ لفظِه وإعجازِه. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ سحريَّتُهُ، وفي تكرير الفعلِ والتصريح بذكرِ الكفرةِ وما في اللاَّمَيْنِ من الإشارةِ إلى القائلين والمقولِ فيه، وما في لما مِنَ المبادَهَةِ إلى البتِّ بهذا القولِ إنكارٌ عظيم له وتعجيبٌ بليغٌ منه.

(٤٤) ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فيها دليلٌ على صِحَّة الإشراكِ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه وينذرُهم على تَرْكِه، وقد بانَ من قبلُ أنْ لا وجْهَ له فَمِنْ أينَ وقعَ لهم هذه الشبهةُ، وهذا في غاية التجهيلِ لهم والتسفيهِ لرأيهم ثمَّ هدَّدَهُم فقال:

(٤٥) ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذَّبوا. ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ وما بلغَ هؤلاء عُشْرَ ما آتينا أولئكَ من القوةِ وطولِ العمُرِ وكثرةِ المال، أو ما بلغَ أولئك عُشْرَ ما آتينا هؤلاءِ من البيِّناتِ والهدى. ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فحينَ كذَّبوا رُسُلي جاءهم إنكاري بالتدمير فكيفَ كان نكيري لهم فلْيحذرْ هؤلاءِ من مِثْلِه، ولا تكريرَ في كذَّبَ لأن الأولَ للتكثير والثاني للتكذيبِ، أوِ الأولُ مطلقٌ والثاني مقيَّدٌ ولذلك عُطِفَ عليه بالفاءِ.

(٤٦) ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أرشِدُكم وأنصحُ لكم بخصلةٍ واحدةٍ هي ما دلَّ عليه: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ وهو القيامُ من مجلسِ رسولِ اللهِ ﷺ، أو الانتصابُ في الأمر خالصاً لوجْهِ الله معرِضاً عن

المراء والتقليدِ. ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ متفرِّقينَ اثنينِ اثنينِ وواحداً واحداً، فإنَّ الازدحامَ يشوشُ الخاطِرَ ويخلُطُ القولَ. ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمرِ محمدٍ ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيقتَهُ، ومحلُّه الجرُّ على البدلِ أو البيانِ أو الرفعُ أو النصبُ بإضمارِ هو أعني. ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ فتعلَمُوا ما به من جنونٍ يحمِلُه على ذلك، أو استئنافٌ مُنَبِّهٌ لهم على أنَّ ما عرفوا من رجاحةِ عقلِه كافٍ في ترجيح صدقِه، فإنه لا يدعُه أنْ يتصدَّى لادعاءِ أمرٍ خطيرٍ وخطْبٍ عظيم من غيرِ تحقُّقٍ ووثوقٍ ببرهانٍ، فيفتضحُ على رؤوسِ الأشهادِ ويلقي نفسَه إلى الهلاكِ، فكيفَ وقد انضمَّ إليه معجزاتٌ كثيرة. وقيل: ما استفهاميةٌ والمعنى: ثم تتفكروا أيُّ شيء به من آثارِ الجنون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قُدَّامَهُ لأنه مبعوثٌ في نسيم الساعة.

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أيُّ شيءٍ سألتكم من أجرٍ على الرسالةِ. ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفيُ السؤال عنه، كأنْ جعلَ التنبيَ مستلزماً لأحدِ الأمرينِ إما الجنونُ وإما توقُّعُ نفعٍ دنيوي عليه، لأنه إما أنْ يكونَ لغرضٍ أو لغيرِهِ وأياً ما كان يلزم أحدَهما ثمَّ نَفَى كلاً منهما. وقيلَ ما موصولةٌ مرادٌ بها ما سألهم بقوله ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[1] وقوله ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2] واتخاذُ السبيلِ ينفعُهم وقُرْبَاهُ قُرْبَاهُم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطَّلِعٌ يعلمُ صدقي وخلوصَ نيتي، وقرأ ابنُ كثير وأبو بكر وحمزةُ والكسائيُّ بإسكان الياء.

(٤٨) ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ يلْقيه وينزلُه على مَنْ يجتبيه من عبادِه، أو يرمي به الباطلَ فيدمغُه أو يرمي به إلى أقطارِ الآفاقِ، فيكونُ وعْداً بإظهار الإسلام وإفشائِه. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو بفتح الياءِ. ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ صفةٌ محمولةٌ على محلِّ إنَّ واسمِها، أو بدَلٌ من المستكِنِّ في يقذفُ أو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ محذوفٌ. وقرىء بالنصبِ صفةً لربي أو مقدراً بأعني. وقرأ حمزةُ وأبو بكر الغِيوبِ بالكسرِ كالبِيوتِ، وبالضمِّ كالعُشورِ[3]، وقرىء بالفتحِ كالصَّبورِ على أنه مبالغةٌ غائبٌ.

(٤٩) ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي الإسلامُ. ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ وزهقَ الباطلُ أي الشركُ بحيثُ لم يبقَ له أثرٌ مأخوذ من هلاكِ الحيِّ، فإنه إذا هَلَكَ لم يبقَ له إبداءٌ ولا إعادةٌ قال:

أَقْفَـــر مِـــنْ أهْلِـــهِ عبيـــد ... فـــالْيَـــوْمَ لاَ يُبْـــدِي وَلاَ يُعِيـــد[4]

وقيل الباطلُ إبليسُ أو الصنمُ، والمعنى لا ينشيءُ خلْقاً ولا يعيدُه، أو لا يبدىءُ خيراً لأهله

---

(١) الفرقان: «٥٧».
(٢) الشورى: «٢٣».
(٣) قرأ ابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي (الغِيوب) بكسر الغين، وقرأ الباقون بالضم (الغُيوب).
(٤) من مخلع البسيط.

ولا يعيدُه. وقيل ما استفهاميةٌ منتصِبَةٌ بما بعدَها.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾

(٥٠) ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحقِّ. ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فإنَّ وبالَ ضلالي عليها، لأنه بسببها إذ هي الجاهِلةُ بالذاتِ والأمَّارةُ بالسوء، وبهذا الاعتبارِ قابلَ الشرطيةَ بقوله: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فإنَّ الاهتداءَ بهدايته وتوفيقه. ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدركُ قولَ كلِّ ضالٍّ ومهتدٍ وفعلَه وإنْ أخفاهُ.

(٥١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند الموت أو البعثِ أو يومَ بدْرٍ، وجوابُ لو محذوفٌ تقديره لرأيتَ أمراً فظيعاً. ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون اللهَ بهربٍ أو تحصُّنٍ. ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من ظهْرِ الأرض إلى باطِنها، أو مِنَ الموقِفِ إلى النارِ أو من صحراء بدْرٍ إلى القليبِ، والعطفُ على فزعوا، أو لا فوتَ، ويؤيدُه أنه قرىء وأُخِذَ عطفاً على محلِّه أي: فلا فوتَ هناك وهناك أُخِذَ.

(٥٢) ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام، وقد مرَّ ذِكْرُه في قوله ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾[1]. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ ومن أينَ لهم أنْ يتناولوا الإيمانَ تناولاً سهلاً. ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فإنه في حيِّزِ التكليف وقد بَعُدَ عنهم، وهو تمثيلٌ لحالهم في الاستخلاصِ بالإيمانِ بعدَما فاتَ عنهم أوانُه وبَعُدَ عنهم بحالِ مَنْ يريد أنْ يتناولَ الشيءَ من غلْوةٍ تناولَه من ذراعٍ في الاستحالة. وقرأ أبو عمرو والكوفيونَ غيرَ حفصٍ بالهمزِ على قلبِ الواوِ لضمَّتِها.

أو أنه من نأشْتُ الشيءَ إذا طلبتُه قال رؤبةُ:

أَقْحَمَنِي جَارُ أَبِي الجَامُوش إِلَيْكَ نَأْشَ القَدَرِ النَّؤُوشَ

أو من نأشْتُ إذا تأخرتُ ومنه قولُه:

تَمَنَّى نَئِيشاً أَنْ يَكُونَ أَطَاعَنِي وقَدْ حَدَثَتْ بَعْدَ الأمُورِ أُمُورُ[2]

فيكون بمعنى التناوُلِ من بُعْدٍ.

(٥٣) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام أو بالعذاب. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ ذلك أوانَ التكليف. ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ويرجمونَ بالظنِّ ويتكلَّمون بما لم يُظْهِرْ لهم الرسولُ عليه الصلاة والسلام من المطاعِنِ؛ أو في العذاب من البتِّ على نفيه. ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ من جانبٍ بعيد من أمرِه، وهو الشُبه التي تمحَّلُوها في أمر الرسولِ ﷺ، أو حالَ الآخرة كما حكاهُ من قبلُ. ولعلَّه تمثيلٌ لحالهم في ذلك بحالِ مَنْ يرمي شيئاً لا يراهُ مِنْ مكانٍ بعيد لا مجالَ للظنِّ في لحوقِهِ. وقُرِىءَ ويُقْذَفُونَ على

(١) سبأ: «٤٦».
(٢) من الطويل.

أنَّ الشيطانَ يلقي إليهم ويلقِّنهم ذلك، والعطفُ على وقد كفروا على حكايةِ الحال الماضيةِ أو على قالوا فيكونُ تمثيلاً لحالهم بحالِ القاذِفِ في تحصيلِ ما ضيَّعوه من الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

(٥٤) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفعِ الإيمان والنجاةِ به من النار. وقرأ ابنُ عمرَ والكسائيُّ بإشمام الضمِّ للحاءِ. ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ بأشباهِهم من كَفَرَةِ الأمم الدارِجةِ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ موقعٍ في الريبةِ، أو ذي ريبةٍ منقولٍ منَ المشكِّكِ، أوِ الشكُّ نُعِتُ به الشكُّ للمبالغةِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ سبأ لم يبقَ رسولٌ ولا نبي إلا كان له يومَ القيامة رفيقاً ومصافحاً»[1].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٣٨ رقم ٢٥٤) ـ وهو حديث موضوع.
وانظر الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة فاطر

ترتيبها ٣٥ — آياتها ٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

سورة الملائكة مكية[١]، وآيها خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعُهما من الفَطْر بمعنى الشقِّ كأنه شقَّ العدمَ بإخراجهما منه، والإضافةُ محضةٌ لأنه بمعنى الماضي. ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وسائطَ بينَ الله وبينَ أنبيائه والصالحينَ من عباده، يبلِّغونَ إليهم رسالاتِه بالوحي والإلهامِ والرؤيا الصادقةِ، أو بَيْنَهُ وبينَ خلْقه يوصِلُون إليهم آثارَ صُنْعِه. ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ذوي أجنحةٍ متعددةٍ متفاوتةٍ بتفاوتِ ما لهم مِن المراتبِ ينزلونَ بها ويعرجونَ، أو يسرعونَ بها نحوَ ما وكَّلَهم اللهُ عليه فيتصرَّفُون فيه على أمرِهم به، ولعلَّه لم يُرِدْ به خصوصيةَ الإعدادِ ونفيَ ما زال عليها، لما روي أنه عليه الصلاةُ والسلام رأى جبريلَ ليلةَ المعراج وله سِتُّمائةِ جَناحٍ[٢] ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئنافٌ للدلالة على أنَّ تفاوتَهم في ذلك

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣١٣ رقم ٣٢٣٢) و(٨/ ٦١٠ رقم ٤٨٥٧) ومسلم (١/ ١٥٨ رقم ٢٨٠ ـ ٢٨٢) من حديث ابن مسعود، لكنه ليس فيه «ليلة المعراج».

ولفظ ابن حبان في صحيحه (٨/ ١١٤ ـ الإحسان): «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينشر في ريشه الدر والياقوت».

بمقتضى مشيئتِه ومؤدَّى حكمتِه لا أمرٌ تستدعيه ذواتُهم، لأنَّ اختلافَ الأصنافِ، والأنواعِ بالخواصِ والفصولِ إنْ كان لذواتهم المشتركةِ لزمَ تنافي لوازمِ الأمورِ المتفقةِ وهو محالٌ، والآيةُ متناوِلةٌ زياداتِ الصورِ والمعاني كملاحةِ الوجْهِ وحُسْنِ الصوت وحصافةِ العقلِ وسماحةِ النفس. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وتخصيصُ بعضِ الأشياء بالتحصيلِ دون بعضٍ، إنما هو من جهةِ الإرادة.

(٢) ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ ما يُطْلِقُ لهم ويرسلُ وهو من تجوُّزِ السببِ للمسبَّب. ﴿مِن رَّحۡمَةٖ﴾ كنعمةٍ وأَمْنٍ وصحَّةٍ وعلم ونبوَّةٍ[1]. ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ يحبِسُها. ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ يُطْلِقُهُ، واختلاف الضميريْنِ لأنَّ الموصولَ الأولَ مفسَّر بالرحمةِ والثاني مطلَقٌ بتناولها والغضب، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رحمتَه سبقتْ غَضَبَهُ. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ من بعدِ إمساكِه. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالبُ على ما يشاء ليس لأحدٍ أنْ ينازِعَه فيه. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ لا يفعلُ إلا بعلمٍ وإتقانٍ. ثم لما بيَّنَ أنه الموجِدُ للملْكِ والملكوتِ والمتصرِّفُ فيهما على الإطلاق أمرَ الناسَ بشكرِ إنعامه فقال:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾

(٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ احفظُوها بمعرفةِ حقِّها والاعترافِ بها وطاعةِ مُوْلِيْهَا، ثم أنكرَ أنْ يكونَ لغيره في ذلك مدخلٌ فيستحقُّ أنْ يشركَ به بقوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ فمن أي وجْهٍ تُصْرَفون عن التوحيدِ إلى إشراك غيرِه به، ورَفَعَ «غيرَ» للحمْلِ على محلِّ من خالقٍ بأنه وصفٌ أو بدلٌ، فإنَّ الاستفهام بمعنى النفي، أو لأنه فاعلُ خالقٍ، وجرَّه حمزةُ والكسائيُّ حملاً على لفظِه، وقد نُصِبَ على الاستثناء، ويرزقكم صفةٌ لخالقٍ أو استئنافٌ مفسِّرٌ له أو كلامٌ مبتدأٌ، وعلى الأخير يكون إطلاقُ هل من خالقٍ مانعاً من إطلاقِه على غيرِ الله.

(٤) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ أي فتأسَّ بهم في الصبر على تكذيبهم، فوَضَعَ فقد كُذِّبَتْ موضِعَه استغناءً بالسببِ عن المسبَّبِ، وتنكيرُ رسلٍ للتعظيمِ المقتضي زيادةَ التسليةِ والحثِّ على المصابرةِ. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ فيجازيك وإيَّاهم على الصبر والتكذيب.

(٥) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالحشرِ والجزاء. ﴿حَقّٞۖ﴾ لا خُلْفَ فيه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ فيذهِلُكُم التمتعُ بها عن طلب الآخرةِ والسعي لها. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ الشيطانُ بأنْ يمنِّيَكُم المغفرةَ مع الإصرارِ على المعصية، فإنها وإنْ أمكنتْ لكنَّ الذَّنْبَ بهذا التوقُّعِ كتناولِ السُّمِّ اعتماداً على دفعِ الطبيعة. وقرىء بالضمِّ وهو مصدرٌ أو جمعٌ كقُعودٍ[2].

---

(١) عبر عن إرسالها بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالاً. وتنكير (رحمة) للإشاعة والإبهام (س٧/ ١٤٢).

(٢) وتكرير فعل النهي «لا تغرنكم، لا يغرنكم» للمبالغة فيه، ولاختلاف الغرورين في الكيفية (س٧/ ١٤٣).

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ
ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ
ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾

(٦) ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوةٌ عامة قديمةٌ. ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالِكم وكونوا على حَذَرٍ منه في مجامعِ أحوالكم. ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تقريرٌ لِعَداوتِهِ وبيانٌ لِغَرَضِهِ في دعوةِ شيعتِهِ إلى اتباعِ الهوى والركونِ إلى الدنيا.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعيدٌ لمن أجاب دعاءَه ووعْدٌ لمن خالفَه وقطعٌ للأماني الفارغةِ، وبناءٌ للأمرِ كلِّه على الإيمان والعملِ الصالحِ وقولُه.

(٨) ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ تقريرٌ له أي أفمنْ زُيِّنَ له سوءُ عمله بأنْ غلَبَ وَهْمُهُ وهواهُ على عقلِه حتى انتكسَ رأيُه فرأى الباطلَ حقاً والقبيحَ حَسَناً، كَمَنْ لم يُزَيَّنْ له بل وُفِّقَ حتى عرفَ الحقَّ واستحسنَ الأعمالَ واستقبحَها على ما هي عليه، فحذفَ الجوابَ لدلالةِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وقيل تقديرُه أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله ذهبتْ نفسُك عليهم حسرةً، فحذفَ الجوابَ لدلالة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ عليه ومعناهُ فلا تُهلِكْ نفسَك عليهم للحسراتِ على غَيِّهم وإصرارِهم على التكذيبِ، والفاآتُ الثلاثُ للسببيةِ غيرَ أنَّ الأُولَيَينِ دَخَلَتَا على السببِ والثالثةَ دخلتْ على المسبَّبِ، وجَمَعَ الحسراتِ للدلالة على تضاعُفِ اغتمامِهِ على أحوالهم أو كثرةِ مساوي أفعالهم المقتضية للتأسُّفِ، وعليهم ليسَ صلةً لها لأنَّ صلةَ المصدرِ لا تتقدَّمُه بل صِلةُ تذهبُ أو بيانٌ للمتحسَّرِ عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

(٩) ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابنُ كثير وحمزةُ والكسائي الريحَ. ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ عل حكاية الحالِ الماضية استحضاراً لتلك الصورةِ البديعةِ الدالَّةِ على كمال الحِكْمَةِ، ولأن المرادَ بيانُ أحداثِها بهذه الخاصِّيَّةِ ولذلك أسندَه إليها، ويجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الأفعال للدلالةِ على استمرارِ الأمر. ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وقرأ نافع وحمزةُ والكسائيُ وحفصٌ بالتشديدِ. ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالمطرِ النازلِ منه وذِكْرُ السحابِ كذِكْرِهِ، أو بالسحابِ فإنه سببُ السَّببِ أو الصائرُ مطراً. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعدَ يُبْسِها، والعدولِ فيهما من الغيبة إلى ما هو أدخلُ في الاختصاصِ لما فيهما من مزيدِ الصُّنع. ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي مثلُ إحياءِ المواتِ نشورُ الأمواتِ في صحَّة المقدوريةِ، إذ ليس بينهما إلا احتمالُ اختلافِ المادة في المقيسِ عليه وذلك لا مدخلَ له فيها. وقيل في كيفية الإحياءِ فإنه تعالى يرسلُ ماءً من تحتِ العرشِ تنبُتُ منه أجسادُ الخلْقِ.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ الشرفَ والْمَنَعَةَ. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فليطلُبْهَا من عنده فإنَّ له كلَّها، فاستغنَى بالدليل عن المدلولِ. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ بيانٌ لما يُطْلَبُ به العزةُ وهو التوحيدُ والعملُ الصالح، وصعودُهما إليه مجازٌ عن قبوله إيَّاهُما، أو صعودُ الْكَتَبَةِ بصحيفتِهما. والمسْتكِنُّ في يرفعُهُ للكَلِم فإنَّ العملَ لا يُقْبَلُ إلا بالتوحيدِ ويؤيدُه أنه نصبَ العملَ، أو للعملِ فإنه يحققُ الإيمانَ ويقوِّيه، أو لله وتخصيصُ العملِ بهذا الشرفِ لما فيه من الكُلْفَةِ. وقرىء يُصْعَدُ على البناءِ والمُصْعِدُ هو الله تعالى أو المتكلِّم به أو المَلَكُ. وقيل الكلِمُ الطيبُ يتناولُ الذِّكْرَ والدعاءَ وقراءةَ القرآن. وعنه عليه الصلاة والسلام «هو سبحانَ اللهِ والحمدُ لله ولا إلهَ إلا اللهُ والله أكبر، فإذا قالها العبدُ عَرَجَ بها الملكُ إلى السماءِ فحيَّا بها وجهَ الرحمن، فإذا لم يكنْ عملٌ صالح لم تُقْبَلْ»[1].
﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المكَرَاتُ السيئاتُ يعني مكراتِ قريشٍ للنبي عليه الصلاة والسلام في دارِ الندوةِ وتداورُهم الرأيَ في إحدى ثلاثٍ حَبْسِه وقتلِه وإجلائِه. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُؤْبَهُ دونه بما يمكرونَ به. ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يفسدُ ولا ينفذُ لأنَّ الأمورَ مقدَّرةٌ لا تتغيَّرُ به كما دلَّ عليه بقوله:

(١١) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بخلْقِ آدمَ عليه السلام منه. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ بخلْق ذرِّيته منها. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذُكْراناً وإناثاً. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ إلاَّ معلومةً له. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ وما يُمَدُّ في عُمُرِ مَنْ مصيره إلى الكِبَرِ. ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ من عُمُرِ المعمَّرِ لغيرِه بأنْ يُعْطَى له عُمْرٌ ناقصٌ من عُمُرِه، أو لا يَنْقُصُ من عُمُرِ المنقوصِ عُمُرُهُ بجعْلِه ناقصاً، والضميرُ له وإنْ لم يُذَكَّرْ لدلالةِ مقابِله عليه أو للعُمُرِ على التسامحِ فيه ثقةً بفهمِ السامعِ كقولهم: لا يثيبُ اللهُ عبداً ولا يعاقِبُهُ إلا بحقٍّ. وقيلَ الزيادةُ والنقصانُ في عُمْرٍ واحد باعتبارِ أسبابٍ مختلِفةٍ أُثْبِتَتْ في اللوح مِثْلُ: أنْ يكون فيه إنْ حجَّ عمرٌو فعُمْرهُ ستونَ سنةً وإلا فأربعونَ. وقيل المراد بالنقصانِ ما يمرُّ من عُمُرِه وينقضي فإنه يُكْتَبُ في صحيفةِ عُمُرِهِ يوماً فيوماً، وعن يعقوبَ ولا يَنْقُصُ على البناءِ للفاعلِ. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ هو عِلْمُ الله تعالى أوِ اللوحُ المحفوظ أوِ الصحيفةُ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إشارةٌ إلى الحفظِ أو الزيادةِ أو النقصِ.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣٨ رقم ٢٦٠): «أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية علي بن عاصم عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً.
ورواه الحاكم ـ (٢/ ٤٢٥) ـ والبيهقي في الأسماء، والطبري ـ في «جامع البيان» (١٢/ ج٢٢/ ١٢٠) ـ مرفوعاً عن ابن مسعود رضي الله عنه» هـ.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ضُرِبَ مثلٌ للمؤمنِ والكافرِ، والفراتُ الذي يكسِرُ العطشَ والسائغُ الذي يسهُلُ انحدارُه، والأجاجُ الذي يحرقُ بملوحَتِهِ. وقرىء سَيِّغٌ بالتشديدِ، وسَيْغٌ بالتخفيف، ومَلِحٌ على فَعِلٍ. ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ استطرادٌ في صفةِ البحرينِ وما فيهما من النِّعم، أو تمامُ التمثيلِ والمعنى: كما أنَّهما وإنِ اشتركا في بعضِ الفوائد لا يتساويانِ من حيثُ إنهما لا يتساويانِ فيما هو المقصودُ بالذاتِ من الماءِ، فإنه خالطَ أحدُهما ما أفسدَه وغيَّره عن كمالِ فطرته، لا يتساوى المؤمنُ والكافرُ وإنِ اتفقَ اشتراكُهما في بعض الصفاتِ كالشجاعةِ والسخاوةِ لاختلافِهما فيما هو الخاصيةُ العظْمَى وهي بقاءُ أحدِهما على الفطرةِ الأصليةِ دونَ الآخرِ، أو تفضيلٌ للأُجاج على الكافرِ بما يشاركُ فيه العذْبَ من المنافع. والمرادُ بالحليةِ اللآلىءُ واليواقيتُ. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ في كلٍّ. ﴿مَوَاخِرَ﴾ تشقُّ الماءَ بِجَرْيِها. ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ من فضلِ اللهِ بالنقلةِ فيها، واللامُ متعلِّقةٌ بمواخِرَ، ويجوزُ أنْ تتعلَّقَ بما دلَّ عليه الأفعالُ المذكورةُ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ذلك، وحرفُ الترجي باعتبارِ ما يقتضيه ظاهرُ الحالِ.

(١٣) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هي مدةُ دورهِ أو منتهاهُ أو يومَ القيامة. ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ الإشارةُ إلى الفاعلِ لهذه الأشياءِ. وفيها إشعارٌ بأنَّ فاعليَّتَهُ لها موجِبةٌ لثبوتِ الأخبارِ المترادفةِ، ويُحتَمَلُ أنْ يكونَ له الملكُ كلاماً مبتدأً في قرآنٍ. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ للدلالةِ على تفرُّده بالألوهيةِ والربوبيةِ، والقِطْميرُ لفافةُ النَواةِ.

(١٤) ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جمادٌ ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض. ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لعدمِ قُدْرَتِهم على الإنفاع، أو لتبرُّئِهم منكم مما تدعون لهم. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بإشراككم لهم يقرُّونَ ببُطْلانه أو يقولون ما كنتم إيانا تعبدون. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا يخبرُك بالأمر مخبرٌ مثلُ خبيرٍ به أَخبَرَك وهو اللهُ سبحانه وتعالى، فإنه الخبيرُ به على الحقيقةِ دون سائرِ المخبرينَ. والمراد تحقيقُ ما أَخبَرَ به من حالِ آلهتهم ونفي ما يدَّعونَ لهم.

(١٥) ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ في أنفسِكم وما يعنُّ لكم، وتعريفُ الفقراءِ للمبالغةِ في فقْرِهم كأنهم لشدَّةِ افتقارِهم وكثرةِ احتياجهم هم الفقراءُ، وأنَّ افتقارَ سائرِ الخلائقِ بالإضافة إلى فقْرِهم

غيرُ معتدٍّ به ولذلك قال ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[١]. ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستغني على الإطلاقِ المنعِم على سائرِ الموجوداتِ حتى استحقَّ عليهم الحمدَ.

إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن
تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ
وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾
وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ
وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾

(١٦) ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ بقومٍ آخرينَ أطوعَ منكم، أو بعالَمٍ آخرَ غيرَ ما تعرفونه.

(١٧) ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ بمتعذِّرٍ أو متعسِّر.

(١٨) ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نفسٍ أخرى، وأما قوله ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾[٢] ففي الضالِّين المضلِّينَ فإنَّهم يحملونَ أثقالَ إضلالِهم مع أثقالِ ضلالِهم، وكلُّ ذلك أوزارُهم ليس فيها شيءٌ من أوزارِ غيرِهم. ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ﴾ نفسٌ أثقلَها الأوزارُ. ﴿ إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾ تحملُ بعضَ أوزارِها. ﴿ لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾ لم تُجبْ لحملِ شيءٍ منه نَفَى أنْ يُحْمَلَ عنها ذنبُهَا كما نَفَى أنْ يُحْمَلَ عليها ذنبُ غيرِها. ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ ولو كان المدعُو ذا قرابتِها، فأضمرَ المدعوَّ لدلالة إنْ تدعُ عليه. وقرىء ذو قربى على حذفِ الخبرِ وهو أَوْلَى من جعْلِ كانَ التامةِ فإنها لا تلائِمُ نَظْمَ الكلام. ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ غائبينَ عن عذابِه، أو عن الناس في خَلَواتِهم، أو غائباً عنهم عذابُه. ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ ﴾ فإنهم المنتفِعُونَ بالإنذارِ لا غيرَ، واختلافُ الفعلينِ لما مرَّ من الاستمرارِ. ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ ومن تطهَّر من دَنَسِ المعاصي. ﴿ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ إذ نفعُه لها، وقُرِىءَ ومن ازّكَىٰ فإنما يَزّكىٰ وهو اعتراضٌ مؤكِّدٌ لخشيتِهم وإقامتِهم الصلاةَ لأنَّهما من جملةِ التزكي. ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فيجازيْهِم على تزكِّيهم.

(١٩) ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ الكافرُ والمؤمنُ، وقيل هما مَثَلَانِ للصنمِ ولله عزَّ وجلَّ.

(٢٠) ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ ولا الباطلُ ولا الحقُّ.

(٢١) ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴾ ولا الثوابُ ولا العقابُ، ولا لتأكيدِ نفي الاستواءِ، وتكريرُها على الشقينِ لمزيدِ التأكيدِ. والحرورُ فعولٌ من الحرِّ غَلَبَ على السَّموم. وقيل السمومُ ما يَهُبُّ نهاراً والحرورُ ما تهبُّ ليلاً.

(٢٢) ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ ﴾ تمثيلٌ آخرُ للمؤمنينَ والكافرينَ أبلغُ من الأولِ ولذلك كرَّر

---

(١) النساء: «٢٨».

(٢) العنكبوت: «١٣».

الفعلَ. وقيل للعلماءِ والجهلاءِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه فيوفِّقُه لِفَهْمِ آياتِه والاتعاظِ بِعِظَاتِهِ. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٖ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ ترشيحٌ لتمثيلِ المصرِّينَ على الكفرِ بالأمواتِ ومبالغةٌ في إقناطِه عنهم.

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فما عليك إلا الإنذارُ وأما الإسماعُ فلا إليك ولا حيلةَ لك إليه في المطبوعِ على قلوبهم.

(٢٤) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ محقِّينَ أو محقّاً، أو إرسالاً مصحوباً بالحقِّ، ويجوزُ أنْ يكونَ صلةً لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيراً بالوعْدِ الحقِّ ونذيراً بالوعيدِ الحقِّ. ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أهلُ عصرٍ. ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى. ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ من نبيٍّ أو عالمٍ يُنْذِرُ عنه، والاكتفاءُ بذكرِه للعلمِ بأنَّ النذارةَ قرينةُ البشارةِ سِيَّما وقد قُرِنَ به من قبلُ، أو لأنَّ الإنذارَ هو الأهمُّ المقصودُ من البِعْثَةِ.

(٢٥) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ الشاهدةِ على نبوَّتِهم. ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصُحُفِ إبراهيمَ عليه السلام. ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ كالتوراةِ والإنجيلِ على إرادةِ التفصيلِ دونَ الجمْعِ، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بهما واحدٌ، والعطفُ لتغايُرِ الوصْفَيْنِ.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكارٌ بالعقوبةِ.

(٢٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ﴾ أجناسُها وأصنافُها على أنَّ كلاً منها ذو أصنافٍ مختلفةٍ، أو هيئاتُها من الصُّفرةِ والخضْرةِ ونحوهما. ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ﴾ أي ذو جددٍ أي خُططٍ وطرائقَ يُقالُ جِدَةُ الحمارِ للخطَّةِ السوداءِ على ظَهْرِهِ. وقرىء جُدُدٌ بالضمِّ جمعُ جديدةٍ بمعنى الجدَّةِ، وجَدَدٌ بفتحتينِ وهو الطريقُ الواضحُ. ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدَّةِ والضعفِ. ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطفٌ على بيضٍ أو على جُدَدٍ كأنه قيل: ومن الجبالِ ذو جددٍ مختلفةِ اللونِ ومنها غرابيبُ متَّحدةُ اللونِ، وهو تأكيدٌ مضمرٌ يفسِّره ما بعدَه فإنَّ الغربيبَ تأكيدٌ للأسودِ ومن حقِّ التأكيدِ أنْ يَتْبَعَ المؤكَّد، ونظيرُ ذلك في الصفةِ قولُ النابغةِ:

وَالمُؤْمِنُ العَائِذَاتُ الطَّيْرُ يَمْسَحُهَا (١)

وفي مثلِه مزيدُ تأكيدٍ لما فيه من التكريرِ باعتبارِ الإضمارِ والإظهارِ.

---

(١) البسيط.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ كاختلافِ الثمارِ والجبالِ. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ إذ شَرْطُ الخشيةِ معرفةُ المخشيِّ والعلمُ بصفاته وأفعاله، فَمَنْ كان أعلمَ به كان أخْشَى منه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «إني أخشاكُم لله وأتقاكُم له»[1] ولذلك أَتْبَعَهُ بذكرِ أفعاله الدالَّةِ على كمالِ قدرته، وتقديمُ المفعولِ لأنَّ المقصودَ حصرُ الفاعليةِ ولو أُخِّرَ انعكسَ الأمرُ. وقرىء برفعِ اسمِ اللهِ ونَصْبِ العلماءِ على أنَّ الخشيةَ مُسْتَعَارَةٌ للتعظيم، فإنَّ المعظَّمَ يكون مَهِيْباً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الخشيةِ لدلالتهِ على أنه معاقِبٌ للمصرِّ على طُغيانِهِ غفورٌ للتائبِ عن عِصْيَانِهِ.

(٢٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يداوِمونَ على قراءتِه أو متابعةِ ما فيه حتى صارتْ سِمَةً لهم وعنواناً، والمرادُ بكتاب الله القرآنُ أو جنسُ كُتُبِ الله فيكون ثناءً على المصدِّقين من الأُمم بعدَ اقتصاصِ حالِ المكذِّبينَ. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيف اتفقَ من غير قَصْدٍ إليهما. وقيلَ السرُّ في المسنونةِ والعلانيةُ في المفروضةِ. ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾ تحصيلَ ثوابِ الطاعةِ وهو خبرُ إنَّ. ﴿لَّن تَبُورَ﴾ لن تَكْسُدَ ولن تَهْلِكَ بالخسرانِ صفةٌ للتجارة وقولُه:

(٣٠) ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ عِلَّةٌ لمدلوله أي ينتفي عنها الكسادُ وتنفُقُ عندَ الله ليوفِّيهم بنفاقِها أجورَ أعمالِهم، أو لمدلولِ ما عدَّ منِ امتثالِهم نحوُ فعلوا ذلك ليوفِّيهم أو عاقبةٌ ليرجُونَ. ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ما يقابلُ أعمالَهم. ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ لِفَرَطَاتِهم. ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتِهم أي مجازيهم عليها، وهو عِلَّةٌ للتوفيةِ والزيادةِ أو خبرُ إنَّ ويرجون حالٌ مِنْ واو وأنفقوا.

(٣١) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآنَ ومِنْ للتبيينِ أو الجِنْسِ ومِنْ للتبعيضِ. ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أحِقه مصدِّقاً لما تقدَّمه من الكتُبِ السماوية حالٌ مؤكِّدة لأنَّ حقِّيَّتَهُ تستلزم موافقَتَهُ إيَّاه في العقائدِ وأصولِ الأحكام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ عالمٌ بالبواطنِ والظواهرِ فلو كان في أحوالِك ما ينافي النبوةَ لم يوحِ إليك مثلُ هذا الكتابِ المعجز الذي هو عيَّارٌ على سائرِ الكتبِ، وتقديمُ الخبيرِ للدلالةِ على أنَّ العُمْدَةَ في ذلك الأمورُ الروحانيةُ.

(٣٢) ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ حَكَمْنَا بتوريثِه منك أو نورِّثه فعبَّر عنه بالماضي لتحقُّقِه، أو أورثناه من

---

(١) وهو جزء من حديث أخرجه البخاري (٩/ ١٠٤ رقم ٥٠٦٣) ومسلم (٤/ ١٢٩ ـ الآفاق الجديدة). من حديث أنس.

الأممِ السالفة، والعطفُ على إنَّ الذين يتلُون والذي أوحَيْنا إليك اعتراضٌ لبيانِ كيفيةِ التوريثِ. ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني علماءَ الأمةِ من الصحابةِ ومَنْ بعدَهم، أو الأمةَ بأسْرِهم فإنَّ الله اصْطَفَاهم على سائرِ الأمم ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالتقصير في العمل به. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يعملُ به في غالبِ الأوقاتِ. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بضمِّ التعليم، والإرشادِ إلى العمل، وقيل الظالِمُ الجاهلُ والمقتصِدُ المتعلِّمُ والسابقُ العالِمُ. وقيل الظالِمُ المجرِمُ والمقتَصِدُ للذي خلطَ الصالحَ بالسيءِ، والسابقُ الذي ترجَّحتْ حسناتُه بحيثُ صارتْ سيئاتُه مكفَّرةً، وهو معنى قوله عليه الصلاةُ والسلامُ: «أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنةَ يرزقون فيها بغير حساب، وأما الذين اقتصدُوا فأولئك يحاسَبُونَ حساباً يسيراً، وأما الذين ظلمُوا أنفسَهم فأولئك يُحْبَسُونَ في طولِ المحشرِ ثم يتلقاهم اللهُ برحمته»[1] وقيلَ الظالمُ الكافرُ على أنَّ الضميرَ للعبادِ، وتقديمُهُ لكثرةِ الظالمينَ ولأنَّ الظُّلمَ بمعنى الجهلِ والركونِ إلى الهوى مقتضى الجِبلَّةِ. والاقتصادُ والسبقُ عارضانِ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إشارةٌ إلى التوريثِ أوِ الاصطفاءِ أو السبقِ.

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

(٣٣) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ مبتدأٌ وخبرٌ والضميرُ للثلاثةِ أو للذين أو للمقتصِد والسابقِ، فإنَّ المرادَ بهما الجنسُ، وقرىء جنةُ عدْنٍ، وجناتِ عدنٍ منصوبٌ بفعل يفسِّره الظاهرُ، وقرأ أبو عمرو يُدْخلونَها على البناءِ للمفعولِ. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مقدَّرةٌ، وقرىء يَحْلونَ من حَلِيَتِ المرأةُ فهيَ حاليةٌ. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ مِنْ الأولى للتبعيضِ، والثانيةُ للتبيينِ. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفٌ على ذهبٍ أي من ذهبٍ مرصَّعٍ باللؤلؤ، أو من ذهبٍ في صفاءِ اللؤلؤِ ونَصَبَهُ نافع وعاصمٌ رحمهما الله تعالى عطفاً على محلِّ مِنْ أساورَ. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

(٣٤)﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ هُمهم من خوفِ العاقبة، أو همُّهم من أجلِ المعاشِ وآفاتِه، أو من وسوسةِ إبليسَ وغيرِها، وقرىء الحُزْنَ. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمذنبينَ. ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعينَ.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ دارَ الإقامةِ. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ من إنعامِه وتفضُّلِه أذ لا واجبَ عليه. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعبٌ. ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كلا إذ لا تكليفَ فيها ولا كدَّ، أتْبعَ نفيَ النَّصبِ نفيَ ما يتبعُه مبالغةً.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٩٤، ١٩٨) و(٦/ ٤٤٤) من حديث أبي الدرداء، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٥) وقال: «رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح وهي هذه إن كان علي بن عبدالله الأزدي سمع من أبي الدرداء فإنه تابعي» هـ.
وله شاهد من حديث عوف بن مالك، أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٧٩ ـ ٨٠) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٦) وقال: وفيه سلامة بن روح وثقة ابن حبان وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات».

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُحكَمُ عليهم بموتٍ ثانٍ. ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ فيستريحوا، ونَصْبُهُ بإضمار أنْ، وقرىء فيموتُون عطفاً على يُقْضَى كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[١]. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلما خبتْ زِيْدَ إسعارُها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلُ ذلك الجزاءِ. ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالِغ في الكفر أو الكفرانِ. وقرأ أبو عمرو يُجْزَىٰ على بناء المفعول وإسنادُه إلى كلٍّ، وقرىء يجازى.

(٣٧) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون يفتعِلُون من الصُّراخ وهو الصياحُ استُعْمِل في الاستغاثةِ لجهرِ المستغيثِ صوتُه. ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القولِ. وتقييدُ العملِ الصالح بالوصْفِ المذكور للتحسُّر على ما عملوه من غير الصالحِ والاعترافِ به، والإشعارِ بأنَّ استخراجَهم لتلافيه، وأنهم كانوا يحسبون أنه صالحٌ والآن تحقَّقَ لهم خلافُه. ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ جوابٌ من الله وتوبيخٌ لهم وما يتذكَّرُ فيه متناولٌ كلَّ عُمْرٍ يمكِّنُ المكلَّفُ فيه من التفكُّر والتذكُّرِ، وقيل ما بين العشرينَ إلى الستينَ. وعنه عليه الصلاة والسلام «العمرُ الذي أعذرَ الله فيه إلى ابنِ آدمَ ستونَ سنةً»[٢]. والعطفُ على معنى أولم نعمِّرْكُم فإنه للتقرير كأنه قال: عمَّرناكم وجاءكم النذيرُ وهو النبيُّ ﷺ أوِ الكتابُ، وقيل العقلُ أوِ الشيبُ أو موتُ الأقاربِ. ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفعُ العذابَ عنهم.

(٣٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه خافيةٌ فلا يَخْفَى عليه أحوالُهم. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليلٌ له لأنه إذا عَلِمَ مضمراتِ الصدورِ وهي أخْفَى ما يكونُ كان أعْلَمَ بغيرها.

(٣٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُلقي إليكم مقاليدَ التصرُّف فيها، وقيل خلفاً بعدَ خَلَفٍ جمعُ خليفةٍ والخلفاءُ جمعُ خليفٍ. ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ جزاءُ كفره. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيانٌ له، والتكريرُ للدلالة على عن اقتضاءِ الكفر لكلٍّ واحد من الأمرينِ مستقلٌّ باقتضاءِ قُبْحِهِ ووجوبِ التجنُّبِ عنه، والمرادُ بالمقْتِ وهو أشدُّ البغضِ مقتُ الله وبالخسارِ خسارُ الآخرة.

---

(١) المرسلات: «٣٦».

(٢) أخرجه البخاري (١١/٢٣٨ رقم ٦٤١٩) من حديث أبي هريرة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني آلهتَهُم والإضافةُ إليهم لأنَّهم جعلُوهم شركاءَ اللهِ أو لأنفسِهم فيما يملكُونه. ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ من أرأيتُم بدلُ الاشتمالِ لأنه بمعنى أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاءِ الشركاءِ أروني أيَّ جُزْءٍ منَ الأرضِ استبدُّوا بخلْقِه. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أم لهم شركةٌ مع اللهِ في خلْقِ السمواتِ فاستحقُّوا بذلك شركةً في الألوهيةِ ذاتيةً. ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطقُ على أنا اتَّخذْناهم شركاءَ. ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ على حجَّةٍ من ذلك الكتابِ بأنَّ لهم شركةً جعليةً، ويجوزُ أنْ يكونَ هم للمشركينَ كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾[1] وقرأ نافعٌ وابن عامر ويعقوبُ وأبو بكر والكسائيُّ «على بيِّناتٍ» فيكون إيماءً إلى أنَّ الشركَ خطيرٌ لابدَّ فيه من تعاضُدِ الدلائلِ. ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لما نَفَى أنواعَ الحججِ في ذلك أضربَ عنه بِذِكْرِ ما حَمَلَهُم عليه وهو تغريرُ الأسلافِ الأخلافَ، أو الرؤساءُ الأتباعَ بأنهم شفعاءُ عند الله يشفعون لهم بالتقرُّب إليه.

(٤١) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ كراهةَ أنْ تزولا فإنَّ الممكِنَ حالَ بقائِه لابدَّ له من حافظٍ، أو يمنعُهما أنْ تزولا لأنَّ الإمساكَ منعٌ. ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ﴾ ما أمسكَهُما. ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ من بعدِ الله أو من بعدِ الزوال، والجملةُ سادَّةٌ مسدَّ الجوابَيْنِ ومِنْ الأولى زائدةٌ والثانيةُ للابتداءِ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيثُ أمسكَهُما وكانتا جديرتَيْنِ بأنْ تُهَدَّا هَدّاً كما قال تعالى ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾[2].

(٤٢) ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ وذلك أنَّ قريشاً لما بلغَهُم أنَّ أهلَ الكتابِ كذَّبوا رُسُلَهُم قالوا: لعنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى لو أتانا رسولٌ لنكوننَّ أَهْدَى من إحدى الأُمَمِ، أي من واحدةٍ منَ الأُممِ اليهودُ والنصارى وغيرُهم، أو مِنَ الأمةِ التي يُقَالُ فيها هي إحدى الأُمَمِ تفضيلاً لها على غَيرِها في الهدى والاستقامةِ. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي النذيرُ أو مجيئُه على التسُّببِ. ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعُداً عن الحقِّ.

(٤٣) ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ من نفوراً أو مفعولٌ له. ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أصلُه وإنْ مكروا المكْرَ

---

(١) الروم: «٣٥».
(٢) مريم: «٩٠».

السيءَ فحذفَ الموصوفَ استغناءً بوصْفِهِ ثم بدلَ أنْ مع الفعل بالمصدر ثم أُضِيفَ. وقرأ حمزةُ وحدَه بسكونِ الهمزةِ في الوصل[1]. ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ ولا يحيطُ. ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهو الماكِرُ وقد حاقَ بهم يومَ بدْرٍ. وقرىء ولا يُحيقُ المكرَ أي ولا يحيقُ اللهُ. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سنةَ اللهِ فيهم بتعذيبِ مكذِّبيهم. ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ إذ لا يبدِّلُها بجعْلِهِ غيرَ التعذيبِ تعذيباً ولا يَحوِّلُها بأنْ ينقلَه من المكذبينَ إلى غيرِهم، وقوله:

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

(٤٤) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهادَ عِلْمٍ بما يشاهدونه في مسايرهم إلى الشام واليمنِ والعراقِ من آثار الماضِيْنَ. ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ ليسْبِقَه ويفوتَهُ. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياءِ كلِّها. ﴿قَدِيرًا﴾ عليها.

(٤٥) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من المعاصي. ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ ظهْرِ الأرضِ. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من نَسَمَةٍ تدبُّ عليها بشؤْمِ معاصيهم، وقيل المرادُ بالدابَّةِ الإنسُ وحْدَه لقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يومُ القيامة. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فيجازيهم على أعمالِهم. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الملائكةِ دعتْه ثمانيةُ أبوابِ الجنةِ أنِ ادخُلْ مِنْ أيِّ بابٍ شِئْتَ»[2].

☆ ☆ ☆

(١) أي قرأ حمزة بسكون همزة «السيء».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص٣٩ رقم ٢٧٤) ـ.

سورة يس
ترتيبها ٣٦ آياتها ٨٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ
أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

سورة يس مكيةٌ[(١)]
وعنه عليه الصلاةُ والسلام: «يس تُدْعَى المعِمَّةَ تعمُّ صاحِبَها خيرَ الدارَيْنِ
والدافعةَ والقاضيةَ تدفعُ عنه كلَّ سوءٍ وتقضي له كلَّ حاجةٍ»[(٢)] وآيُها ثلاثٌ وثمانونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يسٓ﴾ كألم في المعنى والإعرابِ. وقيل معناه يا إنسانُ بلغةِ طيءٍ على أنَّ أصْلَه يا أُنَيْسِينُ فاقْتُصِر على شطرهِ لكثرةِ النداء به كما قيل مُنِ الله في أيمنَ. وقرىء بالكسرِ كجيرِ، وبالفتحِ على البناءِ

---

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة يسٓ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة يسٓ بمكة. [الدر المنثور (٧/ ٣٧)].

(٢) أخرجه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص١٠٠ رقم ٢١٦) من حديث أبي بكر، وكذلك أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٨٠ رقم ٢٤٦٥) وقال البيهقي: «تفرد به محمد بن عبدالرحمٰن هذا عن سليمان وهو منكر. وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٤٧) وقال: قال النسائي: محمد بن الرحمٰن الجدعاني متروك الحديث.
وقال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٨٩): «الجدعاني لم يتهم بكذب بل وثق فقال فيه أحمد وأبو زرعة لا بأس به فغاية حديثه أن يكون ضعيفاً».
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

كَأَيْنَ. أو الإعرابُ على اتلُ يس أو بإضمارِ حرفِ القسم، والفتحةُ لمنعِ الصرفِ، وبالضمِّ[1] بناءً كحيثُ أو إعراباً على هذه يس. وأمالَ الياءَ حمزةُ والكسائيُّ وروحٌ وأبو بكرٍ، وأدْغَمَ النونَ في واوٍ.

(٢) ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ابنُ عامر والكسائي وأبو بكر وورشٌ ويعقوبُ، وهي واوُ القسَمِ أو العطفِ إنْ جُعِلَ يس مُقْسَماً به.

(٣) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لَمِنَ الذين أُرْسِلُوا.

(٤) ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو التوحيدُ والاستقامةُ في الأمور، ويجوزُ أنْ يكونَ على صراطٍ خبراً ثانياً أو حالاً من المستكِنِّ في الجارِّ والمجرور، وفائدتُه وصفُ الشرعِ صريحاً بالاستقامةِ وإنْ دلَّ عليه لمن المرسلينَ التزاماً.

(٥) ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ خبرٌ محذوفٌ والمصدرُ بمعنى المفعولِ. وقرأ ابنُ عامر وحمزة والكسائيُّ وحفصٌ بالنصبِ بإضمارِ أعني أو فِعْلُه على أنه على أصْلِه، وقرىء بالجرِّ على البدلِ منَ القرآنِ[2].

(٦) ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلِّقٌ بتنزيلَ أو بمعنى لمن المرسلين. ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قوماً غيرَ مُنْذَرٍ آباؤُهم يعني آباءَهم الأقربينَ لتطاوُلِ مدَّةِ الفترةِ، فيكونُ صفةً مبيِّنةً لشدَّةِ حاجتهم إلى إرسالِه، أو الذي أُنْذِرَ به أو شيئاً أُنْذِرَ به آباؤُهم الأبعدونَ، فيكونُ مفعولاً ثانياً لِتُنْذرَ، أو إنذارُ آبائِهم على المصدر. ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ متعلِّقٌ بالنفي على الأولِ أي لم يُنْذَرُوا فَبَقُوْا غافلينَ، أو بقوله إنك لمن المرسلين على الوجوهِ الأُخرى أي أرسلناك إليهم لتنذِرَهم فإنَّهم غافلون.

(٧) ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني قولَه تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[3]. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّهم ممَّنْ علِمَ الله أنَّهم لا يؤمنون.

(٨) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ تقريرٌ لِتَصْمِيمِهم على الكفرِ، والطبعُ على قلوبهم بحيثُ لا تغني عنهم الآياتُ والنُّذُر، بتمثيلهم بالذين غُلَّتْ أعناقُهم. ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ فالأغلالُ واصلةٌ إلى أذقانِهم فلا تخلِّيهم يُطَأْطِئُونَ رؤوسَهم له. ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ رافعونَ رؤوسَهم غاضُّون أبصارَهم في أنَّهم لا يلتفِتونَ لَفْتَ الحقِّ ولا يعطِفُون أعناقَهم نَحْوَهُ ولا يُطَأْطِئُونَ رؤوسَهم له.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وبمن أحاطَ بهم سدَّانِ فغطَّى أبصارَهم بحيثُ لا يبصِرونَ قدَّامهم ووراءَهم في أنهم محبوسُونَ في مطمورةِ الجهالةِ ممنوعُون عن النظرِ في الآياتِ والدلائلِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ سَداً بالفتحِ وهو لغةٌ فيه، وقيل ما كانَ بفعلِ الناس فبالفتح وما كان بخلْقِ الله فبالضمِّ. وقُرِئَ فأَعْشَيْنَاهم من العَشَاءِ. وقيل الآيتانِ في بني مخزوم، حَلَفَ أبو جهلٍ أنْ يرضخَ رأسَ النبيِّ ﷺ فأتاه وهو يصلِّي ومعه حجرٌ ليدمغَه، فلما رفعَ يده انثنتْ إلى عُنُقِه ولزقَ الحجرُ بيدِهِ حتى فكُّوه عنها بِجُهْدٍ، فرجَع إلى قومه فأخْبَرَهُم، فقال مخزوميٌّ آخرُ: أنا أقتلُه

(١) أي وقرىء بالضم.

(٢) وفي تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرأفة العامة حثٌّ على الإيمان به ترهيباً وترغيباً، وإشعارٌ بأن تنزيله ناشىء عن غاية الرحمة (س/٧ ١٥٩).

(٣) هود: «١١٩».

بهذا الحجرِ فذهبَ فأعْمَى اللهُ بَصَرَهُ[1].

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ
أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

(١٠) ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سبقَ في سورة البقرةِ تفسيرُه.

(١١) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنذاراً يترتَّبُ عليه البغيةُ المرومةُ. ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآنَ بالتأمُّلِ فيه والعملِ به. ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وخافَ عقابَه قبلَ حلولِه ومعاينةِ أهوالِه، أو في سريرتِه ولا يغترُّ برحمتِه فإنه كما هو رحمٰنٌ منتقمٌ قهارٌ. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

(١٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الأمواتَ بالبعثِ أو الْجُهَّالَ بالهدايةِ. ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ ما أسْلَفُوا من الأعمالِ الصالحة والطالحةِ. ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ الحسنةَ كَعِلْمٍ علموهُ وحبيسٍ وقفُوه، والسيئةُ كإشاعةِ باطلٍ وتأسيسِ ظلْمٍ. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يعني اللوحَ المحفوظَ.

(١٣) ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ ومثل لهم من قولهم هذه الأشياءَ على ضربٍ واحد أي مثالٍ واحدٍ، وهو يتعدَّى إلى مفعولَيْنِ لتضمُّنه معنى الجعْلِ وهما: ﴿مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ على حذفِ مضافٍ أي اجعلْ لهم مِثْلَ أصحاب القرية مَثَلاً، ويجوزُ أنْ يُقْتَصَرَ على واحد ويُجْعَلَ المقدَّرُ بدلاً من الملفوظِ أو بياناً له، والقريةُ أنطاكيةُ. ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بدلٌ من أصحاب القرية، والمرسلونَ رسلُ عيسى عليه الصلاةُ والسلام إلى أهلِها وإضافتُه إلى نفسِه في قوله:

(١٤) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ لأنه فعلُ رسولِه وخليفتِه وهما يحيى ويونسُ، وقيل غيرهُما. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾ فقوَّيْنَا، وقرأ أبو بكر مخففاً من عزَّه إذا غَلَبَهُ. وحَذْفُ المفعولِ لدلالةِ ما قبلَه عليه، ولأنَّ المقصودَ ذِكْرُ المعزَّزِ به. ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعونُ. ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ وذلكَ أنهم كانوا عَبَدَةَ أصنامٍ فأرسلَ إليهم عيسى عليه السلام اثنينِ، فلما قَرُبَا من المدينة رأيا حَبِيْبَاً النجارَ يرعَى غَنَماً فسألَهما فأَخْبَرَاهُ فقال: أَمَعَكُما آيةٌ فقالا: نشفي المريضَ ونبرىءُ الأكْمَهَ والأبرصَ، وكان له ولدٌ مريضٌ فمسحَاه فبرأَ فآمنَ حبيبٌ وفشا الخبرُ، فَشُفِيَ على أيدِيْهما خلقٌ كثير وبلغَ حديثُهما إلى الملِكِ وقال لهما: ألنا إلٰهٌ سوى آلِهَتِنا؟ قالا: نعمْ مَنْ أوجدَك وآلِهَتَكَ، قال: حتَّى أنظرَ في أَمْرِكُما

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٢/١٥٢) عن عكرمة.
وقال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣٩ ـ ١٤٠ رقم ٢٧٥) «أخرجه ابن إسحاق في السيرة في كلام طويل، ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن محمد بن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس ﷺأن أبا جهل، قال: إني أعاهد الله لأجلس غداً لمحمد بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه. فذكر نحوه إلى قوله قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر بين يديه. وأصله في البخاري ـ (٨/ ٧٢٤ رقم ٤٩٥٨) ـ من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه».

فَحَبَسَهُما، ثم بعثَ عيسى شمعونَ فدخلَ متنكِّراً وعاشرَ أصحابَ الملِكِ حتى استأنَسُوا به وأوصلُوه إلى الملِكِ فأَنِسَ به، فقال له يوماً: سمعتُ أنك حَبَسْتَ رجلين فهل سمعْتَ ما يقولانِه، قال فَدَعَاهُما فقال شمعونُ مَنْ أرسَلَكُما قالا: اللهُ الذي خَلَقَ كلَّ شيء وليسَ له شريكٌ، فقال صِفَاهُ وأوجِزا، قالا: يفعلُ ما يشاء ويحكُم ما يريدُ، قال وما آيتُكما، قالا: ما يتمنَّى الملِكُ، فدعا بغلامٍ مطموسِ العينينِ فَدَعُوا اللهَ حتى انشقَّ له بَصَرُهُ، وأخذا بُنْدُقَتَيْنِ فوضَعَاهُما في حَدَقَتَيْهِ فصارتَا مُقْلَتَيْنِ ينظرُ بهما، فقال شمعونُ أرأيتَ لو سألْتَ آلهتكَ حتى تصنعَ مِثْلَ هذا حتَّى يكونَ لك ولها الشرفُ، قال ليس لي عنك سرٌّ آلهتُنا لا تسمعُ ولا تبصرُ ولا تضرُّ ولا تنفعُ، ثمَّ قال إنْ قَدَرَ إلهكُما على إحياءِ مَيْتٍ آمنَّا به، فَأَتَوْا بغلامٍ ماتَ منذ سبعةِ أيامٍ فدعوا اللهَ فقام وقال: إني أُدْخِلْتُ في سبعةِ أوديةٍ منَ النارِ وأنا أحذِّرُكُم ما أنتمْ فيه فآمِنُوا، وقال فُتِحَتْ أبوابُ السماءِ فرأيتُ شاباً حَسَناً يشفعُ لهؤلاءِ الثلاثةِ فقال الملِكُ مَنْ هم قال شمعونُ وهذانِ فلما رأى شمعونُ أنَّ قولَه قد أثَّرَ فيه نصحَه فآمنَ في جَمْعٍ، ومَنْ لم يؤمنْ صاحَ عليهم جبريلُ عليه الصلاة والسلام فهلكُوا.

قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ
لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مزيةَ لكم علينا تقتضي اختصاصَكُم بما تدَّعُونَ، ورَفْعُ بَشَرٍ لانتقاضِ النفي المقتضي إعمالَ ما بإلاَّ. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ وحيٍ ورسالةٍ. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دَعوى الرسالة.

(١٦) ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ استشهدوا بعلمِ اللهِ وهو يجري مَجْرَى القَسَمِ، وزادوا اللامَ المؤكِّدةَ لأنه جوابٌ عن إنكارِهم.

(١٧) ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهرُ البيِّنُ بالآيات الشاهدةِ لصحَّته، وهو المحسنُ للاستشهادِ فإنه لا يحسنُ إلا ببيِّنةٍ.

(١٨) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءَمْنا بكم، وذلك لاستغرابهم ما ادَّعَوْهُ واستقباحِهم له وتنفُّرِهم عنه. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟﴾ عن مقالتكم هذهِ. ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١٩) ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ سببُ شؤْمِكم معكُم وهو سوءُ عقيدتِكم وأعمالِكم، وقُرِىءَ طيرُكم معكُم. ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ وُعِظْتُم، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ مثلُ تطيَّرتُم أو توعدتُم بالرَّجْمِ والتعذيبِ. وقد قرىء بألفٍ بينَ الهمزتينِ، وبفتح أنْ بمعنى أتطيرتُم لأنْ ذُكِّرتُم، وأنْ بغيرِ الاستفهامِ وأينَ ذُكِرتُم بمعنَى طائرُكم معكم حيثُ جَرَى ذِكْرُكم وهو أبلغُ. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قومٌ عادتُكم الإسرافُ في العصيانِ فَمِنْ ثَمَّ جاءكم الشؤْمُ، أو في الضلالِ ولذلك توعَّدتُم وتشاءَمْتُم بمن يجبُ أنْ يُكْرَمَ ويُتَبَرَّكَ به.

وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم
مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ
بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ
فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٠) ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ هو حبيبُ النجارُ وكان ينحتُ أصنامَهُم وهو ممَّنْ آمنَ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام وبينَهما سِتُّمائة سنةٍ، وقيل كان في غارٍ يعبدُ اللهَ فلمَّا بلغهُ خبرُ الرسلِ أتاهُم وأظْهَرَ دينَهُ. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

(٢١) ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ على النُّصح وتبليغِ الرسالة. ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ إلى خير الدارَيْنِ.

(٢٢) ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ على قراءة غيرِ حمزةَ فإنه يسكِّنُ الياءَ في الوصْلِ، تلطُّفٌ في الإرشاد بإيراده في معرضِ المناصحةِ لنفسه وإمحاضِ النصح، حيثُ أرادَ لهم ما أرادَ لها والمرادُ تقريعُهم على تركِهم عبادةَ خالقِهم إلى عبادة غيرِهِ ولذلك قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ مبالغةً في التهديد، ثمَّ عاد إلى المساقِ الأولِ فقال:

(٢٣) ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ لا تنفعني شفاعتُهم. ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ بالنُّصرةِ والمظاهرةِ.

(٢٤) ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فإنَّ إيثارَ ما لا ينفعُ ولا يدفعُ ضُرّاً بوجْهٍ ما على الخالقِ المقتدِرِ على النَّفعِ والضُّرِّ، وإشراكُه به ضلالٌ بيِّنٌ لا يَخْفَى على عاقلٍ، وقرأ نافع ويعقوبُ وأبو عمرو بفتحِ الياءِ.

(٢٥) ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ الذي خلقكُم، وقرأ نافع وابنُ كثير وأبو عمرو بفتحِ الياء. ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ فاسمعوا إيماني، وقيل الخطابُ للرُّسلِ فإنه لما نصحَ قومَه أخذوا يرجمونَه فأسرعَ نحوَهم قبلَ أنْ يقتلُوه.

(٢٦) ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ قيل له ذلك لما قتلُوه بُشْرَى له بأنه من أهلِ الجنة، أو إكراماً وإذْناً في دخولها كسائرِ الشهداءِ، أو لما همُّوا بقتله رَفَعَهُ اللهُ إلى الجنةِ على ما قاله الحسنُ، وإنما لم يُقَلْ له لأنَّ الغرضَ بيانُ المقولِ دونَ المقولِ له؛ فإنه معلومٌ، والكلامُ استئنافٌ في حيِّزِ الجوابِ عن السؤالِ عن حالِه عندَ لقاءِ ربِّه بعدَ تصلُّبه في نَصْرِ دينه وكذلك: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾.

(٢٧) ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ فإنه جوابٌ عن السؤالِ عن قوله عندَ ذلك القولِ، وإنما تمنَّى عِلْمَ قومِهِ بحالِهِ ليحمِلَهم على اكتسابِ مِثْلِها بالتوبة عن الكفرِ والدخولِ في الإيمان والطاعةِ على دَأَبِ الأولياءِ في كظْمِ الغيظِ والترحُّمِ على الأعداءِ، أو ليعلموا أنهم كانوا على خطإٍ عظيم في أمرِهِ وأنه كانَ على حقٍّ. وقرىء المكرَّمينَ. وما خبريةٌ أو مصدرية والباءُ صلةُ يعلمونَ، أو استفهاميةٌ جاءت على الأصْلِ والباءُ صلةُ غَفَرَ أيْ بأي شيءٍ غَفَرَ لي، يريدُ به المهاجرةَ عن دينهم والمصابرةَ على أذيَّتِهم.

۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾

(٢٨) ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد هلاكِه أو رفعِه. ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكِهم كما أرسلْنا يومَ بدْرٍ والخندقِ بل كُفِيْنَا أمْرَهُم بصيحةِ مَلَكٍ، وفيه استحقارٌ لإهلاكهم وإيماءٌ بتعظيم الرسولِ عليه السلام. ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما صحَّ في حِكْمَتِنَا أنْ ننزلَ جُنداً لإهلاكِ قومِه إذ قدَّرْنا لكلِّ شيء سبباً وجعلْنا ذلك سبباً لانتصارِك من قومِك، وقيل ما موصولةٌ معطوفةٌ على جندٍ أي ومما كنَّا منزلينَ على مَنْ قبلَهم من حجارةٍ وريحٍ وأمطارٍ شديدة.

(٢٩) ﴿إِن كَانَتْ﴾ ما كانتِ الأخْذَةُ أوِ العقوبةُ. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاحَ بها جبريلُ عليه السلام، وقُرِئَتْ بالرفعِ على كان التامةِ. ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ ميّتونَ، شُبِّهُوا بالنارِ رمزاً إلى أنَّ الحيَّ كالنارِ الساطعةِ والميِّتَ كرمادِها، كما قال لبيدٌ:

وَمَا المَرْءُ إلاَّ كَالشِّهَابِ وَضَوْئِه يحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ[1]

(٣٠) ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ تعالي فهذهِ من الأحوال التي من حقِّها أنْ تحضري فيها، وهي ما دلَّ عليها: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإنَّ المستهزئِيْنَ بالناصحينَ المخلِصين المنوطَ بِنُصْحِهِم خيرُ الدارين أحقَّاءُ بأنْ يتحسَّروا ويُتَحَسَّرَ عليهم، وقد تلهَّفَ على حالهم الملائكةُ والمؤمنون من الثَّقَلَيْنِ، ويجوزُ أنْ يكونَ تحسُّراً من الله عليهم على سبيلِ الاستعارةِ لتعظيم ما جَنَوْهُ على أنفسِهم ويؤيدُه قراءةُ يا حسرتا، ونَصْبُهَا لطولها بالجارِّ المتعلِّقِ بها، وقيل بإضمارِ فِعْلِها والمنادى محذوفٌ، وقرىء يا حسرةَ العبادِ بالإضافةِ إلى الفاعلِ أو المفعولِ، ويا حَسْرَهْ بالهاءِ على العبادِ بإجراءِ الوصلِ مَجْرَى الوقْفِ.

(٣١) ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ألم يعلموا وهو معلَّقٌ عن قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ لأنَّ «كمْ» لا يعملُ فيها ما قبلَها وإنْ كانتْ خبريةً لأنَّ أصْلَها الاستفهامُ. ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدلٌ من كمْ على المعنَى أي ألم يروا كثرةَ إهلاكِنا مَنْ قبلَهم كونَهم غيرَ راجِعينَ إليهم. وقرىء بالكسرِ على الاستئنافِ.

(٣٢) ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يومَ القيامة للجزاءِ، وإنْ مخفَّفةٌ من الثقيلة، واللامُ هي الفارقةُ وما مزيدةٌ للتأكيد. وقرأ ابنُ عامر وعاصم وحمزةُ لمَّا بالتشديدِ بمعنَى إلاَّ فتكونُ إنْ نافيةً، وجميعٌ فعيلٌ بمعنَى مفعولٍ، ولدينا ظرفٌ له، أو لمحضرونَ.

(٣٣) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ وقرأ نافعٌ بالتشديدِ. ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ خبرٌ للأرضِ، والجملةُ خبرُ آيةٍ،

---

(١) من الطويل.

أو صفةٌ لها إذ لم يردْ بها معيَّنةَ وهي الخبرُ أو المبتدأُ والآيةُ خبرُهَا، أو استئنافٌ لبيانِ كونها آيةً. ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنسَ الحبِّ. ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدَّم الصلةَ للدلالة على أنَّ الحبَّ معظمُ ما يُؤْكَلُ ويُعَاشُ به.

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ
أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى
لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

(٣٤) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ من أنواع النخلِ والعنبِ، ولذلك جمعَهُما دونَ الحبِّ فإنَّ الدالَّ على الجنسِ مشعِرٌ بالاختلافِ ولا كذلك الدالُّ على الأنواع، وذِكْرُ النخيلِ دونَ التمورِ ليطابقَ الحبَّ والأعنابَ لاختصاصِ شجرِها بمزيد النفع وآثارِ الصُّنع. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ وقرىء بالتخفيفِ، والفَجْرُ والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى. ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي شيئاً من العيونِ، فحُذِفَ الموصوفُ وأُقِيمَتِ الصفةُ مقامَهُ، أو العيونَ ومِنْ مزيدةٌ عند الأخفشِ.

(٣٥) ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ ثمرِ ما ذُكِرَ وهو الجناتُ. وقيل الضميرُ لله تعالى على طريقةِ الالتفاتِ، والإضافةُ إليه لأنَّ الثمرَ بخلْقِه. وقرأ حمزة والكسائيُّ بضمتين وهو لغةٌ فيه أو جمعُ ثمارٍ، وقرىء بضمةٍ وسكونٍ. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ عطفٌ على الثمر والمرادُ ما يُتَّخَذُ منه كالعصير والدِّبْسِ ونحوِهما، وقيل ما نافيةٌ والمراد أنَّ الثمرَ بخلْقِ الله لا بِفِعْلِهم، ويؤيدُ الأولَ قراءةُ الكوفيينَ غيرَ حفصٍ بلا هاءٍ فإنَّ حذْفَهُ من الصلةِ أحسنُ من غيرِها. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أَمَرَ بالشكرِ من حيثُ إنه إنكارٌ لِتَرْكِه.

(٣٦) ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الأنواعَ والأصنافَ. ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من النبات والشجرِ. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الذَّكَرَ والأُنْثى. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأزواجاً مما لم يُطْلِعْهم اللهُ تعالى عليه ولم يجعلْ لهم طريقاً إلى معرفته.

(٣٧) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ نزيلُه ونكشِفُهُ عن مكانه مستعارٌ من سَلْخِ الجلدِ، والكلامُ في إعرابه ما سبقَ. ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ داخلونَ في الظلامِ.

(٣٨) ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحدٍّ معيَّنٍ ينتهي إليه دورُها فَشُبِّهَ بِمُسْتَقَرِّ المسافر إذا قطعَ مسيرَهُ، أو لكبدِ السماءَ فإنَّ حَرَكَتَهَا فيه يوجدُ فيها بطءٌ بحيثُ يُظَنُّ أنَّ لها هناك وِقْفَةً قال:

وَالشَّمْسُ حَيْرَى لَهَا بِالجَوِّ تَدْوِيمُ[1]

أو لاستقرار لها على نهجٍ مخصوص، أو لمنتهى مقدَّرٍ لكلِّ يوم من المشارق والمغاربِ فإنَّ لها في دورها ثَلَثِمائَةٍ وستينَ مشرقاً ومغرباً تطلُع كلَّ يوم من مطلعٍ وتغربُ من مغربٍ ثم لا تعودُ إليهما

(١) من البسيط.

إلى العام القابل، أو لمنقطعٍ جزيها عند خرابِ العالم. وقرىء لا مستقرَّ لها أي لا سكونَ فإنَّها متحركةٌ دائماً، ولا مستقرٌ على أنَّ لا بمعنى ليسَ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجريُ على هذا التقديرِ المتضمِّن لِلْحِكَم التي تُكِلُّ الفطِنَ عن إحصائها. ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالبِ بقدرته على كلِّ مقدورٍ. ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ المحيطِ علمُه بكلِّ معلومٍ.

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ
سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم
مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٩) ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ قدَّرنا مسيرَهُ. ﴿مَنَازِلَ﴾ أو سَيْرَهُ في منازلَ وهي ثمانيةٌ وعشرونَ: الشرطانُ، البطينُ، الثريَّا، الدبرانُ، الهقعةُ، الهنعةُ، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهةُ، الزبرة، الصرفة، العواء، السماكُ، الغفر، الزبانا، الإكليلُ، القلب، الشولة، النعائم، البلدةُ، سعدُ الذابح، سعدُ بلعٍ، سعدُ السعود، سعد الأخبيةِ، فرغ الدلو المقدَّم، فرغ الدلو المؤخَّر، الرشا، وهو بطنُ الحوت ينزل كلَّ ليلة في واحدٍ منها لا يتخطَّاه ولا يتقاصَرُ عنه، فإذا كان في آخرِ منازله وهو الذي يكونُ فيه قُبَيْلَ الاجتماع دقَّ واستقوسَ. وقرأ الكوفيونَ وابنُ عامرٍ والقمرَ بنصبِ الراء. ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ﴾ كالشمراخِ المعوجِ، فُعْلونُ من الانعراجِ وهو الاعوجاجُ. وقرىء كالعِرْجَوْنِ وهما لغتانِ كالبِزْيَوْنِ والبُزْيُونِ[1]. ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ العتيقِ وقيل ما مرَّ عليه حولٌ فصاعِداً.

(٤٠) ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ يصحُّ لها ويتسهلُ. ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ في سرعةِ سيرهِ فإنَّ ذلك يخلُّ بتكوُّنِ النباتِ، وتعيُّشِ الحيوان، أو في آثارِه ومنافعِه أو مكانه بالنزولِ إلى محلِّه، أو سلطانه فتطمِسُ نورَه، وإيلاءُ حرفِ النفي الشمسَ للدلالةِ على أنها مسخرةٌ لا يتيسَّرُ لها إلا ما أُرِيدَ بها. ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ يسبقُه فيفوتُه ولكنْ يعاقِبُه، وقيل المرادُ بهما آيتاهُما وهما النيرانُ وبالسبق سبقُ القمرِ إلى سلطانِ الشمسِ فيكون عكساً للأول. وتبديلُ الإدراكِ بالسبقِ لأنه الملائِمُ لسرعةِ سيرهِ. ﴿وَكُلٌّ﴾ وكلُّهم، والتنوينُ عوضٌ عن المضافِ إليه، والضميرُ للشموسِ والأقمارِ فإنَّ اختلافَ الأحوالِ يوجبُ تعدُّداً ما في الذاتِ، أو للكواكبِ فإنَّ ذِكْرَهُما مشعِرٌ بهما. ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون فيه بانبساطٍ.

(٤١) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أولادَهم الذين يبعثُونَهم إلى تجاراتِهم، أو صبيانَهم ونساءَهم الذين يستصْحِبونَهم، فإنَّ الذريةَ تقعُ عليهنَّ لأنهنَّ مزارِعُها. وتخصيصُهم لأنَّ استقرارَهم في السُّفنِ أشقُّ وتماسُكَهم فيها أعجبُ. وقرأ نافعٌ وابن عامر ذرياتِهم. ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوءِ، وقيل المرادُ فُلْكُ نوحٍ عليه الصلاةُ والسلام، وحَمْلُ اللهُ ذرياتِهم فيها أنه حملَ فيها آباءَهم الأقدمينَ وفي أصلابِهم هم وذرياتُهم، وتخصيصُ الذريةِ لأنه أبلغُ في الامتنانِ وأدْخَلُ في التعجُّبِ مع الإيجازِ.

(٤٢) ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ من مثلِ الفُلْكِ. ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبلِ فإنها سفائنُ البرِّ، أو من السفنِ والزوارقِ.

---

(١) هو السندس، غير أن الفيروز في المحيط أورده بضم الباء وبكسرها مع فتح الياء.

وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا
بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ
إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً
تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾

(٤٣) ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ فلا مغيثَ لهم يحرسُهم عن الغرقِ، أو فلا إغاثةَ كقولهم أتاهم الصريخُ. ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ينجُون من الموتِ به.

(٤٤) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا﴾ إلا لرحمةٍ ولتمتيعٍ بالحياة. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ زمانٍ قُدِّرَ لآجالِهم.

(٤٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ الوقائعُ التي خلتْ، أو العذابُ المعدُّ في الآخرة، أو نوازلُ السماء ونوائبُ الأرض كقوله ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[(١)] أو عذابُ الدنيا وعذابُ الآخرة أو عكسُه، أو ما تقدَّم من الذنوبِ وما تأخَّر. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا راجينَ رحمةَ اللهِ، وجوابُ إذا محذوفٌ دلَّ عليه قولُه:

(٤٦) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا العذابَ أعرضُوا لأنَّهم اعتادُوه وتمرَّنوا عليه[(٢)].

(٤٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ على محاويجكُم. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالصانع يعني معطِّلةً كانوا بمكَّةَ. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تهكُّماً بهم من إقرارهم به وتعليقهم الأمورَ بمشيئتِه. ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ على زعْمِكم، وقيل قاله مشركو قريشٍ حين استطعَمَهُم فقراءُ المؤمنينَ إيهاماً بأنَّ اللهَ تعالى لما كان قادراً أنْ يطعِمَهم ولم يطعِمْهم فنحنُ أحقُّ بذلك، وهذا من فَرْطِ جهالَتِهم فإنَّ اللهَ يطعمُ بأسبابٍ منها حثُّ الأغنياءِ على إطعامِ الفقراءِ وتوفيقُهم له. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيثُ أمرتُمونا ما يخالِفُ مشيئةَ اللهِ، ويجوزُ أنْ يكونَ جواباً منَ اللهِ لهم، أو حكايةً لجواب المؤمنينَ لهم.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنُونَ وعْدَ البعثِ.

(٤٩) ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظرونَ. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخةُ الأُولَى. ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ يتخاصمونَ في متاجرِهم ومعاملاتِهم لا يخطُر ببالِهم أمرُها كقوله ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[(٣)] وأصلُه يختصمونَ فسُكِّنَتِ التاء وأُدْغِمَتْ ثم كُسِرَتِ الخاءُ لالتقاءِ الساكنينِ. وقرأ أبو بكر بكسْرِ الياءِ للاتباعِ، وقرأ ابنُ كثير وورشٌ وهشام بفتح الخاء على إلقاءِ حركةِ التاء إليه، وأبو عمرو وقالونُ به مع الاختلاسِ، وعن نافع الفتحُ فيه والإسكانُ والتشديدُ وكأنه جوَّزَ الجمعَ بينَ

---

(١) سبأ: «٩».
(٢) وصيغة المضارع في تأتيهم للدلالة على الاستمرار التجددي (س/٧ ١٧٠).
(٣) يوسف: «١٠٧».

الساكنينِ إذا كان الثاني مدْغماً، وقرأ حمزةُ يَخْصِمُونَ من خَصَمَه إذا جادلَه.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن
كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٠) ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيءٍ من أمورِهم. ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيَرَوْا حالَهم بل يموتون حيثُ تَبْغَتُهُم.

(٥١) ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي مرةً ثانية وقد سبق تفسيرهُ في سورة المؤمنينَ[1]. ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من القبورِ، جمعُ جَدَثٍ وقرىء بالفاءِ. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يُسْرِعُون وقرىء بالضمِّ.

(٥٢) ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا﴾ وقرىء يا ويلتنا. ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ وقرىءَ من أَهَبَّنا من هَبَّ من نومه إذا انْتَبَهَ ومن هَبَنَا بمعنى أَهَبَنَا، وفيه ترشيحٌ ورمزٌ وإشعارٌ بأنهم لاختلاطِ عقولهم يظنُّون أنهم كانوا نياماً، ومَنْ بَعَثَنَا ومن هَبَنَا على الجارّة والمصدرِ، وسكتَ حفصٌ وحدَه عليها سكتةً لطيفةً، والوقفُ عليها في سائرِ القراءاتِ حسنٌ. ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ وما مصدريةٌ، أو موصولةٌ محذوفةُ الراجعِ، أو هذا صفةٌ لمرقدنا وما وعد خبرٌ محذوفٌ، أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أي هذا ما وعدَ الرحمنُ وصدَقَ المرسلونَ، أو ما وعد الرحمنُ وصدق المرسلونَ حقٌّ، وهو من كلامِهم، وقيل جوابٌ للملائكة أو المؤمنينَ عن سؤالهم، معدولٌ عن سُنَنِه تذكيراً لكفرِهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً بأن الذي يهمُّهم هو السؤالُ عن البعْثِ دونَ الباعِثِ كأنهم قالوا: بعثكُم الرحمنُ الذي وعدَكُم البعثَ وأرسلَ إليكم الرسلَ فصدَّقوكم وليسَ الأمرُ كما تظنُّون، فإنه ليس يُبْعَثُ النائِمُ فيهمُّكم السؤالُ عن الباعثِ وإنما هو البعثُ الأكبرُ ذو الأهوالِ.

(٥٣) ﴿إِن كَانَتْ﴾ ما كانتِ الفعلةُ. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخةُ الأخيرةُ، وقرئتْ بالرفعِ على كانَ التامةِ. ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بمجرَّد تلك الصيحةِ وفي كلِّ ذلك تهوينُ أمرِ البعثِ والحشرِ واستغناؤُهما عن الأسبابِ التي ينوطانِ بها فيما يشاهدونَه.

(٥٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حكايةٌ لما يُقَالُ لهم حينئذ تصويراً للموعودِ وتمكيناً له في النفوس وكذا قولُه:

(٥٥) ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ متلذِّذُونَ في النِّعمةِ منَ الفكاهةِ، وفي تنكيرِ شُغُلٍ وإبهامِه تعظيمٌ لما هم فيه من البهجةِ والتلذذِ، وتنبيهٌ على أنه أعلى ما يحيطُ به الأفهامُ ويعربُ عن كُنْهِهِ ....

---

(١) والتعبير بصيغة الماضي «نُفِخَ» للدلالة على تحقق الوقوع (س٧/ ١٧١).

الكلامُ[1]. وقرأ ابن كثير ونافعٌ وأبو عمرو في شغْلٍ بالسكونِ، ويعقوبُ في روايةٍ فكِهُونَ للمبالغةِ، وهما خبرانِ لإنَّ، ويجوزُ أنْ يكونَ في شُغُلٍ صلةً لفاكهونَ. وقرىء فكُهونَ بالضمِّ وهو لغة كنُطُسٍ ونَطُسٍ، وفاكهين وفكِهينَ على الحالِ من المستكِنِّ في الظرفِ، وشَغَلٍ بفتحتين وفتحة وسكونٍ والكلُّ لغاتٌ.

هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ﴾ جمعُ ظلٍّ كشعابٍ أو ظُلَّةٍ كقبابٍ ويؤيدُه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ في ظُلَلٍ. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ على السررِ المزيَّنةِ. ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ وهم مبتدأٌ خبرهُ في ظلالٍ، وعلى الأرائكِ جملةٌ مستأنَفَةٌ أو خبرٌ ثانٍ أو متكئونَ والجارَّانِ صِلَتَانِ له، أو تأكيدٌ للضميرِ في شُغُلٍ أو في فاكهون، وعلى الأرائك متكئونَ خبرٌ آخرُ لإنَّ، وأزواجُهم عطفٌ على هم للمشاركةِ في الأحكامِ الثلاثةِ، وفي ظلالٍ حالٌ من المعطوفِ والمعطوفِ عليه.

(٥٧) ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ما يدَّعون به لأنفسِهم يفتعلونَ من الدعاءِ كاشتوى واجْتَمَل إذا شَوَى وجَمَلَ لنفسِه، أو ما يتداعَوْنه كقولك ارْتَمَوْهُ بمعنى ترامَوْهُ، أو يَتَمَنَّوْنَ من قولهم ادعُ عليَّ ما شئتَ بمعنى تمنَّهْ عليَّ، أو ما يدَّعونه في الدنيا من الجنةِ ودرجاتِها، وما موصولةٌ أو موصوفةٌ مرتفعةٌ بالابتداءِ، ولهم خبرُها وقولُه:

(٥٨) ﴿سَلَـٰمٌ﴾ بدلٌ منها أو صفةٌ أخرى، ويجوزُ أنْ يكونَ خبرَها أو خبرَ محذوفٍ أو مبتدأً محذوفَ الخبرِ أي ولهم سلامٌ، وقرىء بالنصبِ على المصدرِ أو الحالِ أي لهم مرادُهم خالِصاً. ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي يقولُ اللهُ أو يُقَالُ لهم قولاً كائناً من جهتِـهِ، والمعنى أنَّ اللهَ يسلِّمُ عليهم بواسطةِ الملائكةِ أو بغيرِ واسطةٍ تعظيماً لهم وذلك مطلوبُهم ومُتَمَنَّاهم، ويُحْتَمَلُ نصبُه على الاختصاصِ.

(٥٩) ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وانفردُوا عن المؤمنينَ وذلك حينَ يُسَارُ بهم إلى الجنةِ كقوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[2]. وقيل اعتزِلوا منْ كلِّ خير أو تفرَّقوا في النارِ فإنَّ لكلِّ كافرٍ بيتاً ينفردُ به لا يَرَى ولا يُرَى.

(٦٠) ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ من جملةِ ما يُقَالُ لهم تقريعاً وإلزاماً للحجَّةِ، وعهدُه إليهم ما نَصَبَ لهم من الحُجَج العقليةِ والسمعيةِ الآمِرةِ بعبادتِه الزاجرةِ عن عبادةِ غيرِه، وجعلَها عبادةَ الشيطانِ، لأنه الآمِرُ بها والمزيِّنُ لها. وقرىء إعْهَدُ بكسْرِ حرفِ المضارَعَةِ، وأَحْهَدُ وأَحَدْ على لغةِ بني تميمٍ. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليلٌ للمنْعِ عن عبادته بالطاعةِ فيها يحملُهم عليه.

---

(١) والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل المترقَّب المتوقَّع منزلة الواقع للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها، ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك (س٧/ ١٧٣).

(٢) الروم: «١٤».

وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ
جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ
وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟
ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا
يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

(٦١) ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي﴾ عطفٌ على أنْ لا تعبدُوا[1]. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى ما عَهِدَ إليهم أو إلى عبادتِه، فالجملةُ استئنافٌ لبيانِ المقتضي للعهدِ بِشِقَّيْهِ أو بالشقِّ الآخرِ، والتنكيرُ للمبالغةِ والتعظيم، أو للتبعيضِ فإنَّ التوحيدَ سلوكُ بعضِ الطريقِ المستقيم.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ رجوعٌ إلى بيانِ معاداةِ الشيطانِ مع ظهورِ عداوتِه ووضوحِ إضلالِه لمن له أدنى عقلٍ ورأيٍ، والجِبِلُّ الخلْقُ. وقرأ يعقوبُ بضمتينِ، وابنُ كثير وحمزةُ والكسائي بهما مع تخفيفِ اللام، وابنُ عامر وأبو عمرو بضمةٍ وسكونٍ مع التخفيفِ، والكلُّ لغاتٌ، وقرىء جِبِلاً جمعُ جِبْلةٍ كخِلْقةٍ وخُلُقٍ، وجيلاً واحدُ الأجيال.

(٦٣) ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

(٦٤) ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ذوقوا حرَّها اليومَ بكفْرِكم في الدنيا.

(٦٥) ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ نمنعُها عن الكلام. ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بظهورِ آثارِ المعاصي عليها ودلالتها على أفعالِها، أو إنطاقُ الله إيَّاها وفي الحديثِ «إنهم يجحدُون ويخاصِمون فيُخْتَمُ على أفواهِهم وتتكلَّم أيديهم وأرجلُهم»[2].

(٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لمسخنا أعينَهم حتى تصيرَ ممسوحةً. ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ فاستبقوا إلى الطريقِ الذي اعتادوا سلوكَه. وانتصابُه بنزع الخافضِ، أو بتضمينِ الاستباقِ معنى الابتدارِ، أو جعْلِ المسبوقِ إليه مسبوقاً على الاتساعِ، أو بالظرفِ. ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الطريقَ وجهةَ السلوكِ فضلاً عن غيرِه.

(٦٧) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ بتغيير صُوَرِهم وإبطالِ قُواهُم. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ مكانَهم بحيثُ يجمدُون فيه، وقرأ أبو بكر مكاناتِهم. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ ذهاباً. ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ولا رجوعاً، فوُضِعَ الفعلُ موضِعَه للفواصلِ، وقيل لا يرجعون عن تكذيبهم، وقرىء مِضِياً بإتباعِ الميمِ الضادَ المكسورةَ لقلبِ الواوِ ياءً كالعُتِيِّ والعِتِيّ، ومَضِيّاً كصبيٍّ. والمعنى أنَّهم بكفرهم ونقضِهم ما عُهِدَ إليهم أحقاءَ بأنْ يُفْعَلَ بهم ذلك، لكنَّا لم نفعلْ لشمولِ الرحمةِ لهم واقتضاءِ الحكمةِ إمهالَهم.

---

(١) وتقديم النهي عن عبادة الشيطان على الأمر بعبادة الله لأن التخلية مقدمة على التحلية، كما في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) (س٧/ ١٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٨٠ رقم ١٧/ ٢٩٦٩) من رواية الشعبي عن أنس.

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِۚ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ
أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾

(٦٨) ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ ومن نُطِلْ عُمُرَهُ. ﴿نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ نقلِّبْهُ فيه فلا يزالُ يتزايدُ ضعفُه وانتقاصُ بُنْيَتِهِ وقُوَاهُ عكسَ ما كان عليه بَدْءَ أمرِه، وابنُ كثير على هذه يشبعُ ضمةَ الهاءِ على أَصْلِه، وقرأ عاصم وحمزةُ نُنَكِّسْهُ من التنكيسِ وهو أبلغُ والنُّكْسُ أشهرُ. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ مَنْ قَدَرَ على ذلك قَدَرَ على الطمسِ والمسخِ فإنه مشتملٌ عليهما وزيادة، غير أنه على تدرُّجٍ. وقرأ نافع بروايةِ ابنِ عامر وابنِ ذكوانَ ويعقوبَ بالتاءِ لجري الخطابِ قبلَه.

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ ردٌّ لقولهم إنَّ محمداً شاعرٌ أي ما علَّمناه الشعرَ بتعليم القرآنِ، فإنه لا يماثِلُه لفظاً ولا معنًى، لأنه غيرُ مقفًّى ولا موزونٍ، وليس معناه ما يتوخَّاه الشعراءُ من التخيلاتِ المرغِّبةِ والمنفِّرةِ ونحوِها. ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ وما يصحُّ له الشعرُ ولا يتأتَّى له إنْ أرادَ قَرْضَهُ على ما خبرتُم طَبْعَهُ نحواً من أربعينَ سنةً، وقوله عليه الصلاةُ والسلام:

«أنا النبي لا كذبْ أنا ابن عبدالمطلبْ»[(١)].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «هل أنت إلا إصبعٌ دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ»[(٢)].

اتفاقيٌّ من غير تكلُّفٍ وقصدٍ منه إلى ذلك، وقد يقعُ مثلُه كثيراً في تضاعيفِ المنثوراتِ، على أنَّ الخليلَ ما عدَّ المشطورَ من الرجزِ شعراً، هذا وقد روي أنه حرَّكَ الباءينِ وكسرَ التاءَ الأولى بلا إشباعٍ وسكَّنَ الثانيةَ، وقيل الضميرُ للقرآنِ أي وما يصحُّ للقرآنِ أنْ يكون شعراً. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظةٌ وإرشادٌ من الله تعالى. ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ وكتابٌ سماويٌّ يتلى في المعابدِ، ظاهرٌ أنه ليس من كلام البشرِ لما فيه من الإعجازِ.

(٧٠) ﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآنُ، أو الرسولُ ﷺ. ويؤيدُه قراءةُ نافع وابنِ عامر ويعقوبَ بالتاء. ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً فهماً فإنَّ الغافل كالميتِ، أو مؤمناً في علمِ الله تعالى فإنَّ الحياةَ الأبديةَ بالإيمان، وتخصيصُ الإنذارِ به لأنه المنْتَفِعُ به. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وتجبُ كلمةُ العذابِ. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المصرِّيْنَ على الكفر، وجَعْلُهم في مقابلةِ مَنْ كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرِهم وسقوطِ حجَّتهم وعدمِ تأمُّلِهم أمواتٌ في الحقيقةِ.

(٧١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مما تولَّينا إحداثَه ولم يقدرْ على إحداثِه غيرُنا، وذِكْرُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٦٩ رقم ٢٨٦٤) و(٦/ ٧٥ رقم ٢٨٧٤) و(٦/ ١٠٥ رقم ٢٩٤٠) و(٦/ ١٦٤ رقم ٣٠٤٢) و(٨/ ٢٧ ـ ٢٨ رقم ٤٣١٥، ٤٣١٦، ٤٣١٧).
ومسلم (٣/ ١٤٠٠ ـ ١٤٠١ رقم ٧٨، ٧٩، ٨٠/ ١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٩ رقم ٢٨٠٢) و(١٠/ ٥٣٧ رقم ٦١٤٦) ومسلم (٣/ ١٤٢١ رقم ١١٢/ ١٧٩٦) من حديث جندب بن سفيان.

الأيدي وإسنادُ العملِ إليها استعارةٌ تفيد مبالغةً في الاختصاصِ والتفردِ بالإحداثِ. ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ خصَّها بالذِّكرِ لما فيها من بدائعِ الفطرةِ وكثرةِ المنافعِ. ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ متملِّكونَ لها بتمليكِنا إيَّاها، أو متمكِّنون من ضَبْطِها والتصرُّفِ فيها بتسخيرنا إياها لهم قال:

أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ		أَمْلِكُ رَأْسَ البَعِيرِ إِنْ نَفَرَا[1]

وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

(٧٢) ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ وصيَّرناها منقادةً لهم. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ مركوبُهم. وقرىء ركوبتُهم، وهي بمعناهُ كالحلوبِ والحلوبةِ، وقيل جمعُه وركوبُهم أي ذو ركوبِهم أو فَمِنْ منافِعها ركوبُهم. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي ما يأكلون لحمَهُ.

(٧٣) ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ من الجلود والأصوافِ والأوبار. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللَّبنِ جمعُ مشربٍ بمعنى الموضعِ، أو المصدرِ، وأمالَ الشينَ ابنُ عامر وحدَه بروايةِ هشام. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعَمَ الله في ذلك إذ لولا خلقُه لها وتذليلُه إيَّاها كيف أمكنَ التوسُّلُ إلى تحصيلِ هذه المنافعِ المهمَّةِ.

(٧٤) ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أشركُوها به في العبادة بعدَ ما رأوا منه تلك القدرةِ الباهرةَ والنِّعمَ المتظاهرةَ، وعلموا أنه المتفردُ بها. ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ رجاءَ أن ينصُروهم فيما حَزَبَهُم من الأمورِ، والأمرُ بالعكسِ لأنهم.

(٧٥) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ﴾ لآلهتِهم. ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ مُعَدُّونَ لحفظِهم والذبِّ عنهم، أو محضَرونَ أَثَرَهُمْ في النار.

(٧٦) ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ فلا يهمَّنَّكَ، وقرىء بضمِّ الياء من أَحْزَنَ. ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في الله بالإلحادِ والشركِ، أو فيك بالتكذيب والتهجينِ. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فنجازيهم عليه وكفَى ذلك أنْ تتسلَّى به، وهو تعليل للنهي على الاستئنافِ ولذلك لو قرىءَ أَنَّا بالفتحِ على حذفِ لامِ التعليل جازَ.

(٧٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ تسليةٌ ثانيةٌ بتهوين ما يقولونَه بالنسبةِ إلى إنكارِهم الحشرَ، وفيه تقبيحٌ بليغٌ لإنكاره حيثُ عجَّبَ منه وجعلَه إفراطاً في الخصومةِ بيِّناً، ومنافاةٌ لجحودِ القدرةِ على ما هو أهونُ مما عملَه في بَدْءِ خلْقِه، ومقابلةُ النعمةِ التي لا مزيدَ عليها ـ وهي خلقُه من أخسِّ شيءٍ وأمهنِه شريفاً مكرماً ـ بالعقوقِ والتكذيب. روي أنَّ أبيَّ بنَ خلفٍ أتى النبيَّ ﷺ بعظْمٍ بالٍ يفتِّتُهُ بيدِهِ وقال: أترى اللهَ يحيي هذا بعدَ ما رُمَّ، فقال عليه الصلاة والسلام: «نعمْ ويبعثُك

---

(١) من المنسرح.

ويدخلُك النارَ» فنزلتْ[١]. وقيل معنى فإذا هو خصيمٌ مبين فإذا هو بعدَ ما كان ماءً مهيناً مميِّزٌ مِنْطِيْقٌ قادر على الخصامِ معرِبٌ عما في نفسِه.

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾
أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ
أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً وهو نفيُ القدرة على إحياءِ الموتى، أو تشبيهُه بخلْقه بوصْفِه بالعجزِ عما عجزُوا عنه. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ خلْقَنا إياه. ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ منكراً إياه مستبعِداً له، والرميمُ ما بليَ من العظامِ، ولعلَّه فعيلٌ بمعنى فاعلٍ من رمَّ الشيءُ صار اسماً بالغلَبةِ ولذلك لم يؤنَّث، أو بمعنى مفعولٍ من رَمَمْتُهُ. وفيه دليلٌ على أنَّ العظْمَ ذو حياةٍ فيؤثِّرُ فيه الموتُ كسائرِ الأعضاءِ.

(٧٩) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنَّ قدرتَه كما كانتْ لامتناعِ التغيُّرِ فيه، والمادةُ على حالها في القابليةِ اللازمةِ لذاتها. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلمُ تفاصيلَ المخلوقاتِ بعلمه وكيفيةَ خلْقِها، فيعلمُ أجزاءَ الأشخاص المتفتتةَ المتبددةَ أصولَها وفصولَها ومواقعَها وطريقَ تمييزها وضمَّ بعضَها إلى بعضٍ على النمطِ السابق وإعادةَ الأعراضِ والقُوى التي كانتْ فيها أو إحداثَ مِثْلِها.

(٨٠) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ كالمرخ والعَفارِ[٢]. ﴿نَارًا﴾ بأنْ يُسحَقَ المرخُ على العفارِ وهما خضراوانِ يقطرُ منهما الماءُ فتنقدحُ النارُ. ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ لا تشكُّونَ فإنها نارٌ تخرج منه، ومَنْ قدرَ على إحداثِ النارِ من الشجر الأخضرِ مع ما فيه من المائيةِ المضادَّةِ لها بكيفيَّتها كان أقدرَ على إعادةِ الغضاضةِ فيما كان غضّاً فيبِسَ وبَلِيَ، وقرىء من الشجر الخضراءِ على المعنى كقوله ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾[٣].

(٨١) ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مع كبرِ جُرْمِهما وعِظَمِ شأنِهما. ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ في الصغرِ والحقارةِ بالإضافة إليهما، أو مِثْلَهم في أصولِ الذاتِ وصفاتِها وهو المعادُ، وعن يعقوبَ يقدرُ. ﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ من الله تعالى لتقريرِ ما بعدَ النفي مشعِرٌ بأنه لا جوابَ سواهُ. ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كثيرُ المخلوقاتِ والمعلوماتِ.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/ ٣٠) عن مجاهد، وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٢٩) من حديث ابن عباس. قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وأخرجه ابن جرير (١٢/ ج٢٣/ ٣٠) عن سعيد بن جبير.

(٢) المَرخ والعَفَار نوعان من الشجر تُقدح منه النار (مختار الصحاح مادة عفر).

(٣) **الواقعة: «٥٢».**

(٨٢) ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ﴾ إنَّما شأنُه. ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أي تكونُ. ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكونُ أي يحدثُ، وهو تمثيلٌ لتأثير قدرتِهِ في مرادِه بأمرِ المطاع للمطيعِ في حصولِ المأمورِ من غيرِ امتناعٍ وتوقُّفٍ وافتقارٍ إلى مزاولةِ عملٍ واستعمالِ آلةٍ قطعاً لمادةِ الشُّبْهةِ، وهو قياسُ قدرةِ الله تعالى على قدرةِ الخلْقِ، ونَصَبَهُ ابنُ عامر والكسائيُّ عطفاً على يقولُ.

(٨٣) ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تنزيهٌ له عما ضربوا له، وتعجيبٌ عما قالوا فيه معلِّلاً بكونِه مالِكاً للأمرِ كلِّه قادراً على كلِّ شيءٍ. ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وعْدٌ ووعيدٌ للمقرِّينَ والمنكرينَ، وقرأ يعقوبُ بفتحِ التاءِ. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كنتُ لا أعلمُ ما رويَ في فضْلِ يسٓ كيفَ خصَّتْ به فإذا أنه بهذه الآيةِ[1]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ لكلِّ شيء قلباً وقلبُ القرآن يسٓ، وأيُّما مسلمٍ قرأها يريدُ بها وجْهَ الله غَفَرَ الله له وأُعْطِيَ من الأجرِ كأنَّما قرأ القرآنَ اثنتين وعشرنَ مرَّةً، وأيُّما مسلمٍ قُرِىءَ عنده إذا نزلَ به ملكُ الموتِ سورةَ يسٓ نزلَ بكلِّ حرفٍ منها عشرةُ أملاك يقومونَ بينَ يديه صفوفاً يصلُّون عليه ويستغفرونَ له، ويشهدونَ غُسْلَهُ ويشيِّعونَ جنازتَه ويصلُّون عليه، ويشهدون دَفْنَهُ، وأيُّما مسلمٍ قرأ يسٓ وهو في سكراتِ الموتِ لم يقبضْ ملكُ الموتِ روحَه حتى يجيئَه رضوانُ بِشُرْبَةٍ مِنَ الجنةِ فيشربَها وهو على فراشِه فيقبضُ روحَه وهو ريَّانُ، ويمكثُ في قبرِهِ وهو ريَّانُ، ولا يحتاجُ إلى حوضٍ من حياضِ الأنبياءِ حتى يدخلَ الجنةَ وهو ريَّانُ»[2].



---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٤٠ رقم ٢٨٥): «لم أجده».

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٤٠ رقم ٢٨٦): «أخرجه ابن مردويه والثعلبي من حديث أبي بن كعب. وأوله في الترمذي ـ (٥/ ١٦٢ رقم ٢٨٨٧) ـ من رواية هارون أبي محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس. وقال: غريب وهارون مجهول. وفي الباب عن أبي بكر وأبي هريرة.
فأما حديث أبي هريرة فأخرجه البزار وفيه حميد المكي مولى آل علقمة وهو ضعيف، وحديث أبي بكر أخرجه الحكيم الترمذي» هـ.
وقال الترمذي في السنن (٥/ ١٦٣) «وفي الباب عن أبي بكر الصديق، ولا يصح من قبل إسناده إسنادُهُ ضعيف» هـ.
وحكم الألباني في «الضعيفة» على حديث أنس بالوضع (رقم: ١٦٩).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

ترتيبها ٣٧ — آياتها ١٨٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ
إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾

سورةُ الصافاتِ مكيةٌ[1] وآيُها مائةٌ واثنتانِ وثمانونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾.

(٢) ﴿فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾.

(٣) ﴿فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أقسم بالملائكةِ الصافِّين في مقامِ العبوديةِ، على مراتبَ باعتبارِها تفيضُ عليهم الأنوارُ الإلهيةُ، منتظرينَ لأمرِ الله الزاجرينَ الأجرامَ العلويةَ والسفليةَ بالتدبيرِ المأمورِ به فيها، أوِ الناسَ عن المعاصي بإلهامِ الخيرِ، أو الشياطينَ عن التعرُّضِ لهم التالينَ آياتِ الله وجلايا قُدْسِه على أنبيائِه وأوليائِه، أو بطوائفِ الأجرامِ المرتَّبةِ كالصفوفِ المرصوصةِ والأرواحِ المدبِّرة لها والجواهرِ القدسيةِ المستغرقةِ في بحارِ القدسِ ﴿يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[2] أو بنفوسِ العلماءِ الصافِّينَ في العباداتِ الزاجرينَ عن الكفرِ والفسوقِ بالحجَجِ والنصائحِ التالينَ آياتِ اللهِ وشرائعَه، أو بنفوسِ الغزاةِ الصافِّين

---

(١) قال ابن الجوزي في «روح المعاني» (٢٣/ ٦٤): «مكية كلها بإجماعهم» وقال الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ٦٤): «مكية ولم يحكوا في ذلك خلافاً وهي مائة وإحدى وثمانون آية عند البصريين، ومائة واثنتان وثمانون عند غيرهم...» هـ.

(٢) الأنبياء: «٢٠».

في الجهادِ الزاجرينَ الخيلَ أو العدوَّ التالينَ ذِكْرَ الله لا يشغلُهم عنه مباراةُ العدوِّ. والعطفُ لاختلاف الذواتِ أو الصفاتِ، والفاءُ لترتيبِ الوجودِ كقوله:

يــا لهــفَ زيــابــةَ للحــارثِ الصـ ـــابــحِ فــالغــانــمِ فــالآيــبِ

فإنَّ الصفَّ كمالٌ والزَّجْرَ تكميلٌ بالمنعِ عن الشرِّ، أو الإشاقة إلى قبولِ الخير والتلاوة إفاضته، أو الرتبةَ كقوله عليه الصلاة والسلام «رحمَ اللهُ المحلِّقين فالمقصرينَ»[1] غيرَ أنه لفضلِ المتقدِّم على المتأخِّرِ وهذا للعكسِ. وأَدْغَمَ أبو عمرو وحمزةُ التاءاتِ فيما يليها لتقارُبِها فإنَّها من طرفِ اللسانِ وأصولِ الثنايا.

(٤) ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جوابٌ للقسم، والفائدةُ فيه تعظيمُ المقْسَمِ به وتأكيدُ المقسَمِ عليه على ما هو المألوفُ في كلامهم، وأما تحقيقُه فبقوله تعالى.

(٥) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ فإنَّ وجودَها وانتظامَها على الوجْهِ الأكملِ مع إمكانِ غيرِهِ دليلٌ على وجودِ الصانعِ الحكيم، ووحْدَتِه على ما مرَّ غيرَ مرَّةٍ، وربُّ بدلٌ من واحدٍ أو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ محذوفٌ وما بينَهما يتناولُ أفعالَ العبادِ فيدلُّ على أنَّها من خَلْقِه، والمشارِقُ مشارقُ الكواكبِ أو مشارقُ الشمسِ في السَّنَةِ وهي ثلاثُمِائةٍ وستونَ مشرِقاً، تشرقُ كلَّ يومٍ في واحد وبِحَسَبِها تختلفُ المغارِبُ، ولذلك اكْتَفَى بذكْرِها مع أنَّ الشروقَ أدلُّ على القدرةِ وأبلغُ في النعمةِ، وما قيل إنها مائةٌ وثمانون إنما يصحُّ لو لم تختلفْ أوقاتُ الانتقالِ.

(٦) ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ القُرْبَى منكم. ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بزينةٍ هي الكواكبُ والإضافةُ للبيان، ويعضِّدُهُ قراءةُ حمزةَ ويعقوبَ وحفصٍ بتنوين زينةٍ وجرِّ الكواكبِ على إبدالها منه، أو بزينةٍ هي لها كأضوائِها وأوضاعِها، أو بأنْ زيَّنا الكواكبَ فيها على إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ فإنها كما جاءتِ اسماً كاللِّيقةِ جاءتْ مصدراً كالنسبةِ ويؤيدُه قراءةُ أبي بكر بالتنوينِ، والنصبُ على الأصلِ أو بأنَّ زِينَتَها الكواكبُ على إضافتِه إلى الفاعلِ، وركوزُ الثوابتِ في الكرةِ الثامنةِ وما عدا القمرَ من السياراتِ في الستِّ المتوسطةِ بينَها وبينَ السماء الدنيا أنْ تحقَّق لم يقدحْ في ذلك، فإنَّ أهلَ الأرض يرونَها بأسْرِها كجواهرَ مشرقةٍ متلألئةٍ على سطْحِها الأزرقِ بأشكالٍ مختلفة.

(٧) ﴿وَحِفْظًا﴾ منصوبٌ بإضمارِ فعله، أوِ العطفُ على زينةٍ باعتبار المعنى، كأنه قال إنا خلقنا الكواكبَ زينةً للسماء الدنيا وحفظاً. ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ خارجٍ من الطاعة برمي الشُّهبِ.

(٨) ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كلامٌ مبتدأٌ لبيان حالهم بعدَ ما حفظَ السماءَ عنهم، ولا يجوزُ جعلُه صفةً لكلِّ شيطان، فإنه يقتضي أنْ يكونَ الحفظُ من شياطينَ لا يسمعونَ، ولا علَّةَ للحفظِ على حذْفِ اللامِ كما في جئتُك أنْ تكرِمَني، ثم حذفَ أنْ وأهدَرَها كقوله:

ألا أيُّهذا الزاجري أحضرَ الوغى[2]

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ. ولكن أخرج البخاري (٣/٥٦١ رقم ١٧٢٧) ومسلم (٢/٩٤٥ رقم ١٣٠١) بنحوه من حديث عبدالله بن عمر.

(٢) شطر من الطويل.

فإنَّ اجتماعَ ذلك منكرٌ والضمير لكلٍّ باعتبار المعنى، وتعديةُ السماع بإلى لتضمُّنِه معنى الإصغاءِ مبالغةً لنفيِه، وتهويلاً لما يمنُعهم عنه، ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ بالتشديدِ من التسمُّعِ، وهو طلبُ السماعِ، والملأُ الأعْلَى الملائكةُ وأشرافُهم. ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ ويُرْمَوْنَ. ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانبِ السماءِ إذا قصدوا صعودَهُ.

﴿دُحُورًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ۝١١﴾

(٩) ﴿دُحُورًاۖ﴾ علةٌ أي للدحورِ وهو الطردُ!، أو مصدرٌ لأنه والقذفَ متقاربانِ، أو حالٌ بمعنى مدحورينَ أو منزوعٌ عنه الباءُ جمعُ دُحْرٍ، وهو ما يُطْرَدُ به ويقوِّيه القراءةُ بالفتحِ، وهو يحتمِلُ أيضاً أنْ يكونَ مصدراً كالقبولِ أو صفةً له أي قذْفاً دحوراً. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ﴾ أي عذابٌ آخَرُ. ﴿وَاصِبٌ﴾ دائمٌ أو شديدٌ وهو عذابُ الآخرة.

(١٠) ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ استثناءٌ من واوِ يسمعونَ ومَنْ بدلٌ منه، والخطْفُ الاختلاسُ، والمرادُ اختلاسُ كلام الملائكةِ مسارقةً ولذلك عرفَ الخطْفةَ. وقرىء خِطِّف بالتشديدِ مفتوحَ الخاءِ ومكسورَها، وأصلُها اختَطَفَ. ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ﴾ أتبعَ بمعنى تَبِعَ، والشهابُ ما يُرَى كأنَّ كوكباً انقضَّ، وما قيلَ إنه بخارٌ يصعدُ إلى الأثيرِ فيشتعلُ فتخمينٌ إنْ صحَّ لم ينافِ ذلك، إذ ليس فيه ما يدلُّ على أنه ينقضُّ من الفُلْكِ ولا في قوله ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾[(١)] فإنَّ كلَّ نيِّرٍ يحصلُ في الجوِّ العالي فهو مصباحٌ لأهلِ الأرضِ، وزينةٌ للسماء من حيثُ إنه يُرَى كأنه على سطحِه، ولا يبعدُ أنْ يصيرَ الحادثُ كما ذُكِرَ في بعضِ الأوقاتِ رجْماً لشياطينَ تتصعَّدُ إلى قُرْبِ الفلكِ للتسمُّعِ، وما رُوِيَ أنَّ ذلك حَدَثَ بميلادِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام إنْ صحَّ فلعلَّ المرادَ كثرةُ وقوعِه أو مصيرُه دحوراً. واخْتُلِفَ في أنَّ المرجومَ يتأذَّى به فيرجعُ أو يحترقُ به، لكنْ قد يصيبُ الصاعدَ مرَّةً وقد لا يصيبُ كالموجِ لراكبِ السفينةِ ولذلك لا يرتدِعون عنه رأساً، ولا يُقَالُ إنَّ الشيطانَ من النارِ فلا يحترقُ، لأنه ليس من النارِ الصِّرْفِ كما أنَّ الإنسانَ ليس مِنَ الترابِ الخالصِ مع أنَّ النارَ القويةَ إذا استولتْ على الضعيفةِ استهلكتْها. ﴿ثَاقِبٞ﴾ مضيءٌ كأنه يثقبُ الجوَّ بضوئِه.

(١١) ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ فاستخبِرهم، والضميرُ لمشركي مكّةَ أو لبني آدمَ. ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ يعني ما ذُكِرَ من الملائكةِ والسماءِ والأرضِ وما بينهما، والمشارقُ والكواكبُ والشُّهبُ الثواقبُ، ومَنْ لتغليبِ العقلاءِ ويدلُّ عليه إطلاقُه ومجيئُه بعدَ ذلك، وقراءةُ مَنْ قرأَ أمْ مَنْ عَدَدْنا، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ فإنه الفارقُ بينَهم وبينَها لا بينَهم وبينَ مَنْ قبلَهم وكعادٍ وثمودَ، وإنَّ المرادَ إثباتُ المعادِ وردُّ استحالتِه، والأمرُ فيه بالإضافةِ إليهم وإلى مَنْ قبلَهم سواءٌ، وتقريرهُ أنَّ استحالةَ ذلك إما لعدمِ قابليةِ المادةِ، ومادَّتُهم الأصليةُ هي الطينُ اللازبُ الحاصلُ مِنْ ضمِّ الجزءِ المائي إلى الجزءِ الأرضي،

---

(١) الملك: «٢».

وهما باقيانِ قابلانِ للانضمامِ بعدُ، وقد علموا أنَّ الإنسانَ الأولَ إنما تولَّد منه إما لاعترافِهم بحدوثِ العالَمِ أو بقصةِ آدمَ، وشاهدوا تولُّدَ كثيرٍ منَ الحيواناتِ منه بلا توسُّطِ مواقعةٍ، فلزِمَهم أنْ يجوِّزوا إعادتَهم كذلك، وإما لعدمِ قدرةِ الفاعلِ، ومَنْ قَدَرَ على خلْقِ هذه الأشياءِ قدرَ على ما لا يُعْتَدُّ به بالإضافةِ إليها سِيَّما ومِنْ ذلك بَدْؤُهم أولاً، وقدرته ذاتيةٌ لا تتغيرُ.

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾

(١٢) ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرةِ الله تعالى وإنكارِهم للبعْثِ. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من تعجُّبِكَ وتقريرِك للبعثِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بضمِّ التاءِ أي بلغَ كمالَ قدرتي وكثرةَ خلائقي أنْ تعجَّبْتُ منها، وهؤلاءِ لجهْلِهم يسخرونَ منها. أو عجِبْتُ من أنْ ينكِرَ البعثَ ممن هذه أفعالُه وهم يسخرونَ ممن يجوزُه. والعجبُ منَ اللهِ تعالى إما على الفرضِ والتخييلِ أو على معنَى الاستعظامِ اللازمِ له فإنه روعةٌ تعتري الإنسانَ عند استعظامِه الشيءَ، وقيل إنه مقدَّرٌ بالقولِ أي: قال يا محمدُ بل عجبتَ.

(١٣) ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ وإذا وُعِظُوا بشيءٍ لا يتَّعِظُون به، أو إذا ذُكِرَ لهم ما يدلُّ على صِحَّةِ الحشْرِ لا ينتفعون به لبلادَتِهم وقلَّةِ فِكْرِهم.

(١٤) ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ معجزةً تدلُّ على صِدْقِ القائل به. ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخريةِ ويقولون إنه سحرٌ، أو يستدعي بعضُهم من بعضٍ أنْ يسخرَ منها.

(١٥) ﴿وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ﴾ يعنُونَ ما يَرَوْنَهُ. ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ سِحْرِيَّتُهُ.

(١٦) ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أصلُه انبعثَ إذا مِتْنَا فبدَّلوا الفعليةَ بالاسميةِ وقدَّموا الظرفَ وكرَّرُوا الهمزةَ مبالغةً في الإنكارِ، وإشعاراً بأنَّ البعثَ مستنكرٌ في نفسِه وفي هذه الحالةِ أشدُّ استنكاراً، فهوَ أبلغُ من قراءةِ ابنِ عامرٍ بطرحِ الهمزةِ الأُولى، وقراءةُ نافعٍ والكسائيِّ ويعقوبَ بطرحِ الثانية.

(١٧) ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ عطفٌ على محلِّ إنَّ واسمِها، أو على الضمير في مبعوثونَ فإنه مفصولٌ منه بهمزةِ الاستفهامِ لزيادةِ الاستبعادِ لبعدِ زمانهم، وسكَّنَ نافعٌ بروايةِ قالونَ بنِ عامرٍ والواوُ على معنَى الترديدِ.

(١٨) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون، وإنما اكْتُفِيَ به في الجوابِ لِسَبْقِ ما يدلُّ على جوازِه وقيامِ المعجزِ على صِدْقِ المخبرِ عن وقوعِه، وقُرِىءَ قال أي اللهُ أو الرسولُ، وقرأ الكسائيُّ وحدَه نَعِمْ بالكسرِ وهو لغةٌ فيه.

(١٩) ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ جوابُ شرطٍ مقدَّرٍ أي إذا كان ذلك فإنما البعثةُ زجرةٌ أي صيحةٌ واحدةٌ، وهي النفخةُ الثانية من زَجَرَ الراعي غَنَمَهُ إذا صاحَ عليها وأَمَرَها في الإعادةِ كأَمْرِ كُنْ في الإبداءِ، ولذلك رُتِّبَ عليها. ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ فإذا هم قيامٌ من مراقِدهم أحياءٌ يبصرون، أو ينتظرون ما يُفْعَلُ بهم.

وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ
وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا
تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ اليومُ الذي نُجَازَى بأعمالِنا وقد تمَّ به كلامُهم وقوله:

(٢١) ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ جوابُ الملائكةِ، وقيل هو أيضاً من كلامِ بعضِهم لبعضٍ، والفصلُ القضاءُ، أوِ الفرقُ بينَ المحسِنِ والمسيءِ.

(٢٢) ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أَمْرُ اللهِ للملائكةِ، أو أَمْرُ بعضِهم لبعضٍ بحشْرِ الظَّلَمةِ من مقامِهم إلى الموقفِ. وقيل منه إلى الجحيم. ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ وأشباهَهم عابدَ الصنمِ مع عبدةِ الصَّنم وعابدَ الكوكبِ مع عبدَتِه كقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾(١) أو نساءَهم اللاتي على دينهم أو قُرناءَهم من الشياطين. ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾.

(٢٣) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام وغيرِها زيادةً في تحسيرهم وتخجيلِهم، وهو عامٌّ مخصوصٌ بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾(٢) الآيةَ، وفيه دليلٌ على أنَّ الذينَ ظلموا هم المشركونَ. ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فعرِّفوهم طريقاً ليسلُكوها.

(٢٤) ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ اِحْبِسُوهم في الموقفِ. ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ عن عقائدِهم وأعمالِهم، والواوُ لا توجِبُ الترتيبَ مع جوازِ أنْ يكونَ موقفُهم متعدِّداً.

(٢٥) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لا ينصرُ بعضُكم بعضاً بالتخليصِ، وهو توبيخٌ وتقريعٌ.

(٢٦) ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادُونَ لعجْزِهم وانسدادِ الحِيَلِ عليهم، وأصلُ الاستسلامِ طلبُ السلامةِ أو متسالمون كأنه يسلِّمُ بعضُهم بعضاً ويخذُله.

(٢٧) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني الرؤساءَ والأتباعَ أو الكفرةَ والقُرَناءَ. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسألُ بعضُهم بعضاً للتوبيخ ولذلك فُسِّرَ بيتخاصمون.

(٢٨) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوهِ وأيمنِها، أو عن الدينِ، أو عن الخيرِ كأنكم تنفعونَنا نفعَ السانح فتبعْناكم وهلكْنا، مستعارٌ من يمينِ الإنسانِ الذي هو أقوى الجانبينِ وأشرفُهما وأنفعُهما، ولذلك سُمِّيَ يميناً وتَيَمَّنَ بالسانح، أو عن القوةِ والقهرِ فتقسُروننا على الضلالِ، أو عن الحلِفِ فإنهم كانوا يحلِفونَ لهم إنهم على الحقِّ.

(٢٩) ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) الواقعة: «٧».
(٢) الأنبياء: «١٠١».

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا
غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

(٣٠) ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أجابهم الرؤساءُ أولاً بمنعِ إضلالِهم بأنَّهم ضالِّينَ في أنفسِهم، وثانياً بأنَّهم ما أجبروهم على الكفرِ إذ لم يكنْ لهم عليهم تسلُّطٌ وإنما جنحُوا إليه لأنَّهم كانوا قوماً مختارينَ الطغيانَ.

(٣١) ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾.

(٣٢) ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ثم بيَّنوا أنَّ ضلالَ الفريقينِ ووقوعَهم في العذاب كان أمراً مقضيّاً لا محيصَ لهم عنه، وإنَّ غايةَ ما فعلوا بهم أنَّهم دَعَوْهُم إلى الغيِّ لأنهم كانوا على الغيِّ فأحبُّوا أنْ يكونوا مِثْلَهم، وفيه إيماءٌ بأنَّ غوايتَهم في الحقيقة ليستْ من قِبَلِهم إذ لو كان كلُّ غوايةٍ لإغواءِ غاوٍ فَمَنْ أغواهُم.

(٣٣) ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فإنَّ الأتباعَ والمتبوعينَ. ﴿يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مشتركينَ في الغوايةِ.

(٣٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الفعلِ. ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالمشركينَ لقوله تعالى:

(٣٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن كلمةِ التوحيد، أو على مَنْ يدعوهم إليه.

(٣٦) ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ يعنُونَ محمداً عليه الصلاة والسلام.

(٣٧) ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ردٌّ عليهم بأنَّ ما جاءَ به من التوحيد حقٌّ قام به البرهانُ وتَطَابَقَ عليه المرسلون.

(٣٨) ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ بالإشراكِ وتكذيبِ الرسلِ[1]، وقرىء بنصبِ العذابِ، على تقدير النونِ كقوله:

وَلاَ ذَاكِرُ الله إلاَّ قَلِيلاَ

وهو ضعيفٌ في غير المحلَّى باللامِ وعلى الأصلِ.

(٣٩) ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما عملتم.

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ إلا أنْ يكونَ الضميرُ في تُجْزَوْنَ لجميعِ المكلَّفينَ فيكونُ استثناؤُهم عنه باعتبارِ المماثلةِ، فإنَّ ثوابَهم مضاعَفٌ، والمنقطعُ أيضاً بهذا الاعتبارِ.

---

(١) الالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم (س٧/ ١٩٠).

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم
بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ
ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

(٤١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ خصائصه من الدوام، أو تمحُّضُ اللَّذَّة ولذلك فسّره بقوله:

(٤٢) ﴿فَوَٰكِهُ﴾ فإنَّ الفاكهةَ ما يقصدُ للتلذُّذِ دون التغذي والقوتُ بالعكس، وأهلُ الجنةِ لما أُعِيْدُوا على خِلْقَةٍ مُحْكَمَةٍ محفوظةٍ عن التحلُّلِ كانتْ أرزاقُهم فواكهَ خالصةً. ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ في نيلهِ يصلُ إليهم من غير تعبٍ وسؤالٍ كما عليه رزقُ الدنيا.

(٤٣) ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في جناتٍ ليس فيها إلا النعيمُ، وهو ظرفٌ أو حالٌ من المستكِنِّ في مكرمونَ، أو خبرٌ ثانٍ لأولئك وكذلك:

(٤٤) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يَحْتَمِلُ الحالَ أوِ الخبرَ فيكونُ: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حالاً من المسْتَكِنِّ فيه أو في مكرمونَ، وأنْ يتعلَّقَ بمتقابلين فيكونُ حالاً من ضمير مكرمون.

(٤٥) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ بإناءٍ فيه خمرٌ أو خمرٌ كقوله: وَكَأْسٌ شُرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ. ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ من شراب مَعِيْنٍ، أو نهرٍ معينٍ أي ظاهرٍ للعيونِ، أو خارجٍ من العيون، وهو صفةٌ للماءِ من عانَ الماءُ إذا نَبَعَ. وَصَفَ به خمرَ الجنةِ لأنها تجري كالماءِ، أو للإشعارِ بأنَّ ما يكون لهم بمنزلةِ الشرابِ جامعٌ لما يُطْلَبُ من أنواعِ الأشربةِ لكمالِ اللذةِ، وكذلك قولُه:

(٤٦) ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وهما أيضاً صفتانِ لكأسٍ، ووصْفُها بلذَّةٍ إما للمبالغةِ أو لأنَّها تأنيثٌ لذٌّ بمعنى لذيذٍ كَطِبٍّ ووزنه فَعْلٌ قال:

وَلَـذٌّ كَطَعْـمِ الصَـرخَـديّ تَـرَكْتُـهُ   بـأَرْضِ العِـدَا مِـنْ خَشْيَـةِ الحَـدَثَـانِ[١]

(٤٧) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ غائلةٌ كما في خمرِ الدنيا كالخمارِ من غالَه يغولُه إذا أفسدَه ومنه الغولُ. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يسكَرون من نَزَفَ الشاربُ فهو نزيفٌ ومنزوفٌ إذا ذهبَ عقلُه، أفرده بالنفي وعطَفَهُ على ما يعمُّه لأنه من عِظَمِ فسادهِ كأنه جنسٌ برأسِه. وقرأ حمزة والكسائيُّ بكسرِ الزاي وتابعَهُما عاصمٌ في الواقعةِ من أنزفَ الشاربُ إذا نَفَدَ عقلُه أو شرابُه، وأصله للنفادِ يُقَالُ نزفَ المطعونُ إذا خرجَ دمُه كلُّه ونزحتِ الركيَّةُ حتى نزفتها.

(٤٨) ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قَصَرْنَ أبصارَهنَّ على أزواجهنَّ. ﴿عِينٌ﴾ نُجَلُ العيونِ[٢] جمعُ عيناءَ.

(٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ شبَّهَهُنَّ بِبَيْضِ النَّعامِ المصونِ عن الغبارِ ونحوِه في الصفاءِ والبياضِ المخلوطِ بأدنى صُفْرَةٍ؛ فإنه أحسنُ ألوانِ الأبدانِ.

---

(١) من الطويل.
(٢) نُجَلُ العيون أي واسعات العيون (المصباح المنير مادة نجل).

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾
أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ
تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾

(٥٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ معطوفٌ على يُطَافُ عليهم أي يشربون فيتحادثُون على الشرابِ قال:

وَمَـــا بَقِيَـــتْ مِـــنَ اللَّـــذَّاتِ إلاَّ أَحَـــادِيـــثُ الكِـــرَامِ عَلَـــى المُـــدَامِ[1]

والتعبيرُ عنه بالماضي للتأكيدِ فيه فإنه أَلَذُّ تلك اللذاتِ إلى العقلِ، وتساؤُلهم عن المعارفِ والفضائلِ وما جَرى لهم وعليهم في الدنيا.

(٥١) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في مكالَمَتِهم. ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ جليسٌ في الدنيا.

(٥٢) ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ يوبِّخني على التصديقِ بالبعثِ، وقرىء بتشديد الصادِ من التصدُّقِ.

(٥٣) ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ لمجزِيُّون من الدينِ بمعنى الجزاءِ.

(٥٤) ﴿قَالَ﴾ أي ذلك القائلُ. ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى أهلِ النار لأُرِيَكُم ذلك القرينَ، وقيل القائلُ هو اللهُ أو بعضُ الملائكةِ يقول لهم: هل تحبونَ أنْ تطَّلِعوا على أهلِ النار لأريكم ذلك القرينَ فتعلَموا أينَ منزلَتكم من منزلَتِهم؟ وعن أبي عمرو مطْلِعونِ فأُطْلِعَ بالتخفيفِ وكسرِ النون وضمِّ الألفِ على أنه جعلَ اطلاعَهم سببَ اطلاعِه من حيثُ أنَّ أدبَ المجالسةِ يمنعُ الاستبدادَ به، أو خاطبَ الملائكةَ على وضعِ المتصلِ موضِعَ المنفصِلِ كقوله:

هُم الآمِرُونَ الخَيْرَ وَالفَاعِلُونَهُ

أو شبَّه اسمَ الفاعلِ بالمضارعِ.

(٥٥) ﴿فَاطَّلَعَ﴾ عليهم. ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي قرينَهُ. ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسَطَهُ.

(٥٦) ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ لتهلِكَني بالإغواءِ، وقرىء لَتُغْوِيْنْ وإنْ هي المخففةُ واللامُ هي الفارقةُ.

(٥٧) ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالهدايةِ والعصمةِ. ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك فيها.

(٥٨) ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ أي أنحنُ مخلَّدون منعَّمون فما نحن بميِّتينَ، أي بِمَنْ شأنُه الموتُ، وقرىءَ بمائِتِينَ.

(٥٩) ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ التي كانتْ في الدنيا وهي متناوِلةٌ لما في القبرِ بعدَ الإحياءِ للسؤالِ، ونَصبَهَا على المصدرِ من اسمِ الفاعل. وقيل على الاستثناءِ المنقطعِ. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كالكفارِ، وذلك تمامُ كلامِهِ لقرينهِ تقريعاً له أو معاودةٌ إلى مكالمةِ جلسائهِ تحدُّثاً بنعمةِ الله، أو تبجُّحاً بها وتعجُّباً

(١) من الوافر.

منها وتعريضاً للقرينِ بالتوبيخِ.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا
فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ
مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

(٦٠) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ من كلامِهم، وأنْ يكونَ كلامُ اللهِ لتقرير قولِه والإشارة إلى ما هم عليه من النعمةِ والخلودِ والأمْنِ من العذاب.

(٦١) ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ أي لنيلِ مثلِ هذا يجبُ أنْ يعملَ العاملونَ لا للحظوظِ الدنيويةِ المشوبةِ بالآلامِ السريعة الانصرامِ، وهو أيضاً يَحْتَمِلُ الأمريْنِ.

(٦٢) ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ شجرةٌ ثمرُها نُزُلُ أهلِ النار، وانتصابُ نزلاً على التمييزِ أو الحالِ، وفي ذكرِه دلالةٌ على أنَّ ما ذَكَرَ منَ النعيمِ لأهلِ الجنةِ بمنزلةِ ما يُقَامُ للنازلِ، ولهم وراءَ ذلك ما تقصُر عنه الأفهامُ، وكذلك الزقومُ لأهلِ النار، وهو اسمُ شجرةٍ صغيرةِ الورقِ ذفرِ مرَّةٍ تكون بتهامةَ سُمِّيَتْ به الشجرةُ الموصوفةُ.

(٦٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ محنةً وعذاباً لهم في الآخرة، أو ابتلاءُ في الدنيا فإنَّهم لما سمعُوا أنَّها في النارِ قالوا كيفَ ذلك والنارُ تحرقُ الشجرَ، ولم يعلمُوا أنَّ مَنْ قدرَ على خلْقِ حيوانٍ يعيشُ في النارِ ويلتذُّ بها فهو أقدرُ على خلْقِ الشجرِ في النار وحفظهِ من الإحراقِ.

(٦٤) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ منبتُها في قعْرِ جهنَّمَ وأغصانُها ترتفعُ إلى دَرَكَاتِها.

(٦٥) ﴿طَلْعُهَا﴾ حملُها مستعارٌ من طلْعِ التمرِ لمشاركتهِ إياه في الشكلِ، أو الطلوعِ من الشجرِ. ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ في تناهي القُبْحِ والهولِ، وهو تشبيهٌ بالمتخيَّلِ كتشبيهِ الفائقِ الحُسْنِ بالْمَلَكِ. وقيل الشياطينُ حياتٌ هائلةٌ قبيحةُ المنظَرِ لها أعرافٌ، ولعلها سُمِّيَتْ بها لذلك.

(٦٦) ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾ من الشجرةِ أو من طَلْعِها. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ لغلبةِ الجوعِ أو الجبرِ على أكْلِها.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي بعدَ ما شبعوا منها وغَلَبَهُمُ العطشُ وطالَ استسقاؤُهم، ويجوزُ أنْ يكونَ ثمَّ لما في شرابِهم من مزيدِ الكراهةِ والبشاعةِ. ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لشراباً من غسَّاقٍ، أو صديداً مشوباً بماءٍ حميمٍ يقطِّعُ أمعاءَهم، وقرىء بالضمِّ وهو اسمُ ما يُشَابُ به، والأولُ مصدرٌ سُمِّيَ به.

(٦٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرَهُم. ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ إلى دركاتِها أو إلى نفسِها، فإنَّ الزَّقومَ والحميمَ نُزُلٌ يُقدَّمُ إليهم قبلَ دخولِهم، وقيل الحميمُ خارجٌ عنها لقوله تعالى ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[1] يوردون إليه كما تُورَدُ الإبلُ إلى الماءِ ثم يُرَدُّونَ إلى الجحيم، ويؤيدُه أنه

(١) الرحمن: «٤٤».

قُرِىءَ ثمَّ إنَّ منقلَبَهُم.

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾
وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ
ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾

(٦٩) ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾.

(٧٠) ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ تعليلٌ لاستحقاقِهم تلك الشدائدِ بتقليدِ الآباءِ في الضلالِ، والإهراعُ: الإسراعُ الشديدُ كأنهم يُزعَجُونَ على الإسراعِ على آثارِهم، وفيه إشعارٌ بأنهم بادروا إلى ذلك من غيرِ توقُّفٍ على نظرٍ وبحْثٍ.

(٧١) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبلَ قومِك. ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٧٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أنبياءَ أنذورهم من العواقبِ[1].

(٧٣) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ من الشدةِ والفظاعةِ.

(٧٤) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ إلا الذين تنبَّهوا بإنذارِهم فاخلَصُوا دينَهم لله، وقرىء بالفتح[2] أي الذين أخلَصَهُم اللهُ لدينه، والخطابُ مع الرسولِ ﷺ، والمقصودُ خطابُ قومِه فإنَّهم أيضاً سمِعُوا أخبارَهم ورأوا آثارَهم.

(٧٥) ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ شروعٌ في تفصيلِ القصصِ بعدَ إجمالها، أي ولقدْ دعانا حينَ أَيِسَ من قومِه. ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أي فأجبناه أحسنَ الإجابةِ فواللهِ لنعمَ المجيبونَ نحنُ، فَحُذِفَ منها ما حُذِفَ لقيامِ ما يدلُّ عليه.

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من الغرقِ أو أذى قومه.

(٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ إذْ هلك مَنْ عَدَاهُم وبقوا متناسِلينَ إلى يومِ القيامة، إذ روي أنه ماتَ كلُّ مَنْ كانَ معه في السفينةِ غيرُ بنيهِ وأزواجِهم.

(٧٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ من الأُمَمِ.

(٧٩) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ هذا الكلامُ جيءَ به على الحكايةِ والمعنَى يسلِّمون عليه تسليماً. وقيل هو سلامٌ من اللهِ عليه ومفعولُ تركْنا محذوفٌ مثلُ الثناءِ. ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلِّقٌ بالجارِّ والمجرورِ ومعناهُ الدعاءُ بثبوتِ هذه التحيةِ في الملائكةِ والثَّقلينِ جميعاً.

---

(١) تكرير القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين (س٧/ ١٩٥).

(٢) قوله: وقرىء بالفتح، أي بفتح اللام من قوله «المخلَصين».

(٨٠) ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لما فَعَلَ بنوح من التكْرِمة بأنه مجازاةٌ له على إحسانه.

إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

(٨١) ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليلٌ لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالةِ قدره وأصالةِ أمرِه.

(٨٢) ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ يعني كفارَ قومه.

(٨٣) ﴿ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ممن شايَعَهُ في الإيمانِ وأصولِ الشريعة. ﴿ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ ولا يبعدُ اتفاقُ شرعِهما في الفروعِ أو غالباً، وكان بينَهما ألفانِ وسِتُّمائةٍ وأربعونَ سنةً، وكان بينَهما نبيَّانِ هودٌ وصالحٌ.

(٨٤) ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ متعلِّقٌ بما في الشيعةِ من معنى المشايعةِ أو بمحذوفٍ هو اذكر. ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من آفاتِ القلوب أو منَ العلائقِ خالصٍ لله أو مخلِصٍ له، وقيل حزينٍ من السليمِ بمعنى اللديغ. ومعنى المجيءِ به ربَّه: إخلاصُه له كأنه جاء به متحِفاً إيَّاهُ.

(٨٥) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدلٌ من الأولى أو ظرفٌ لجاءَ أو سليمٍ.

(٨٦) ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي تريدون آلهةً دونَ اللهِ إفكاً مقدَّمَ المفعولِ للعنايةِ ثم المفعولِ له لأنَّ الأهمَّ أنْ يقرِّر أنَّهم على الباطلِ ومبنَى أمرِهم على الإفكِ، ويجوزُ أنْ يكونَ إفكاً مفعولاً به، وآلهةً بدلٌ منه على أنها إفكٌ في نفسِها للمبالغة، أوِ المرادُ بها عبادتُها بحذفِ المضافِ أو حالاً بمعنى إفكَيْنِ.

(٨٧) ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بمن هو حقيقٌ بالعبادةِ لكونه ربّاً للعالمينَ حتى تركتُم عبادَتَه، أو أشركتُم به غَيْرَهُ أو أمِنْتُم من عذابِه، والمعنى إنكارُ ما يوجِبُ ظناً فضلاً عن قطعٍ يصدُّ عن عبادتِه، أو يجوزُ الإشراكُ به أو يقتضي الأَمْنَ من عقابِه على طريقةِ الإلزامِ وهو كالحجَّةِ على ما قبلَه.

(٨٨) ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ فرأى مواقِعَها واتِّصالاتِها، أو في عِلْمِها أو في كتابِها، ولا مَنْعَ منه مع أنَّ قَصْدَهُ إيهامُهم وذلك حين سألوه أنْ يعبدَ معهم.

(٨٩) ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أراهُم أنه استدلَّ بها لأنَّهم كانوا منجِّمينَ على أنه مشارِفٌ للسَّقمِ لئلا يُخرِجُوه إلى مَعْبَدِهم، فإنه كان أغلبَ أسقامِهم الطاعونُ وكانوا يخافون العدْوَى، أو أرادَ إني سقيمُ القلبِ لكفرِكم، أو خارجُ المزاجِ عن الاعتدالِ خروجاً قلَّ مَنْ يخلُو منه أو بصددِ الموتِ ومنه المثلُ: كفى بالسلامةِ داءً، وقول لبيدٍ:

فَـدَعَـوْتُ رَبِّـي بـالسَّـلامَـةِ جَـاهِـداً لِيُصحَّنـي فَـإِذَا السَّـلامَـةُ دَاءُ

(٩٠) ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ هاربينَ مخافةَ العدْوَى.

فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾

(٩١) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ فذهبَ إليها في خُفْيَةٍ من روغةِ الثعلبِ وأصلُه الميلُ بحيلةٍ. ﴿فَقَالَ﴾ أي للأصنامِ استهزاءً. ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني الطعامَ الذي كان عندَهم.

(٩٢) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ بجوابي.

(٩٣) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فمالَ عليهم مستخفياً، والتعديةُ بعلَى للاستعلاءِ وإنَّ الميلَ لمكروهٌ. ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ مصدرٌ لراغَ عليهم لأنه في معنى ضَرَبَهُم، أو لمضمرٍ تقديرهُ فراغَ عليهم يضربُهم وتقييدُه باليمينِ للدلالة على قوتِه فإنَّ قوةَ الآلةِ تستدعي قوةَ الفعلِ، وقيلَ باليمين بسببِ الحلِفِ وهو قوله ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾[1].

(٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام بعدما رجعُوا فرأَوْا أصنامَهم مكسَّرةً وبحثُوا عن كاسرِها فظنُّوا أنه هو كما شرحَه في قوله ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾[2] الآيةَ. ﴿يَزِفُّونَ﴾ يسرِعُون، من زفيفِ النعامِ. وقرأ حمزة على بناءِ المفعولِ من أَزفَهُ أي يحملونَ على الزفيفِ. وقرىء يَزُفُّونَ أي يزفُّ بعضُهم بعضاً، ويَزِفُون من وزفَ يزِف إذا أسرعَ، ويَزْفُونَ من زفاهُ إذا حدَاه كأن بعضَهم يزفُو بعضاً لتسارُعِهم إليه.

(٩٥) ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ما تنحتونه من الأصنام.

(٩٦) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وما تعملونه فإنَّ جوهَرها بخلْقه وشكْلَها وإن كان بفعلِهم، ولذلك جُعِلَ من أعمالهم، فبإقدارِه إياهم عليه وخلْقه ما يتوقفُ عليه فِعْلُهم من الدواعي والعدد، أو عملَكم بمعنى معمولِكم ليطابِقَ ما تنحتونَ، أو إنه بمعنى الحدثِ فإنَّ فعلَهم إذا كان بخلقِ الله تعالى فيهم كان مفعولُهم المتوقِّفُ على فعلِهم أَوْلَى بذلك، وبهذا المعنى تمسَّك أصحابُنا على خلْقِ الأعمال، ولهم أنْ يرجِّحوه على الأوَّلَيْنِ لما فيهما من حذفٍ أو مجازٍ.

(٩٧) ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ في النار الشديدةِ من الجحمةِ وهي شدةُ التأجُّجِ، واللامُ بدلُ الإضافةِ، أي جحيمِ ذلك البنيانِ.

(٩٨) ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ فإنه لما قَهرَهُم بالحجَّةِ قصدُوا تعذيبَهُ بذلك لِئَلاَّ يظهرَ للعامَّةِ عجزُهم. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلِّينَ بإبطالِ كيدِهم وجعْلِه برهاناً نيِّراً على علوِّ شأنه، حيثُ جعلَ النارَ عليه برداً وسلاماً.

(٩٩) ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ إلى حيثُ أمرني ربي وهو الشامُ، أو حيثُ أتجردُ فيه لعبادته. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى ما فيه صلاحُ ديني أو إلى مقصدي، وإنما بتَّ القولَ لسبْقِ وعدِه أو نفرطِ توكُّله، أو

---

(١) الأنبياء: «٥٧».

(٢) الأنبياء: «٥٩».

البناءِ على عادتِه معه ولم يكنْ كذلك حالُ موسى عليه الصلاة والسلام حينَ ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[١] فلذلك ذُكِرَ بصيغة التوقُّع.

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾

(١٠٠) ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بعضَ الصالحين يعينني على الدعوةِ والطاعة ويؤنِسُني في الغربة، يعني الولدَ لأن لفظَ الهبة غالبٌ فيه ولقوله:

(١٠١) ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ بشَّره بالولدِ وبأنه ذَكَرٌ يبلغُ أوانَ الْحُلُم، فإنَّ الصبيَّ لا يوصَفُ بالحلمِ ويكونُ حليماً وأي حلمٍ مثلُ حلمِه حين عَرَضَ عليه أبوه الذبحَ وهو مراهِقٌ فقال ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٢]. وقيل ما نَعَتَ الله نبياً بالحلمِ لعزةِ وجودِه غيرَ إبراهيمَ وابنه عليهما الصلاة والسلام، وحالُهما المذكورةُ بعد تشهَّدِ عليه.

(١٠٢) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي فلما جدَّ وبلغَ أنْ يسعَى معه في أعماله، ومعه متعلِّقٌ بمحذوفٍ دل عليه السعيُ لا به لأنَّ صلةَ المصدرِ لا تتقدَّمه ولا يبلغُ فإنَّ بلوغَهما لم يكنْ معاً كأنه قال: فلما بلغَ السَّعْيَ فقيل مع مَنْ فقيلَ معه. وتخصيصُه لأنَّ الأبَ أكملُ في الرفقِ والاستصلاح له فلا يستسعيه قبلَ أوانه، أو لأنه استوهَبَهُ لذلك وكان له يومئذٍ ثلاثَ عشرةَ سنةً. ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ﴾ وقرأ حفصٌ بفتح الياء. ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ يُحتَمَلُ أنه رأى ذلك وأنه رأَى ما هو تعبيرهُ وقيل إنه رأى ليلةَ الترويةِ أن قائلاً يقولُ له: إنَّ الله يأمرك بذبحِ ابنِك، فلما أصبحَ روى[٣] أنه منَ الله أو من الشيطانِ، فلما أمْسَى رأى مثلَ ذلك فعرِفَ أنه من اللهِ، ثم رأى مثلَه في الليلةِ الثالثةِ فهمَّ بنحرِهِ وقال له ذلك، ولهذا سُمِّيَتِ الأيامُ الثلاثةُ بالترويةِ وعرفةَ والنحرِ، والأظهرُ أنَّ المخاطَبَ إسمٰعيلُ عليه السلام لأنه الذي وهبَ له أَثَرُهُ الهجرةَ ولأنَّ البشارةَ بإسحاقَ بعدُ معطوفةٌ على البشارةِ بهذا الغلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام «أنا ابنُ الذبيحين»[٤]. فأحدُهما جدُّه إسمٰعيلُ والآخرُ أبوه عبدُالله، فإنَّ جدَّه عبدَالمطلبِ نذرَ أنْ يذبحَ

---

(١) القصص: «٢٢».

(٢) الصافات: «١٠٢».

(٣) روىٰ أي تفكّر في الأمر ونظر فيه من الرّويّة وهو التفكر.

(٤) قال الألباني في «الضعيفة» (رقم: ٣٣١) «لا أصل له بهذا اللفظ» هـ.

قلت: أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/٨٥) والحاكم في المستدرك (٢/٥٥٤) من رواية الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية بن أبي سفيان فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم، فقال بعضهم: الذبيح إسماعيل وقال بعضهم: إسحاق الذبيح، فقال معاوية: سقطتم على الخبير، كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه الأعرابي فقال: يا رسول الله خلفت البلاد يابسة والماء يابساً، هلك المال، وضاع العيال فعد علي بما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه، فقلنا: يا أمير المؤمنين وما الذبيحان؟ قال إن عبدالمطلب لما أمر بحفر زمزم نذر، فذكره...» هـ. =

ولداً إنْ سهَّل الله له حفرَ زمزمَ أو بلغَ بنوهُ عشرةً، فلما سهَّلَ أقرعَ فخرجَ السهمُ على عبدِالله ففداه بمائةٍ من الإبلِ، ولذلك سُنَّتِ الديةُ مائةً، ولأنَّ ذلك كان بمكَّةَ وكان قَرْنا الكبشِ معلَّقينِ بالكعبةِ حتى احترقا معَها في أيام ابنِ الزبير، ولم يكن إسحاقُ ثمَّةَ، ولأنَّ البشارةَ بإسحاقَ كانت مقرونةً بولادةِ يعقوبَ منه فلا يناسِبُها الأمرُ بذبحِه مراهِقاً، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ أيُّ النسبِ أشرفُ فقال: «يوسفُ صِدِّيقُ الله بنُ يعقوبَ إسرائيلُ اللهِ بنُ إسحٰقَ ذبيحُ اللهِ بنَ إبراهيمَ خليلُ اللهِ»[1] فالصحيحُ أنه قال: يوسف بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ والزوائدُ من الراوي. وما روي أنَّ يعقوبَ كتبَ إلى يوسفَ مثلَ ذلك لم يثبتْ. و قرأ ابنُ كثير ونافع وأبو عمرو بفتح اليَاءِ فيهما. ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأي، وإنما شاورَهُ فيه وهو حتْم ليعلَم ما عندَه فيما نزلَ من بَلاءِ اللهِ فَيُثَبِّتَ قدمَه إن جَزِعَ، ويأمنَ عليه إنْ سلَّمَ وليوطِّنَ نفسَه عليه فيهونُ ويكتسبُ المثوبةَ بالانقيادِ له قبلَ نزولِه. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ماذا تُرِي بضمِّ التاءِ وكسْرِ الراءِ خالصةً، والباقونَ بفتحِها، وأبو عمرو يميلُ فتحةَ الراءِ، وورشٌ بينَ بينَ، والباقونَ بإخلاصِ فتحِها. ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾ وقرأ ابن عامر بفتحِ التاءِ. ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تؤمرْ به فحُذِفا دفعةً، أو على الترتيبِ كما عرفتَ أو أَمَرَكَ على إرادةِ المأمورِ به والإضافةِ إلى المأمور، أو لعلَّه فهِمَ من كلامه أنه رأى أنه يذبحُه مأموراً به، أو علِمَ أنَّ رؤيا الأنبياءِ حقٌّ وأنَّ مِثْلَ ذلك لا يقدِمُون عليه إلا بأمرٍ، ولعلَّ الأمرَ في المنامِ دونَ اليقظةِ لتكونَ مبادرتُهما إلى الامتثالِ أدلَّ على كمالِ الانقيادِ والإخلاصِ، وإنما ذُكِرَ بلفظ المضارعِ لتكرُّرِ الرؤيا. ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبحِ أو على قضاءِ الله، وقرأ نافع بفتحِ الياءِ.

(١٠٣) ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ استَسْلما لأمرِ الله أو سلَّما الذبيحُ نفسَه وإبراهيمُ ابنَه، وقد قرىء بهما وأصلُها سلَّم هذا لفلانٍ إذا خلصَ له فإنه سلِم من أنْ ينازَع فيه. ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ صرعَه على شِقِّه فوقع جبينه

= وسكت عليه الحاكم، وقال الذهبي: إسناده واهٍ.

(١) أخرج الطبراني في الكبير (١٠/ ١٨٤) رقم ١٠٢٧٨) من حديث ابن مسعود، أن النبي ﷺ سئل من أكرم الناس؟ قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله»، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٠٢). وقال «رواه الطبراني، وبقية مدلس، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه» هـ.

قال الألباني في «الضعيفة» (رقم: ٣٣٤): «ولكن بقية قد توبع عليه، فقد رواه ابن المظفر في «غرائب شعبة» (١/ ١٣٨) عن معاوية بن حفص وبقية معاً عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود به.

ورواه شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود موقوفاً عليه، وهو الصواب أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٨ رقم ٨٩١٦). قال الحافظ ابن كثير بعد أن ساقه في تفسيره (٤/ ١٩): «وهذا صحيح عن ابن مسعود».

قال الألباني: والحديث صحيح مرفوعاً دون قوله «إن إسحاق ذبيح الله» فإن هذه الزيادة منكرة. فقد أخرج البخاري (٦/ ٤١٤٣ رقم ٣٣٧٤) و(٦/ ٤١٧ رقم ٣٣٨٣) و(٨/ ٣٦٢ رقم ٤٦٨٩) و(٦/ ٣٨٩ رقم ٣٣٥٣). ومسلم (٤/ ١٨٤٦ رقم ١٦٨/ ٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادنِ العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهُوا». فالحديث ليس فيه «ذبيح الله» فدل على نكارتها.

وقد جاءت أحاديث في أن إسحاق هو الذبيح ولكنها كلها ضعيفة. . .» هـ.

على الأرضِ وهو أحدُ جانبي الجبهةِ. وقيل كبَّه على وجْهه بإشارته لئلا يرى فيه تغيُّراً يرقُّ له فلا يذبحُه، وكان ذلك عند الصخرةِ بِمنًى، أو في الموضعِ المشرِف على مسجدِهِ، أو المنحَرِ الذي يُنْحَرُ فيه اليومَ.

وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾
وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ
مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾

(١٠٤) ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

(١٠٥) ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ بالعزْمِ والإتيانِ بالمقدماتِ. وقد روي أنه أمرَّ السكينَ بقوَّتِه على حلْقِهِ مراراً فلم تقْطَعْ، وجوابُ لما محذوفٌ تقديره كان ما كان مما ينطلِقُ به الحالُ ولا يحيط به المقالُ، من استبشارِهما وشكرِهما لله تعالى على ما أنعمَ عليهما من دفْعِ البلاء بعد حلوله والتوفيقِ بما لم يوفَّقْ غيرُهما لمثلِه، وإظهارُ فضْلِهما به على العالمين مع إحرازِ الثوابِ العظيم إلى غيرِ ذلك. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لإفراجِ تلك الشدةِ عنهما بإحسانهما، واحتجَّ به من جوَّزَ النسخَ قبل وقوعه فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالذبحِ لقوله ﴿يا أبت افعل ما تؤمر﴾[1] ولم يحصلْ.

(١٠٦) ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الابتلاءُ البيِّنُ الذي يتميَّزُ فيه المخلِصُ من غيرِهِ، أو المحْنَةُ البيِّنةُ الصعوبةِ فإنه لا أصعبَ منها.

(١٠٧) ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ﴾ بما يُذْبَحُ بدلَه فيتمُّ به الفعلُ. ﴿عَظِيمٍ﴾ عظيمِ الجثةِ سمينٍ، أو عظيمِ القدْرِ لأنه يفدي به الله نبياً ابنَ نبي، وأيُّ نبيٍّ من نسْلِه سيدُ المرسلين. قيل كان كبشاً من الجنةِ. وقيل وعْلاً أَهْبِطَ عليه من ثبيرٍ. وروي أنه هرب منه عند الجمرةِ فرماه بسبْعِ حصيَّاتٍ حتى أخذَه فصارتْ سُنَّةً، والفادي على الحقيقة إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام وإنما قال وفديناه لأنَّ الله المعطي له والآمِرُ به على التجوُّزِ في الفداءِ أو الإسنادِ، واستدلَّ به الحنفيةُ على أنَّ من نَذَرَ ذَبْحَ ولده لزمَهُ ذبحُ شاةٍ وليس فيه ما يدلُّ عليه.

(١٠٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾.

(١٠٩) ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ سبق بيانه في قصةِ نوحٍ عليه السلام.

(١١٠) ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لعلَّه طرح عنه إنَّا اكتفاءً بذكره مرةً في هذه القصةِ.

(١١١) ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١١٢) ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ مقضياً نبوتُه مقدراً كونُه من الصالحينَ وبهذا الاعتبارِ وقعا حالينِ ولا حاجةَ إلى وجودِ المبشَّرِ به وقت البشارة، فإنَّ وجودَ ذي الحال غيرُ شرطٍ بل الشرطُ مقارنةُ

---

(١) الصافات: «١٠٢».

تعلُّقِ الفعل به لاعتبارِ المعنى بالحال، فلا حاجةَ إلى تقديرِ مضافٍ يُجْعَلُ عاملاً فيهما مثلاً وبشّرناه بوجودِ إسحٰقَ أي بأنْ يوجدَ إسحٰقُ نبياً من الصالحين، ومع ذلك لا يصيرُ نظيرُ قوله ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[1] فإن الداخلينَ مقدِّرونَ خلودَهم وقْتَ الدخول، وإسحٰقُ لم يكن مقدِّراً نبوةَ نفسِه وصلاحَها حينما يوجدُ، ومَنْ فسَّر الذبيحَ بإسحٰق جعلَ المقصودَ من البشارة نبوَّتَه، وفي ذكر الصلاحِ بعدَ النبوة تعظيمٌ لشأنه وإيماءٌ بأنه الغايةُ لها لتضمنها معنى الكمالِ والتكميلِ بالفعل على الإطلاق.

وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾

(١١٣) ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيمَ في أولاده. ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بأن أخرجْنا من صُلْبه أنبياءَ بني إسرائيلَ وغيرَهُم كأيوبَ وشعيبٍ، أو أفضْنا عليهما بركاتِ الدينِ والدنيا، وقرىء وبركْنا. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله أو إلى نفسِه بالإيمان والطاعة. ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفرِ والمعاصي. ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ ظلمُه، وفي ذلك تنبيهٌ على أن النسبَ لا أثرَ له في الهدى والضلال وأنَّ الظلمَ في أعقابِها لا يعودُ عليهما بنقيصَةٍ وعيبٍ.

(١١٤) ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أنعمنا عليهما بالنبوةِ وغيرِها من المنافع الدينية والدنيويةِ.

(١١٥) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من تغلُّب فرعونَ أو الغرقِ.

(١١٦) ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ ثم الضميرُ لهما مع القوم. ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ على فرعونَ وقومِه.

(١١٧) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ البليغَ في بيانِه وهو التوراةُ.

(١١٨) ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الطريقَ الموصِلَ إلى الحقِّ والصواب.

(١١٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

(١٢٠) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

(١٢١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٢٢) ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق مثلُ ذلك.

(١٢٣) ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياسُ بنُ ياسينَ سِبْطُ هٰرونَ أخي موسى بُعِثَ بعدَه. وقيل إدريسُ لأنه قرىء إدريسُ وإدراسُ مكانه، وفي حرف أبيّ رضي الله عنه وإنَّ إيليسَ. وقرأ ابنُ ذكوانَ مع خلافٍ عنه بحذفِ همزةِ الياسَ.

---

(١) الزمر: «٧٢».

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ
نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَ الله.

(١٢٥) ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتعبدونه أو أتطلُبون الخيرَ منه، وهو اسمُ صنمٍ كان لأهل بَكَّ من الشامِ وهو البلدُ الذي يُقَالُ له الآنَ بعلبكَّ. وقيل البعلُ الربُّ بلغةِ اليمنِ، والمعنى أتدعون بعضَ البعولِ. ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وتتركون عبادتَه، وقد أشار فيه إلى المقتضي للإنكار المعني بالهمزة ثم صرَّح به بقوله:

(١٢٦) ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب وحفص بالنصبِ على البدلِ[1].

(١٢٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي في العذابِ، وإنما أطلقه اكتفاءً منه بالقرينة، أو لأن الإحضارَ المطلقَ مخصوصٌ بالشرِّ عُرْفاً.

(١٢٨) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ مستثنى من الواوِ لا من المحضَرين لفسادِ المعنى.

(١٢٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

(١٣٠) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ لغة في الياسَ كسيناءَ وسينينَ، وقيل جمعٌ له مرادٌ به هو وأتباعه كالمهلبينَ، لكن فيه أن العَلَمَ إذا جُمِعَ يجبُ تعريفه باللام أو للمنسوبِ إليه بحذفِ ياء النسبِ كالأعجبينَ وهو قليل ملبسٌ، وقرأ نافع وابنُ عامر ويعقوبُ على إضافةِ آلِ إلى ياسينَ لأنهما في المصحفِ مفصولانِ فيكون ياسينُ أبا إلياسَ، وقيل محمدٌ عليه الصلاة والسلام أو القرآنُ أو غيره من كتبِ الله، والكلُّ لا يناسِبُ نظْمَ سائرِ القصصِ ولا قوله:

(١٣١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٣٢) ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذِ الظاهرُ أنَّ الضمير لالياسَ.

(١٣٣) ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(١٣٤) ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾.

(١٣٥) ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

---

(١) والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم لتأكيد إنكار تركهم عبادته تعالى، والإشعار ببطلان آراء آبائهم أيضاً (س٧/ ٢٠٤).

ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ
لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ
مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ
سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾

(١٣٦) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ سبق بيانه.

(١٣٧) ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهلَ مكَّة. ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازِلهم في متاجرِكم إلى الشامِ، فإنَّ سدومَ في طريقهِ. ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلينَ في الصباح.

(١٣٨) ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ أي ومساءً أو نهاراً وليلاً، ولعلَّها وقعتْ قريبَ منزلٍ يمرُّ بها المرتحلُ عنه صباحاً والقاصِدُ لها مساءً. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفليس فيكم عقلٌ تعتبرون به.

(١٣٩) ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقرىء بكسرِ النون.

(١٤٠) ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ هربَ، وأصله الهربُ من السيِّد لكنْ لما كان هربُه من قومِه بغيرِ إذْنِ ربِّه حسُنَ إطلاقُه عليه. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوءِ.

(١٤١) ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارَعَ أهلَه. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فصار من المغلوبينَ بالقُرْعَةِ، وأصله المزلَقُ عن مقامِ الظَّفرِ. روي[١] أنه لما وعدَ قومَه بالعذاب خرجَ من بينِهم قبل أنْ يأمُرَهُ الله، فركب السفينةَ فوقفتْ فقالوا: ها هنا عبدٌ آبِقٌ فاقترعُوا فخرجتِ القرعةُ عليه، فقال أنا الآبِقُ ورَمَى بنفسِه في الماءِ.

(١٤٢) ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ فابتلعه من اللقمةِ. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخلٌ في الملامةِ، أو آتٍ بما يُلامُ عليه أو مليمٌ نفسَه، وقرىء بالفتحِ مبنياً من لِيْمَ كمشيبٍ في مشوبٍ.

(١٤٣) ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين اللهَ كثيراً بالتسبيح مدَّةَ عمرِه، أو في بطنِ الحوتِ وهو قولُه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] وقيل من المصلِّينَ.

(١٤٤) ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حياً وقيلَ ميتاً، وفيه حثٌّ على إكثارِ الذكرِ وتعظيمِ لشأنه، ومَنْ أقبلَ عليه في السراء أخذَ بيده عندَ الضراءِ.

(١٤٥) ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ﴾ بأنْ حملْنا الحوتَ على لفظِه. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالمكانِ الخالي عما يغطيه من شجرٍ أو نبتٍ. روي[٣] أنَّ الحوتَ سار مع السفينةِ رافعاً رأسَه يتنفسُ فيه يونسُ ويسبِّحُ حتى انتهوا إلى البرِّ فلفظَه، واختُلِفَ في مدةِ لُبْثِه فقيل بعضَ يومٍ وقيل ثلاثةَ أيامٍ وقيل سبعةً، وقيل عشرونَ وقيل أربعونَ. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ مما نالَه، قيل صارَ بدنُه كبدنِ الطفلِ حين يولَدُ.

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ١٤٣) بصيغة التمريض.
(٢) الأنبياء: «٨٧».
(٣) ذكر ذلك الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ١٤٥) بصيغة التمريض.

وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ
حِينٖ ﴿١٤٨﴾ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ
شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾

(١٤٦) ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي فوقه مظلَّة عليه. ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ من شجرٍ ينبسطُ على وجْهِ الأرض ولا يقومُ على ساقِهِ، يفعيلٌ من قَطَنَ بالمكان إذا أقامَ به، والأكثرُ على أنها كانتِ الدُّباءُ غطَّتْهُ بأوراقِها عن الذبابِ فإنه لا يقعُ عليه، ويدلُّ عليه أنه قيلَ لرسولِ الله ﷺ: «إنك لتحبُّ القرعَ، قال: «أجلْ هي شجرةُ أخي يونسَ»[1]. وقيل التينُ وقيل الموزُ تغطَّى بورقة واستظلَّ بأغصانِهِ وأفطرَ على ثمارِهِ.

(١٤٧) ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾ هم قومُه الذين هربَ عنهم وهم أهلُ نينوى، والمرادُ به ما سبقَ من إرساله أو إرسالٍ ثانٍ إليهم أو إلى غيرِهم. ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى الناظرِ أي إذا نظرَ إليهم، قال هم مائةُ ألفٍ أو يزيدونَ والمرادُ الوصفُ بالكثرةِ وقرىء بالواوِ.

(١٤٨) ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ فصدَّقوه أو فجدَّدُوا الإيمانَ به بمحضَرِهِ. ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ إلى أجلِهِم المسمَّى، ولعلَّه إنما لم يختِمْ قِصَّته وقصَّةَ لوطٍ بما ختمَ به سائِرَ القصصِ تفرقةً بينَهما وبينَ أربابِ الشرائعِ الكبر وأولي العزمِ من الرسلِ، أو اكتفاءً بالتسليم الشاملِ لكلِّ الرسلِ المذكورينَ في آخرِ السورةِ.

(١٤٩) ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ معطوفٌ على مثلِه، في أول السورةِ أمرَ رسولَه أولاً باستفتاءِ قريشٍ عن وجه إنكارِهم البعثَ، وساقَ الكلامَ في تقريرِهِ جارّاً لما يلائمه من القصصِ، موصولاً بعضُها ببعضٍ، ثم أمرَ باستفتائِهم عن وجْهِ القسْمةِ حيثُ جعلوا للهِ البناتِ ولأنفسِهم البنينَ في قولهم: الملائكةُ بناتُ الله، وهؤلاءِ زادوا على الشركِ ضلالاتٍ أُخَرَ، التجسيمُ وتجويز الفناءِ على اللهِ تعالى، فإنَّ الولادةَ مخصوصةٌ بالأجسامِ الكائنةِ الفاسدةِ، وتفضيلُ أنفسِهم عليه حيثُ جعلوا أوضَعَ الجنسينِ له وأرفعَهما لهم، واستهانتُهم بالملائكةِ حيثُ أنَّثوهم ولذلك كرَّرَ الله تعالى إنكارَ ذلك وإبطالَه في كتابه مراراً، وجعلَه مما تكادُ السمواتَ يتفطَّرْنَ منه وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هدّاً، والإنكارُ ها هنا مقصورٌ على الأخيرَيْنِ لاختصاصِ هذه الطائفةِ بهما، أو لأنَّ فسادَهما مما تدركُه العامةُ بمقتضى طباعِهم حيثُ جعلَ المعادِلَ للاستفهام عن التقسيم.

(١٥٠) ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ وإنما خصَّ عِلْمَ المشاهدة لأنَّ أمثالَ ذلك لا تُعْلَمُ إلا بها، فإنَّ الأنوثةَ ليستْ من لوازمِ ذاتِهم لتمكُّنِ معرفَتِه بالعقلِ الصِّرفِ مع ما فيه من الاستهزاءِ، والإشعارُ بأنهم لِفَرْطِ جهلِهم يبتُّون به كأنهم قد شاهدوا خلْقَهُم.

(١٥١) ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ﴾.

(١٥٢) ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ لعدمِ ما يقتضيهِ وقيامِ ما ينفيه. ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يتديَّنون به، وقرىء وَلَدُ اللهِ أي الملائكةُ ولدُه، فَعَلَ بمعنى مفعولٍ يستوي فيه الواحدُ والجمعُ والمذكَّرُ والمؤنَّثُ.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٤١ رقم ٢٩٨): لم أجده.

أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾

(١٥٣) ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ استفهامُ إنكارٍ واستبعاد، والاصطفاءُ أخذُ صفوةِ الشيءِ. وعن نافع كسرُ الهمزةِ على حذفِ حرفِ الاستفهام لدلالة أمْ بعدَها عليها، أو على الإثباتِ بإضمارِ القولِ أي لكاذبونَ في قولهم اصْطَفَى، أو إبدالُه من وَلَدَ اللهُ.

(١٥٤) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما لا يرتضيه عقلٌ.

(١٥٥) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه منزَّهٌ عن ذلك.

(١٥٦) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ حجةٌ واضحةٌ نزلتْ عليكم من السماءِ بأنَّ الملائكةَ بناتُه.

(١٥٧) ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي أُنْزِلَ عليكم. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعْواكُم.

(١٥٨) ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ يعني الملائكةَ ذَكَرَهُم باسمِ جِنْسِهم وضْعاً منهم أنْ يبلُغوا هذه المرتبةَ، وقيلَ قالوا إنَّ اللهَ تعالى صاهرَ الجنَّ فخرجتِ الملائكةُ، وقيل قالوا اللهُ والشياطينُ إخوانٌ[1]. ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ إنَّ الكفرة أو الإنسَ والجنَّ إنْ فسِّرتْ بغير الملائكةِ ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في العذابِ.

(١٥٩) ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولدِ والنسبِ.

(١٦٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ من المحضَرين منقطعٌ، أو متصلٌ إنْ فسِّر الضميرُ بما يعمُّهم وما بينَهما اعتراضٌ، أو مِنْ يصفون.

(١٦١) ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عودٌ إلى خطابِهم.

(١٦٢) ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ على الله. ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ مفسدينَ الناسَ بالإغواءِ.

(١٦٣) ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إلاَّ من سبقَ في علمِه أنه من أهلِ النار، ويصلاها لا محالةَ، وأنتم ضميرٌ لهم، ولآلهتهم غلبَ فيه المخاطبُ على الغائبِ، ويجوزُ أنْ يكونَ وما تعبدون لما فيه من معنى المقارنةِ ساداً مسدَّ الخبر أي إنكم وآلهتَكم قرناءُ لا تزالون تعبدونَها، ما أنتم على ما تعبدُونه بفاتنين باعثينَ على طريق الفتنةِ إلا ضالاً مستوجِباً للنارِ مثلَكم، وقرىء صالُ بالضمِّ على أنه جمعٌ محمولٌ على معنى مَنْ ساقطٌ وواوِه لالتقاءِ الساكنينِ، أو تخفيفٌ صائلٌ على القلبِ كشاكٍ في شائكٍ، أو المحذوفُ منه كالمنسي كما في قولهم: ما باليتُ به بالةً، فإن أصلَها باليةٌ كعافيةٍ.

(١٦٤) ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ حكايةُ اعترافِ الملائكة بالعبودية للردِّ على عَبَدَتِهم والمعنى:

---

(١) وفي جملة «وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً» التفات إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكىٰ جنايتهم لآخرين (س/٧/ ٢٠٨).

وما منَّا أحدٌ إلا له مقامٌ معلومٌ في المعرفة والعبادة والانتهاءِ إلى أمر الله في تدبير العالَم، ويُحتَمَلُ أنْ يكونَ هذا وما قبلَه من قوله سبحان الله مِنْ كلامِهم ليتصلَ بقوله ﴿ولقد علمت الجنة﴾[1] كأنه قال ولقد علمتِ الملائكةُ أنَّ المشركينَ معذَّبون بذلك وقالوا سبحان الله تنزيهاً له عنه، ثم استثْنوا المخلصينَ تبرئةً لهم منه، ثم خاطبوا المشركينَ بأنَّ الافتتانَ بذلك للشقاوة المقدَّرةِ، ثم اعترفوا بالعبوديةِ وتفاوتِ مراتبِهم فيه لا يتجاوزُونها فحذفَ الموصوفَ وأُقيْمَتِ الصفةُ مقامَهُ.

وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾

(١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ في أداء الطاعة ومنازلِ الخدمةِ.

(١٦٦) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزِّهونَ اللهَ عما لا يليقُ به، ولعلَّ الأولَ إشارةٌ إلى درجاتهم في الطاعةِ، وهذا في المعارفِ، وما في إنَّ واللامَ وتوسيطَ الفصلِ من التأكيد والاختصاصِ لأنهم المواظبونَ على ذلك دائماً من غير فترةٍ دونَ غيرِهم. وقيل هو مِنْ كلام النبيِّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنينَ والمعنى: وما مِنَّا إلا له مقامٌ معلوم في الجنة أو بينَ يدي اللهِ يومَ القيامة، وإنا لنحنُ الصافُّون له في الصلاة والمنزِّهون له عن السوءِ.

(١٦٧) ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ أي مشركو قريشٍ.

(١٦٨) ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كتاباً من الكتب التي نزلتْ عليهم.

(١٦٩) ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصْنا العبادةَ له ولم تخالفْ مثلَهم.

(١٧٠) ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي لما جاءهم الذِّكرُ الذي هو أشرفُ الأذكارِ والمهيمنُ عليها. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ كفرِهم.

(١٧١) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وعدْنا لهم النَّصرَ والغلبةَ وهو قوله:

(١٧٢) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾.

(١٧٣) ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وهو باعتبارِ الغالبِ والمقضى بالذاتِ، وإنما سمَّاه كلمةً وهي كلماتٌ لانتظامهم في معنى واحدٍ.

(١٧٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِضْ عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو الموعدُ لنصرِك عليهم وهو يومُ بدْرٍ، وقيل يومُ الفتح.

(١٧٥) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما ينالُهم حينئذ، والمرادُ بالأمر الدلالةُ على أن ذلك كائنٌ قريبٌ كأنه

---

(١) الصافات: «١٠٨».

قدامَهُ. ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما قَضَيْنَا لك من التأييد والنُّصرةِ والثوابِ في الآخرة، وسوفَ للوعيدِ لا للتبعيدِ.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

(١٧٦) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ روي[1] أنه لما نزلَ فسوفَ يبصرونَ قالوا متى هذا فنزلتْ.

(١٧٧) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ فإذا نزلَ العذابُ بفنائِهم، شبَّههُ بجيشٍ هَجَمَهُم فأناخ بفنائِهم بغتةً، وقيل الرسولُ. وقرىء نزل على إسنادِه إلى الجارِّ والمجرور ونزلَ أي العذابُ. ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ فبئسَ صباحُ المنذَرِينَ صباحُهم، واللامُ للجنسِ والصباحُ مستعارٌ من صباح الجيشِ المبيَّتِ لوقتِ نزولِ العذابِ، ولما كثُرَ فيهم الهجومُ والغارةُ في الصباحِ سمُّوا الغارةَ صباحاً وإنْ وقعتْ في وقتٍ آخرَ.

(١٧٨) ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

(١٧٩) ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ إلى تأكيدٍ، وإطلاقٌ بعدَ تقييدٍ للإشعار بأنه يبصرُ وأنَّهم يبصرونَ ما لا يحيطُ به الذِّكْرُ من أصنافِ المسرةِ وأنواعِ المساءةِ، أو الأولُ لعذابِ الدنيا والثاني لعذابِ الآخرة.

(١٨٠) ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما قاله المشركونَ فيه على ما حُكِيَ في السورة، وإضافةُ الربِّ إلى العزَّةِ لاختصاصِها به إذ لا عزَّةَ إلا له أو لمن أعزَّه، وقد أدرجَ فيه جملةَ صفاتِه السلبيةِ والثبوتيةِ مع الإشعارِ بالتوحيد.

(١٨١) ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ تعميمٌ للرسل بالتسليم بعد تخصيصِ بعضِهم.

(١٨٢) ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما أفاضَ عليهم وعلى منِ اتَّبعَهم من النعم وحسنِ العاقبةِ ولذلك أخَّره عن التسليم، والمرادُ تعليمُ المؤمنينَ كيفَ يحمدُونه ويسلِّمون على رسلِه. وعن عليٍّ[2] رضي الله عنه: مَنْ أحبَّ أنْ يكتالَ بالمكيالِ الأوْفَى من الأجْرِ يومَ القيامة فليكنْ آخرَ كلامِه من مجلسِه: سبحان ربِّكَ إلى آخرِ السورةِ. وعن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأَ والصافاتِ أُعْطِيَ من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بعددِ كلِّ جنيٍّ وشيطانٍ، وتباعدتْ عنه مَرَدَةُ الجنِّ والشياطينُ، وبُرِّىءَ من الشركِ وشهدَ له حافِظاهُ يومَ القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلينَ»[3].

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ١٥٦).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٤١ رقم ٣٠٠): «ـ أخرجه ـ عبدالرزاق ـ في المصنف (٢/ ٢٣٦ رقم ٣١٩٦) ـ والثعلبي من رواية الأصبغ بن نباته ـ الحنظلي التميمي لين الحديث، ليس بشيء (الجرح والتعديل: (٢/ ٣١٩ ـ ٣٢٠)) ـ عن علي موقوفاً. ورواه ابن أبي حاتم من رواية الشعبي عن النبي ﷺ مرسلاً» هـ.

(٣) أخرجه الثعلبي، وابن مردويه والواحدي من طرق عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو حديث موضوع تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران. وانظر «الكافي الشافِ» (ص١٤١ رقم ٣٠١).

سورة صٓ

ترتيبها ٣٨ — آياتها ٨٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ
مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

سورة صٓ مكيةٌ[1]، وآيها ستٌّ أو ثمانٍ وثمانونَ آيةً

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(١) ﴿صٓ﴾ وقرئ بالكسرِ لالتقاء الساكنين، وقيل إنه أمْرٌ من المصاداةِ بمعنى المعارضةِ، ومنه الصَّدى فإنه يعارِضُ الصوتَ الأولَ، أي عارِضِ القرآنَ بعملِكَ، وبالفتحِ[2] لذلك أو لحذفِ حرفِ القسمِ وإيصالِ فعله إليه أو إضمارِه، والفتحُ في موضعِ الجرِّ فإنَّها غيرُ مصروفةٍ لأنها عَلَمُ السورةِ، وبالجرِّ[2] والتنوينِ على تأويل الكتابِ. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ الواو للقسمِ إنْ جُعِلَ ص اسماً للحرفِ، أو مذكورٌ للتحدِّي، أو للرمزِ بكلامٍ مثل صدَقَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام، أو للسورةِ خبرُ المحذوفِ أو لفظُ الأمرِ. وللعطفِ[3] إنْ جُعِلَ مُقْسَماً به كقولهم: اللهِ لأفعلنَّ ـ بالجرِّ ـ والجوابُ محذوفٌ دلَّ عليه ما في ص من الدلالةِ على التحدي أو الأمرِ بالمعادلةِ ـ أي إنه لمعجزٌ أو لواجبُ العملِ به ـ أو إنَّ محمداً لصادقٌ أو قوله:

(٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ما كفرَ به مَنْ كفرَ لخللٍ وجدَه فيه بل الذين كفروا به. ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ أي استكبارٍ عن الحقِّ. ﴿وَشِقَاقٍ﴾ خلافٍ لله ولرسوله ولذلك كفروا به، وعلى الأوَّلَيْنِ الإضرابُ أيضاً من

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ١٤٢).

(٢) قوله (وبالفتح) أي وقرئ بالفتح، وكذا قوله (وبالجر).

(٣) قوله وللعطف معطوف على قوله (للقسم) أي والواو للعطف.

الجوابِ المقدَّر، ولكنْ مِنْ حيثُ إشعارُه بذلك، والمرادُ بالذِّكْرِ العِظَةُ أوِ الشرفُ والشهرةُ، أو ذِكْرُ ما يحتاج إليه في الدينِ من العقائدِ والشرائعِ والمواعيدِ، والتنكيرُ في عزَّةٍ وشقاق للدلالة على شدَّتِهما. وقُرِىءَ في غِرَّةٍ أي غفلةٍ عما يجبُ عليهم النظرُ فيه.

(٣) ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وعيدٌ لهم على كفرِهم به استكباراً وشقاقاً. ﴿فَنَادَوْا﴾ استغاثةً أو توبةً أو استغفاراً. ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليسَ الحينُ حينَ مناصٍ. ولا هي المشبَّهةُ بليسَ زِيْدَتْ عليها تاءُ التأنيثِ للتأكيدِ كما زيدتْ على رُبَّ وثَمَّ خُصَّتْ بلزوم الأحيانِ وحَذْفِ أحدِ المعمولينِ، وقيل هي النافيةُ للجنسِ أي ولا حينَ مناصٍ لهم وقيل للفعلِ، والنصبُ بإضمارِهِ أي ولا أرى حينَ مناصٍ، وقرىء بالرفعِ على أنه اسمُ لا أو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ أي ليسَ حين مناصٍ حاصلاً لهم أو لا حينَ مناصٍ كائنٌ لهم، وبالكسْرِ كقوله:

طَلَبُوا صُلْحَنَا وَلاَتَ أَوَانِ فَأَجَبْنَا أَنْ لاَتَ حِينَ بَقَاءِ[1]

إما لأنَّ لاتَ تجرُّ الأحيانَ كما أنَّ لولا تجرُّ الضمائِرَ في قوله: لَوْلاَكَ هذا العَامُ لَمْ أَحْجُجِ، أو لأنَّ أوانَ شُبِّهَ بإذْ لأنه مقطوعٌ عن الإضافة إذ أصلُه أوانُ صُلْحٍ، ثم حُمِلَ عليه مناصُ تنزيلاً لما أُضِيْفَ إليه الظرفُ منزلته لما بينَهما من الاتحادِ إذ أصلُه يَحِنْ مناصُهم، ثم بنى الحينَ لإضافته إلى غيرِ متمكِّنٍ. ولاتِ بالكسرِ كجَيْرِ، وتقفُ الكوفيةُ عليها بالهاءِ كالأسماءِ، والبصريةُ بالتاء كالأفعالِ. وقيل إنَّ التاءَ مزيدةٌ على حينَ لاتصالِها به في الإمام[2] ولا يُرَدُّ عليه أنَّ خطَّ المصحفِ خارجٌ عن القياسِ إذ مثلُه لم يُعْهَدْ فيه، والأصلُ اعتبارُه إلا فيما خصَّه الدليلُ ولقوله:

العَاطِفُونَ تَحِينَ لاَ مِنْ عَاطِفٍ وَالمُطْعِمُونَ زَمَانَ مَا مِنْ مُطْعِمِ

والمناصُ المنجا من ناصَهُ بنوصُه إذا فاتَهُ.

(٤) ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ بشرٌ مثلُهم أو أميٌّ من عِدادِهم. ﴿وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وضعَ فيه الظاهرَ موضِعَ الضميرِ غضَباً عليهم وذمّاً لهم، وإشعاراً بأنَّ كُفرَهم جسَّرهم على هذا القولِ. ﴿هَـٰذَا سَـٰحِرٌ﴾ فيمَا يظهره معجزةً. ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يقوله على اللهِ تعالى.

(٥) ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ بأنْ جعلَ الألوهيةَ التي كانتْ لهم لواحدٍ. ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ بليغٌ في العُجْب فإنه خلافُ ما أطبقَ عليه آباؤُنا، وما نشاهدُه من أنَّ الواحدَ لا يفي عِلْمُهُ وقدرتُه بالأشياءِ الكثيرةِ. وقُرِىءَ مشدَّداً وهو أبلغُ ككرَّام وكرامٍ. وروي أنه لما أَسْلَمَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه شقَّ ذلك على قريشٍ، فأتوا أبا طالبٍ وقالوا أنت شيخُنا وكبيرُنا، وقد علمْتَ ما فعلَ هؤلاءِ السفهاءُ وإنا جئناك لتقضيَ بيننا وبينَ ابنِ أخيك، فاستحضرَ رسولَ اللهِ ﷺ وقال: هؤلاءِ قومُك يسألونَك السواءَ فلا تملْ كلَّ الميلِ عليهم، فقال عليه الصلاةُ والسلام: «ماذا يسألونَنِي»، فقالوا: ارفُضْنا وارفضْ ذِكْرَ آلهتِنا وندعُكَ وإلٰهَكَ، فقال: «أرأيتُم إن أعطيتُكم ما سألتم، أمعطيَّ أنتم كلمةً واحدةً تملكون بها العربَ

---

(١) من الخفيف.

(٢) قوله في الإمام أي في المصحف الإمام وهو المصحف العثماني.

وتدينُ لكم بها العجمُ؟» فقالوا: نعَمْ وعَشْراً، فقال: «قولوا لا إلَهَ إلا اللهُ»، فقاموا وقالوا ذلك[١].

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧﴾

(٦) ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ وانطلقَ أشرافُ قريش من مجلسِ أبي طالبٍ بعدَما بَكَتَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ. ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ قائلينَ بعضُهم لبعضٍ امشُوا. ﴿وَٱصۡبِرُواْ﴾ واثْبُتُوا. ﴿عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ على عبادتِها فلا ينفعُكم مكالمتُه، وأنْ هي المفسِّرة لأنَّ الانطلاقَ عن مجلسِ التقاولِ يشْعِرُ بالقولِ. وقيل المرادُ بالانطلاقِ الاندفاعُ في القولِ، وامشوا من مشتِ المرأةُ إذا كثرتْ أولادُها، ومنه الماشيةُ أي اجتمعوا. وقرىء بغيرِ أنْ، وقرىء يمشونَ أنِ اصْبِروا. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ إن هذا الأمرَ لشيءٌ من ريبِ الزمان يُرادُ بنا فلا مردَّ له، أو إن هذا الذي يدَّعيه من التوحيد أو يقصدُه من الرئاسة والترفُّعِ على العرب والعجمِ لشيء يُتَمَنَّى أو يريدُه كلُّ أحدٍ، أو إنَّ دينكم لشيء يُطْلَبُ ليؤْخَذَ منكم.

(٧) ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ بالذي يقوله. ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في الملة التي أدركْنا عليها آباءَنا، أو في ملَّة عيسى عليه الصلاةُ والسلام التي هي آخر المِلَلِ فإنَّ النصارى يثلِّثون. ويجوز أنْ يكون حالاً من هذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٦٥ رقم ٣٢٣٢) والنسائي في التفسير (رقم: ٤٥٦) وقال الترمذي: حديث حسن ورجاله ـ سوى يحيى بن عمارة ـ ثقات، شيخ المصنف هو التيمي، يحيى هو ابن سعيد القطان، ويحيى بن عمارة هذا لا يدري ما حاله، وقد ذكره ابن حبان في الثقات (٧/ ٦٠٥) وقد تفرد عنه الأعمش، وسماه أبو أسامة: عباد ـ غير منسوب ـ، ووقع في رواية أحمد (٢/ ٣٦٢): عباد بن جعفر، وقال عنه الحافظ في «التقريب» (٢/ ٣٥٤ رقم ١٣٩) «مقبول». وقيل في اسمه (يحيى بن عباد) كذا وقع في بعض الروايات.
وقد أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧)، والطبري في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/ ١٢٥) وأبو يعلى (٤/ ٤٥٥ رقم ٢٥٦/ ٢٥٨٣) وابن حبان في الموارد (ص٤٣٥ رقم ١٧٥٧). والحاكم (٢/ ٤٣٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٨٨) والواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٦) كلهم من حديث الأعمش عن يحيى بن عمارة عن سعيد ـ به ـ.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وكذا قال أبو الأشبال في تعليقه على المسند (٣/ ٣١٤ رقم ٢٠٠٨). قلت: في إسناده يحيى بن عمارة هذا.
وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١٤٢) نسبته لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس ـ به ـ. وأخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢) والطبري في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/ ١٢٥) والنسائي في التفسير (رقم: ٤٥٧) كلهم من حديث الأعمش بن عباد، عن سعيد ـ به ـ.
وسماه في رواية أحمد: عباد بن جعفر، وفيها التصريح بسماع الأعمش، وقد ذكر ابن حبان، عباد بن جعفر في الثقات، ولكنه غير هذا، فالذي ذكره يروى عن أشعب بن عبدالملك.
وروى عنه عثمان بن أبي شيبة فهو متأخر عن هذا.
وأخرجه ابن إسحاق ـ كما في السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٧ ـ ٦٨) ـ قال: حدثني العباس بن عبدالله بن معبد بن عباس، عن بعض أهله، عن ابن عباس ـ فذكره بنحوه ـ، وليس فيه ذكر الآيات.
ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٢) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال: العباس ثقة. قلت: وإسناده حسن، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من العباس. والخلاصة أن الحديث حسن.

أي ما سمعنا من أهلِ الكتاب ولا الكهانِ بالتوحيد كائناً في الملة المترقَّبةِ. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ كذبٌ اختلقَهُ.

أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾

(٨) ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ إنكارٌ لاختصاصِه بالوحي وهو مثلُهم أو أدْوَنُ منهم في الشرفِ والرئاسة كقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] وأمثالُ ذلك دليلٌ على أنَّ مَبْدَأَ تكذيبهم لم يكنْ إلا الحسد وقصورُ النظرِ على الحطامِ الدنيويِّ. ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ من القرآن أو الوحي لميلهم إلى التقليد وإعراضِهم عن الدليل، وليس في عقيدتهم ما يبتُّون به من قولهم هذا ساحرٌ كذابٌ إن هذا إلا اختلاقٌ. ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ بل لم يذوقُوا عذابي بعدُ فإذا ذاقوه زالَ شكُّهم، والمعنى أنهم لا يصدِّقون به حتى يمسَّهم العذابُ فيلْجئَهم إلى تصديقِه.

(٩) ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ بل أعِندَهم خزائنُ رحمته، وفي تصرُّفهم حتى يصيبوا بها من شاؤوا ويصْرِفوها عمَّن شاؤوا، فيتخيَّرُ للنبوة بعضَ صناديدِهم، والمعنى أن النبوَّةَ عطيَّةٌ من الله يتفضَّل بها على مَنْ يشاءُ من عباده لا مانعَ له فإنه العزيزُ أي الغالِبُ الذي لا يُغْلَبُ، الوهابُ الذي له أنْ يَهَبَ كلَّ ما يشاء لِمَنْ يشاء، ثم رشَّحَ ذلك فقال:

(١٠) ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ﴾ كأنه لما أنكر عليهم التصرُّفَ في نبوَّته بأنْ ليس عندَهم خزائنُ رحمته التي لا نهايةَ لها، أردفَ ذلك بأنه ليس لهم مدخلٌ في أمرِ هذا العالَمِ الجسمانيِّ الذي هو جزءٌ يسيرٌ من خزائنه فَمِنْ أين لهم أنْ يتصرَّفوا فيها. ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جوابُ شرطٍ محذوف أي إنْ كان لهم ذلك فليصعدوا في المعارجِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى العرش حتى يَسْتَوُوا عليه ويدبِّروا أمرَ العالَمِ، فَيُنْزِلُوا الوحيَ إلى مَنْ يستصوبونَ. وهو غايةُ التهكُّمِ بهم، والسببُ في الأصلِ هو الوصلةُ، وقيل المرادُ بالأسبابِ السمواتُ لأنها أسباب الحوادثِ السُّفليةِ.

(١١) ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي هم جندٌ ما من الكفار المتحزِّبينَ على الرسل، مهزومٌ مكسور عما قريب فَمِنْ أين لهم التدابيرُ الإلهية والتصرُّفِ في الأمور الربانية، أو فلا تكترثْ بما يقولون، وما مزيدةٌ للتقليل كقولك: أكلتُ شيئاً ما، وقيل للتعظيم على الهزءِ وهو لا يلائمُ ما بعدَه، وهنالك إشارةٌ إلى حيثُ وضعوا فيه أنفسَهم من الانتدابِ لمثلِ هذا القولِ.

(١٢) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ ذو الملْكِ الثابت بالأوتاد كقوله:

وَلَقَدْ غَنوا فِيْهَا بِأَنْعَمِ عِيْشَةٍ		فِي ظِلِّ ملكٍ ثَابِتِ الأَوْتَادِ[2]

---

(١) الزخرف: «٣١».
(٢) من الكامل.

مأخوذٌ من ثبات البيتِ المطنبِ بأوتادِه، أو ذو الجموعِ الكثيرة سُمُّوا بذلك لأن بعضَهم يشدُّ بعضاً كالوتد يشدُّ البناءَ. وقيل نَصَبَ أربعَ سوارٍ وكان يمد يدي المعذَّبِ ورجليهِ إليها ويضربُ عليها أوتاداً ويتركُه حتى يموتَ.

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا
يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ
مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

(١٣) ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ﴾ وأصحابُ الغيضةِ وهم قومُ شعيبٍ، وقرأ ابنُ كثير ونافع وابنُ عامر لَيْكةِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ يعني المتحزبينَ على الرسل الذين جعلَ الجندَ المهزومَ منهم.

(١٤) ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ بيانٌ لما أُسْنِدَ إليهم من التكذيب على الإبهام مشتمِلٌ على أنواعٍ من التأكيد ليكونَ تسجيلاً على استحقاقهم للعذاب، ولذلك رتَّبَ عليه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وهو إما مقابلةُ الجمعِ بالجمعِ، أو جَعْلُ تكذيبِ الواحدِ منهم تكذيبُ جميعِهم.

(١٥) ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وما ينتظرُ قومُك أو الأحزابُ فإنهم كالحضور لاستحضَارهم بالذِّكْرِ، أو حضورُهم في علمِ الله تعالى ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخةُ الأولى. ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ من توقُّفِ مقدارِ فُوَاقَ، وهو ما بين الحلَبَتَيْنِ، أو رجوعٌ وترادٌ فإنه فيه يرجعُ اللبنُ إلى الضِّرعِ، وقرأ حمزة والكسائيُّ بالضمِّ وهما لغتانِ.

(١٦) ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قِسْطَنا من العذاب الذي توعِدُنا به، أو الجنةَ التي تعدُّها للمؤمنين وهو من قطَّه إذا قطعهُ، وقيل صحيفةِ الجائزةِ قِطٌّ لأنها قطعةٌ من القرطاسِ، وقد فُسِّر بها أي: عجِّلْ لنا صحيفةَ أعمالِنا للنظرِ فيها. ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ استعجَلُوا ذلك استهزاءً.

(١٧) ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ واذكر لهم قِصَّتَه تعظيماً للمعصية في أعينهم، فإنه مع علوِّ شأنه واختصاصِه بعظائمِ النعمِ والمكرُماتِ لما أتى صغيرةً نزلَ عن منزلته ووبَّخه الملائكةُ بالتمثيلِ والتعريضِ حتى تفطَّنَ فاستغفرَ ربه وأنابَ فما الظَّنُّ بالكفرةِ وأهلِ الطغيان، أو تذكَّرْ قِصَّتَهُ وصُنْ نفسَك أنْ تزلَّ فيلقاكَ ما لقيهُ من المعاتبة على إهمال عنانِ نفسِه أدنى إهمالٍ. ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا القوةِ يُقَالُ فلان أيدٍ وذو أيدٍ وآدٍ وأيادٍ بمعنى. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاعٌ إلى مرضاةِ الله تعالى، وهو تعليلٌ للأيدِ ودليلٌ على أنَّ المرادَ به القوةُ في الدين، وكان يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً ويقومُ نصفَ الليل.

(١٨) ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ قد مرَّ تفسيرهُ، ويسبِّحْنَ حالٌ وُضِعَ موضِعَ مسبحات لاستحضار الحال الماضيةِ والدلالةِ على تجدُّدِ التسبيحِ حالاً بعد حال[1]. ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ ووقتِ الإشراقِ وهو

---

(١) قوله «سخرنا الجبال معه...» ولم يقل له لأن تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلي فيها إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كتسخير الريح وغيرها لسليمان ـ عليه السلام ـ بل بطريق التبعية له ـ عليه =

حينَ تشرقُ الشمسُ أي تضيءُ ويصفو شعاعُها وهو وقتُ الضحى، وأما شروقُها فطلوعُها يقال شرقتِ الشمسُ ولما تشرقْ. وعن أمِّ هانيء رضي الله تعالى عنها أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاةَ الضحى وقال «هذه صلاةُ الإشراقِ»[١]. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما عرفْتُ صلاةَ الضحى إلا بهذه الآيةِ[٢].

﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠ ۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١﴾

(١٩) ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ إليه من كل جانب، وإنما لم يراعِ المطابقةَ بين الحالين لأنَّ الحشرَ جملةً أدلُّ على القدرةِ منه مدرجاً، وقرىء والطيرُ محشورةٌ بالمبتدأِ والخبرِ. ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ كلُّ واحد من الجبالِ والطيرِ لأجلِ تسبيحه رجّاعٌ إلى التسبيحِ، والفرقُ بينه وبينَ ما قبلَه أنه يدلُّ على الموافقةِ في التسبيحِ وهذا على المداومةِ عليها، أو كلٌّ منهما ومِنْ داودَ عليه الصلاة والسلام مرجِّعٌ لله التسبيحَ.

(٢٠) ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ وقوّيْناه بالهيبة والنصرةِ وكثرةِ الجنودِ، وقرىء بالتشديد للمبالغةِ. قيل: إنَّ رجلاً ادعى بقرةً على آخرَ وعجزَ عن البيانِ، فأوحى إليه أنِ اقتلِ المدَّعىٰ عليه فأعْلَمَهُ فقال: صدقْتَ إني قتلتُ أباه وأخذتُ البقرةَ فعظمتْ بذلك هيبتُه. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ النبوةَ أو كمالَ العلم وإتقانَ العمل. ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ وفصلَ الخصامِ بتمييز الحقِّ عن الباطل، أو الكلامَ المخلصَ الذي ينبه المخاطبُ على المقصودِ من غير التباسٍ يراعي فيه مظانَّ الفصلِ والوصلِ والعطفِ والاستئنافِ والإضمارِ والإظهارِ والحذفِ والتكرارِ ونحوِها، وإنما سُمِّيَ به أما بعدُ لأنه يفصلُ المقصودَ عما سبقَ مقدمةً له من الحمدِ والصلاةِ، وقيل هو الخطابُ القصْدُ الذي ليس فيه اختصارٌ مخلٌّ ولا إشباعٌ مملٌّ كما جاء في وصفِ كلام الرسولِ عليه الصلاة والسلام فصلٌ لا نزْرٌ ولا هذْرٌ.

(٢١) ﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ استفهامٌ معناه التعجيبُ والتشويقُ إلى استماعه، والخصْمُ في الأصلِ مصدرٌ ولذلك أُطْلِقَ على الجمْعِ. ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ إذ تصعدوا سورَ الغرفةِ، تفعَّلٌ من السورِ كتسنُّمٍ من السَّنامِ، وإذ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أي نبأ تحاكِم الخصْمِ إذ تسوَّروا، أو بالنبأ على أنَّ المرادَ به

= الصلاة والسلام ـ والاقتداء به في عبادة الله تعالى (س٧/ ٢١٩).

(١، ٢) أخرج الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٧/ ٩٩).
عن ابن عباس قال: كنت أمر بهذه الآية ـ يُسبِحنَ بالعشي والإشراق ـ فما أدري ما هي العشي والإشراق حتى حدثتني أم هانيء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء بحفنة كأني أنظر إلى أثر العجين فيها فتوضأ ثم قام فصلى الضحى فقال: يا أم هانيء هي صلاة الإشراق. وقال الهيثمي: فيه أبو بكر الهذلي وهو ضعيف وأخرج الحاكم (٤/ ٥٣) من وجه آخر عن عبدالله بن الحارث عن ابن عباس «كان يصلي الضحى حتى أدخلناه على أم هانيء فقلت لها: أخبري ابن عباس. قالت: دخل رسول الله ﷺ في بيتي فصلى صلاة الضحى ثمان ركعات. قال فخرج ابن عباس وهو يقول: هذه صلاة الإشراق» وسكت عليه الحاكم والذهبي. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٤٢ رقم ٣٠٤) «هذا موقوف وهو أصح».

الواقعُ في عهدِ داودَ عليه الصلاة والسلام، وأن إسنادَ أتى إليه على حذفِ مضافٍ أي قصةَ نبأِ الخصمِ لما فيه من معنَى الفعلِ لا بأتَى لأنَّ إتيانَه الرسولَ عليه الصلاة والسلام لم يكنْ حينئذ وإذْ الثانيةُ في:

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾

(٢٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ بدلٌ من الأولى أو ظرفٌ لتسوروا. ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ نزلُوا عليه من فوق في يومِ الاحتجابِ والحرسُ على الباب لا يتركونَ مَنْ يدخلُ عليه، فإنه عليه الصلاة والسلام كان جزَّأَ زمانَه: يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للوعْظِ ويوماً للاشتغالِ بخاصَّته، فتسوَّر عليه ملائكةٌ على صورة الإنسان في يوم الخلوةِ. ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ نحن فوجانِ متخاصِمان على تسميةِ مصابِ الخصمِ خصْماً. ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهو على الفرضِ وقصْدِ التعريضِ إن كانوا ملائكةً وهو المشهورُ. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تُجز في الحكومة، وقرىء ولا تَشْطُطْ أي ولا تبعدْ عن الحقِّ ولا تشططْ ولا تُشاطَّ، والكلُّ من معنى الشططِ وهو من مجاوزةِ الحدِّ. ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي إلى وسَطِه وهو العدلُ.

(٢٣) ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ بالدينِ أو بالصُّحبةِ. ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي الأُنْثى من الضأنِ، وقد يكنَّى بها عن المرأةِ، والكنايةُ والتمثيلُ فيما يُسَاقُ للتعريض أبلغُ في المقصودِ، وقرىء تَسعٌ وتَسْعُونَ بفتح التاء ونِعْجةً بكسرِ النونِ، وقرأ حفص بفتح ياءِ ليَ نعجةٌ. ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ ملِّكْنِيهَا وحقيقتُه اجعلْني أكفلُها كما أكفلُ ما تحتَ يدي، وقيل اجعلْها كِفْلي أي نصيبي. ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ وغَلَبني في مخاطبتِه إيايَ محاجَّةً بأنْ جاء بحجاج لم أقدرْ على ردِّه، أو في مغالبتِه إيايَ في الخطبةِ يُقَالُ: خطبتُ المرأةَ وخَطَبَها هو فخاطبني خطاباً حيثُ زوَّجها دوني. وقرىء وعازَّني أي غالبني، وعَزَني على تخفيفٍ غريب.

(٢٤) ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ جوابُ قسمٍ محذوف قصدَ به المبالغةَ في إنكار فعلِ خليطِه وتهجينِ طمعِه ولعلَّه قال ذلك بعدَ اعترافِه، أو على تقدير صدقِ المدَّعي، والسؤالُ مصدرٌ مضاف إلى مفعوله، وتعديتُه إلى مفعولٍ آخرَ بإلى لتضمُّنه معنى الإضافةِ. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشركاءِ الذين خلطُوا أموالَهم جمعُ خليطٍ ﴿لَيَبْغِى﴾ ليتعدي. ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقرىء بفتح الياءِ على تقدير النونِ الخفيفةِ وحذفِها كقوله: اضْرِبْ عَنْكَ الهُمُوم طَارِقَهَا، وبحذفِ الياء اكتفاءً بالكسرةِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وهمْ قليلٌ، وما مزيدةٌ للإبهام والتعجُّبِ من قلَّتهم. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ابتليناه بالذَّنْبِ أو امتحناه بتلكَ الحكومةِ هل يتنبَّهُ بها. ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لذنبه. ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجداً على تسميةِ السجودِ ركوعاً لأنه مبدؤُه، أو خرَّ للسجود راكعاً أي مصلياً كأنه أحرمَ بركعتي

الاستغفارِ. ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجعَ إلى الله بالتوبة، وأقصَى ما في هذه القضيةِ الإشعارُ بأنه عليه الصلاةُ والسلام ودَّ أن يكونَ له ما لغيره، وكان له أمثالُه فنبَّههُ الله بهذهِ القصةِ فاستغفرَ وأناب عنه. وما روي أنَّ بصرَهُ وقعَ على امرأةٍ فعشِقَها وسعَى حتى تزوَّجها وَلَدَتْ منه سليمانَ، إنْ صحَّ فلعلَّه خطبَ مخطوبَتَهُ أو استنزلَه عن زوجَتِه، وكان ذلك معتاداً فيما بينَهم، وقد واسى الأنصارُ المهاجرينَ بهذا المعنى. وما قيل إنه أرسلَ أوريا إلى الجهاد مراراً وأمر أنْ يقدَّمَ حتى قُتِلَ فتزوَّجها هزءٌ وافتراءٌ، ولذلك قال عليٌّ رضي الله عنه: من حدَّثَ بحديث داودَ عليه السلام على ما يرويه القُصّاصُ جلدتُه مائةً وستينَ[١]. وقيل إنَّ قوماً قصدُوا أنْ يقتلوه فتسوَّروا المحرابَ ودخلوا عليه فوجدُوا عنده أقواماً فتصنَّعوا بهذا التحاكُمِ فعلِمَ غرضَهم وأراد أنْ ينتقِمَ منهم، فظنَّ أن ذلك ابتلاءٌ منَ الله له فاستغفرَ ربَّه مما همَّ به وأنابَ.

فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ أي ما استغفرَ عنه. ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لقربةً بعدَ المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجعٌ في الجنة.

(٢٦) ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استخلفْناك على الملْكِ فيها، أو جعلْناك خليفةً ممن قبلَك من الأنبياءِ القائمين بالحقِّ. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ بحكْمِ الله. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ما تهوى النفسُ، وهو يؤيدُ ما قيل إنَّ ذَنْبَهُ المبادرةُ إلى تصديقِ المدَّعي وتظليمِ الآخرِ قبل مسألَتِه. ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ دلائلِه التي نَصَبَهَا على الحقِّ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ بسببِ نسيانِهم وهو ضلالُهم عن السبيلِ، فإنَّ تذكُّرهُ يقتضي ملازمةَ الحقِّ ومخالفةَ الهوى[٢].

(٢٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًاۚ﴾ لا حكمةَ فيه، أو ذوي باطلٍ بمعنى مبطلينَ عابثينَ كقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾[٣] أو للباطلِ الذي هو متابعةُ الهوى، بل للحقِّ الذي هو مقتضَى الدليلِ من التوحيدِ والتدرُّعِ بالشرع كقوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[٤] على وضْعه موضِعَ المصدرِ مثل هَنيئاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ الإشارةُ إلى خلْقها باطلاً، والظنُّ بمعنى المظنونِ. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بسبب هذا الظنِّ[٥].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٤٢ رقم ٣٠٦):«لم أجده». أهـ.
(٢) وإظهار «سبيل الله» في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بكمال شناعة الضلال عنه (س٧/ ٢٢٣).
(٣) الأنبياء: «١٦».
(٤) الذاريات: «٥٦».
(٥) وَضْع الموصول «للذين كفروا» موضع ضميرهم للإشعار بما في حيّز الصلة بعِليّة كفرهم له (س٧/ ٢٢٤).

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ
إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ
عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أم منقطعةٌ والاستفهامُ فيها لإنكارِ التسويةِ بينَ الحزبينِ التي هي من لوازمِ خلقِها باطلاً ليدلَّ على نفْيِهِ وكذا التي في قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ كأنه أنكرَ التسويةَ أولاً بينَ المؤمنينَ والكافرينَ ثمَّ بيَّنَ المتقينَ من المؤمنينَ والمجرمينَ منهم، ويجوزُ أنْ يكونَ تكريراً للإنكارِ الأولِ باعتبار وصْفَيْنِ آخرَيْنِ يمنعانِ التسوية من الحكيمِ الرحيمِ، والآية تدلُّ على صِحَّةِ القولِ بالحشْرِ، فإنَّ التفاضُلَ بينَهما إما أنْ يكون في الدنيا والغالبُ فيها عكسُ ما يقتضي الحكمةَ فيه، أو في غيرها وذلك يستدعي أنْ يكون لهم حالةٌ أخرى يُجازَوْنَ بها.

(٢٩) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ نفّاعٌ، وقرىء بالنصبِ على الحالِ. ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ليتفكَّروا فيها فيعرفُوا ما يدبِّر ظاهرَها من التأويلاتِ الصحيحةِ والمعاني المستَنْبَطَةِ. وقرىء ليتدبروا على الأصلِ ولتَدَبَّروا أي أنتَ وعلماءُ أمّتِكَ. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وليتعظَ به ذوو العقولِ السليمة، أو ليستحْضِروا ما هو كالمركوزِ في عقولِهم من فَرْطِ تمكُّنِهم من معرفته بما نصبَ عليه من الدلائلِ، فإنَّ الكتبَ الإلهيةَ بيانٌ لما لا يُعْرَفُ إلا من الشرعِ، وإرشادٌ إلى ما يستقلُّ به العقلُ، ولعل التدبُّرَ للمعلومِ الأولِ والتذكُّرَ للثاني.

(٣٠) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي نعمَ العبدُ سليمانُ إذ ما بعدَه تعليلٌ للمدحِ وهو في حاله. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجّاعٌ إلى اللهِ بالتوبة، أو إلى التسبيحِ مرجعٌ له.

(٣١) ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ ظرفٌ لأوَّابِ أو لِنِعْمَ، والضميرُ لسليمانَ عندَ الجمهور ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ بعدَ الظهرِ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الصافِنُ من الخيلِ الذي يقومُ على طرفِ سُنْبُكِ يدٍ أو رِجْلٍ، وهو من الصفاتِ المحمودةِ في الخيلِ الذي لا يكادُ يكون إلا في العرابِ الخلّصِ. ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جمع جواد أو جودٍ، وهو الذي يسرعُ في جَرْيِهِ وقيل الذي يجود في الركضِ، وقيل جمعُ جيدٍ. روي أنه عليه الصلاة والسلام غزا دمشقَ ونصيبينَ وأصاب ألفَ فرسٍ، وقيل أصابها أبوه من العمالقةِ فورثَها منه فاستعرضَها فلم تزلْ تُعْرَضُ عليه حتى غربتِ الشمسُ وغفلَ عن العصْرِ، أو عن وِرْدٍ كان له فاغتمَّ لما فاته فاستردَّها فعقَرها تقرُّباً لله.

(٣٢) ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أصلُ أحببتُ أنْ يُعَدَّى بعلى لأنه بمعنى آثرتُ لكنْ لما أُنِيبَ منابَ أنبتُ عُدِّيَ تعديتَه، وقيل هو بمعنى تَقاعدْتُ من قوله:

مِثْلُ بَعِيرِ السُّوءِ إِذَا أَحَبَّا

أي بركَ، وحبُّ الخير مفعولٌ له، والخيرُ المالُ الكثيرُ، والمرادُ به الخيلُ التي شغلتْه ويُحْتَمَلُ أنه سمَّاها خيراً لتعلُّقِ الخير بها. قال عليه الصلاة والسلام: «الخيل معقودٌ بنواصيها الخيرُ إلى يومِ

القيامة»[١]. وقرأ ابنِ كثير ونافع وأبو عمرٍو بفتح الياء. ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي غربتِ الشمسُ، شبَّه غروبَها بتواري المخبَّأةِ بحجابِها، وإضمارُها من غير ذِكْرٍ لدلالة العشيِّ عليها.

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

(٣٣) ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ الضمير للصافناتِ. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فأخذَ بمسحِ السيفِ مسْحاً[٢]. ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي بِسُوقِها وأعناقِها يقطعُها من قولِهم مسحَ علاوتَه[٣] إذا ضَربَ عُنُقَهُ، وقيل جعلَ يمسحُ بيده أعناقَها وسُوقَها حبّاً لها. وعن ابن كثير بالسؤْقِ على همزِ الواوِ لضمةِ ما قبلها كمؤْقِنٍ، وعن أبي عمرو بالسؤوقِ، وقرىء بالساقِ اكتفاءً بالواحد عن الجمعِ لأمْنِ الإلباسِ.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ وأظهرُ ما قيلَ فيه ما روى مرفوعاً أنه قال: لأطوفنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأةً تأتي كلُّ واحدة بفارسٍ يجاهد في سبيل الله ولم يقلْ إنْ شاء الله، فطافَ عليهن فلم تحملْ إلا امرأةٌ جاءت بشقِّ رجلٍ، فوالذي نفس محمدٍ بيده لو قال إنْ شاءَ الله لجاهدوا فرساناً»[٤]. وقيل وُلِدَ له ابنٌ فاجتمعتِ الشياطينُ على قتله فعلِمَ ذلك، فكان يغذُوه في السحاب فما شعرَ به إلا أنْ أُلقيَ على كرسِّيه ميتاً فتنبَّه على خطئِه بأنْ لم يتوكلْ على الله. وقيل إنه غزا صيدونَ من الجزائرِ فقتلَ مِلِكَها وأصابَ ابنتَه جرادةَ، فأحبَّها وكان لا يرقأ دمعُها جزعاً على أبيها، فأمرَ الشياطينَ فمثَّلُوا لها صورتَه فكانتْ تغدو إليها وتروحُ مع ولائِدها يسجدْنَ لها كعادتهنَّ في مُلْكِه، فأخبره آصِفُ فكسرَ الصورةَ وضربَ المرأةَ وخرجَ إلى الفلاةِ باكياً متضرِّعاً، وكانتْ له أمُّ ولدٍ اسمُها أمينةُ إذا دخل للطهارةِ أعطاها خاتَمَهُ وكان ملْكُه فيه، فأعطاها يوماً فتمثَّل لها بصورتِه شيطانٌ اسمه صخْرٌ وأخذَ الخاتَمَ وتختَّم به وجلسَ على كرسيِّه، فاجتمعَ عليه الخلْقُ ونفذَ حكمُه في كلِّ شيءٍ إلا في نسائِه وغيَّرَ سليمانَ عن هيئتِه، فأتاها لطلبِ الخاتَمِ فطردْته فعرفَ أنَّ الخطيئةَ قد أدركتْه، فكان يدور على البيوتِ يتكففُ حتى مضَى أربعونَ يوماً عددَ ما عُبِدَتِ الصورةُ في بيته، فطارَ الشيطانُ وقذفَ الخاتمَ في البحرِ فابتلعتْه سمكةٌ فوقعتْ في يدهِ فبقرَ بطنَها فوجدَ الخاتَمَ فتختَّمَ به وخرَّ ساجداً، وعاد إليه المُلْكُ، فعلى هذا الجسدِ صخرٌ سمِّي به وهو جسمٌ لا روحَ فيه لأنه كان متمثلاً بما لم يكنْ كذلك، والخطيئةُ تغافُلُه عن حالِ أهلِه لأنَّ اتخاذَ التماثيل كان جائزاً حينئذٍ، وسجودُ الصورةِ بغير علمِه لا يضرُّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٦٣٣ رقم ٣٦٤٤) ومسلم (٣/ ١٤٩٢ رقم ٩٦) من حديث ابن عمر. وفي الباب من حديث عروة البارقي، وجرير، وأبي هريرة.

(٢) والفاء فصيحة أفصحت عن جملة حذفت ثقة بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بغاية سرعة الامتثال بالأمر (س٧/ ٢٢٦).

(٣) العلاوة بالكسر أعلى الرأس أو العنق.

(٤) أخرجه البخاري (١١/ ٥٢٤ رقم ٦٦٣٩) ومسلم (٣/ ١٢٧٦ رقم ١٦٥٤) والبغوي في شرح السنة (١/ ١٤٧ رقم ٧٩) من حديث أبي هريرة.

قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ
أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ
حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾

(٣٥) ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ لا يتسهلُ له ولا يكونُ ليكونَ معجزةً لي مناسبةً لحالي، أو لا ينبغي لأحدٍ أنْ يسلُبَهُ منِّي بعد هذه السلبةِ، أو لا يصحُّ لأحدٍ من بعدي لعظمتِه كقولك: لفلانٍ ما ليس لأحدٍ من الفضْلِ والمالِ، على إرادةِ وصْفِ الملكِ بالعظمةِ لا أنْ لا يُعْطَى أحدٌ مثلَه فيكونُ منافسةً، وتقديمُ الاستغفارِ على الاستيهابِ لمزيدِ اهتمامه بأمرِ الدين ووجوبِ تقديمِ ما يُجْعَلُ للدعاء بصددِ الإجابةِ. وقرأ نافع وأبو عمرو بفتحِ الياءِ. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاءُ لمن تشاءُ.

(٣٦) ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ فذلَّلْناها لطاعتِه إجابةً لدعوتِه، وقرىء الرياحَ. ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً﴾ لينةً من الرخاوةِ لا تزعزعُ، أو لا تخالِفُ إرادتَه كالمأمورِ المنقادِ. ﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾ أرادَ من قولهم أصابَ الصوابَ فاخطأَ الجوابَ.

(٣٧) ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطفٌ على الريحِ. ﴿كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ بدلٌ منه.

(٣٨) ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ عطفٌ على كل كأنه فصلَ الشياطينَ إلى عَمَلَةٍ استعملَهم في الأعمال الشاقَّةِ كالبناء والغوْصِ، ومَرَدَةٌ قرنَ بعضَهم مع بعضٍ في السلاسلِ ليكفُّوا عن الشرِّ، ولعلَّ أجسامَهم شفافةٌ صلْبةٌ فلا تُرَى ويمكنُ تقييدُها، هذا والأقربُ أنَّ المرادَ تميلُ كفُّهم عن الشرورِ بالإقرانِ في الصَّفْدِ وهو القيدُ، وسمِّيَ به العطاءُ لأنه يرتبط به المنعَمُ عليه. وفرَّقوا بينَ فعليهما فقالوا صَفَدَه قيَّدَه وأصفدَه أعطاهُ عكسَ وَعَدَ وأَوْعَدَ وفي ذلك نكتةٌ.

(٣٩) ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملْكِ والبسْطَة والتسلُّطِ على ما لم يُسَلَّطْ به غيرُك عطاؤُنا. ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ فأعْطِ مَنْ شئتَ وامنعْ مَنْ شئت. ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ حالٌ من المستَكِنِّ في الأمرِ، أي غيرَ محاسبٍ على منِّه وإمساكِه لتفويض التصرف فيه إليك أو من العطاء وصَلة له وما بينهما اعتراض. والمعنى أنه عطاء جم لا يكاد يمكن حصره، وقيل الإشارةُ إلى تسخيرِ الشياطينِ، والمراد بالمنِّ والإمساكِ إطلاقُهم وإبقاؤُهم في القيدِ.

(٤٠) ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ في الآخرة مع ماله من الملْكِ العظيم في الدنيا. ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ هو الجنةُ.

(٤١) ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هو ابنُ عيصَ بن إسحاقَ وامرأتُه ليَّا بنتُ يعقوبَ صلواتُ الله عليه. ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدلٌ من عبدِنا، وأيوبُ عطفُ بيانٍ له. ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ بأنْ مسَّني، وقرأ حمزةُ بإسكانِ الياءِ وإسقاطها في الوصْل. ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ﴾ بتعبٍ. ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألمٍ وهيَ حكايةٌ لكلامِه الذي ناداه به ولولا هي لقالَ إنه مسَّه، والإسنادُ إلى الشيطانِ إما لأنَّ اللهَ مسَّه بذلك لما فَعَلَ بوسوستِه كما قيل إنه أُعْجِبَ بكثرةِ ماله أو استغاثةِ مظلومٍ فلم يُغِثْهُ، أو كانتْ مواشيه في ناحيةِ مَلِكٍ كافرٍ فداهَنَهُ ولم يغزُهُ، أو لسؤالِه امتحاناً لصبرِه فيكونُ اعترافاً بالذَّنبِ أو مراعاةً للأدبِ، أو لأنه وسوسَ إلى أتباعه حتى رفضُوه

وأخرجوه من ديارهم، أو لأنَّ المرادَ بالنَّصَبِ والعذابِ ما كان يُوَسْوَسُ إليه في مرضِه من عِظَم البلاء والقنوطِ من الرحمة، ويغريه على الجزعِ. وقرأ يعقوبُ بفتحِ النون على المصدرِ، وقرىء بفتحتينِ وهو لغةٌ كالرُّشْدِ والرَّشَدِ، وبضمتينِ للتثقيلِ.

ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

(٤٢) ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حكايةٌ لما أُجيبَ به أي اضربْ برجلِك الأرضَ. ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي فضربَها فنبعتْ عينٌ فقيل هذا مُغْتَسَلٌ أي ماء تغتسلُ به وتشربُ منه فيبرأ باطنُك وظاهِرُك، وقيل نبعتْ عينانِ حارَّةٌ وباردةٌ فاغتسلَ من الحارةِ وشرب من الأخرى.

(٤٣) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ بأنْ جمعْناهم عليه بعدَ تفرُّقهم أو أحييناهم بعدَ موتِهم، وقيل وهبنا له مثلَهم. ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ حتى كان له ضعفُ ما كان. ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ لرحمتنا عليه ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وتذكيراً لهم لينتظروا الفرجَ بالصبر واللجأ إلى الله فيما يحيقُ بهم.

(٤٤) ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ عطفٌ على اركضْ والضِّغثُ الحزمةُ الصغيرةُ من الحشيش ونحوه. ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ روي أن زوجتَه ليًا بنتَ يعقوبَ وقيل رحمةُ بنتُ إفرائيمَ بنِ يوسفَ ذهبتْ لحاجة فابطأَتْ فحلفَ إنْ برىءَ ضربَها مائةَ ضربةٍ، فحلَّلَ الله يمينَه بذلك، وهي رخصةٌ باقيةٌ في الحدود. ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفسِ والأهلِ والمالِ، ولا يخلُّ به شكواهُ إلى الله من الشيطان فإنه لا يسمَّى جزعاً كتمنِّي العافية وطلبِ الشفاءِ مع أنه قال ذلك خيفةَ أنْ يفتِنَه أو قومَه في الدين. ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوبُ. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ مقبلٌ بشراشرِهِ على الله تعالى.

(٤٥) ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقرأ ابنُ كثير عبدَنا وضَعَ الجنسَ موضعَ الجمع، أو على أنَّ إبراهيمَ وحدَه لمزيدِ شرفِه عطفُ بيانٍ له، وإسحاقُ ويعقوب عطفٌ عليه. ﴿أُولِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أولي القوة في الطاعةِ والبصيرة في الدين، أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفةِ، فعبَّر بالأيدي عن الأعمال لأنَّ أكثرَها بمباشرتِها، وبالأبصار عن المعارفِ لأنها أقوى مبادئها، وفيه تعريضٌ بالبطَلَةِ الجهَّالِ أنهم كالزُّمْنَى والعُمَاةِ.

(٤٦) ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ جعلناهم خالصينَ لنا بخصْلةٍ خالصةٍ لا شَوْبَ فيها هي: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ تذكُّرهم الدارَ الآخرةَ دائماً فإنَّ خلوصَهم في الطاعة بسببِها، وذلك لأن مطمحَ نظرِهم فيما يأتون ويذرونَ جوارَ الله والفوزَ بلقائِه، وذلك في الآخرة، وإطلاقُ الدار للإشعارِ بأنها الدارُ الحقيقة والدنيا مَعْبَرٌ، وأضافَ نافع وهشامٌ بخالصةٍ إلى ذكرى للبيانِ أو لأنه مصدرٌ بمعنى الخلوصِ فأضيفَ إلى فاعِله.

(٤٧) ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ لَمِنَ المختارين من أمثالِهم المصْطَفِيْنَ عليهم في الخير جمعُ خيرٍ كشرٍّ وأشرارٍ. وقيل جمعُ خيرٍ أو خيرٍ على تخفيفِه كأمواتٍ في جمع ميتٍ أو ميِّتٍ.

وَاذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾

(٤٨) ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ هو ابنُ أخطوبَ استخلفَه إلياسُ على بني إسرائيلَ ثم استُنْبِىءَ، واللامُ فيه كما في قوله: رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بنَ الْيَزِيدَ مُبَارَكاً. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ واللَّيْسَع تشبيهاً بالمنقولِ من لَيْسعَ من اللسْع. ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِۖ﴾ ابنَ عمِّ يسعَ أو بشرَ بنَ أيوبَ. واختُلِفَ في نبوته ولَقَبِهِ فقيل فرَّ إليه مائةِ نبيٍّ من بني إسرائيلَ من القتْلِ فآواهم وكَفِلَهم، وقيل كَفِلَ بعمل رجلٍ صالح كان يصلي كلَّ يوم مائةَ صلاةٍ ﴿وَكُلٌّ﴾ أي وكلُّهم. ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

(٤٩) ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من أمورهم. ﴿ذِكْرٌۚ﴾ شرفٌ لهم، أو نوعٌ من الذكرِ وهو القرآنُ. ثم شرعَ في بيانِ ما أعدَّ لهم ولأمثالهم فقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجعٌ.

(٥٠) ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ عطف بيانٍ لحسنِ مآب وهو من الأعلام الغالبةِ لقوله ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾[1] وانتصبَ عنها. ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ على الحالِ والعاملُ فيها ما في المتقينَ من معنى الفعلِ، وقُرِئَتَا مرفوعتينِ على الابتداءِ والخبرِ، أو أنَّهما خبرانِ لمحذوفٍ.

(٥١) ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ حالانِ متعاقبانِ أو متداخلانِ من الضمير في لهم لا من المتقينَ للفصلِ، والأظهرُ أنَّ يدعونَ استئنافٌ لبيانِ حالهم فيها، ومتكئينَ حالٌ من ضميرِهِ، والاقتصارُ على الفاكهةِ للإشعار بأنَّ مطاعِمَهم لمحضِ التلذُّذِ، فإنَّ التغذي للتحللِ ولا تحلُّلَ ثَمَّةَ.

(٥٢) ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ لا ينظرون إلى غيرِ أزواجِهنَّ. ﴿أَتْرَابٌ﴾ لِدَاتٌ لهم فإنَّ التحابَّ بين الأقرانِ أثبتُ، أو بعضُهن لبعضٍ لا عجوزَ فيهنَّ ولا صبيةَ، واشتقاقه من الترابِ فإنه يمسُّهن في وقتٍ واحدٍ.

(٥٣) ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لآجالِه فإنَّ الحسابَ علةُ الوصولِ إلى الجزاء، وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو بالياءِ ليوافقَ ما قبلَه.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ انقطاعٌ.

(٥٥) ﴿هَٰذَاۚ﴾ أي الأمرُ هذا أو هذا كما ذُكِرَ أوخُذْ هذا. ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾.

(٥٦) ﴿جَهَنَّمَ﴾ إعرابُه ما سبقَ. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالٌ من جهنَّم. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الممهدُ والمفترَشُ، مستعارٌ من فراشِ النائم، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ وهو جهنَّمُ لقوله ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾[2].

---

(١) مريم: «٦١».

(٢) الأعراف: «٤١».

هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾

(٥٧) ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ﴾ أي ليذوقُوا هذا فليذُوقوه، أوِ العذابُ هذا فليذوقوه، ويجوزُ أنْ يكونَ مبتدأً وخبرُه: ﴿حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ وهو على الأوَّلَيْنِ خبرٌ محذوفٌ أي هو حميمٌ، والغَسَاقُ ما يغسقُ من صديدِ أهلِ النار من غَسَقَتِ العينُ إذا سالَ دمعُها، وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ غسَّاق بتشديدِ السينِ.

(٥٨) ﴿وَءَاخَرُ﴾ أي مذوقٌ أو عذابٌ آخرُ، وقرأ البصريانِ وأخرى أي ومذوقاتٌ أو أنواعُ عذابٍ أُخَرُ. ﴿مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾ من مِثْلِ هذا المذوقِ أو العذابِ في الشدةِ. وتوحيدُ الضمير على أنه لما ذُكِرَ، أو للشراب الشاملِ للحميم والغسَّاقِ، أو للغساقِ. وقرىء بالكسْرِ وهو لغةٌ. ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾ أجناسٌ خبرٌ لآخرَ أو صفةٌ له أو للثلاثةِ. أو مرتفعٌ بالجارِّ والخبرُ محذوفٌ مثلُ لهم.

(٥٩) ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ﴾ حكايةُ ما يُقَالُ للرؤساءِ الطاغينَ إذا دخلوا النارَ واقْتَحَمَهَا معهم فوجٌ تبِعهم في الضلالِ، والاقتحامُ ركوبُ الشدةِ والدخولُ فيها. ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ دعاءٌ من المتبوعينَ على أتباعِهِم أو صفة لفوجٍ، أو حالٌ أي مقولاً فيهم لا مرحباً أي ما أتوا بهم رحْباً وسَعَةً. ﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ داخلونَ النارَ بأعمالِهِم مثلَنا.

(٦٠) ﴿قَالُواْ﴾ أي الأتباعُ للرؤساء. ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ بل أنتم أحقُّ بما قلتُم، أو قيل لنا لضلالِكم وإضلالِكم كما قالوا: ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ قدَّمْتُم العذابَ أو الصِّلْيَ لنا بإغوائِنا وإغرائِنا على ما قدَّمتموه من العقائدِ الزائغةِ والأعمالِ القبيحةِ. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ فبئسَ المقرُّ جهنَّمُ.

(٦١) ﴿قَالُواْ﴾ أي الأتباعُ أيضاً. ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾ مضاعَفاً أي ذا ضعفٍ وذلك أنْ يزيدَ على عذابِه مِثْلَه فيصيرَ ضعفينِ كقوله ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾[1].

(٦٢) ﴿وَقَالُواْ﴾ أي الطاغوتُ. ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ يعنُون فقراءَ المسلمينَ الذين يَستَرْذِلُون ويسخرونَ بهم.

(٦٣) ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ صفةٌ أخرى لرجالاً، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر وعاصمٌ بهمزة الاستفهام على أنه إنكارٌ على أنفسهم وتأنيبٌ لها في الاستسخار منهم، وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي سُخرياً بالضمِّ، وقد سبقَ مثلُه في المؤمنين. ﴿أَمۡ زَاغَتۡ﴾ مالتْ. ﴿عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ فلا نراهم أم معادِلَةٌ لما لنا لا نَرَى على أنَّ المرادَ نفيُ رؤيَتِهم لغيبتِهم كأنهم قالوا: أليسُوا ها هنا أم زاغتْ عنهم أبصارُنا، أو لاتخذْناهم على القراءةِ الثانيةِ بمعنى أيُّ الأمرينِ فعلْنا بهم الاستسخارُ منهم أم تحقيرُهم، فإنَّ زيغَ

(١) الأحزاب: «٦٨».

الأبصارِ كنايةٌ عنه على معنى إنكارِهما على أنفسِهم، أو منقطعةٌ والمرادُ الدلالةُ على أنَّ استرذَالَهم والاستسخارَ منهم كان لزيغِ أبصارِهم وقصورِ أنظارِهم على رثاثةِ حالِهم.

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾

(٦٤) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكيناه عنهم. ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بدَّ أنْ يتكلَّموا به ثمَّ بيَّنَ ما هو فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ وهو بدلٌ من لحقٌ أو خبرٌ محذوفٌ، وقرىء بالنصبِ على البدلِ من ذلك.

(٦٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ للمشركين. ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أنذِرُكم عذابَ الله. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا يقبلُ الشركةَ والكثرةَ في ذاتِه. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكلِّ شيءٍ يريدُ قَهْرَهُ.

(٦٦) ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ منه خلقَها وإليه أمرُها. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبُ إذا عاقبَ. ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ الذي يغفرُ ما يشاءُ من الذنوب لمن يشاءُ، وفي هذه الأوصافِ تقريرٌ للتوحيد ووعْدٌ ووعيدٌ للموحِّدينَ والمشركينَ، وتثنية ما يشعرُ بالوعيد، وتقديمُه لأن المدعوَّ به هو الإنذارُ.

(٦٧) ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي ما أنبأتُكُم به من أني نذيرٌ من عقوبةِ مَنْ هذه صفتُه وأنه واحدٌ في ألوهيته، وقيل ما بعدَه من نبأِ آدمَ. ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾.

(٦٨) ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لتمادي غَفْلَتِكُم، فإنَّ العاقلَ لا يعرضُ عن مثلِه كيفَ وقد قامتْ عليه الحججُ الواضحةُ، أما على التوحيد فما مرَّ وأما على النبوةِ فقوله:

(٦٩) ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإنَّ إخباره عن تقاولِ الملائكة وما جرى بينَهم على ما وردَ في الكتبِ المتقدِّمةِ من غير سماعٍ، ومطالعةِ كتابٍ لا يُتَصَوَّر إلا بالوحي، وإذ متعلِّقٌ بعِلْمٍ أو بمحذوفٍ إذِ التقديرُ مَنْ عَلِمَ بكلامِ الملأ الأعلى.

(٧٠) ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي لأنَّما كأنه لما جوَّز أنَّ الوحْيَ يأتيه بيَّنَ بذلك ما هو المقصودُ به تحقيقاً لقوله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾[1] ويجوزُ أنْ يرتفعَ بإسنادِ يُوْحَى إليه، وقرىء إنما بالكسْر على الحكايةِ.

(٧١) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ بدلٌ من إذ يختصمونَ مبيِّنٌ له فإن القصَّة التي دخلتْ إذ عليها مشتملةٌ على تقاولِ الملائكةِ وإبليسَ في خلْقِ آدمَ عليه السلام، واستحقاقُه للخلافةِ والسجودِ على ما مرَّ في البقرة، غيرَ أنها اخْتُصِرَتِ اكتفاءً بذلك واقتصاراً على ما هو المقصودُ منها، وهو إنذارُ المشركينَ على استكبارِهم على النبيِّ عليه الصلاة والسلام بمثلِ ما حاقَ بإبليسَ على استكبارِه على آدمَ عليه السلام، هذا ومن الجائزِ أنْ يكونَ مقاولةُ الله تعالى إياهم بواسطةِ مَلَكٍ، وأنْ يفسِّرَ الملأُ الأعلى

---

(١) ص: «٦٥».

بما يعمُّ الله تعالى والملائكة.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾

(٧٢) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدَّلْتُ خِلْقَتَهُ. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وأحييتُه بنفخِ الروحِ فيه، وإضافته إلى نفسِه لشرفِهِ وطهارتِهِ. ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾ فخرُّوا له. ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تكرمةً وتبجيلاً له وقد مرَّ من الكلام فيه في البقرةِ.

(٧٣) ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

(٧٤) ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ تعظَّم. ﴿وَكَانَ﴾ وصارَ. ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ باستنكارِهِ أمرَ الله تعالى واستكبارِهِ عن المطاوعة، أو كان منهم في علم الله تعالى.

(٧٥) ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ خلقتُه بنفسي من غير توسُّطِ كأبٍ وأمٍّ، والتثنيةُ لما في خلْقِهِ من مزيدِ القدرةِ واختلاف الفعل، وقرىء على التوحيد، وترتيبُ الإنكار عليه للإشعارِ بأنه المستدعي للتعظيم، أو بأنه الذي تشبَّثَ به في تركِهِ وهو لا يصلُح مانعاً إذ للسيدِ أن يستخدمَ بعضَ عبيدِهِ لبعضٍ سِيَّما وله مزيدُ اختصاصٍ. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ تكبَّرتَ من غير استحقاقٍ أو كنتَ ممن علا واستحقَّ التفوقَ، وقيل استكبرتَ الآنَ أم لم تزلْ منذ كنتَ من المستكبرين، وقرىء استكبرتَ بحذفِ الهمزةِ لدلالةِ أمْ عليها أو بمعنَى الإخبار.

(٧٦) ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ إبداءٌ للمانعِ وقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ دليلٌ عليه وقد سبقَ الكلامُ فيه.

(٧٧) ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو من السماءِ، أو من الصورةِ الملَكيةِ. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرودٌ من الرحمةِ ومحلِّ الكرامة.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

(٧٩) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

(٨٠) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾

(٨١) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ مرَّ بيانه في الحِجْرِ.

(٨٢) ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ فبِسُلطانك وقهرِك. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾
قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

(٨٣) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلَصَهُم الله لطاعته وعصَمَهم من الضلالة، أو أخلصوا قلوبَهم لله على اختلافِ القراءتينِ.

(٨٤) ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي فأحقُّ الحقَّ وأقولُه، وقيل الحقُّ الأول اسمُ الله نَصَبَه بحذفِ حرفِ القسم كقوله: إنَّ عَلَيْكَ اللهِ أَنْ تُبَايِعَا.

(٨٥) وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ وهو على الأول جوابٌ محذوفٌ والجملة تفسيرٌ للحق المقولِ، وقرأ عاصمٌ وحمزة برفعِ الأول على الابتداءِ أي الحقُّ يميني أو قسمي، أو الخبرُ أي أنا الحقُّ، وقُرِئَا مرفوعين على حذفِ الضميرِ من أقولُ كقوله: كلُّه لم أصنعْ. ومجرورَيْنِ على إضمارِ حرفِ القسم في الأول، وحكايةُ لفظِ المقسَمِ به في الثاني للتأكيدِ، وهو سائغٌ فيه إذا شارك الأولَ وبرفْعِ الأول وجرِّه ونصبِ الثاني وتخريجِه على ما ذكرناه، والضميرُ في منهم للناسِ إذِ الكلامُ فيهم، والمَرادُ بمنك من جنسِك ليتناولَ الشياطينَ وقيل للثَّقلينِ، وأجمعينَ تأكيدٌ له أو للضميرين.

(٨٦) ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على القرآنِ أو تبليغ الوحي. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتَّصِفِيْنَ بما ليسُوا من أهله على ما عرفتُم من حالي فأنتحلُ النبوَّةَ، وأتقَوَّلُ القرآنَ.

(٨٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظةٌ. ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ للثَّقَلَيْنِ.

(٨٨) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ وهو ما فيه من الوعْدِ والوعيدِ، أو صدَّقهُ بإتيانِ ذلك. ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ بعدَ الموتِ أو يومَ القيامة أو عندَ ظهورِ الإسلام وفيه تهديدٌ. عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورة (ص) كان له بوزْنِ كلِّ جبلٍ سخَّره الله لداودَ عشرُ حسناتٍ، وعصمهُ الله أنْ يُصِرَّ على ذَنْبٍ صغيرٍ أو كبيرٍ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي رضي الله عنه.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٤٢ رقم ٣١٥).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الزُّمَر

ترتيبها ٣٩ — آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ
ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ
زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

سورة الزُّمَرِ مكيةٌ(١)

إلا قولَه: «قل يا عبادي» الآيةَ، وآيُها خمسٌ وسبعونَ أو اثنتانِ وسبعونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرٌ محذوفٌ مثلُ هذا أو مبتدأٌ خبرُهُ. ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وهو على الأولِ صلةٌ لتنزيل، أو خبرٌ ثانٍ أو حالٌ عَمِلَ فيها معنى الإشارة أو التنزيلِ، والظاهرُ أنَّ الكتابَ على الأولِ السورةُ وعلى الثاني القرآنُ، وقرىء تنزيلَ بالنصبِ على إضمارِ فعلٍ نحو اقرأ أوِ الزم(٢).

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحقِّ أو بسببِ إثباتِ الحقِّ وإظهارِهِ وتفصيله. ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ممحِّصاً له الدينَ من الشركِ والرياءِ. وقرىء برفعِ الدين عن الاستئنافِ لتعليلِ الأمرِ. وتقديمُ الخبرِ لتأكيدِ الاختصاصِ المسْتَفَادِ من اللامِ كما صرَّح به مؤكداً، وإجراؤُه مَجْرَى المعلومِ المقرَّرِ لكثرةِ حُجَجِه وظهورِ براهينهِ فقال:

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٣٢) و«روح المعاني» (٢٣/ ٢٣٢) و«زاد المسير» (٧/ ١٦٠).

(٢) والتعرض لوصفي العزة والحكمة للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع، وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة (س٧/ ٢٤٠).

(٣) ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ أي ألا هو الذي وجَبَ اختصاصُه بأنْ يُخْلَصَ له الطاعةُ، فإنه المتفرِّد بصفاتِ الألوهيةِ والاطلاعِ على الأسرارِ والضمائرِ. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يحتمل المتَّخِذِيْنَ من الكفرةِ والمتخذينَ من الملائكةِ وعيسى والأصنامِ على حذفِ الراجعِ وإضمارِ المشركينَ من غيرِ ذكرٍ لدلالةِ المساقِ عليهم، وهو مبتدأٌ خبرهُ على الأولِ. ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ بإضمارِ القول. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وهو متعيِّنٌ على الثاني، وعلى هذا يكونُ القولُ المضمَرُ بما في حيِّزِهِ حالاً أو بدلاً من الصلةِ، وزلفى مصدرٌ أو حالٌ، وقرىء قالوا ما نعبدُهم وما نعبدُكم إلا لتقرِّبونا إلى الله حكايةً لما خاطبوا به آلهتَهم ونُعبدُهم بضمِّ النونِ اتباعاً. ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ من الدين بإدخالِ المحقِّ الجنةَ والمبطِلِ النارَ، والضميرُ للكفرةِ ومقابليهم، وقيلَ لهم ولمعبوديهم فإنهم يرجُون شفاعتَهم وهم يلعنونَهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ لا يوفِّقُ للاهتداءِ إلى الحقِّ. ﴿مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ فإنهما فاقِدا البصيرةِ.

لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ
وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا
زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي
ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾

(٤) ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ كما زعمُوا. ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ إذ لا موجودَ سواهُ إلا هو مخلوقُه لقيامِ الدلالةِ على امتناعِ وجودِ واجبينِ ووجوبِ استنادِ ما عدا الواجبِ إليه، ومن البيِّنِ أنَّ المخلوقَ لا يماثِلُ الخالِقَ فيقومُ مقامَ الوالدِ له ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ فإنَّ الألوهيةَ الحقيقيةَ تتبعُ الوجوبَ المستلزِمَ للواحدةِ الذاتية، وهي تنافي المماثَلَةَ فضلاً عن التوالُدِ، لأنَّ كلَّ واحدٍ من المِثْلَيْنِ مركَّبٌ من الحقيقةِ المشتركةِ، والتعيُّنِ المخصوصِ، والقهاريةُ المطلقةُ تنافي قبولَ الزوالِ المحوجِ إلى الولدِ، ثم استدلَّ على ذلك بقوله:

(٥) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ يغشى كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ، كأنه يلفُّه عليه لفَّ اللباسِ باللابسِ، أو يغيِّبه به كما يغيَّبُ الملفوفُ باللُّفافةِ، أو يجعلُه كاراً عليه كروراً متتابعاً تتابعَ أكوارِ العمامةِ. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾ هو مُنْتَهَى دورِه أو منقطعُ حركتِه. ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القادِرُ على كلِّ ممكنٍ الغالبُ على كلِّ شيءٍ. ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ حيثُ لم يعاجِلْ بالعقوبةِ وسلْبِ ما في هذه الصنائعِ من الرحمة وعمومِ المنفعةِ.

(٦) ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ استدلالٌ آخرُ بما أوجدَه في العالَمِ السُّفْليِّ مبدوءٌ به من خلْقِ الإنسانِ لأنه أقربُ وأكثرُ دلالةً وأعجبُ، وفيه على ما ذكرهُ ثلاثُ دلالاتٍ: خلْقُ آدمَ أولاً من غيرِ أبٍ وأمٍ، ثم خلْقُ حوَّاءَ من قصيراهُ، ثم تشعيبُ الخلْقِ الفائتِ للحصْرِ منهما. وثُمَّ للعطف على

محذوفٍ هو صفةُ نفسٍ مثلُ خلقِها أو على معنى واحدةٍ أي من نفسٍ وُحِّدَتْ ثم جُعِلَ منها زوجُها فشفعَها بها، أو على خلقِكم لتفاوتِ ما بين الآيتينِ، فإنَّ الأولى عادةٌ مستمرَّةٌ دونَ الثانية. وقيل أخرجَ من ظهْره ذرِّيتهُ كالذرِّ ثمَّ خلقَ منها حواءَ. ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقضى أو قسَمَ لكم، فإنَّ قضاياهُ وقسمَهُ توصفُ بالنزول من السماءِ حيثُ كُتِبَتْ في اللوح المحفوظ، أو أَحْدَثَ لكم بأسبابٍ نازلة كأشعةِ الكواكب والأمطارِ. ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ ذكرٍ وأنثى من الإبلِ والبقرِ والضأنِ والمعزِ. ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ بيانٌ لكيفية خلْقِ ما ذَكَرَ من الأناسيِّ والأنعام إظهاراً لما فيها من عجائبِ القدرةِ، غيرَ أنه غلَّبَ أولي العقلِ أو خصَّهم بالخطابِ لأنهم المقصودونَ[1] ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ حيواناً سوياً من بعد عظامٍ مكسُوَّةٍ لحماً من بعد عظامٍ عاريةٍ من بعدِ مضغٍ من بعدِ علقٍ من بعد نطفٍ. ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ ظلمةِ البطنِ والرَّحمِ والمشيمةِ، أو الصلبِ والرحمِ والبطنِ. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه أفعالُه. ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ هو المستحِقُّ لعبادتكم والمالِكُ. ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ إذ لا يشارِكُه في الخلْقِ غيرهُ. ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ يُعْدَلَ بكم عن عبادتِه إلى الإشراكِ.

إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

(٧) ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ عن إيمانكم. ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ لاستضرارِهم به رحمةً عليهم. ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ لأنه سببٌ فلا حُكْمَ، وقرأ ابن كثير ونافعٌ في رواية وأبو عمرو والكسائيُّ بإشباعِ ضمَّةِ الهاءِ لأنها صارتْ بحذفِ الألف موصولةً بمتحرِّكٍ، وعن أبي عمرو ويعقوبَ إسكانُها وهو لغةٌ فيها. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ﴾ بالمحاسبة والمجازاة. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافيةٌ من أعمالِكم.

(٨) ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ لزوالِ ما ينازعُ العقلَ في الدلالة على أنَّ مبدأَ الكلِّ منه. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أعطاه من الخولِ وهو التعهُّدُ، أو الخولُ وهو الافتخارُ. ﴿نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ﴾ من الله. ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي الضرَّ الذي كان يدعو اللهَ إلى كشْفِه، أو ربَّه الذي كان يتضرَّع إليه وما مثلُ الذي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾[2]. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبلِ النعمة. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرٍو ورويسٌ بفتح الياءِ، والضلالُ والإضلالُ لما كانا نتيجةَ جعْلِه صحَّ تعليلُه بهما وإنْ لم يكونا غرضَيْنِ. ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ﴾ أمرُ تهديدٍ فيه إشعارٌ بأنَّ الكفرَ نوعُ تَشَهٍ لا سندَ له، وإقناطٌ للكافرين من التمتُّعِ في الآخرةِ ولذلك علَّلَهُ بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ على سبيل الاستئنافِ للمبالغة.

---

(١) وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد (س٧/ ٢٤٣).
(٢) الليل: «٣».

أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ
ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ﴾ قائمٌ بوظائفِ الطاعات. ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ﴾ ساعاتِه، وأمْ متصلةٌ بمحذوفٍ تقديره: الكافرُ خيرٌ أم مَنْ هو قانتٌ، أو منقطعةٌ والمعنَى بل أَمَّنْ هو قانتٌ كَمَنْ هو بضدِّه، وقرأ الحجازيانِ وحمزةُ بتخفيفِ الميم بمعنى أَمَنْ هو قانتٌ لله كَمَنْ جعلَ له أنداداً. ﴿ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾ حالانِ من ضميرِ قانتٍ، وقُرِئا بالرفعِ على الخبرِ بعدَ الخبرِ، والواوُ للجمعِ بينَ الصفتينِ[١] ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ في موضعِ الحالِ أو الاستئنافِ للتعليلِ. ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ نفيٌ لاستواءِ الفريقين باعتبارِ القوةِ العلمية بعدَ نفيه باعتبارِ القوةِالعملية على وجهٍ أبلغَ لمزيدِ فضْلِ العلم. وقيل تقريرٌ للأولِ على سبيلِ التشبيهِ أي كما لا يستوي العالِمُونَ والجاهلون لا يستوي القانتونَ والعاصُون. ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ بأمثالِ هذه البياناتِ، وقرىء يذَّكرُ بالإدغام.

(١٠) ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ بلزومِ طاعتِه. ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي للذين أحسنوا بالطاعاتِ في الدنيا مثوبةٌ حسنةٌ في الآخرة. وقيل معناه للذين أحسنوا حسنةً في الدنيا هي الصِّحةُ والعافيةُ، وفي هذه بيانٌ لمكانِ حسنةٍ. ﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ فمن تعسَّر عليه التوفُّر على الإحسانِ في وطنِه فلْيهاجرْ إلى حيثُ يتمكَّنُ منه. ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ على مشاقِّ الطاعاتِ من احتمالِ البلاءِ ومهاجرةِ الأوطان لها. ﴿ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أجراً لا يهتدي إليه حسابُ الحسَّابِ، وفي الحديث إنه «يُنْصَبُ الموازينُ يومَ القيامة لأهلِ الصلاةِ والصدقةِ والحجِّ فيوفَّون بها أجورَهم، ولا يُنْصَبُ لأهلِ البلاءِ بل يُصَبُّ عليهم الأجرُ صبّاً حتى يتمنَّى أهلُ العافيةِ في الدنيا أنَّ أجسادَهم تقرضُ بالمقاريضِ مما يذهبُ به أهلُ البلاءِ من الفضْلِ»[٢].

(١١) ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ موحِّداً له.

(١٢) ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ وأُمِرْتُ بذلك لأجلِ أنْ أكونَ مقدَّمهم في الدنيا والآخرة، لأن

---

(١) وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة (س٧/ ٢٤٥).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٤٣ رقم ٣١٩): «أخرجه الثعلبي وابن مردويه، من حديث أنس رضي الله عنه. وإسناده ضعيف جداً.
وأورده أبو نعيم في «الحلية» ـ (٣/ ٩١) ـ في ترجمة جابر بن زيد عن الطبراني، وهو في معجمه الكبير (١٢/ ١٨٤ رقم ١٢٨٢٩) ـ بإسناده إلى قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً» هـ.
قلت: جابر بن زيد ثقة فقيه كما في «التقريب» (١/ ١٢٢). وفي سند الطبراني (مجاعة بن الزبير) وهو ممن يحتمل ويكتب حديثه كما في «الكامل» لابن عدي (٤/ ٢٤٢٠).
والخلاصة أن الحديث قابل للتحسين لتعاضد الطريقين.

قَصَبَ السبقِ في الدين بالإخلاصِ أو لأنه أولُ مَنْ أسلمَ وجْهَهُ لله من قريشٍ ومَنْ دانَ بدينهم. والعطفُ لمغايرةِ الثاني الأولَ بتقييده بالعلةِ، والإشعارِ بأنَّ العبادةَ المقرونةَ بالإخلاصِ وإنِ اقتضتْ لذاتِها أنْ يؤمَرَ بها فهي أيضاً تقتضيه لما يلزمُها من السبق في الدين، ويجوزُ أنْ تُجْعَلَ اللامُ مزيدةً كما في أردتُ لأنْ أفعلَ فيكونُ أمرٌ بالتقدُّمِ في الإخلاصِ والبدءُ بنفسه في الدعاء إليه بعدَ الأمرِ به.

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

(١٣) ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بتركِ الإخلاصِ والميلِ إلى ما أنتُم عليه من الشركِ والرياءِ. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظمةِ ما فيه.

(١٤) ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ أمرٌ بالإخبار عن إخلاصِه وأنْ يكونَ مخلصاً له دينَه بعدَ الأمرِ بالإخبارِ عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاصِ خائفاً عن المخالفةِ من العقابِ قطْعاً لأطماعِهم، ولذلك رتَّب عليه قولَه:

(١٥) ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ تهديداً وخذلاناً لهم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الكاملين في الخسْرانِ. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالضلال. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالإضلال. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يدخلون النارَ بدلَ الجنةِ لأنهم جمعوا وجوهَ الخسرانِ. وقيل وخسِروا أهليهم لأنهم إنْ كانوا من أهلِ النار فقد خسِرُوهم كما خسِرُوا أنفسَهم، وإنْ كانوا من أهل الجنةِ فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوعَ بعدَه. ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ مبالغةٌ في خسرانِهم لما فيه من الاستئنافِ والتصديرِ بألا وتوسيطِ الفصلِ وتعريفِ الخسرانِ ووصفِه بالمبينِ.

(١٦) ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ شرحٌ لخسرانِهم. ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباقٌ من النار هي ظللٌ للآخرينَ. ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ذلك العذابُ هو الذي يخوِّفُهم به ليجتنبُوا ما يوقِعُهم فيه. ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرَّضُوا لما يوجِبُ سَخَطي.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ البالغَ غايةَ الطغيانِ فَعْلُوتٌ منه بتقديمِ اللامِ على العين بُنيَ للمبالغةِ في المصدر كالرحموتِ، ثم وُصِفَ به للمبالغةِ في النعتِ ولذلك اختصَّ بالشيطانِ. ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدلُ اشتمالٍ منه. ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأقبلوا إليه بشراشِرِهم عما سواهُ. ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثوابِ على ألسنةِ الرسلِ، أو الملائكةِ عند حضور الموت. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

(١٨) ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وضَعَ فيه الظاهِرَ موضعَ ضميرِ الذين اجتنبوا للدلالة على مبدأ اجتنابِهم وأنهم نقادٌ في الدين يميزونَ بينَ الحقِّ والباطل ويؤثرون الأفضلَ فالأفضلَ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لدينه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ العقولِ السليمةِ عن منازعةِ الوهْمِ والعادةِ، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ الهدايةَ تحصلُ بفعلِ اللهِ وقبولِ النفسِ لها.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ
مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ
يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ
قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ جملةٌ شرطيةٌ معطوفةٌ على محذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ؛ تقديرهُ أأنتَ مالكُ أمرِهم فَمَنْ حقَّ عليه العذابُ فأنتَ تنقذُه، فكُرِّرَتِ الهمزةُ في الجزاءِ لتأكيدِ الإنكارِ والاستبعادِ، ووضعَ مَنْ في النارِ موضِعَ الضميرِ لذلك وللدلالةِ على أنَّ مَنْ حُكِمَ عليه بالعذابِ كالواقعِ فيه لامتناعِ الخلفِ فيه، وأن اجتهادَ الرسلِ في دعائِهم إلى الإيمان سعيٌ في إنقاذِهم من النار، ويجوزُ أنْ يكونَ أفأنتَ تنقذُ جملةً مستأنفةً للدلالةِ على ذلك، والإشعارِ بالجزاءِ المحذوفِ.

(٢٠) ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ علالي بعضُها فوق بعض. ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بُنِيَتْ بناءَ النازلِ على الأرضِ. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت تلك الغرف. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله لهم غرف في معنى الوعد. ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ولأنَّ الخلْفَ نقصٌ وهو على اللهِ محالٌ.

(٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطرُ. ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخلَه. ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هي عيونٌ ومجاري كائنةٌ فيها، أو مياهٌ نابعاتٌ فيها إذِ الينبوعُ جاء للمنبعِ وللنابعِ فنصبَها على الظرفِ أو الحالِ. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أصنافُه من بُرٍّ وشعيرٍ وغيرِهما، أو كيفياتُه من خضرةٍ وحمرةٍ وغيرهما. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يتمُّ جفافُه لأنه إذا تمَّ جفافُه حانَ له أنْ يثورَ عن منبتِه. ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ من يُبْسِه. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتاً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيراً بأنه لا بدَّ من صانعٍ حكيمٍ دبَّره وسوَّاه، أو بأنه مثلُ الحياةِ الدنيا فلا تغترَّ بها. ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إذْ لا يَتَذَكَّرُ به غيرُهم.

(٢٢) ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ حتى تمكّن فيه بِيُسْرٍ، عبَّر به عمَّنْ خلقَ نفسَه شديدةَ الاستعدادِ لقبوله غيرَ متأبيةٍ عنه من حيثُ أنَّ الصَّدْرَ محلُّ القلبِ المنبعِ للروحِ المتعلقِ للنفسِ القابلةِ للإسلام. ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني المعرفةَ والاهتداءَ إلى الحقِّ. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا دخلَ النورُ القلبَ انشرحَ وانفسحَ» فقيل: فما علامةُ ذلك؟ قال: «الإنابةُ إلى دارِ الخلود والتجافي عن دارِ الغرور والتأهبُ للموتِ قبل نزولِه»[(١)] وخبرَ مَنْ محذوفٌ دلَّ عليه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ من أجلِ ذكرِه وهو أبلغُ من أنْ يكونَ عن مكانِ مَنْ، لأنَّ القاسي من أجلِ الشيءِ أشدُّ تأبياً عن قبوله من القاسي

(١) وهو حديث ضعيف تقدم تخريجه في سورة الأنعام الآية (١٢٥).

عنه لسببٍ آخرَ، وللمبالغة في وصْفِ أولئك بالقَبُولِ وهؤلاءِ بامتناع ذكرِ شرحِ الصدرِ، وأسندَه إلى الله وقابلَه بقساوةِ القلبِ وأسنده إليه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ يظهرُ للناظرِ بأدنى نظرٍ، والآيةُ نزلتْ في حمزةَ وعليٍّ وأبي لهبٍ وولدِه[١].

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ
وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن
يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني القرآنَ، روي أنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ ملُّوا ملَّة فقالوا له حدِّثْنا فنزلتْ[٢]. وفي الابتداءِ باسم الله وبناءِ نزلَ عليه تأكيدٌ للإسناد إليه وتفخيمٌ للمنزل واستشهادٌ على حسنِه. ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ بدلٌ من أحسنَ أو حالٌ منه، وتشابُهُهُ تشابُه أبعاضِه في الإعجازِ وتجاوبُ النظمِ وصِحَّةُ المعنى، والدلالةُ على المنافعِ العامةِ. ﴿مَّثَانِيَ﴾ جمعُ مَثْنَى أو مَثْنَى أو مثنٍ على ما مرَّ في الحِجْر، وصفَ به كتاباً باعتبارِ تفاصيلِه كقولكَ: القرآنُ سورٌ وآياتٌ، والإنسانُ: عظامٌ وعروقٌ وأعصابٌ، أو جُعِلَ تمييزاً من متشابِهاً كقولك: رأيتُ رجلاً حسناً شمائِلُه. ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ تشمئزُّ خوفاً مما فيه من الوعيدِ، وهو مَثَلٌ في شدَّةِ الخوفِ واقشعرارُ الجلدِ تقبُّضه وتركيبُه من حروفِ القشعِ وهو الأديمُ اليابسُ بزيادةِ الراءِ ليصيرَ رباعياً كتركيبِ اقْمَطَرَّ من القمطِ وهو الشدُّ. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ بالرحمةِ وعمومِ المغفرة، والإطلاقُ للإشعار بأنَّ أصْلَ أمرِه الرحمةُ وأنَّ رحمتَه سبقتْ غضبَه، والتعديةُ بإلى لتضمينِ معنى السكونِ والاطمئنانِ، وذِكْرُ القلوبِ لتقدُّمِ الخشيةِ التي هي من عوارضِها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الكتابُ أو الكائنُ من الخشية والرجاء. ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ هدايتَه. ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومن يخذلْه. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ يخرجُهم من الضلال.

(٢٤) ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ﴾ يجعلُه درقةً يقي به نفسَه لأنه يكون يداهُ مغلولةً إلى عنقِه فلا يقدرُ أنْ يتقيَ إلا بوجهِه. ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ كمن هو آمنٌ منه، فحذفَ الخبرَ كما حُذِفَ في نظائرِه.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لهم فوضَعَ الظاهرَ موضِعَه تسجيلاً عليهم بالظلمِ وإشعاراً بالموجبِ لما يُقَالُ لهم وهو: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي وبالَه، والواو للحالِ وقد مقدَّرةٌ.

(٢٥) ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يخطرُ ببالهم أن الشرَّ يأتيهم منها.

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٩) بدون سند.
وانظر «زاد المسير» (٧/ ١٧٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٤/ ٢١١) بسند منقطع.

فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

(٢٦) ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ الذلَّ. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمسخ والخسفِ والقتلِ والسبيِ والإجلاءِ. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المعدُّ لهم. ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدتِه ودوامِه. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا من أهلِ العلمِ والنظرِ لعلموا ذلك واعتبروا به.

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاجُ إليه الناظرُ في أمر دينه. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتَّعِظون به.

(٢٨) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ من هذا والاعتمادُ فيها على الصفةِ كقولك: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً، أو مدحٌ له. ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ لا اختلالَ فيه بوجهٍ ما هو أبلغُ من المستقيمِ وأخصُّ بالمعاني. وقيل بالشكِّ استشهاداً بقوله:

وَقَـدْ أَتَـاكَ يَقِيـنٌ غَيْـرُ ذِيْ عِـوَجٍ   مِـنَ الإِلَـهِ وَقَـوْلٌ غَيْـرُ مَكْـذُوبِ

وهو تخصيصٌ له ببعضِ مدلوله. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عِلَّةٌ أخرى مرتبةٌ على الأُولَى.

(٢٩) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للمشركِ والموحِّد. ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ مثلُ المشركِ على ما يقتضيه مذهبُه من أنْ يدعيَ كلُّ واحد من معبوديه عبوديَّتَه، ويتنازعُوا فيه بعبدٍ يتشارك فيه، جمعَ يتجاذبونه ويتعاورونه في مهمَّاتِهم المختلفةِ في تحيُّرِهِ وتوزُّعِ قلبه، والموحِّدِ بمنْ خلصَ لواحدٍ ليس لغيرِهِ عليه سبيلٌ، ورجلاً بدلٌ من مَثَلٍ وفيه صلةُ شركاءَ، والتَشاكسُ والتشاخصُ الاختلافُ. وقرأ نافع وابنُ عامر والكوفيونَ سَلَماً بفتحتينِ، وقرىء بفتحِ السينِ وكسْرِها مع سكونِ اللامِ وثلاثتُها مصادرُ سَلِمَ نُعِتَ بها، أو حُذِفَ منها ذا ورجلٌ سالمٌ أي وهناك رجلٌ سالم، وتخصيصُ الرجلِ لأنه أفطنُ للضرِّ والنفعِ. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صفةً وحالاً ونَصَبَهُ على التمييزِ ولذلك وحَّدَه، وقرىء مثلينِ للإشعارِ باختلافِ النوعِ، أو لأنَّ المرادَ على يستويانِ في الوصْفَيْنِ على أنَّ الضميرَ للمثلينِ فإنَّ التقديرَ مِثْلُ رجلٍ ومثلُ رجلٍ. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلَّ الحمدِ له لا يشاركُه فيه على الحقيقةِ سواهُ، لأنه المنعِمُ بالذاتِ والمالكُ على الإطلاقِ. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركونَ به غَيْرَهُ من فَرْطِ جهْلِهم.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ فإنَّ الكلَّ بصددِ الموتِ وفي عدادِ الموتى، وقرىء مائتٌ ومائتونَ لأنه مما سيحدُثُ.

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليبِ المخاطَبِ على الغيبِ. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتجُّ عليهم بأنك كنتَ على الحقِّ في التوحيدِ وكانوا على الباطلِ في التشريك، واجتهدت في الإرشادِ والتبليغِ ولجُّوا في التكذيبِ والعنادِ، ويعتذرونَ بالأباطيلِ مِثْلُ أطعنا سادتَنا ووجدْنَا آباءَنا. وقيل المراد به الاختصام العام يخاصم الناس بعضهم بعضاً فيما دار بينهم في الدنيا.

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ
هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

(٣٢) ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بإضافة الولدِ والشريك إليه. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وهو ما جاءَ به محمدٌ ﷺ. ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ من غير توقُّفٍ وتفكُّرٍ في أمرِه. ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ وذلك يكفيهم مجازاةً لأعمالِهم، واللامُ تحتملُ العهدَ والجِنسَ، واستُدِلَّ به على تكفيرِ المبتدِعَةِ فإنهم يكذِّبون بما عُلِمَ صدقُه وهو ضعيفٌ لأنه مخصوصٌ بِمَنْ فاجأ ما علمَ مجيءَ الرسولِ به بالتكذيبِ.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ اللامُ للجنسِ ليتناولَ الرسلَ والمؤمنينَ لقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وقيل هو النبيُّ ﷺ، والمرادُ هو ومَنْ تبعَه كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1]. وقيل الجائي هو الرسولُ والمصدِّقُ أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وذلك يقتضي إضمارَ الذي وهو غيرُ جائزٍ. وقرىء وصَدَقَ به بالتخفيفِ أي صدَقَ به الناسَ فأدَّاه إليهم كما نزلَ من غيرِ تحريفٍ أو صارَ صادقاً بسببِه لأنه معجزٌ يدلُّ على صدقِه، وصُدِقَ به على البناء للمفعول.

(٣٤) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

(٣٥) ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ خصَّ الأسوأَ للمبالغة فإنه إذا كفَّر كان غيرُه أَوْلَى بذلك، أو للإشعارِ بأنهم لاستعظامِهم الذنوبَ يحسبون أنهم مقصِّرون مذنِبُونَ وأنَّ ما يفرطُ منهم من الصغائرِ أسوأُ ذنوبهم، ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى السيءِ كقولهم: الناقصُ والأشجُ أعدلا بني مروانَ، وقرىء أسواءَ جمع سوءٍ. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ ويعطيهم ثوابهم. ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فتعدُّ لهم محاسنُ أعمالهم بأحسنِها في زيادة الأجرِ وعِظَمِه لفرْطِ إخلاصِهم فيها.

(٣٦) ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ استفهامُ إنكارٍ للنفي مبالغةً في الإثبات، والعبدُ رسولُ الله ﷺ ويُحتمَلُ الجنسُ، ويؤيدُه قراءةُ حمزةَ والكسائي عبادَه، وفُسِّرَ بالأنبياء صلواتُ الله عليهم. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني قريشاً فإنهم قالوا له إنا نخافُ أنْ تخبلَكَ آلهتُنا بِعَيْبِك إيَّاها. وقيل إنه بعثَ خالداً ليكسِرَ العزَّى فقال له سادِنُها أُحَذِّرُكَهَا فإن لها شدةً، فعمدَ إليها خالدٌ فهشَمَ أنفَها فنزلَ تخويفُ خالدٍ منزلةَ تخويفِه لأنه الآمرُ له بما خوفَ عليه. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حتى غفلَ عن كفايةِ الله له وخوَّفه بما لا ينفعُ ولا يضرُّ. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الرشادَ.

(٣٧) ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ إذ لا رادَّ لفعله كما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالبٍ منيعٍ. ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقمُ من أعدائِه.

---

(١) المؤمنون: ﴿٤٩﴾.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ
ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ
يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ
ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ
حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ لوضوح البرهان على تفرُّده بالخلقية. ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي أرأيتم بعد ما تحقَّقْتُم أنَّ خالقَ العالم هو اللهُ تعالى، وأنَّ آلهتَكم إنْ أرادَ اللهُ أنْ يصيبَني بِضُرٍّ هل يكشفنَّه. ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ بنفع. ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ فيمسكْنَها عنِّي، وقرأ أبو عمرو كاشفاتٌ ضرَّه ممسكاتٌ رحمته بالتنوينِ فيهما ونصبِ ضُرِّهِ ورحمتِه. ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ﴾ كافياً في إصابة الخيرِ ودفعِ الضرِّ إذ تقرَّر بهذا التقريرِ أنه القادِرُ الذي لا مانعَ لما يريدُه من خيرٍ أو شرٍّ. رُوِيَ أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام سألهم فسكتُوا فنزلَ ذلك. وإنما قال كاشفاتٌ وممسكاتٌ على ما يصفونَها به من الأنوثةِ تنبيهاً على كمال ضعْفِها. ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لعلمِهم بأنَّ الكلَّ منه تعالى.

(٣٩) ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالِكم، اسمٌ للمكانِ اسْتُعِيْرَ للحال كما استعيرَ هنا وحيثُ منَ المكانِ للزمانِ، وقرىء مكاناتِكم. ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ﴾ أي على مكانتي فحُذِفَ للاختصار والمبالغةِ في الوعيدِ، والإشعارِ بأنَّ حالَه لا يقفُ فإنه تعالى يزيدُه على مرِّ الأيام قوةً ونصرةً ولذلك توعَّدَهم بكونِه منصوراً عليهم في الداريْنِ فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

(٤٠) ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإنَّ خِزْيَ أعدائِه دليلُ غَلَبَتِه، وقد أخْزاهم اللهُ يومَ بدْرٍ. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائمٌ وهو عذابُ النار.

(٤١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأَجْلِهم فإنه مناطُ مصالحِهم في معاشِهم ومعادِهم. ﴿بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ متلبِّساً به. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ إذ نفعَ به نفسَه. ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ فإنَّ وبالَه لا يتخطَّاها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وما وُكِّلْتَ عليهم لتجبُرَهم على الهدى وإنما أُمِرْتَ بالبلاغِ وقد بلَّغْتَ.

(٤٢) ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾ أي يقبضُها عن الأبدانِ بأنْ يقطعَ تعلُّقَها عنها وتصرُّفَها فيها، إما ظاهراً وباطناً وذلك عندَ الموت، أو ظاهراً لا باطناً وهو في النوم. ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردُّها إلى البدنِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ قُضِيَ بضم القافِ وكسْرِ الضادِ والموتُ بالرفع. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي النائمةَ إلى بدنها عند اليقظةِ. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ هو الوقتُ المضروبُ لموتِه وهو غاية جنسِ الإرسالِ. وما روي عن ابن عباسٍ رضي الله تعالى عنهما: أنَّ

في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثلُ شعاعِ الشمسِ، فالنفسُ التي بها العقلُ والتمييزُ، والروحُ التي بها النفسُ والحياةُ، فيتوفَّيانِ عند الموتِ وتتوفَّى النفسُ وحدَها عند النوم[1]. قريبٌ مما ذكرناه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ من التوفِّي والإمساكِ والإرسالِ. ﴿لَآيَٰتٍ﴾ دالةً على كمالِ قدرتِه وحكمتِه وشمولِ رحمته. ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفية تعلُّقِها بالأبدانِ وتوفِّيها عنها بالكلِّية حين الموتِ، وإمساكِها باقيةً لا تفنى بفنائِها، وما يعتريها من السعادة والشقاوةِ والحكمةِ في توفِّيها عن ظواهِرِها وإرسالها حيناً بعد حينٍ إلى توفِّي آجالِها.

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

(٤٣) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ بلِ اتخذتْ قريشٌ. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ تشفعُ لهم عندَ الله. ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ ولو كانوا على هذه الصفةِ كما تشاهدونَهم جماداتٍ لا تقدِرُ ولا تعلمُ.

(٤٤) ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ لعلَّه ردٌّ لما عسَى يجيبونَ به وهو أنَّ الشفعاءَ أشخاصٌ مقرَّبون هي تماثيلُهم، والمعنى أنه مالكُ الشفاعةِ كلِّها لا يستطيعُ أحدٌ شفاعةً إلا بإذنه ورضاهُ، ولا يستقلُّ بها، ثمَّ قرَّرَ ذلك فقال: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فإنه مالكُ الملكِ كلِّه لا يملكُ أحدٌ أنْ يتكلَّمَ في أمرِه دونَ إذْنِه ورضاهُ. ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يومَ القيامة فيكون الملكُ له أيضاً حينئذٍ.

(٤٥) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ دونَ آلهتِهم. ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ انقبضتْ ونَفَرَتْ. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني الأوثانَ. ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ لفرْطِ افتتانِهم بها ونسيانِهم حقَّ اللهِ، ولقد بالغَ في الأمرينِ حتى بلغَ الغايةَ فيهما، فإنَّ الاستبشارَ أنْ يمتلىءَ قلبُه سروراً حتى تنبسطَ له بشرةُ وجْهِه، والاشمئزازُ أنْ يمتلىءَ غماً حتى ينبقضَ أديمُ وجْهِه، والعاملُ في ﴿إِذَا ذُكِرَ﴾ العاملُ في إذا المفاجأةُ.

(٤٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ التجِئ إلى الله بالدعاء لما تحيَّرتَ في أمرهم وضجِرتَ من عِنادِهم وشدةِ شكيمتِهم، فإنه القادرُ على الأشياءِ والعالِمُ بالأحوالِ كلِّها. ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فأنتَ وحْدَك تقدِرُ أنْ تحكمَ بيني وبينهم.

(٤٧) ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ وعيدٌ

---

(١) ذكره الماوردي في تفسيره (٥/ ١٢٨).

شديد وإقناطٌ كليٌّ لهم من الخلاص. ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ زيادةُ مبالغةٍ فيه وهو نظيرُ قوله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾[(١)] في الوعْدِ.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا
خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ
سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

(٤٨) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ سيئاتُ أعمالهم أو كسْبُهم حين تُعْرَضُ صحائِفُهم. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاطَ بهم جزاؤُه.

(٤٩) ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبارٌ عن الجنسِ بما يغلبُ فيه، والعطفُ على قوله ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾[(٢)] بالفاءِ لبيان مناقضتِهم وتعكيسِهم في التسبُّبِ بمعنى أنَّهم يشمئزُّون عن ذكْرِ الله وحدَه ويستبشرون بذكْرِ الآلهةِ، فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره دون من استبشروا بذكره، وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناه إياه تفضُّلاً فإنَّ التخويلَ مختصٌّ به. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ﴾ منّي بوجوهِ كسْبِه، أو بأني سأُعطَاهُ لما لي من استحقاقِه، أو من الله بي واستحقاقي، والهاءُ فيه لما إنْ جُعِلَتْ موصولةً وإلا فللنعمة، والتذكير[(٣)] لأنَّ المرادَ شيءٌ منها. ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ امتحانٌ له أيشكرُ أمْ يكفرُ، وهو ردٌّ لما قاله وتأنيثُ الضميرِ باعتبارِ الخيرِ أو لفظِ النعمةِ، وقرىء بالتذكيرِ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلكَ، وهو دليلٌ على أنَّ الإنسانَ للجنسِ.

(٥٠) ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الهاء لقوله ﴿إنما أوتيته على علم﴾[(٤)] لأنها كلمةٌ أو جملةٌ، وقرىء بالتذكيرِ. ﴿والذين مَنْ قَبْلَهُمْ﴾ قارونُ وقومُه فإنه قال ورضيَ به قومُه. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من متاعِ الدنيا. .

(٥١) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ﴾ جزاءُ سيئاتِ أعمالهم أو جزاءُ أعمالهم، وسمَّاه سيئةً لأنه في مقابلةِ أعمالهم السيئةِ رمزاً إلى أنَّ جميعَ أعمالِهم كذلك. ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالعتوِّ. ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركينَ ومِنْ للبيانِ أو للتبعيضِ. ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ كما أصابَ أولئك، وقد أصابَهم فإنَّهم قُحطُوا سبعَ سنينَ وقُتِلَ ببدرٍ صناديدُهم. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتينَ.

(٥٢) ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ حيث حَبَسَ عنهم الرزقَ سبعاً ثم بسطَ لهم

---

(١) السجدة: «١٧».
(٢) الزمر: «٤٥».
(٣) تذكير الضمير مع أنه يعود على مؤنث.
(٤) الزمر: «٤٩».

سبعاً. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الحوادثَ كلَّها من الله بوسطٍ أو غيرِه.

﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

(٥٣) ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أفرطُوا في الجنايةِ عليها بالإسرافِ في المعاصي، وإضافةُ العبادِ تخصِّصُه بالمؤمنين على ما هو عُرْفُ القرآن. ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيأسُوا من مغفرتِه أولاً وتفضُّله ثانياً. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عفواً ولو بَعْدَ بُعْدٍ، وتقييدُه بالتوبة خلافُ الظاهرِ ويدلُّ على إطلاقِه فيما عدا الشركَ قولُه تعالى ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآيةَ، والتعليلُ بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على المبالغة. وإفادةُ الحصْرِ والوعْدِ بالرحمةِ بعدَ المغفرة، وتقديمُ ما يستدعي عمومَ المغفرةِ مما في عبادي من الدلالةِ على الذلّةِ والاختصاصِ المقتضيينِ للترحُّم، وتخصيصُ ضررِ الإسرافِ بأنفسِهم والنهيُ عن القنوطِ مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة وإطلاقِها، وتعليلُه بأنَّ الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً، ووضْعُ اسمِ الله موضعَ الضمير لدلالتِه على أنه المستغني والمنعِمُ على الإطلاقِ، والتأكيدُ بالجميع. وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما أحبُّ أنْ تكونَ لي الدنيا وما فيها بها» فقال رجلٌ: يا رسولَ الله ومَنْ أشركَ؟ فسكتَ ساعةً ثم قال: «ألا ومَنْ أشركَ ثلاثَ مراتٍ»[1]. وما روي أنَّ أهلَ مكَّةَ قالوا: يزعمُ محمدٌ أنَّ مَنْ عبدَ الوثَنَ وقتلَ النفسَ بغير حقٍّ لم يُغْفَرْ له فكيفَ ولم نهاجِرْ وقد عبدْنا الأوثانَ وقتلْنا النفسَ فنزلتْ[2]. وقيل في عياشٍ والوليدِ بنِ الوليدِ في جماعةٍ افتتنوا[3]، أو في الوحْشيِّ لا ينفي عمومَها[4] وكذا قولُه:

(٥٤) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ فإنَّها لا تدلُّ على حصولِ المغفرةِ لكلِّ أحدٍ من غيرِ توبة وسَبْقِ تعذيبٍ لتُغْني عن التوبةِ والإخلاصِ في العمل وتنافي الوعيدِ بالعذاب.

(٥٥) ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ القرآنَ أوِ المأمورَ به دونَ المنهي عنه، والعزائمَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٢/ج٢٤/١٥) وأحمد (٥/ ٢٧٥) والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (٧/ ١٠٠) من حديث ثوبان.
قال الهيثمي: فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٦٩.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٢/ج٢٤/١٥) عن ابن عمر، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث في هذه الرواية.

(٤) أخرج البخاري (٨/ ٥٤٩ رقم ٤٨١٠) ومسلم (١/ ١١٣ رقم ١٩٣/ ١٢٢) وأبو داود (٤/ ٤٦٥ رقم ٤٢٧٣) والحاكم (٢/ ٤٠٣).
عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو لحسنٌ. ولو تخبرنا أنَّ لما عملنا كفارةً، فنزل «والذين لا يدعونَ مع الله إلهاً آخر...» [الفرقان: ٦٨] ونزل: «يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم.. الآية».

دونَ الرُّخَصِ أو الناسخَ دونَ المنسوخِ، ولعلَّه ما هو أنْجَى وأسْلَمُ كالإنابةِ والمواظبةِ على الطاعة. ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ بمجيئه فتتداركُوا.

أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾ كراهةَ أنْ تقولَ، وتنكيرُ نفسٍ لأنَّ القائلَ بعضُ الأنفسِ أو للتكثيرِ كقولِ الأعْشَى:

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضبا

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ وقرىء بالياءِ على الأصْلِ. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ بما قصَّرتُ. ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ في جانبه أي في حقِّه وهو طاعتُه. قال سابقٌ البربري:

أَمَا تَتَّقِينَ الله فِي جَنْبِ وَامِقٍ لَهُ كبدٌ حَرِيّ عَلَيْكَ تَقَطَّعُ

وهو كنايةٌ فيها مبالغةٌ كقوله:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ

وقيل ذاتُه على تقديرِ مضافٍ كالطاعة، وقيل في قربه من قوله «والصاحب بالجَنْبِ»، وقرىء في ذكرِ الله. ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ المستهزئين بأهله، ومحلُّ ﴿إن كنت﴾ نصبٌ على الحالِ كأنه قال فرَّطْتُ وأنا ساخِرٌ.

(٥٧) ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ بالإرشادِ إلى الحقِّ. ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الشركَ والمعاصي.

(٥٨) ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في العقيدةِ والعملِ، وأو للدلالةِ على أنَّها لا تخلو من هذه الأقوالِ تحيُّراً وتعلُّلاً بما لا طائلَ تحتَه.

(٥٩) ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ردٌّ من الله عليه لما تضمَّنه قولُه ﴿لو أن الله هداني﴾ من معنى النفي وفصلُه عنه لأنَّ تقديْمَهُ يفرقُ القرائنَ، وتأخيرُ المودودِ يخلُّ بالنظمِ المطابِقِ للوجودِ لأنه يتحسَّرُ بالتفريطِ ثم يتعلَّلُ بفقْدِ الهداية ثم يتمنَّى الرجعةَ، وهو لا يمنعُ تأثيرَ قدرةِ الله في فعلِ العبدِ ولا ما فيه من إسنادِ الفعلِ إليه كما عرفْتَ، وتذكيرُ الخطابِ على المعنى، وقرىء بالتأنيثِ للنفسِ.

(٦٠) ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأنْ وصفوه بما لا يجوزُ كاتخاذِ الولد. ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ بما ينالهم من الشدةِ أو بما يتخيلُ عليها من ظلمةِ الجهلِ، والجملةُ حالٌ إذِ الظاهرُ أنْ ترَى من رؤيةِ البصرِ واكْتُفِيَ فيها بالضميرِ عن الواو. ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى﴾ مقامٌ. ﴿لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة وهو تقريرٌ لأنهم يَرَوْنَ كذلك.

وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾

(٦١) ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ وقرىء ويُنْجِي. ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحِهم مفعلةٌ من الفوز، وتفسيرها بالنجاةِ تخصيصُها بأهمِّ أقسامِه وبالسعادةِ والعملِ الصالحِ إطلاقٌ لها على السبب، وقرأ الكوفيونَ غيرَ حفصٍ بالجمعِ تطبيقاً لهم، والباء فيها للسببيةِ صلةٌ لينجي أو لقولِه: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهو حالٌ أو استئنافٌ لبيانِ المفازة.

(٦٢) ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من خيرٍ وشرٍّ وإيمان وكفرٍ. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولَّى التصرُّفَ.

(٦٣) ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يملكُ أَمْرَهَا ولا يتمكنُ من التصرفِ فيها غيرهُ، وهو كنايةٌ عن قدرتهِ وحفظِه لها وفيها مزيدُ دلالةٍ على الاختصاصِ، لأنَّ الخزائنَ لا يدخلُها ولا يتصرفُ فيها إلا مَنْ بيدهِ مفاتيحُها، وهو جمعُ مِقْلِيدٍ أو مقلادٍ من قلَّدتُه إذا ألزمتُهُ، وقيل جمعُ إقليدٍ معرَّبُ إكليدٍ على الشذوذِ كمذاكيرَ. وعن عثمانَ رضيَ الله عنه أنه سأل النبيَّ ﷺ عن المقاليدِ فقال: «تفسيرُها لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحانَ الله وبحمدِه وأستغفرُ اللهَ ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، هو الأولُ والآخِرُ والظاهر والباطنُ، بيده الخيرُ يحيي ويميتُ وهو على كلِّ شيء قدير»[١]. والمعنى على هذا إنَّ لله هذه الكلماتِ يوحَّدُ بها ويمجَّدُ، وهي مفاتيحُ خيرِ السمواتِ والأرض مَنْ تكلَّم بها أصابَهُ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ متصلٌ بقوله ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾[٢] وما بينهما اعتراضٌ للدلالةِ على أنه

---

(١) وهو حديث موضوع.
- أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (١/ ١١٧ ـ ١١٨) و(٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٧٣) والذهبي في الميزان (٤/ ٨٤ ـ ٨٥).
وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٤٤ ـ ١٤٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص١٣ من حديث ابن عمر.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١١٥) وقال: «رواه الطبراني في «الكبير» وفيه الأغلب بن تميم وهو ضعيف» هـ.
وقال ابن الجوزي: «وهذا حديث لا يصح قال: أما الأغلب فقال يحيى: ليس بشيء وأما مخلد فقال ابن حبان منكر الحديث جداً ينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقاة، وأما عبدالرحيم فكذا في رواية يوسف القاضي، وفي رواية العقيلي عبدالرحمن المدني وهو ضعيف. وهذا الحديث من الموضوعات النادرة التي لا تليق بمنصب رسول الله ﷺ لأنه منزه عن الكلام الركيك والمعنى البعيد» هـ.
وقال الذهبي: «هذا موضوع فيما أرى» هـ.
وانظر «تنزيه الشريعة» (١/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

(٢) الزمر: «٦١».

مهيمنٌ على العبادِ مطلعٌ على أفعالِهم مجازٍ عليها، وتغييرُ النظمِ للإشعارِ بأنَّ العمدةَ في فلاحِ المؤمنينَ فضلُ الله وفي هلاكِ الكافرين أنْ خسِروا أنفسَهم، وللتصريحِ بالوعْدِ والتعريضِ بالوعيدِ قضيةٌ للكرمِ أو بما يليهِ، والمرادُ بآياتِ الله دلائلُ قدرتهِ واستبدادُه بأمْرِ السمواتِ والأرضِ، أو كلماتُ توحيده وتمجيدِه، وتخصيصُ الخسارِ بهم لأنَّ غيرَهُم ذو حظٍّ من الرحمةِ والثواب.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

(٦٤) ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ أي أفغيرَ اللهِ أعبدُ بعدَ هذه الدلائلِ والمواعيدِ، وتأمروني اعتراضٌ للدلالة على أنَّهم أمروه به عقيبَ ذلك وقالوا استلِمْ بعضَ آلهتنا ونؤمنُ بإلهك لفرْطِ غباوتهم، ويجوزُ أنْ ينتصبَ غيرُ بما دلَّ عليه تأمروني أنْ أعبدَ لأنه بمعنَى تعبدونَني على أنَّ أصلَه تأمرونني أنْ أعبدَ فحذفَ أنْ ورفَعَ كقوله:

أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِري أَحْضِر الوَغَى

ويؤيدُه قراءةُ أعبدَ بالنصبِ، وقرأ ابنُ عامرٍ تأمرونني بإظهارِ النونينِ على الأصْلِ، ونافعٌ بحذفِ الثانية فإنها تُحْذَفُ كثيراً.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي من المرسل. ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ كلامٌ على سبيلِ الفرَض، والمرادُ به تهييجُ الرسل وإقناطُ الكفرةِ والإشعارُ على حكمِ الأمَّةِ، وإفرادُ الخطابِ باعتبارِ كلٍّ واحد، واللامُ الأُولى موطِّئةٌ للقسمِ والأخريانِ للجوابِ، وإطلاقُ الإحباطِ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ من خصائِصِهم لأنَّ شِرْكَهم أقبحُ، وأنْ يكونَ على التقييدِ بالموتِ كما صرَّح به في قوله ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾[1] وعطفُ الخسرانِ عليه من عطفِ المسبَّبِ على السببِ.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ ردٌّ لما أَمَرُوْهُ به ولولا دلالةُ التقديم على الاختصاص لم يكنْ كذلك. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ إنعامَه عليك، وفيه إشارةٌ إلى موجِبِ الاختصاصِ.

(٦٧) ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ما قدروا عظَمَتَهُ في أنفسِهم حقَّ تعظيمِه حيثُ جعلُوا له شركاءَ ووصفُوه بما لا يليقُ به، وقرىء بالتشديدِ. ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾ تنبيهٌ على عظمتِه وحقارةِ الأفعالِ العِظامِ التي تتحيَّرُ فيها الأوهامُ بالإضافةِ إلى قدرتِه، ودلالةٌ على أنَّ تخريبَ العالم أهونُ شيءٍ عليه على طريقةِ التمثيلِ والتخييلِ من غير اعتبارِ القبضةِ واليمينِ حقيقةً ولا مجازاً كقولهم: شابتْ لِمَّةُ الليلِ، والقبضةُ المرَّةُ من القبْضِ أُطْلِقَتْ بمعنى القبضةِ

(١) البقرة: «٢١٧».

وهي المقدارُ المقبوضُ بالكفِّ تسميةً بالمصدرِ، أو بتقديرِ ذاتِ قبضةٍ. وقرىء بالنصبِ على الظرفِ تشبيهاً للمؤقَّت بالمبهَم، وتأكيدُ الأرضِ بالجميعِ لأنَّ المرادَ بها الأرَضُونَ السبعُ أو جميع أبعاضِها الباديةُ والغائرةُ. وقرىء مطوياتٍ على أنها حالٌ، والسمواتُ معطوفةٌ على الأرضِ منظومةٌ في حكمِها. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعدَ وأعلى من هذه قدرتَه وعظمَتَه عن إشراكِهم، أو ما يضافُ إليه من الشركاءِ.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ يعني المرةَ الأُولى. ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خرَّ ميتاً أو مَغْشِيّاً عليه. ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيل جبريلُ ومكائيلُ وإسرافيلُ فإنهم يموتونَ بعدُ. وقيل حَمَلَةُ العرش. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ نفخةٌ أخرى وهي تدلُّ على أنَّ المرادَ بالأولى، ونفخَ في الصورِ نفخةٌ واحدةٌ كما صرَّح به في مواضِعَ، وأخرى تحتملُ النصبَ والرفعَ. ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمونَ من قبورِهم أو متوقِّفونَ، وقرىء بالنصبِ على أنَّ الخبرَ ﴿يَنظُرُونَ﴾ وهو حالٌ من ضميرِه والمعنى: يقلِّبونَ أبصارَهم في الجوانبِ كالمبهوتينَ أو ينتظرونَ ما يُفْعَلُ بهم.

(٦٩) ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقامَ فيها من العدْلِ، سمَّاه نوراً لأنه يزيِّنُ البقاعَ ويظهرُ الحقـوقَ كما سُمِّيَ الظلمُ ظلْمةً. وفي الحديثِ «الظلم ظلماتٌ يوم القيامة»[1]. ولذلك أضافَ اسْمَه إلى الأرضِ، أو بنـورٍ خُـلِـقَ فيها بـلا واسطةِ أجسامٍ مضيئةٍ ولذلك أضافَه إلى نفسِه. ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ للحساب والجزاءِ من وضَعَ المحاسِبُ كتابَ المحاسبةِ بينَ يديه، أو صحائفَ الأعمالِ في أيدي العمالِ، واكْتَفَى باسمِ الجنسِ عن الجمْعِ. وقيل اللوحُ المحفوظُ يُقَابِلُ به الصحائفَ. ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين يشهدونَ للأممِ وعليهم من الملائكةِ والمؤمنينَ، وقيل المستشهدونَ. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بينَ العبادِ. ﴿بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ أو زيادةِ عقابٍ على ما جَرَى بِهِ الوعد.

(٧٠) ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ جزاءه. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوتُه شيءٌ من أفعالهم، ثم فصَّل التوفيةَ فقال:

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٠٠ رقم ٢٤٤٧) ومسلم (٤/ ١٩٩٦ رقم ٥٧/ ٢٥٧٩) وأحمد (٢/ ١٣٧، ١٥٦) والترمذي (٤/ ٣٧٧ رقم ٢٠٣٠) من حديث ابن عمر. وأخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٦ رقم ٢٥٧٨/٥٦) وأحمد (٣/ ٣٢٣) من حديث جابر.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ
رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ
ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ
عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾

(٧١) ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ أفواجاً متفرِّقةً بعضُها في أَثَرِ بعضٍ على تفاوتِ أقدامِهِم في الضلالة والشرارةِ، جمعُ زمرةٍ، واشتقاقُها من الزَّمرِ وهو الصوتُ. إذ الجماعةُ لا تخلو عنه، أو مِن قولهم: شاةٌ زَمِرَةٌ قليلةُ الشعرِ، ورجلٌ زَمِرٌ قليلُ المروءةِ، وهي الجمعُ القليلُ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ليدخلُوها، وحتى هي التي تُحكَى بعدَها الجملةُ، وقرأ الكوفيونَ فُتِحَتْ بتخفيفِ التاءِ. ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعاً وتوبيخاً. ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ من جنسِكم. ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ وقتُكم هذا، وهو وقتُ دخولهم النارَ، وفيه دليلٌ على أنه لا تكليفَ قبل الشرعِ من حيثُ إنهم علَّلُوا توبيخَهم بإتيانِ الرسل وتبليغ الكتبِ. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كلمةُ الله بالعذابِ علينا وهو الحكمُ عليهم بالشقاوةِ، وأنَّهم من أهلِ النارِ، وَوَضعَ الظاهرَ فيه موضِعَ الضميرِ للدلالة على اختصاصِ ذلك بالكفرةِ، وقيل هو قوله ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾[1].

(٧٢) ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أَبهَمَ القائلَ لتهويل ما يُقالُ لهم. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى﴾ مكانُ. ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللامُ فيه للجنسِ، والمخصوصُ بالذمِّ سبقَ ذِكرُهُ، ولا ينافي إشعارَه بأنَّ مثواهُم في النار لتكبُّرِهم عن الحقِّ أنْ يكون دخولُهم فيها لأنَّ كلمةَ العذابِ حقَّتْ عليهم، فإنَّ تكبُّرَهُم وسائرَ مقابِحِهم مسبَّبَةٌ عنه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ تعالى إذا خلقَ العبدَ للجنةِ استعملَه بعملِ أهلِ الجنة، حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ الجنةِ فيدخلُ الجنةَ. وإذا خَلَقَ العبدَ للنارِ استعملَه بعملِ أهلِ النار حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ النار، فيدخلُ به النارَ»[2].

(٧٣) ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ إسراعاً بهم إلى دارِ الكرامة، وقيل سيقَ مراكِبُهم إذ لا يُذْهَبُ بهم إلاَّ راكبينَ. ﴿زُمَرًاۖ﴾ على تفاوتِ مراتِبِهم في الشرفِ وعلوِّ الطبقة. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ حُذِفَ جوابُ إذا للدلالة على أنَّ لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيطُ به

---

(١) هود: «١١٩».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٨٩٨/٢ ـ ٨٩٩ رقم ٢) وأبو داود (٨٠/٥ رقم ٤٧٠٣) والترمذي (٢٦٦/٥ رقم ٣٠٧٥) وأحمد (٤٤/١ ـ ٤٥) من حديث عمر.

قال الترمذي: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً.

إلا أن المحدث الألباني قال في ضعيف أبي داود (صحيح ـ إلا مسح الظهر ـ).

الوصفُ، وأنَّ أبوابَ الجنة تُفتَحُ لهم قبلَ مجيئهم غيرَ منتظرين، وقرأ الكوفيونَ فُتِحَتْ بالتخفيفِ. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يعتريكُم بعدُ مكروهٌ. ﴿طِبْتُمْ﴾ طَهُرْتُم من دَنَسِ المعاصي. ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ مقدِّرِيْنَ الخلودَ فيها، والفاءُ للدلالة على أنَّ طِيْبَهُم سببٌ لدخولهم وخلودِهم، وهو لا يمنعُ دخولَ العاصي بعفوهِ لأنه مطهِّرُهُ.

وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

(٧٤) ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالبعثِ والثوابِ. ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يريدون المكانَ الذي استقرُّوا فيه على الاستعارة، وإيراثُها تمليكُها مخلَّفةً عليهم من أعمالهم أو تمكينُهم من التصرُّفِ فيها تمكينَ الوارثِ فيما يرِثُه. ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي يتبوأ كلٌّ منا في أي مقام أراده من جنَّته الواسعةِ، مع أن في الجنة مقاماتٍ معنويةً لا يتمانع واردُوها. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجنةُ.

(٧٥) ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ محدِقين. ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي حولَه، ومِنْ مزيدةٌ أو لابتداءِ الحفوفِ. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ملتبسين بحمده. والجملة حالٌ ثانية أو مقيِّدةٌ للأولى، والمعنى ذاكرين له بوصْفَيْ جلاله وإكرامه تلذُّذاً به، وفيه إشعارٌ بأنَّ منتهى درجاتِ العلِّيِّينَ وأعلى لذائذِهم هو الاستغراق في صفاتِ الحقِّ. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بين الخلْق بإدخال بعضِهم النارَ وبعضِهم الجنةَ، أو بين الملائكةِ بإقامتهم في منازِلهم على حَسَبِ تفاضُلِهم. ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على ما قُضِيَ بيننا بالحقِّ. والقائلون هم المؤمنون من المقضي بينَهم أو الملائكةُ وعلى ذِكْرِهم لِتَعَيُّنِهِمْ وتعظيمهم. عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورةَ الزمر لم يقطعْ رجاءَه يومَ القيامة وأعطاه الله ثوابَ الخائفينَ»[1]. عن عائشةَ رضي الله عنها «أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأُ كلَّ ليلةٍ بني إسرائيلَ والزمرَ»[2] والله أعلمُ.

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٧٥ رقم ٣٤٠٥) وأحمد (٦/ ٦٨، ١٢٢) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (ص٤٣٤ رقم ٧١٢) والحاكم (٢/ ٤٣٤) من حديث عائشة في أثناء حديث.
قال الترمذي: حسن غريب، وسكت عليه الحاكم والذهبي.
وحسن الحديث الدكتور فاروق حمادة في تحقيق عمل اليوم والليلة للنسائي.

سُورَةُ غَافِرٍ

آياتها ٨٥ — ترتيبها ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾

سورة المؤمن مكية[1] وآيها خمس وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾ أمالَه ابنُ عامر وحمزةُ والكسائي وأبو بكر صريحاً، ونافعٌ برواية وَرْشٍ وأبو عمرو بَيْنَ بَيْنَ، وقُرِىءَ بفتح الميم على التحريكِ لالتقاء الساكنين، أو النصبِ بإضمارِ اقرأْ. ومنْعُ صَرْفِهِ للتعريفِ والتأنيثِ، أو لأنها على زِنَةِ أعجميٍّ كقابيلَ وهابيلَ.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ لعلَّ تخصيصَ الوصْفينِ لما في القرآن منَ الإعجازِ والحِكَمِ الدالِّ على القدرة الكاملة والحكمة البالغةِ.

(٣) ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ صفاتٌ أخرى لتحقيق ما فيه من الترغيب والترهيب والحثِّ على ما هو المقصودُ منه، والإضافةُ فيها حقيقةٌ على أنه لم يُرَدْ بها زمانٌ مخصوصٌ.

---

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أنزلت الحواميم السبع بمكة.
وأخرج ابن جرير عن الشعبي ـ رضي الله عنه ـ قال: أخبرني مسروق رضي الله عنه أنها أنزلت بمكة.
وأخرج ابن مردويه والديلمي عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت الحواميم جميعاً بمكة.
وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت حم (المؤمن) بمكة، انظر الدر المنثور: (٧/ ٢٦٨).

وأُرِيْدَ بشديد العقاب مشدِّده أو الشديدِ عقابُه، فَحُذِفَ اللامُ للازدواجِ وأَمْنِ الالتباسِ أو إبدالٌ، وجَعْلُه وحْدَه بدلاً مشوّشٌ للنَّظْم. وتوسيطُ الواوِ بينَ الأوَّلَيْنِ لإفادة الجمع بين محوِ الذنوب وقبولِ التوبة، أو تغايرُ الوصْفَيْنِ إذ ربَّما يُتَوَهَّمُ الاتحادُ، أو تغايرُ موقعِ الفعلين لأنَّ الغفرَ هو السترُ فيكون لذنْبٍ باقٍ وذلك لمن لم يتبْ (فإنَّ التائبَ من الذنبِ كَمَنْ لا ذنْبَ له)[1]. والتوبُ مصدرٌ كالتوبةِ، وقيل جمعاً. والطَّوْلُ الفضلُ بتركِ العقابِ المستحِقِّ. وفي توحيد صفةِ العذاب مغمورةً بصفاتِ الرحمة دليلُ رُجْحَانِها. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجبُ الإقبالُ الكليُّ على عبادته. ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيجازي المطيعَ والعاصي.

(٤) ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لما حقَّق أمرَ التنزيل سجَّلَ بالكفرِ على المجادِلِيْنَ فيه بالطعنِ وإدحاضِ الحقِّ لقوله ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[2] وأما الجدالُ فيه لِحَلِّ عُقَدِهِ واستنباطِ حقائقِه وقطعِ تشبُّثِ أهلِ الزيغ به وقطْعِ مطاعِنهم فيه فَمِنْ أعظمِ الطاعاتِ، ولذلك قال عليه الصلاةُ والسلام: «إنَّ جِدالاً في القرآن كفرٌ»[3] بالتنكير مع أنه ليس جدالاً فيه على الحقيقة. ﴿فَلَا

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٢/ ١٤٢٠ رقم ٤٢٥٠) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٨٥ رقم ١٠٢٨١) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢١٠) والقضاعي في مسند الشهاب رقم (١٠٨) والسهمي في تاريخ جرجان ص٣٩٩ والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٥٤) من حديث ابن مسعود.
قلت: في سنده انقطاع لأن أبا عبيدة بن عبدالله بن مسعود لم يسمع من أبيه. لكن للحديث متابع وشواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن.
أما المتابع فقد أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٥٤) من طريق عبدالكريم الجزري عن زياد بن أبي مريم عن عبدالله بن معقل عن ابن مسعود وإسناده حسن.
أما الشواهد: (فالأول) أخرجه البيهقي (١٠/ ١٥٤) وفي الشعب (٥/ ٤٣٦ رقم ٧١٧٨) من حديث ابن عباس.
وفي سنده سلم بن سالم، وسعيد بن عبدالجبار كلاهما ضعيف.
(والثاني): أخرجه البيهقي (١٠/ ١٥٤) من حديث أبي عتبة الخولاني.
(والثالث): أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٩٨) من حديث أبي سعد الأنصاري وفي سنده: يحيى بن أبي خالد، وابن أبي سعد كلاهما مجهول.
والحديث حسنه الحافظ ابن حجر كما نقل عنه السخاوي وقال: يعني لشواهده.
وكذا الألباني. المقاصد الحسنة (رقم: ٣١٣) والضعيفة (رقم ٦١٥ و٦١٦).
(٢) غافر: «٥».
(٣) أخرجه الطيالسي في مسنده (ص٣٠٢ رقم ٢٢٨٦) من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ: «لا تجادلوا في القرآن فإن جدالاً فيه كفر».
وفي إسناده: فليح بن سليمان وهو صدوق كثير الخطأ. لكن الحديث له شواهد ينجبر بها هذا الضعف وقد صححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢١٠ رقم ٧٢٢٣).
وأخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٠٤، ٢٠٥) من حديث عمرو بن العاص في سياق طويل بلفظ «لا تماروا فيه فإن المراء فيه كفر».
وقال الألباني: وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات على شرط مسلم ـ كما في «الصحيحة» (رقم: ١٥٢٢) ـ.
وأخرج الإمام أحمد أيضاً (٤/ ١٦٩ ـ ١٧٠) وابن جرير في «جامع البيان» (١/ج١/ ١٩) من حديث أبي جهيم بن الحارث كحديث عمرو بن العاص. =

يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ فلا يغرزك إمهالُهم وإقبالُهم في دنياهم وتقلُّبهم في بلاد الشام واليمنِ بالتجاراتِ المربحة فإنهم مأخوذون عما قريبٍ بكفرِهم أَخْذَ مَنْ قبلَهم كما قال:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾

(٥) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ والذين تحزَّبوا على الرسُل وناصَبُوهم بعدَ قوم نوح كعادٍ وثمودَ. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هؤلاءِ. ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرىء برسولِها. ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكَّنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيبٍ وقتلٍ من الأخْذِ بمعنى الأسْرِ. ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بما لا حقيقةَ له. ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليزيلُوه به. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك جزاءً لهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنكم تمرون على ديارهم وترونَ أثره، وهو تقريرٌ فيه تعجيبٌ.

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وعيدُه أو قضاؤُه بالعذاب. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بكفرِهم. ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بدلٌ من كلمة ربِّك بدلُ الكلِّ أو الاشتمالِ على إرادةِ اللفظ أو المعنى.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ الكروبيُّون أعلى طبقاتِ الملائكةِ وأوَّلُهم وجوداً، وحملُهم إياه وحفيفُهم حولَه مجازٌ عن حفظِهم وتدبيرهم له، أو كنايةٌ عن قُرْبِهم من ذي العرش ومكانتِهم عندَه وتوسُّطِهم في نَفَاذِ أمرِه. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يذكرون اللهَ بمجامعِ الثناء من صفاتِ الجلال والإكرام، وجعلَ التسبيحَ أصلاً والحمدَ حالاً لأنَّ الحمدَ مقتضى حالهم دون التسبيح أصلاً. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أَخْبَرَ عنهم بالإيمان إظهاراً لفضلِه وتعظيماً لأهلِه، ومساقُ الآيةِ لذلك كما صرَّح به بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وإشعاراً بأنَّ حَمَلَةَ العرش وسُكَّانَ الفرْشِ في معرفته سواءٌ رداً على المجسِّمة[1]، واستغفارُهم شفاعتُهم وحملُهم على التوبة وإلهامُهم ما يوجِبُ المغفرةَ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ المشاركةَ في الإيمانِ توجِبُ النُّصْحَ والشفقةَ وإنْ تخالفتِ الأجناسُ لأنها أقوى المناسباتِ كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]. ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون ربَّنا وهو بيانٌ ليستغفرون أو حالٌ. ﴿وَسِعْتَ

= وأخرج أبو داود (٥/ ٩ رقم ٤٦٠٣) وأحمد (٢/ ٢٨٦، ٣٠٠، ٤٧٥، ٥٠٣، ٥٢٨) وابن جرير في «جامع البيان» (١/ج١/ ١١) والحاكم (٢/ ٢٢٣) وابن حبان (ص٤٤٠ رقم ١٧٨٠) من حديث أبي هريرة، بلفظ «المراء في القرآن كفر». وصححهُ الألباني في الصحيحة (رقم: ١٥٢٢).

(١) انظر «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية. تحقيق: د. محمد رشاد سالم (١/ ١٠٤ ـ ١١١).

(٢) الحجرات: «١٠».

كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي وسعت رحمتُك وعِلْمُك فأُزِيلَ عن أصلِه للإغراقِ في وصْفِه بالرحمةِ والعلْم. والمبالغةُ في عمومِها، وتقديمُ الرحمة لأنها المقصودةُ بالذاتِ ها هنا. ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ للذين علمْتَ منهم التوبةَ واتباعَ سبيلِ الحقِّ. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ واحفظْهم عنه وهو تصريحٌ بعدَ إشعارٍ للتأكيدِ والدلالةِ على شدَّةِ العذاب.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ
إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ
مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾

(٨) ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ وعدتَهم إياها. ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطفٌ على هم الأولِ أي أدخلْهم ومعَهُم هؤلاء ليتمَّ سرورُهم، أو الثاني لبيانِ عمومِ الوعْدِ، وقرىء جنةَ عدنٍ وصلُح بالضمِّ وذريَّتهم بالتوحيد. ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنعُ عليه مقدورٌ. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلا ما تقتضيه حِكْمتُه ومن ذلك الوفاءُ بالوعد.

(٩) ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ العقوباتِ أو جزاءَ السيئاتِ، وهو تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ، أو تخصيصٌ بِمَنْ صَلَحَ أو المعاصي في الدنيا لقوله: ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أي ومَنْ تَقِهَا في الدنيا فقد رَحِمْتَهُ في الآخرة كأنهم طلبوا السببَ بعدَ ما سألوا المسبَّبَ. ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني الرحمةَ أوِ الوقايةَ أو مجموعَهُما.

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾ يومَ القيامةِ فيُقَالُ لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لمقتُ اللهِ إياكم أكبرُ من مقْتِكم أنفسَكم الأمارةَ بالسوءِ. ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ظرفٌ لفعلٍ دلَّ عليه المقتُ الأولُ لا له لأنه أخْبرَ عنه، ولا للثاني لأنَّ مقْتَهُم أنفسَهم يومَ القيامة حينَ عاينوا جزاءَ أعمالِهم الخبيثةِ إلا أنْ يُؤَوَّلَ بنحوِ بالصَّيْفِ ضيَّعْتِ اللَّبَن، أو تعليلٌ للحكم. وزمانُ المقْتَيْنِ واحدٌ.

(١١) ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ إماتَتَيْنِ بأنْ خلقْتَنا أمواتاً أولاً ثم صيَّرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالِنا، فإنَّ الإماتةَ جعْلُ الشيءِ عادِمَ الحياة ابتداءً، أو بتصييرٍ كالتصغيرِ والتكبيرِ، ولذلك قيل سبحانَ مَنْ صغَّر البعوضَ وكبَّر الفيلَ[1]، وإنْ خصَّ بالتصيير فاختيار الفاعلِ المختارِ أحدَ مفعوليه تصييرٌ وصرفٌ له عن الآخَرِ. ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الإحياءةُ الأولى وإحياءةُ البعث. وقيل الإماتةُ الأولى عندَ انخرامِ الأجلِ

---

(١) أي خلقه كبيراً. لا أنه خلقه صغيراً ثم كبّره، وهم كانوا في حكم الموتى قبل الخلق لا أنهم كانوا أحياء ثم أماتهم الله كما يقتضيه ظاهر لفظ الإماتة.

والثانية في القبر بعدَ الإحياءِ للسؤالِ والإحياءانِ ما في القبر والبعْثِ، إذِ المقصودُ اعترافُهم بعدَ المعاينة بما غَفَلُوا عنه ولم يكترثُوا به ولذلك تسبَّبَ بقوله: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فإنَّ اقترافَهم لها من اغترارِهم بالدنيا وإنكارِهم البعثَ. ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ﴾ نوع خروج من النار. ﴿مِّن سَبِيلٖ﴾ طريقٍ فنسلُكُه وذلك إنما يقولونه من فَرْطِ قنوطِهم تعلُّلاً وتحيُّراً ولذلكَ أُجِيبُوا بقوله:

ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي أنتم فيه. ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ بسببِ أنه. ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ﴾ متحداً أو توحَّد وحْدَه فحُذِفَ الفعلُ وأُقِيمَ مقامَه في الحاليةِ. ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ بالتوحيد. ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ بالإشراك. ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾ المستحقّ للعبادة حيث حكمَ عليكم بالعذاب السَّرمدِ الدائم. ﴿ٱلۡعَلِيِّ﴾ عن أنْ يُشْرَكَ به ويسوَّى بغيرِه. ﴿ٱلۡكَبِيرِ﴾ حيثُ حكمَ على مَنْ أشركَ وسوَّى به بعضَ مخلوقاته في استحقاقِ العبادة بالعذاب السَّرمدِ.

(١٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالَّةَ على التوحيدِ وسائر ما يجب أنْ يُعْلَمَ تكميلاً لنفوسِكم. ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ أسبابَ رزقٍ كالمطرِ[1] مراعاةً لمعاشِكم. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآياتِ التي هي كالمركوزة في العقولِ لظهورِها المغفولِ عنها للانهماك في التقليدِ واتباعِ الهوى. ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجِعُ عن الإنكارِ بالإقبالِ عليها والتفكُّرِ فيها، فإنَّ الجازمَ بشيءٍ لا ينظرُ فيما ينافيه.

(١٤) ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشركِ. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إخلاصَكم وشَقَّ عليهم.

(١٥) ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ خبرانِ آخرانِ للدلالة على علوِّ صمديَّتِهِ من حيثُ المعقولُ والمحسوسُ الدالُّ على تفرُّدِهِ في الألوهيةِ، فإنَّ منِ ارتفعتْ درجاتُ كمالِه بحيثُ لا يظهرُ دونَها كمالٌ وكان العرشُ الذي هو أصلُ العالَمِ الجسمانيِّ في قبضةِ قدرته لا يصحُّ أنْ يُشْرَكَ به، وقيلَ الدرجاتُ مراتبُ المخلوقاتِ أو مصاعِدُ الملائكة إلى العرش أو السمواتُ أو درجاتُ الثواب. وقُرِئَ رفيعَ بالنصبِ على المدح. ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ خبرٌ رابعٌ للدلالةِ على أنَّ الرَّوحَانيَّاتِ أيضاً مسخَّراتٌ لأمره بإظهار آثارِها وهو الوحيُ، وتمهيدٌ للنبوة بعدَ تقريرِ التوحيدِ، والروحُ الوحيُ ومِنْ أمرِه بيانُه لأنه أمرٌ بالخير أو مبدؤُه والآمِرُ هو الْمَلَكُ المبلِّغُ. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ يختارُه للنبوةِ، وفيه دليلٌ على أنها

---

(١) وإفراد المطر بالذكر ـ مع كونه من جملة الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر ـ.
وصيغة المضارع في الفعلين «يريكم» و«ينزل» للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل واستمرارهما (س٧/ ٢٧٠).

عطائيةٌ. ﴿لِيُنذِرَ﴾ غايةَ الإلقاءِ، والمستكِنُّ فيه لله. أو لِمَنْ أو للروحِ، واللامُ مع القربِ تؤيدُ الثاني. ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يومَ القيامة، فإنَّ فيه تتلاقى الأرواحُ والأجسادُ وأهلُ السماءِ والأرضِ، أوِ المعبودونَ والعبادُ أوِ الأعمالُ والعمَّالُ.

يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

(١٦) ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ﴾ خارجونَ مِنْ قبورِهم أو ظاهرون لا يستُرهم شيءٌ أو ظاهرةٌ نفوسُهم لا تحجُبهم غواشي الأبدانِ، أو أعمالُهم وسرائِرُهم. ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالِهم وأحوالِهم، وهو تقريرٌ لقوله هم بارزون وإزاحةٌ لنحوِ ما يُتَوَهَّمُ في الدنيا. ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حكايةٌ لما يُسْأَلُ عنه في ذلك اليومِ، ولما يُجَابُ به، أو لما دلَّ عليه ظاهرُ الحالِ فيه من زوالِ الأسبابِ وارتفاعِ الوسائطِ، وأما حقيقةُ الحالِ فناطِقةٌ بذلك دائماً.

(١٧) ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كأنه نتيجةٌ لما سبقَ، وتحقيقُه أنَّ النفوسَ تكتسِبُ بالعقائدِ والأعمالِ هيئاتٍ توجبُ لذَّتَها وألَمَهَا لكنَّها لا تشعُرُ بها في الدنيا لعوائقَ تشغلُها، فإذا قامتْ قيامتُها زالتِ العوائقُ وأدركتْ لذَّاتِها وألَمَهَا. ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقصِ الثوابِ وزيادةِ العقابِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ فيصِلُ إليهم ما يستحقُّونه سريعاً.

(١٨) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي القيامةَ سُمِّيَتْ بها لأُزُوفِها أي قُرْبِها، أوِ الخِطَّةَ الآزفةَ وهي مُشَارَفَتُهم النارَ وقيل الموتَ. ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ فإنها ترتفعُ عن أماكِنها فتلصقُ بحُلُوقِهم فلا تعودُ فيتروَّحوا ولا تخرجُ فيستريحوا. ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ على الغمِّ حالٌ من أصحابِ القلوبِ على المعنى لأنه على الإضافةِ، أو منها أو من ضميرِها في لَدَى وجمعُه كذلك لأنَّ الكظْمَ من أفعالِ العقلاءِ كقوله ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾[1]. أو مِنْ مفعولِ أنذِرْهم على أنه حالٌ مقدَّرةٌ. ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريبٌ مشفقٌ. ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ولا شفيعٍ مشفَّعٍ، والضمائرُ إنْ كانتْ للكفارِ وهو الظاهرُ كان وضْعُ الظالمين موضِعَ ضميرِهم للدلالةِ على اختصاصِ ذلك بهم وأنه لِظُلْمِهِم.

(١٩) ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ النظرةَ الخائنةَ كالنظرةِ الثانيةِ إلى غيرِ المحرَّمِ واستراقَ النظرِ إليه، أو خيانةَ الأَعْيُنِ. ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ من الضمائر، والجملة خبر خامس للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه المالكُ الحاكِمُ على الإطلاقِ فلا يقضي بشيء إلا وهو حقُّه. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ تهكُّمٌ بهم لأنَّ الجمادَ لا يُقالُ فيه إنه يقضي أو لا يقضِي. وقرأ

---

(١) الشعراء: «٤».

نافعٌ وهشامٌ بالتاءِ على الالتفاتِ أو إضمارِ قُلْ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقريرٌ لِعِلْمِهِ بخائنةِ الأعينِ وقضائِه بالحقِّ، ووعيدٌ لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريضٌ بحالِ ما يدعون من دونِه.

۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا ٱقْتُلُوٓا أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾

(٢١) ﴿۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ مآلُ حالِ الذين كذَّبوا الرسلَ قبلَهم كعادٍ وثمودَ. ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرةً وتمكُّناً، وإنما جِيْءَ بالفصْلِ ـ وحقُّه أنْ يقعَ بينَ معرفتينِ ـ لمضارَعَةِ أفعلَ مِنْ للمعرفةِ في امتناعِ دخولِ اللامِ عليه[1]. وقرأ ابن عامر أشدَّ منكم بالكافِ. ﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مثلَ القِلاعِ والمدائنِ الحصينةِ. وقيل المعنى وأكثرَ آثاراً كقوله: متقلِّداً سيفاً ورُمحاً ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يمنعُ العذابَ عنهم.

(٢٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذُ. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ أوِ الأحكامِ الواضحةِ. ﴿فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ متمكِّنٌ مما يريدُه غايةَ التمكُّنِ. ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يُؤْبَهُ بعقابٍ دونَ عقابِه.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني المعجزاتِ. ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجَّةٍ قاهرةٍ ظاهرة، والعطفُ لتغايُرِ الوصْفَيْنِ أو لإفرادِ بعضِ المعجزاتِ كالعصا تفخيماً لشأنه.

(٢٤) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعنونَ موسى عليه الصلاة والسلام، وفيه تسليةٌ لرسول الله ﷺ وبيانٌ لعاقبةِ مَنْ هو أشدُّ الذين كانوا من قبلهم بطشاً وأقربُهم زماناً.

(٢٥) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا ٱقْتُلُوٓا أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ﴾ أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولاً كي يصدُّوا عن مظاهرةِ موسى عليه السلام. ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ في ضَياعٍ، ووضَعَ الظاهرَ فيه موضِعَ الضميرِ لتعميمِ الحكمِ والدلالةِ على العِلَّةِ.

(٢٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كانوا يكفُّونه عن قَتْلِه ويقولون إنه ليس الذي تخافُه بل هو

---

(١) قوله: وإنما جيء بالفصل... أي ضمير الفصل وهو قوله «هم» حيث وقع بين اسم كان وخبرها...
وذكر البيضاوي أن من حق ضمير الفصل أن يقع بين معرفتين، وجاز هنا وقوعه قبل نكرة لأن صيغة «أفْعَل مِنْ» مثل المعرفة حيث يمتنع دخول اللام عليه...
ولكن الألوسي قال: (ولا يتعين وقوعه بين معرفتين... نعم الأصل الأكثر فيه ذلك) روح المعاني (٢٤/ ٦٠).

ساحرٌ، ولو قتلْتَهُ ظُنَّ أنك عجزْتَ عن معارَضَتِهِ بالحجَّةِ، وتعلُّلُه بذلك مع كونه سفاكاً في أهونِ شيءٍ دليلٌ على أنه تيقَّن أنه نبيٌّ فخاف من قتله، أو ظنَّ أنه لو حاوله لم يتيسرْ له ويؤيدُه قولُه. ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فإنه تجلُّدٌ وعدمُ مبالاةٍ بدعائه. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتلْه. ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أنْ يغيِّرَ ما أنتم عليه من عبادتِه وعبادةِ الأصنام لقوله تعالى ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[1]. ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ما يفسِدُ دنياكم من التحارُبِ والتهارُجِ إنْ لم يقدرْ أنْ يبطلَ دينَكُم بالكلِّيةِ. وقرأ ابنُ كثير ونافعٌ وأبو عمرو وابنُ عامر بالواوِ على معنى الجمعِ، وابنُ كثير وابن عامر والكوفيونَ غيرَ حفصٍ بفتحِ الياءِ والهاءِ ورفْعِ الفسادِ.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ أي لقومه لما سمعَ بكلامِه. ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدَّرَ الكلامَ بأنَّ تأكيداً وإشعاراً على أنَّ السببَ المؤكَّدَ في دفعِ الشرِّ هو العياذُ باللهِ، وخصَّ اسْمَ الربِّ لأنَّ المطلوبَ هو الحفظُ والتربيةُ، وإضافتُه إليه وإليهم حثّاً لهم على موافقتِه لما في تظاهُرِ الأرواحِ مِنِ استجلابِ الإجابة، ولم يسمِّ فرعونَ وذكر وصْفاً يعمُّه وغيرَهُ لتعميمِ الاستعاذةِ ورعايةِ الحقِّ والدلالةِ على الحاملِ له على القولِ. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ عُذْتُ فيه وفي سورة الدخانِ بالإدغامِ وعن نافعٍ مثلُه[2].

(٢٨) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مِنْ أقاربه. وقيل مِنْ متعلِّقٌ بقوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ والرجلُ إسرائيليٌّ أو غريب موحد كان ينافقهم. ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتقصدون قتله. ﴿أَن يَقُولَ﴾ لأن يقول، أو وقت أن يقول من غير رويةٍ وتأمُّلَ في أمرِهِ. ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ وحدَه وهو في الدلالة على الحصْرِ مثلُ صديقي زيدٌ. ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المتكثرةِ الدالةِ على صدقه مِنَ المعجزاتِ والاستدلالاتِ. ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَه إليهم بعد ذِكْرِ البيناتِ احتجاجاً عليهم واستدراجاً لهم إلى الاعترافِ به، ثم أخذَهم بالاحتجاجِ مِنْ بابِ الاحتياطِ فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطَّاه وبالُ كَذِبِه فيحتاجُ في دفعِه إلى قَتْلِه. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فلا أقلَّ مِنْ أنْ يصيبَكُم بعضُه، وفيه مبالغةٌ في التحذير وإظهارٌ للإنصافِ وعدمِ التعصُّبِ، ولذلك قدَّم كونَه كاذِباً أو

---

(١) الأعراف: «١٢٧».

(٢) قول البيضاوي: قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «عذت» فيه أي في هذا الموطن من سورة غافر، وفي سورة الدخان آية (٢٠) بالإدغام أي بإدغام الذال في التاء، وعن نافع مثله أي وورد عن نافع مثله حيث ورد عن نافع ذلك برواية إسماعيل. (انظر المبسوط لابن مهران ص٣٢٧).

يصبْكُم ما يعدُكم مِنْ عذابِ الدنيا وهو بعضُ مواعيده، كأنه خوَّفَهم بما هو أظهرُ احتمالاً عندَهم، وتفسيرُ البعضِ بالكلِّ كقولِ لبيدٍ:

تَــــرَّاكُ أَمْكنـــةٍ إذَا لَـــمْ أَرْضَهَـــا أوْ يَـرْتَبِـطْ بَعْـضَ النُّفُـوسِ حمـامُهَـا[1]

مردودٌ لأنه أرادَ بالبعضِ نفسَه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاجٌ ثالثٌ ذو وجْهَيْنِ:

أحدُهما أنه لو كان مسْرِفاً كذَّاباً لما هداه الله إلى البيِّناتِ ولما عضَّده بتلك المعجزاتِ.

وثانيهما: أنَّ مَنْ خَذَلَه الله أهلكه فلا حاجةَ لكم إلى قتْلِه. ولعلَّه أرادَ به المعنى الأولَ وخيَّلَ إليهم الثانيَ لِتَلِيْنَ شكيمتُهم، وعرَّضَ به لفرعونَ بأنه مسرفٌ كذَّابٌ لا يهديه اللهُ سبيلَ الصَّوابِ وطريقَ النجاة.

يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾

(٢٩) ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبينَ عالينَ. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مِصْرَ. ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي فلا تفسِدوا أي فلا تفسِدوا أَمْرَكُم ولا تتعرَّضوا لبأسِ اللهِ بقتْلِه فإنه إنْ جاءَنا لم يمنعْنا منه أحدٌ، وإنما أدرجَ نفسَه في الضميريْنِ لأنه كانَ منهم في القرابةِ وليريَهُم أنه معَهُم ومساهِمُهم فيما ينصحُ لهم. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ﴾ ما أشيرُ عليكم. ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وأَسْتَصْوبُه مِنْ قتْلِه وما أُعْلِمُكم إلا ما علمتُ من الصوابِ وقلبي ولساني متواطئانِ عليه. ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ طريقَ الصوابِ، وقُرِيءَ بالتشديدِ على أنه فعَّالٌ للمبالغة من رَشَدَ كعلَّام، أو مِنَ رَشَدَ كعبَّادٍ لا مِنْ أرشد كجبَّارٍ مِنْ أَجْبَرَ لأنه مقصورٌ على السماعِ أو بالنسبةِ إلى الرَّشَدِ كعوَّاجٍ وبتَّاتٍ.

(٣٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في تكذيبه والتعرُّضِ له. ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مثلَ أيامِ الأُممِ الماضيةِ يعني وقائِعَهم، وجَمْعُ الأحزابِ مع التفسير أَغْنَى عن جَمْعِ اليوم.

(٣١) ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مثلُ جزاءِ ما كانوا عليه دائباً من الكفر وإيذاءِ الرُّسلِ. ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوطٍ. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقِبُهم بغير ذنْبٍ ولا يخلي الظالِمَ منهم بغير انتقامٍ، وهو أبلغُ مِنْ قوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2] من حيثُ إنَّ المنفيَّ فيه حدوثُ تعلُّقِ إرادتِه بالظلمِ.

(٣٢) ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يومَ القيامة ينادي فيه بعضُهم بعضاً للاستغاثةِ، أو يتصايحون بالويلِ والثُّبورِ، أو يتنادى أصحابُ الجنةِ وأصحابُ النارِ كما حُكِيَ في الأعرافِ. وقُرِيءَ بالتشديد وهو أنْ يندَّ بعضُهم مِنْ بعضٍ كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[3].

(١) من معلقته من الكامل.

(٢) فصلت: «٤٦».

(٣) عبس: «٣٤».

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ
كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ
كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ عن الموقفِ. ﴿مُدْبِرِينَ﴾ منصرفينَ عنه إلى النار. وقيل فارِّينَ عنها. ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ﴾ يعصمُكم من عذابه. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ يوسف بنُ يعقوبَ على أنَّ فرعونَه فرعونُ موسى، أو على نسبةِ أحوالِ الآباءِ إلى الأولادِ، أو سبطُه يوسفُ بنُ إبراهيمَ بنِ يوسفَ. ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِنْ قبلِ موسى. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ من الدين. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ مات. ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ ضمًّا إلى تكذيب رسالته تكذيبَ رسالةِ مَنْ بعدَه، أو جزماً بأنْ لا يُبْعَثَ من بعده رسولٌ مع الشك في رسالته، وقُرِىءَ أَلَنْ يبعثَ اللهُ على أنَّ بعضَهم يقرِّر بعضاً بنفي البعثِ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلَ ذلكَ الضلالِ. ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ في العصيانِ. ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ شاكٌّ فيما تشهدُ به البيناتُ لِغَلَبَةِ الوهْمِ والانهماكِ في التقليد.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ من الموصول الأولِ لأنه بمعنى الجمعِ. ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ﴾ بغيرِ حجَّةٍ بل إما بتقليدٍ أو بشبهةٍ داحضةٍ. ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ فيه ضميرُ مَنْ وإفرادُه للَّفظِ، ويجوزُ أنْ يكونَ الذين آمنوا مبتدأً وخبرُه كَبُرَ على حذْفِ مضافٍ أي: وجدالُ الذين يجادلون كَبُرَ مقتاً أو بغيرِ سلطانٍ وفاعلُ كَبُرَ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كَبُرَ مقتاً مِثْلُ ذلك الجدالِ فيكون قولُه: ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ استئنافاً للدلالة على الموجِبِ لجدالِهم. وقرأ أبو عمرو وابنُ ذكوانَ قلبٍ بالتنوينِ على وصْفِهِ بالتكبُّرِ والتجبُّرِ لأنه منبعُهما كقولهم: رأتْ عيني وسمعتْ أُذُني، أو على حذفِ مضافٍ أي على كلِّ ذي قلبٍ متكبِّرٍ.

(٣٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ بناءً مكشوفاً عالياً من صَرَحَ الشيءَ إذا ظَهَرَ. ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ الطرقَ.

(٣٧) ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيانٌ لها. وفي إبهامِها ثمَّ إيضاحُها تفخيمٌ لشأنِها وتشويقٌ للسامعِ إلى معرفتها. ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ عطفٌ على أبلغُ. وقرأ حفصٌ بالنصبِ على جوابِ الترجِّي ولعلَّه أرادَ أنْ يبنيَ له رَصَداً في موضعٍ عالٍ يرصُدُ منه أحوالَ الكواكبِ التي هي أسبابٌ سماويةٌ تدلُّ على الحوادثِ الأرضيةِ، فَيَرَى هل فيها ما يدلُّ على إرسالِ اللهِ إياهُ، أو أنْ يرى فسادَ قولِ موسى بأنَّ أخبارَه من إله السماءِ يتوقَّفُ على إطلاعِهِ ووصولِه إليه، وذلك لا يتأتَّى إلا بالصعودِ إلى السماءِ وهو مما لا يقوى عليه الإنسانُ، وذلك لجهلِه باللهِ وكيفيةِ استنبائِه. ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في دعوى

الرسالةِ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومِثْلُ التزيين، ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيلِ الرشاد، والفاعلُ على الحقيقةِ هو اللهُ تعالى ويدلُّ عليه أنه قُرِىءَ زَيَّنَ بالفتح وبالتوسُّطِ الشيطانُ. وقرأ الحجازيانِ والشاميُّ[1] وأبو عمرو وصَدَّ على أنَّ فرعونَ صدَّ الناسَ عن الهدى بأمثالِ هذه التمويهاتِ والشُّبهاتِ ويؤيدُه: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي خَسارٍ.

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ يعني مؤمِنَ آلِ فرعونَ. وقيل موسى عليه الصلاةُ والسلام. ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ بالدلالةِ. ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سبيلاً يصلُ سالِكُه إلى المقصودِ، وفيه تعريضٌ بأنَّ ما عليه فرعونُ وقومُه سبيلُ الغيِّ.

(٣٩) ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ تمتُّعٌ يسيرٌ لسرعةِ زوالها. ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لخلودِها.

(٤٠) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلاً من الله، وفيه دليلٌ على أنَّ الجناياتِ تغرَمُ بمثلِها. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغيرِ تقدير وموازنةٍ بالعملِ بل أضعافاً مضاعفةً فضلاً منه ورحمةً. ولعلَّ تقسيمَ العمالِ وجَعْلَ الجزاءِ جملةً اسميةً مصدَّرةً باسمِ الإشارةِ. وتفضيلَ الثوابِ لتغليبِ الرحمةِ، وجَعَلَ العملَ عُمْدَةً والإيمانَ حالاً للدلالةِ على أنه شرطٌ في اعتبار العملِ وأنَّ ثوابَه أعلى مِنْ ذلك.

(٤١) ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ كرَّر نداءَهم إيقاظاً لهم عن سِنَةِ الغفلةِ واهتماماً بالمنادَى له. ومبالغةً في توبيخِهم على ما يقابِلُون به نُصْحَهُ، وعطفُه على النداءِ الثاني الداخلِ على ما هو بيانٌ لما قبلَه، ولذلك لم يَعْطِفْ على الأولِ، فإنَّ ما بعدَه أيضاً تفسيرٌ لما أُجْمِلَ فيه تصريحاً أو تعريضاً أو على الأولِ.

(٤٢) ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدلٌ أو بيانٌ فيه تعليلٌ والدعاءُ كالهدايةِ في التعديةِ بإلى واللام. ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ﴾ بربوبيَّته. ﴿عِلْمٌ﴾ والمرادُ نفيُ المعلوم والإشعارُ بأنَّ الألوهيةَ لا بدَّ لها من برهانٍ فاعتقادُها لا يصحُّ إلا عن إيقانٍ. ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ المستجمع لصفاتِ الألوهيةِ من كمالِ القدرةِ والغلبةِ وما يتوقَّفُ عليه مِنَ العلمِ والإرادةِ، والتمكُّنِ من المجازاةِ والقُدْرَةِ على التعذيبِ والغفرانِ.

---

(١) الحجازيان: نافع وابن كثير، والشامي: ابن عامر.

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

(٤٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا ردَّ لما دَعَوْهُ إليه، وجَرَمَ فعلٌ بمعنى حَقَّ وفاعلُه: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي حقَّ عدمُ دعوةِ آلهتِكم إلى عبادتِها أصلاً لأنها جماداتٌ ليس لها ما يقتضي ألوهيَّتَها أو عدمَ دعوةٍ مُسْتَجابةٍ، أو عدمَ استجابةِ دعوةٍ لها. وقيل جَرَمَ بمعنى كسبَ وفاعلُه مستكِنٌّ فيه أي كَسَبَ ذلك الدعاءَ إليه أنْ لا دعوةَ له بمعنى ما حصلَ من ذلك إلا ظهورُ بُطْلانِ دعوتِه، وقيل فِعْلٌ من الجزمِ بمعنى القطْعِ كما إنَّ بُدّاً مِنْ لا بدَّ فِعْلٌ من التبديدِ وهو التفريقُ، والمعنى لا قطعَ لِبُطْلانِ دعوةِ ألوهيةِ الأصنامِ أي لا ينقطعُ في وقتٍ ما فتنقلبُ حقاً، ويؤيدُه قولُهم لا جرمَ إنه لغةٌ فيه كالرَّشَدِ والرُّشْدِ. ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالموت. ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الضلالة والطغيانِ كالإشراك وسفكِ الدماء. ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ملازِمُوها.

(٤٤) ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقُرِىءَ فستذكِّرون أي فسيذكِّر بعضُكم بعضاً عندَ معاينةِ العذاب. ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ مِنَ النصيحة. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليعصِمَني من كلِّ سوءٍ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرسُهم وكأنه جوابٌ توعَّدَهم المفهومَ مِنْ قوله:

(٤٥) ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شدائدَ مكْرِهم. وقيل الضميرُ لموسى عليه الصلاة والسلام. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ بفرعونَ وقومِه فاستغنى بذكْرِهم عن ذِكْرِه للعلْمِ بأنه أَوْلَى بذلك. وقيل بطلبةِ المؤمنِ منْ قومِه فإنه فرَّ إلى جبلٍ فاتَّبعه طائفةٌ فوجدُوه يصلي والوحوشُ حولَه صفوفاً فرجعوا رُعْباً فقتلَهم. ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرقُ أوِ القتلُ أو النارُ.

(٤٦) ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملةٌ مُستأنفة أوِ النارُ خبرٌ محذوفٌ ويُعْرَضُونَ استئنافٌ للبيانِ، أو بدلٌ ويُعْرَضُونَ حالٌ منها، أو مِنَ الآلِ وقُرِئَتْ منصوبةً على الاختصاصِ أو بإضمارِ فعلٍ يفسِّرُهُ يُعْرَضُونَ مِثْلَ يَصْلَوْنَ، فإنَّ عَرْضَهُم على النارِ إحراقُهم بها من قولهم: عرضَ الأَسَارى على السيفِ إذا قُتِلُوا به، وذلك لأرواحِهم كما رَوَى ابنُ مسعودٍ[1] أنَّ أرواحَهم في أجوافِ طيورٍ سودٍ تُعْرَضُ على النارِ بُكْرَةً وعشياً إلى يوم القيامةِ، وذِكْرُ الوقتينِ تحتملُ التخصيصَ والتأبيدَ، وفيه دليلٌ على بقاء النفسِ وعذابِ القبرِ. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي هذا ما دامتِ الدنيا فإذا قامتِ الساعةُ قيل لهم: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ يا آلَ فرعونَ. ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ عذابَ جهنَّم فإنه أشدُّ مما كانوا فيه، أو أشدَّ عذابِ جهنَّمَ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ونافعٌ ويعقوبُ وحفصٌ أَدْخِلُوا على أمرِ الملائكةِ بإدخالهم النارَ.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/٢٢٦ ـ ٢٢٨) بدون سند.
وانظر «البحر المحيط» (٧/٤٦٨) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/٣١٨).

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم
مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ
الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا
أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾

(٤٧) ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ واذكُرْ وقتَ تخاصُمِهم فيها، ويُحتَمَلُ العطفُ على غُدُوّاً. ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ تفصيلٌ له. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تباعاً كخدم في جَمْعِ خادمٍ أو ذوي تَبَع بمعنى أتباعِ على الإضمارِ أو التجوُّزِ. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ بالدَّفعِ أو الحملِ، ونصيباً مفعولٌ به لما دلَّ عليه مُغْنُوْنَ أولهُ بالتضمينِ أو مصدرٌ كشيئاً في قوله تعالى ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[1]. فيكونُ مِنْ صلة لِمُغْنُوْنَ.

(٤٨) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ نحنُ وأنتم فكيفَ نغني عنكم ولو قَدَرْنا لأَغْنَيْنا عن أنفسِنا، وقُرِىءَ كلاً على التأكيدِ لأنه بمعنى كلُّنا وتنوينُه عِوَضٌ عن المضافِ إليه، ولا يجوز جعلُه حالاً من المستكِنِّ في الظرفِ فإنه لا يعملُ في الحالِ المتقدِّمةِ كما يعملُ في الظرفِ المتقدِّم كقولك: كلُّ يوم لك ثوبٌ. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بأنْ أدخلَ أهلَ الجنةِ الجنةَ وأهلَ النارِ النارَ، ولا معقِّبَ لحكْمِه.

(٤٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي لخزنَتِها، ووضْعُ جهنَّمَ موضِعَ الضمير للتهويل، أو لبيانِ محلِّهم فيها، إذ يُحْتَمَلُ أنْ تكونَ جهنَّمُ أبعدَ دَرَكَاتِها مِنْ قولِهم: بئرٌ جِهَنَّامٌ بعيدةُ القعْرِ. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قَدْرَ يوم. ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾ شيئاً من العذاب، ويجوزُ أنْ يكونَ المفعولُ يوماً بحذفِ المضافِ ومِنَ العذابِ بيانُه.

(٥٠) ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أرادوا به إلزامَهم للحجَّةِ وتوبيخَهم على إضاعَتِهم أوقاتَ الدعاءِ، وتعطيلَهم أسبابَ الإجابة. ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ فإنا لا نجترىءُ فيه إذ لم يُؤْذَنْ لنا في الدعاءِ لأمثالِكم، وفيه إقناطٌ لهم عن الإجابة ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ضياعٍ لا يُجَابُ، وفيه إقناطٌ لهم عن الإجابةِ.

(٥١) ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالحجَّةِ والظَّفرِ والانتقامِ لهم من الكَفَرَةِ. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي في الدَّارينِ، ولا ينتقضُ ذلك بما كان لأعدائِهم عليهم من الغَلَبَةِ أحياناً إذِ العِبْرةُ بالعواقبِ وغالبِ الأمرِ، والأشهادُ جمعُ شاهدٍ كصاحبٍ وأصحابٍ، والمرادُ بهم مَنْ يقومُ يومَ القيامة الشهادةَ على الناسِ منَ الملائكةِ والأنبياءِ والمؤمنينَ.

---

(١) آل عمران: «١٠».

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ
وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

(٥٢) ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ ﴾ بدلٌ منَ الأوّلِ، وعدمُ نفعِ المعذرةِ لأنها باطلةٌ، أو لأنه لم يُؤذَنْ لهم فيعتذِروا. وقرأ غيرُ الكوفيينَ ونافعٌ بالتاء. ﴿ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ ﴾ البعدُ عن الرحمةِ. ﴿ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ جهنَّمُ.

(٥٣) ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ ما يهتدي به في الدينِ منَ المعجزاتِ والصُّحفِ والشرائعِ. ﴿ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ وتركْنا عليهم بَعْدَهُ من ذلك التوراةَ.

(٥٤) ﴿ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ ﴾ هدايةً وتذكرةً أو هادياً ومذكِّراً. ﴿ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ لذوي العقولِ السليمةِ.

(٥٥) ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ على أذى المشركينَ ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ بالنَّصرِ لا يخلِفُه، واستشهِدْ بحالِ موسى وفرعونَ. ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ وأقبِلْ على أمرِ دينِكَ وتدارُكِ فرطَاتِكَ بتركِ الأوْلَى، والاهتمامِ بأمرِ العِدا بالاستغفارِ، فإنه تعالى كافيك في النصرِ وإظهارِ الأمرِ. ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ ودُمْ على التسبيحِ والتحميدِ لربك. وقيل صلِّ لهذين الوقتينِ، إذ كان الواجبُ بمكةَ ركعتينِ بُكْرَةً وركعتينِ عشياً.

(٥٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾ عامٌّ في كلِّ مجادِلٍ مُبْطِلٍ وإن نزلَ في مشركي مكَّةَ واليهودِ حين قالوا: لَسْتَ صاحِبَنَا بل هو المسيحُ بنُ داودَ يبلُغُ سلطانُه البرَّ والبحرَ وتسير معه الأنهارُ. ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ ﴾ إلا تكبُّرٌ عن الحقِّ وتعظُّمٌ عن التفكُّرِ والتعلُّمِ، أو إرادةُ الرياسةِ أو أنَّ النبوةَ والمُلْكَ لا يكونانِ إلا لهم. ﴿ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾ ببالغي دفْعِ الآياتِ أوِ المرادِ. ﴿ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ ﴾ فالْتَجِئْ إليه. ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ لأقوالِكم وأفعالِكم.

(٥٧) ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾ فمَنْ قدَرَ على خلْقِها مع عِظَمِها أولاً من غير أصلٍ قَدَرَ على خلْقِ الإنسانِ ثانياً من أصلٍ، وهو بيانٌ لا شكلٌ ما يجادلون فيه مِنْ أمرِ التوحيد. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأمَّلُون لِفَرْطِ غَفلَتِهم واتِّباعِهم أهواءَهم.

(٥٨) ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴾ الغافلُ والمستبصرُ. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ ﴾ والمحسنُ والمسيءُ فينبغي أنْ يكونَ لهم حالٌ يظهر فيها التفاوتُ، وهي فيما بعدَ البعثِ، وزيادةُ «لا» في المسيءِ لأنَّ المقصودَ نفيُ مساواتِه للمحسِنِ فيما له من الفضلِ والكرامةِ. والعاطِفُ

الثاني عطفُ الموصولِ بما عُطِفَ عليه على الأعمى والبصيرِ لتغايُرِ الوصْفينِ في المقصود، أو الدلالةِ بالصراحةِ والتمثيل. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكُّراً ما قليلاً يتذكَّرون، والضميرُ للناسِ أو الكفارِ. وقرأ الكوفيونَ بالتاءِ على تغليبِ المخاطَبِ، أو الالتفاتِ أو أمْرِ الرسولِ بالمخاطبةِ.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾

(٥٩) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ في مجيئها لوضوحِ الدلالة على جوازِها. وإجماعِ الرُّسلِ على الوعْدِ بوقوعِها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدِّقون بها لقصور نظَرِهم على ظاهرِ ما يَحسُّون به.

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ﴾ اعبدُوني. ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أُثِبْكُم لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغِرينَ، وإنْ فُسِّر الدعاءُ بالسؤالِ كان الاستكبارُ الصارفُ عنه مُنَزَّلاً منزلَتَهُ للمبالغةِ. أوِ المرادُ بالعبادةِ الدعاءُ فإنه من أبوابها. وقرأ ابنُ كثير وأبو بكر سيُدْخَلُونَ بضمِّ الياء وفتح الخاءِ.

(٦١) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ لتستريحوا فيه بأنْ خلقَه بارِداً مظلِماً ليؤدي إلى ضعفِ الحركاتِ وهدوءِ الحواسِّ. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُبْصَرُ فيه أو به، وإسنادُ الإبصارِ إليه مجازٌ فيه مبالغةٌ ولذلك عَدَلَ به عن التعليلِ إلى الحالِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لا يوازيه فضلٌ، وللإشعارِ به لم يقلْ لَمُفَضِّلٌ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لِجَهْلِهِم بالمنْعِم وإغفالِهم مواقعَ النِّعم، وتكريرُ الناسِ لتخصيص الكُفرانِ بهم.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المخصوصُ بالأفعالِ المقتضيةِ للألوهيةِ والربوبيةِ. ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبارٌ مترادِفةٌ تخصِّصُ اللاحقةُ السابقة وتقرِّرُها. وقرىء خالقَ بالنصبِ على الاختصاصِ، فيكون لا إله إلا هو استئنافاً بما هو كالنتيجةِ للأوصافِ المذكورة. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيفَ ومِنْ أيِّ وجْهٍ تُصْرَفُونَ عن عبادته إلى عبادةِ غيرِه.

(٦٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي كما أُفِكُوا أُفِكَ عن الحقِّ كلُّ مَنْ جحدَ بآياتِ اللهِ ولم يتأمَّلْها.

(٦٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ استدلالٌ ثانٍ بأفعالٍ أُخَرَ مخصوصةٍ. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بأنْ خلَقَكم منتصِبَ القامةِ باديَ الْبَشَرَةِ متناسِبَ الأعضاءِ والتخطيطاتِ متهيأً لمزاولةِ الصنائعِ واكتسابِ الكمالاتِ. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ اللذائذِ. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنَّ كلَّ ما سواهُ مربوبٌ مفتقِرٌ بالذاتِ معرَّضٌ للزوال.

هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ
ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟
شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ
فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ
يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾

(٦٥) ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ ﴾ المتفرِّدُ بالحياةِ الذاتيةِ. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجِدَ سواهُ ولا موجودَ يساويهِ أو يدانيه في ذاته وصفاتِه. ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدُوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الطاعةَ من الشركِ والرياءِ. ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قائلينَ له.

(٦٦) ﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ من الحُجَجِ والآياتِ أو منَ الآياتِ، فإنها مقوِّيةٌ لأدلةِ العقلِ منبِّهةٌ عليها. ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأنْ أنقادَ له أو أُخلِصَ له ديني.

(٦٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أطفالاً، والتوحيدُ لإرادةِ الجِنسِ أو على تأويلِ كلِّ واحدٍ منكم. ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ اللامُ فيه متعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُهُ: ثم يبقيكُم لتبلُغوا وكذا في قوله: ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ ويجوزُ عطفُه على لتبلغوا. وقرأَ نافعٌ وأبو عمرو وحفصٌ وهشام شُيوخاً بضمِّ الشينِ. وقُرِئَ شيخاً كقوله طفلاً. ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ الشيخوخةِ أو بلوغِ الأشُدِّ. ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ ويفعلُ ذلك لتبلُغوا: ﴿ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ هو وقْتُ الموتِ أو يومُ القيامةِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من الحججِ والعِبَرِ.

(٦٨) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ فإذا أرادَهُ. ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يحتاجُ في تكوينه إلى عدَّةٍ وتجشُّمِ كُلْفَةٍ، والفاءُ الأولى للدلالةِ على أنَّ ذلك نتيجةُ ما سبقَ مِنْ حيثُ إنه يقتضي قدرةً ذاتيةً غيرَ متوقِّفةٍ على العُددِ والموادِّ.

(٦٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ عَن التصديقِ به، وتكريرُ ذمِّ المجادَلَةِ لتعدُّدِ المجادِلِ أو المجادَلِ فيه أو للتأكيدِ.

(٧٠) ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بالقرآنِ أو بِجِنْسِ الكُتبِ السماويةِ. ﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من سائرِ الكتبِ أو الوحْيِ والشرائعِ. ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جزاءَ تكذيبِهم.

(٧١) ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ ﴾ ظرفٌ ليعلمون إذِ المعنَى علي الاستقبالِ، والتعبيرُ بلفظِ المضيِّ لِتيقُّنِه. ﴿ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عطفٌ على الأغلالِ أو مبتدأٌ خبرهُ. ﴿ يُسْحَبُونَ﴾.

فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟
عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا
يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

(٧٢) ﴿فِي ٱلْحَمِيمِ﴾ والعائدُ محذوفٌ أي يُسْحَبُونَ بها، وهو على الأوَّلِ حالٌ. وقُرِىءَ والسلاسلَ يَسْحَبُونَ بالنصبِ وفتحِ الياءِ على تقديمِ المفعولِ وعطْفِ الفعليةِ على الاسميةِ، والسلاسلِ بالجرِّ حملاً على المعنَى إذِ الإغلالُ في أعناقِهِم بمعنى أعناقُهم في الأغلالِ؛ أو إضماراً للباءِ ويدلُّ عليه القراءةُ به. ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يُحْرَقُونَ من سَجَرَ التنورَ إذا ملأهُ بالوَقُودِ، ومنه السجيرُ للصديقِ كأنه سُجِرَ بالحبِّ أي مُلِىءَ. والمراد أنهم يُعَذَّبونَ بأنواعٍ من العذابِ ويُنْقَلُونَ من بعضِها إلى بعضٍ.

(٧٣) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

(٧٤) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ غابوا عنَّا وذلك قبلَ أنْ تُقْرَنَ بهم آلهتُهم، أو ضاعوا عنَّا فلم نجدْ ما كنَّا نتوقَّعُ منهم[١]. ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي بلْ تبيَّنَ لنا لم نكنْ نعبدُ شيئاً بعبادتِهم فإنَّهم ليسُوا شيئاً يُعْتَدُّ به كقولك: حسبتُه شيئاً فلم يكنْ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك الضلالِ. ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حتى لا يهتدُوا إلى شيءٍ ينفعُهم في الآخرةِ، أو يضلُّهم عن آلهتِهم حتى لو تطالبُوا لم يتصادفُوا.

(٧٥) ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلالُ[٢]. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تَبْطَرُونَ وتتكبَّرونَ. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشركُ والطغيانُ. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تتوسَّعون في الفرحِ، والعدولُ إلى الخطابِ للمبالغةِ في التوبيخِ.

(٧٦) ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الأبوابَ السبعةَ المقسومةَ لكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدَّرين الخلودَ. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحقِّ جهنَّمُ، وكان مُقْتَضَى النَّظْمِ فَبِئْسَ مدخلُ المتكبرينَ ولكنْ لما كان الدخولُ المقيَّدُ بالخلودِ بسببِ الثواءِ عَبَّرَ بالمثْوى.

(٧٧) ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بهلاكِ الكافرينَ. ﴿حَقٌّ﴾ كائنٌ لا محالةَ. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ فإنْ نُرِكَ، وما مزيدةٌ لتأكيد الشرطيةِ ولذلك لحقتِ النونُ الفعلَ ولا تلحقُ مع أنْ وحدَها. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ وهو القتلُ والأسرُ. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبلَ أنْ تراهُ. ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يومَ القيامة فنجازيهم بأعمالِهم، وهو جوابُ نتوفينَّكَ، وجوابُ نرينَّك محذوفٌ مثلُ فَذاكَ، ويجوزُ أنْ يكونَ جواباً لهما بمعنى إنْ نعذِّبْهم في حياتك أو لم نعذِّبْهم فإنا نعذِّبُهم في الآخرة أشدَّ العذابِ، ويدلُّ على شِدَّتِهِ الاقتصارُ بِذِكْرِ الرجوعِ في هذا المعرِضِ.

---

(١) وصيغة الماضي في «ضلوا» للدلالة على تحقق وقوع الفعل (س٧/ ٢٨٥).
(٢) والالتفات «ذلكم» إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ (س٧/ ٢٨٥).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ
أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى
صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ
يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى
ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ إذ قيل عددُ الأنبياء مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً[١]، والمذكورُ قِصَصُهم أشخاصٌ معدودةٌ. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ المعجزاتِ عطايا قَسَمَهَا بينَهم على ما اقتضتْه حِكْمَتُهُ كسائرِ القِسَمِ، ليس لهم اختيارٌ في إيثارِ بعضِها والاستبدادِ بإتيانِ المقترحِ بها. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بالعذابِ في الدنيا أو الآخرة. ﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾ بإنجاءِ المحقِّ وتعذيبِ المبطِلِ. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندون باقتراحِ الآياتِ بعد ظهور ما يغنيهم عنها.

(٧٩) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فإنَّ مِنْ جِنْسِها ما يُؤْكَلُ كالغنمِ ومنها ما يؤكلُ ويُرْكَبُ كالإبلِ والبقرِ.

(٨٠) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كالألبان والجلود والأوبار. ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بالمسافرَةِ عليها. ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البرِّ. ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البحر. ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما قال وعلى الفلكِ ولم يقلْ في الفلكِ للمزاوجةِ، وتغييرُ النَّظْمِ في الأكْل لأنه في حيِّز الضرورة. وقيل لأنه يُقصَدُ به التعيُّشُ ـ وهو من الضرورياتِ ـ والتلذُّذُ، والركوبُ والمسافرةُ عليها قد تكون لأغراضٍ دينية واجبةٍ أو مندوبةٍ، أو للفرقِ بينَ العينِ والمنفعةِ.

(٨١) ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائلَه الدالةَ على كمالِ قدرته وفَرْطِ رحمتِه. ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي فأيَّ آيةٍ من تلكَ الآياتِ[٢]. ﴿تُنكِرُونَ﴾ فإنها لظهورِها لا تقبلُ الإنكارَ، وهو ناصبُ أيَّ إذ لو قدَّرتَهُ متعلِّقاً بضميرِهِ كان الأَوْلى رفعُه، والتفرقةُ بالتاءِ في أيِّ أغربُ منها في الأسماءِ غيرِ الصفاتِ لإبهامِهِ.

(٨٢) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما بقيَ منهم من القصور والمصانع ونحوهما. وقيل آثارُ أقدامِهم في الأرضِ لِعِظَمِ أجرامِهم. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ما الأُولى نافيةٌ أوِ استفهاميةٌ منصوبةٌ بأغنى، والثانيةُ موصولةٌ أو مصدريةٌ مرفوعةٌ به.

---

(١) انظر «جامع البيان» (١٢/ج٢٤/ ٨٦ ـ ٨٧).
«وروح المعاني» (٢٤/ ٨٨).

(٢) وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل إنكارها (س٧/ ٢٨٦).

فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾
فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا
رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

(٨٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات أو الآياتِ الواضحات. ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ واستحقروا عِلْمَ الرُّسلِ. والمرادُ بالعلمِ عقائِدُهم الزائغةُ وشُبَهُهُمُ الداحضةُ كقوله ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[1] وهو قولُهم: لا نُبْعَثُ ولا نعذَّبُ؛ وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ونحوُها؛ وسمَّاها علماً على زعْمِهم تهكُّماً بهم، أو عِلْمَ الطبائعِ والتنجيمِ والصنائعِ ونحوِ ذلك، أو علمَ الأنبياءِ؛ وفرحُهم به ضَحِكُهم منه واستهزاؤُهم به؛ ويؤيدُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ وقيل الفرحُ أيضاً للرسلِ فإنهم لما رأوا تمادي جهلِ الكفارِ وسوءَ عاقِبَتِهم فرِحوا بما أُوْتُوا من العلمِ وشكروا اللهَ عليه وحاقَ بالكافرين جزاءُ جهلِهم واستهزائِهم.

(٨٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ شِدَّةَ عذابِنا. ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ يعنُونَ الأصنامَ.

(٨٥) ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ لامتناعِ قبولِه حينئذ ولذلك قال ﴿لم يك﴾ بمعنَى لم يصحَّ ولم يستقمْ، والفاءُ الأولى لأنَّ قولَه ﴿فما أغنى﴾ كالنتيجة لقوله ﴿كانوا أكثر منهم﴾، والثانيةُ لأنَّ قولَه ﴿فلما جاءتهم رسلهم﴾ كالتفسير لقوله ﴿فما أغنى﴾ والباقيتانِ لأنَّ رؤيةَ البأسِ مسبَّبَةٌ عن مجيءِ الرسلِ، وامتناعُ نفيِ الإيمانِ مسبَّبٌ عن الرؤية. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ أي سنَّ اللهُ ذلك سنةً ماضيةً في العبادِ وهي من المصادرِ المؤكِّدةِ. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي وقتَ رؤْيَتِهم البأسَ، اسمُ مكانٍ استُعِيْرَ للزمان. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأَ سورةَ المؤمنِ لم يبقَ روحُ نبيٍّ ولا صِدِّيقٍ ولا شهيدٍ ولا مؤمنٍ إلا صلَّى عليه واستغفرَ له»[2].

☆ ☆ ☆

---

(١) النمل: «٦٦».

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشاف» (ص١٤٥ رقم ٣٤٥) وهو حديث موضوع، تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ فُصِّلَتْ

ترتيبها ٤١ — آياتها ٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا
وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

سورة فصِّلتْ مكِّيةٌ[1] وآيُها ثلاثٌ أو أربعٌ وخمسون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾ إنْ جعلْتَهُ مبتدأً فخبرهُ.

(٢) ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وإنْ جعلْتَه تعديداً للحروفِ فتنزيلٌ خبرٌ محذوفٌ أو مبتدأٌ لتخصُّصِه بالصِّفَةِ وخبرهُ:

(٣) ﴿كِتَٰبٌ﴾ وهو على الأوّلين بدلٌ منه أو خبرٌ آخرُ أو خبرٌ محذوفٌ، ولعلَّ افتتاحَ هذه السُّورِ السَّبْعِ بحم وتسميتَها به لكونها مصدَّرةً ببيانِ الكتابِ متشاكِلَةً في النَّظْمِ والمعنَى، وإضافةُ التنزيلِ إلى الرحمنِ الرحيم للدلالةِ على أنه مَناطُ المصالحِ الدينية والدنيويةِ. ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ مُيِّزَتْ باعتبارِ اللفظِ والمعنى. وقُرِىءَ فُصِلَتْ أي فُصِل بعضُها من بعض باختلاف الفواصلِ والمعاني، أو فَصَلَتْ بينَ الحقِّ والباطل. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نُصِبَ على المدحِ أو الحالِ من فُصِّلَتْ، وفيه امتنانٌ بسهولةِ قراءتِه وفهْمِه.

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت (حم) السجدة بمكة، وأخرج ابن مردويه عن الزبير ـ رضي الله عنه ـ مثله. انظر: الدر المنثور (٧/٣٠٨).

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم يعلمونَ العربيةَ أو لأهلِ العلمِ والنظرِ، وهو صفةٌ أخرى لقرآناً أو صلةٌ لتنزيل، أو لفصِّلتْ، والأوَّلُ أولى لوقوعِه بينَ الصِّفاتِ.

(٤) ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ للعاملين به والمخالِفين له، وقُرِئَا بالرفعِ على الصفةِ للكتابِ أو الخبرِ لمحذوفٍ. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبُّره وقبُوْلِه. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تأمُّلٍ وطاعةٍ.

(٥) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطيةٍ جمعُ كِنانٍ. ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ صَمَمٌ، وأصلُه الثِّقَلُ، وقرىء بالكسرِ[1]. ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يمنعُنا عن التواصُلِ، ومن للدلالة على أنَّ الحجابَ مبتدأٌ منهم ومنه بحيثُ استوعَبَ المسافةَ المتوسطةَ ولم يبقَ فراغٌ. وهذه تمثيلاتٌ لِنُبُوِّ قلوبِهم عن إدراكِ ما يدعوهم إليه واعتقادِهم ومجِّ أسماعِهم له، وامتناعِ مواصلتِهم وموافقتِهم للرسولِ ﷺ. ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينِك أو في إبطالِ أمرِنا. ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على دينِنا أو في إبطالِ أمرِكَ.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لستُ ملكاً ولا جِنِّياً لا يمكنكُم التلقِّيْ منه، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقولُ والأسماعُ، وإنما أدعوكم إلى التوحيدِ والاستقامة في العملِ، وقد يدلُّ عليهما دلائلُ العقلِ وشواهدُ النقلِ. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستقيموا في أفعالِكم متوجِّهين إليه، أو فاستَوُوْا إليه بالتوحيد والإخلاص في العملِ. ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما أنتم عليه من سوءِ العقيدةِ والعملِ، ثم هدَّدهم على ذلك فقال. ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ من فَرْطِ جهالَتِهم واستخفافِهم باللهِ.

(٧) ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لِبُخلِهم وعدمِ إشفاقِهم على الخلْقِ، وذلك مِنْ أعظمِ الرذائلِ، وفيه دليلٌ على أنَّ الكفارَ مخاطَبونَ بالفروعِ. وقيل معناه لا يفعلون ما يزكِّي أنفسَهم وهو الإيمانُ والطاعةُ. ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ حالٌ مشعرةٌ بأنَّ امتناعَهم عن الزكاةِ لاستغراقِهم في طلب الدنيا وإنكارِهم للآخرةِ.

(٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ﴾ عظيمٌ. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لا يَمُنُّ به عليهم من المنِّ وأصلُه الثِّقَلُ، أو لا يُقطعُ من مَنَنْتُ الحبلَ إذا قطعتُه. وقيل نزلتْ في المرضى والهرْمَى إذا عجَزُوا عن الطاعةِ كُتِبَ لهم الأجرُ كأصلحِ ما كانوا يعملونَ.

(٩) ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ في مقدارِ يومين، أو نوبتينِ وخَلَقَ في كلِّ نوبةٍ ما خلقَ في أسرعِ ما يكونُ. ولعلَّ المرادَ من الأرض ما في جهةِ السُّفْلِ من الأجرامِ البسيطةِ ومَنْ خلقَها في يومين أنه خلَقَ لها أصلاً مشتركاً ثم خلَقَ لها صُوَراً بها صارتْ أنواعاً، وكفرُهم به إلحادُهم في ذاتِه

---

(١) أي بكسر الواو في «وقر».

وصفاتِه(١). ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ ولا يصحُّ أنْ يكونَ له نِدٌّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلقَ الأرضَ في يومينِ. ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالِقُ جميعِ ما وُجِدَ من الممكِنَاتِ ومربِّيها.

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ استئنافٌ غيرُ معطوفٍ على خلَقَ للفصْلِ بما هو خارجٌ عن الصِّلةِ. ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ مرتفعةً عليها ليظهرَ للنُّظَّارِ ما فيها من وجوهِ الاستبصارِ وتكونُ منافِعُها معرَّضَةً للطُّلاب. ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ وأكْثَرَ خَيْرَهَا بأنْ خلقَ فيها أنواعَ النباتِ والحيوانِ. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أقواتَ أهلِها بأنْ عيَّنَ لكلِّ نوعٍ ما يصلِحُه ويعيشُ به، أو أقواتاً تنشأُ منها بأنْ خصَّ حدوثَ كلِّ قوتٍ بقطرٍ من أقطارِها، وقُرِىءَ وقسَّمَ فيها أقواتَها. ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تتمةِ أربعةِ أيام كقولك: سرتُ من البصرةِ إلى بغدادَ في عشرةِ أيام، وإلى الكوفةِ في خمسةَ عشرَ يوماً. ولعلَّه قال ذلك ولم يقلْ في يومينِ للإشعارِ باتصالهما باليومينِ الأوَّلين والتصريحِ على الفذْلَكةِ. ﴿سَوَآءً﴾ أي استوتْ سواءً بمعنى استواءٍ، والجملةُ صفةُ أيامٍ ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ بالجرِّ. وقيلَ حالٌ من الضمير في أقواتِها أو في فيها، وقرِىء بالرفع على هي سواءٌ. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرهُ هذا الحصْرُ للسائلينَ عن مدَّةِ خلْقِ الأرضِ وما فيها، أو بقدر أي قدَّرَ فيها الأقواتَ للطالبينَ لها(٢).

(١١) ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قصدَ نحوَها من قولِهم استوى إلى مكانِ كذا إذا توجَّه إليه توجُّهاً لا يلوي على غيرِه، والظاهرُ أنَّ ثُمَّ لتفاوُتِ ما بينَ الخَلْقَتينِ لا للتراخي في المدَّةِ لقوله ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾(٣) ودحْوُها متقدِّمٌ على خلْقِ الجبالِ من فوقِها. ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أمرٌ ظلمانيٌّ، ولعلَّه أرادَ به مادَّتَها أوِ الأجزاءَ المتصغِّرةَ التي رُكِّبَتْ منها. ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ بما خلقْتُ فيكما من التأثيرِ والتأثُّرِ وأَبْرِزَا ما أودعتُكُما من الأوضاعِ المختلفةِ والكائناتِ المتنوعةِ، أوِ ائْتِيَا في الوجودِ على أنَّ الخلْقَ السابقَ بمعنى التقديرِ أو الترتيبِ للرتبةِ أو الإخبارِ، أو إتيانُ السماءِ حدوثُها وإتيانُ الأرضِ أنْ تصيرَ مدحوَّةً وقد عرفتَ ما فيه، أو لِتَأْتِ كلُّ منكما الأخرى في حدوثِ ما أُرِيدَ توليدُه منكما ويؤيدُه قراءةُ وآتِيا من المؤاتاةِ أي لِتوافِقَ كلُّ واحدةٍ أختَها فيما أردْتُ منكما. ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ شئتُما ذلك أو أبيتُما، والمرادُ إظهارُ كمالِ قدرته ووجوبُ وقوعِ مُرادِه لا إثباتُ الطوعِ والكُرهِ لهما، وهما مصدرانِ وقعا موقعَ الحالِ. ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ منقادينَ بالذاتِ، والأظهرُ أنَّ المرادَ تصويرُ تأثيرِ قدرتِه فيهما وتأثُّرِهُما بالذاتِ عنها، وتمثيلُهما بأمرِ المطاعِ وإجابةِ المطيعِ الطائعِ كقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾(٤) وما قيل من أنه تعالى

---

(١) في قوله: «أئنكم لتكفرون» أتىٰ بإن واللام إما لتأكيد الإنكار، أو للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد (س٨/ ٤).

(٢) ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها لبيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادي عيشهم قبل خلقهم، مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان (س٨/ ٥).

(٣) النازعات: «٣٠».

(٤) البقرة: «١١٧».

خاطَبَهُما وأَقْدَرَهُما على الجواب إنما يُتصوَّرُ على الوجْهِ الأولِ والأخيرِ، وإنما قال طائعينَ على المعنى باعتبارِ كونهما مخاطَبَتَيْنِ كقوله ﴿ سَٰجِدِينَ ﴾[1] .

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ
تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ
مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ
كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي
خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ فخلقهنَّ خلْقاً إبداعياً وأتقنَ أمرهنَّ، والضميرُ للسماءِ على المعنَى أو مبهمٌ، وسبعَ سمواتٍ حالٌ على الأول وتمييزٌ على الثاني. ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ قيلَ خلْقِ السمواتِ يومَ الخميس والشمسَ والقمرَ والنجومَ يومَ الجمعةِ. ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ شأنَها وما يتأتَّى منها بأنْ حَمَلَها عليه اختياراً أو طبعاً. وقيل أوحى إلى أهلِها بأوامره ونواهيه. ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ فإنَّ الكواكبَ كلَّها تُرَى كأنَّها تتلألأُ عليها. ﴿ وَحِفْظًا ﴾ أي وحفظْنَاها من الآفات، أو من المسترِقةِ حفظاً. وقيل مفعولٌ له على المعنى كأنه قال: وخصَصْنا السماءَ الدنيا بمصابيحَ زينةً وحفظاً. ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ البالغُ في القُدْرَةِ والعِلْمِ.

(١٣) ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ عن الإيمان بعدَ هذا البيانِ. ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً ﴾ فحذِّرهم أنْ يصيبَهُم عذابٌ شديدُ الوقْعِ كأنه صاعقةٌ. ﴿ مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وقُرِىءَ صعقةً مثلَ صعقةِ عادٍ وثمودَ وهي المرَّةُ من الصَّعْقِ أو الصَّعِقِ يُقالُ صعَقتْهُ الصاعقةُ صعقاً فَصَعِقَ صعْقاً.

(١٤) ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ ﴾ حالٌ من صاعقةِ عادٍ، ولا يجوزُ جعْلُه صفةً لصاعقةٍ أو ظرفاً لأنذرْتُكم لفسادِ المعنى. ﴿ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أتَوْهُم من جميعِ جوانبِهِم واجتهدوا بهم من كلِّ جهةٍ، أو من جهةِ الزَّمَنِ الماضي بالإنذارِ عما جَرَى فيه على الكفَّارِ، ومن جهةِ المستقبلِ بالتحذير عما أُعدَّ لهم في الآخرة، وكلٌّ من اللفظين يحتملُهما، أو مِنْ قبلهم ومن بعدِهم إذْ قد بلَّغتْهم خبرَ المتقدِّمين، وأخبرهُم هودٌ وصالحٌ عن المتأخرينَ داعينَ إلى الإيمان بهم أجمعينَ، ويُحْتَملُ أنْ يكونَ عبارةً عن الكثرةِ كقوله تعالى ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾[2] . ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ بأنْ لا تعبدُوا أو أي لا تعبدُوا. ﴿ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا ﴾ إرسالَ الرُّسلِ. ﴿ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ برسالتِه. ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ على زعْمِكُم. ﴿ كَٰفِرُونَ ﴾ إذ أنتم بشرٌ مثلُنا لا فضلَ لَكُمْ علينا.

(١٥) ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ فتعظَّموا فيها على أهلها من غير استحقاقٍ. ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ اغتراراً بقوَّتِهم وشوْكَتِهم. قيل كان مِنْ قوَّتهم أنَّ الرجلَ منهم ينزعُ الصخرةَ فيقتلِعُها

(١) يوسف: «٤».
(٢) النحل: «١١٢».

بيده. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرةً فإنه قادرٌ بالذاتِ مقتدِرٌ على ما لا يتناهَى، قويٌّ على ما لا يقدِرُ عليه أحدٌ غيرهُ. ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعرفُون أنَّها حقٌّ وينكرونَها وهو عطفٌ على فاستكبروا.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

(١٦) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردةً تُهْلِكُ بشدةِ بَرْدِها من الصرِّ وهو البردُ الذي يُصَرُّ أي يُجْمَعُ، أو شديدةَ الصوتِ في هبوبها من الصرير. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ جمعُ نحسةٍ من نَحِسَ نحساً نقيضُ سَعِدَ سَعْداً، وقرأ الحجازيانِ والبصريانِ بالسكونِ على التخفيفِ أو النعتِ على فعلٍ[١]، أو الوصفِ بالمصدرِ، قيل كُنَّ آخِرَ شوالَ من الأربعاءِ إلى الأربعاءِ، وما عذِّبَ قومٌ إلا في يوم الأربعاء. ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أضافَ العذابَ إلى الخزي وهو الذلُّ على قصْدِ وصْفِه به لقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو في الأصلِ صفةُ المعذَّبِ وإنما وُصِفَ به العذابُ على الإسنادِ المجازى للمبالغةِ. ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفْعِ العذابِ عنهم.

(١٧) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ﴾ فدلَلْناهم على الحقِّ بِنَصْبِ الحججِ وإرسالِ الرُّسلِ. وقرىء ثمودَ بالنصبِ بفعلٍ مضمَرٍ يفسِّره ما بعدَه، ومنوّناً في الحالين، وبضمِّ الثاءِ. ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الضلالةَ على الهدى. ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ صاعقةٌ من السماءِ فأهلكتْهم، وإضافتُها إلى العذابِ ووصفُه بالهونِ للمبالغة. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالةِ.

(١٨) ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ من تلك الصاعقةِ.

(١٩) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وقُرِىءَ يَحْشُرُ على البناء للفاعلِ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ. وقرأ نافعٌ نَحْشُرُ بالنونِ مفتوحةً وضمِّ الشينِ ونصبِ أعداءُ[٢]. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحْبَسُ أَوَّلُهم على آخرِهم لئلاَّ يتفرَّقوا وهو عبارةٌ عن كثرةِ أهلِ النارِ.

(٢٠) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ إذا حضَرُوها، وما مزيدةٌ لتأكيدِ اتصالِ الشهادةِ بالحضورِ. ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بأنْ يُنْطِقَها اللهُ تعالى، أو يُظْهِرَ عليها آثاراً تدلُّ على ما اقْتُرِفَ بها فتنطقُ بلسانِ الحالِ.

---

(١) فائدة وجه السكون في نخسات كونها وصفاً، فإن الاسم إذا كان وصفاً يسكن جمعه المؤنث، ويحرّك إذا لم يكن يكن كذلك، لذلك تقول في جمع ضربة ضَرَبات وغرفة غرُفات، وتقول في ضخمة ضخْمات وخذله خدلات بالسكون لأنها وصف، والخدلة هي الممتلئة لحماً، توصف بها المرأة.

(٢) والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب.
والتعبير عن الحشر بأنه إلى النار إما للإيذان بأنها عاقبة حشرهم أو لأن حسابهم يكون على شفيرها (س٨/ ٩).

وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ
لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾
فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟
لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾

(٢١) ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ﴾ سؤالُ توبيخٍ أو تعجُّبٍ، ولعلَّ المرادَ به نفسُ التعجُّبِ. ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي ما نطقْنا باختيارِنا بلْ أنطقنا اللهُ الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ، أو ليس نطقنا بعجبٍ من قدرةِ اللهِ الذي أنطقَ كلَّ حيٍّ، ولو أُوِّلَ الجوابُ والنطقُ بدلالةِ الحالِ بقيَ الشيءُ عاماً في الموجوداتِ الممكِنةِ. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ تمامَ كلامِ الجلودِ وأن يكونَ استئنافاً.

(٢٢) ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي كنتُم تستترونَ عن الناس عندَ ارتكابِ الفواحشِ مخافةَ الفضاحةِ، وما ظننتُم أنَّ أعضاءَكم تشهدُ عليكم بها فما استترتُم عنها. وفيه تنبيهٌ على أنَّ المؤمنَ ينبغي أنْ يتحقَّقَ أنه لا يمرُّ عليه حالٌ إلا وهو عليه رقيبٌ. ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك أجترأتُم على ما فعلتُم.

(٢٣) ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ظنِّهم هذا، وهو مبتدأٌ وقولُه: ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبرانِ له ويجوزُ أنْ يكونَ ظنُّكم بدلاً وأرْدَاكُم خبراً. ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إذْ صارَ ما مُنِحُوا للاستعدادِ به في الدَّارينِ سبباً لشقاءِ المنزلَيْنِ.

(٢٤) ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ﴾ لا خلاصَ لهم عنها[1]. ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ يَسْأَلُوا العُتْبَى وهي الرجوعُ إلى ما يُحِبُّونَ. ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ المجابَيْنَ إليها ونظيرُه قولُه تعالى حكايةً ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[2] وقُرِىءَ وأنْ يُسْتَعْتَبُوا فما هم من المعتبينَ، أي إنْ يُسْأَلُوا أنْ يُرْضُوا ربَّهم فما هم فاعلونَ لفواتِ المُكْنَةِ.

(٢٥) ﴿۞ وَقَيَّضْنَا﴾ وقدَّرنا. ﴿لَهُمْ﴾ للكفرة. ﴿قُرَنَآءَ﴾ أخداناً من الشياطين يستولُون عليهم استيلاءَ القَيضِ على البيضِ وهو القشرُ. وقيل أصلُ القيضِ البدلُ ومنه المقايضةُ للمعاوضةِ. ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمرِ الدنيا واتباعِ الشهواتِ. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنْ أمرِ الآخرةِ وإنكارِه. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي كلمةُ العذابِ. ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ في جملةِ أممٍ كقولِه:

---

(١) والالتفات إلى الغيبة «يصبروا...» للإيذان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ويُحكىٰ سوء حالهم لغيرهم، أو للإشعار بإبعادهم عن حيز الخطاب وإلقائهم في غاية دركات النار (س٨/١١).

(٢) إبراهيم: «٢١».

إنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ فُوكاً فَفِي آخَرِينَ قَدْ أُفِكُوا

وهو حالٌ من الضمير المجرورِ. ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وقد عمِلُوا مثلَ أعمالِهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تعليلٌ لاستحقاقِهم العذابَ، والضميرُ لهم وللأُمم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ
ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا
تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ وعارِضُوه بالخرافاتِ أوِ ارفعُوا أصواتَكُم بها لتشوِّشوهُ على القارىءِ، وقُرِىءَ بضمِّ الغينِ والمعنَى واحدٌ يُقالُ لَغَى يلغي ولَغَا يلغُو إذا هَذَى. ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تغلبونَه على قراءته.

(٢٧) ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ المرادُ بهم هؤلاء القائلونَ، أو عامةُ الكفار. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ سيئاتِ أعمالِهم وقد سبقَ مثلُه.

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الأسوأ. ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ خبرُه. ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطفُ بيانٍ للجزاءِ أو خبرٌ محذوفٌ. ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في النار. ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ فإنَّها دارُ إقامتِهم، وهو كقولِكَ: في هذه الدارِ دارُ سرورٍ، وتعني بالدارِ عينَها على أنَّ المقصودَ هو الصفةُ. ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ينكِرونَ الحقَّ أو يلْغُونَ، وذَكَرَ الجحودَ الذي هو سببُ اللغوِ.

(٢٩) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني شيطاني النوعينِ الحامِلَيْنِ على الضلالةِ والعصيانِ. وقيل هما إبليسُ وقابيلُ فإنهما سنَّا الكفرَ والقتْل، وقرأ ابنُ كثير وابنُ عامر ويعقوبُ وأبو بكر والسوسيّ أرْنا بالتخفيفِ كفَخْذٍ في فَخِذَ، وقرأ الدوري باختلاسِ كسرة الراءِ. ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسُهُما انتقاماً منهما، وقيل نجعلُهما في الدركِ الأسفلِ. ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ مكاناً أو ذُلاً.

(٣٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ اعترافاً بربوبيّته وإقراراً بوحدانيّتِه. ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ في العمل وثمَّ لتراخيه عن الإقرارِ في الرتبةِ من حيثُ إنه مبدأُ الاستقامةِ، أو لأنها عسرٌ قلّما تتبعُ الإقرارَ، وما رُوِيَ عن الخلفاءِ الراشدين[1] في معنى الاستقامةِ من الثباتِ على الإيمانِ وإخلاصِ العمل وأداءِ الفرائضِ فجزئياتُها. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيما يعنُّ لهم بما يشرحُ صدورَهم ويدفعُ عنهم الخوفَ والحزْنَ، أو عندَ الموت أو الخروجِ من القبر. ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ ما تقدِمُون عليه. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خلَّفتم، وأنْ مصدريةٌ أو مخفَّفةٌ مقدَّرةٌ بالباء أو مفسِّرة. ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان الرسلِ.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» للبغوي (٧/ ١٧٢).

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا
تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا
يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

(٣١) ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ نلهمكُمُ الحقَّ ونَحمِلُكُم على الخير بدلَ ما كانتِ الشياطينُ تفعلُ بالكفرةِ. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بالشفاعةِ والكرامةِ حيثُما يتعادى الكفرةُ وقُرَناؤُهم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الآخرة. ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ من اللذائذِ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[١] ما تتمنَّونَ من الدعاءِ بمعنى الطلبِ وهو أعمُّ من الأولِ.

(٣٢) ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ حالٌ من ما تدعونَ للإشعارِ بأنَّ ما يتمنَّونَ بالنسبة إلى ما يُعْطَوْنَ مما لا يخطرُ ببالِهم كالنُّزُلِ للضيفِ.

(٣٣) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى عبادته. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما بينَه وبينَ ربِّه. ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تفاخراً به واتخاذاً للإسلام ديناً ومذهباً من قولهم: هذا قولُ فلانٍ لمذهبِه. والآيةُ عامةٌ لمنِ استجمعَ تلك الصفاتِ. وقيل نزلتْ في النبيِّ ﷺ[٢]، وقيل في المؤذِّنينَ[٣].

(٣٤) ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ في الجزاءِ وحُسْنِ العاقبةِ ولا الثانيةُ مزيدةٌ لتأكيدِ النَّفْيِ. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ادفعِ السيئةَ حيثُ اعترضتْكَ بالتي هي أحسنُ منها وهي الحسنةُ على أنَّ المرادَ بالأحسنِ الزائدُ مطلقاً، أو بأحسنِ ما يمكن دفعُها به من الحسناتِ، وإنما أخرجَه مخرجَ الاستئنافِ على أنه جوابُ مَنْ قال: كيفَ أصنعُ؟ للمبالغةِ ولذلك وضعَ أحسنَ موضعَ الحسنةِ. ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي إذا فعلْتَ ذلك صارَ عدوُّك المشاقُّ مثل الوليِّ الشفيقِ.

(٣٥) ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ وما يُلَقَّى هذه السجيةَ وهي مقابلتُه الإساءةَ بالإحسانِ. ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ فإنها تحبسُ النفسَ عن الانتقام. ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الخير وكمالِ النفس وقيل الحظُّ الجنةُ.

(٣٦) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ نخسٌ، شبَّه به وسْوَسَتَهُ لأنها تبعثُ الإنسانَ على ما لا ينبغي كالدفعِ بما هو أسوأُ، وجَعَلَ النزغَ نازغاً على طريقةِ جديدةٍ؛ أو أُريدَ به نازغٌ وصفاً للشيطان بالمصدرِ. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شرِّه ولا تطِعْه. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتِك. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيَّتِكَ أو بصلاحِك.

---

(١) وعدم الاكتفاء بعطف «ما تدعون» على «ما تشتهي» للإشباع في البشارة والإيذان باستقلال كلٍّ منهما (س٨/ ١٣).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور: ٧/ ٣٢٥ لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور: ٧/ ٣٢٥ لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه من وجه عن عائشة رضي الله عنها.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى
خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ
ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ
فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ
لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾
مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

(٣٧) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنَّهما مخلوقانِ مأمورانِ مثلُكم. ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الضميرُ للأربعةِ المذكورةِ، والمقصودُ تعليقُ الفعلِ بهما إشعاراً بأنَّهما من عِدادِ ما لا يَعْلَمُ ولا يَخْتارُ. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإنَّ السجودَ أخصُّ العباداتِ وهو موضِعُ السجود عندَنا لاقترانِ الأمرِ به، وعند أبي حنيفةَ آخِرَ الآيةِ الأخرى لأنه تمامُ المعنَى.

(٣٨) ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الامتثال. ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكةِ. ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي دائماً لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ أي لا يملُّون.

(٣٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يابسةً متطامِنةً مستعارٌ من الخشوعِ بمعنى التذلُّلِ. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ تزخرفتْ وانتفختْ بالنباتِ، وقُرِىءَ ربأَتْ أي زادتْ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بعد موتها. ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياءِ والإماتةِ.

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلونَ إلى الاستقامةِ. ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالطعنِ والتحريفِ والتأويلِ الباطلِ والإلغاءِ فيها. ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فنجازيهم على إلحادهم. ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قابَلَ الإلقاءَ في النارِ بالإتيانِ آمِناً مبالغةً في إحمادِ حالِ المؤمنين. ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ تهديدٌ شديدٌ. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيدٌ بالمجازاةِ.

(٤١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بدلٌ من قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾[1] أو مستأنفٌ، وخبرُ إنَّ محذوفٌ مثلُ معاندونَ أو هالكونَ أو أولئك ينادَوْن، والذِّكرُ القرآنُ. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ كثيرُ النفعِ عديمُ النظيرِ أو منيعٌ لا يتأتَّى إبطالُه وتحريفُه.

(٤٢) ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا يتطرَّقُ إليه الباطلُ من جهةٍ من الجهاتِ أو مما فيه من الأخبارِ الماضيةِ والأمور الآتيةِ. ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ أي حكيم. ﴿حَمِيدٍ﴾ يحمدُه كلُّ مخلوقٍ بما ظهرَ عليه من نِعَمِه.

(٤٣) ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي ما يقولُ لك كفارُ قومِك. ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ إلا مثلَ ما قالَ لهم

---

(١) فصلت: «٤٠».

كفارُ قومِهم، ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى ما يقولُ اللهُ لك إلا مثلَ ما قال لهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائِه. ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائِهم، وهو على الثاني يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ المقولُ بمعنى أنَّ حاصلَ ما أُوحِيَ إليك وإليهم وَعْدُ المؤمنين بالمغفرة والكافرينَ بالعقوبة.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ
مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ
ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ
شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾

(٤٤) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ جوابٌ لقولهم: هلاَّ أُنْزِلَ القرآنُ بلغةِ العجمِ، والضميرُ للذِّكْرِ. ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ بُيِّنَتْ بلسانٍ نفقهُهُ. ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أكلامٌ أعجميٌّ ومخاطبٌ عربيٌّ، إنكارٌ مقرِّرٌ للتخصيصِ. والأعجميُّ يُقَالُ للذي لا يُفْهَمُ كلامُه. وهذا قراءةُ أبي بكر وحمزةَ والكسائيِّ، وقرأ قالون وأبو عمرٍو بالمدِّ والتسهيلِ وورشٌ بالمدِّ وإبدالِ الثانية ألفاً، وابنُ كثير وابنُ ذكوان وحفصٌ بغير المدِّ بتسهيلِ الثانية، وقُرِئَ أعجميٌّ وهو منسوبٌ إلى العجمِ، وقرأ هشام أعجميٌّ على الإخبارِ. وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ هلاَّ فصِّلَتْ آياتُه فجُعِلَ بعضُها أعجمياً لإفهامِ العجمِ وبعضُها عربياً لإفهام العربِ، والمقصودُ إبطالُ مُقْتَرَحِهم باستلزامِه المحذورَ، أو للدلالةِ على أنهم لا ينفكُّونَ عن التعنُّتِ في الآياتِ كيف جاءت. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ إلى الحقِّ. ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لما في الصدور من الشكِّ والشُّبَهِ. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأٌ خبرُه. ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ على تقديرِ هو في آذانِهم وقرٌ لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وذلك لتصامِّهم عن سماعِه وتعاميهم عما يريهم من الآياتِ، ومَنْ جوَّزَ العطفَ على عاملينِ مختلفينِ عطفَ ذلك على للذين آمنوا هدًى. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي صمٌّ، وهو تمثيلٌ لهم في عدمِ قبولِهم الحقَّ واستماعِهم له بِمَنْ يُصَاحُ به من مسافةٍ بعيدة.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب كما اخْتُلِفَ في القرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بالقيامة وفصْلُ الخصومةِ حينئذ، أو تقديرُ الآجال. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصالِ المكذِّبين. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإنَّ اليهودَ أوِ الذين لا يؤمنون. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من التوراةِ أوِ القرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ موجبٌ للاضطراب.

(٤٦) ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ نفعُه. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرُّه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيفعلُ بهم ما ليس له أنْ يفعلَه.

(٤٧) ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي إذا سُئِلَ عنها إذ لا يعلمُها إلا هوَ. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ من أوعيتِها جمعُ كُمٍّ بالكسرِ. وقرأ نافع وابنُ عامر وحفصٌ من ثمراتٍ بالجمعِ لاختلافِ

الأنواع، وقُرِىءَ بجمعِ الضميرِ أيضاً. وما نافيةٌ، ومنْ الأوْلَى مزيدةٌ للاستغراقِ، ويُحْتَمَلُ أنْ تكونَ موصولَةً معطوفةً على الساعةِ ومِنْ مبينةٌ بخلاف قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ بمكانٍ. ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ إلا مقروناً بعلمِه واقعاً حَسَبَ تعلُّقه به. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ بزعْمِكم. ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمْناكَ. ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ من أحدٍ يشهدُ لهم بالشركةِ إذ تبرَّأنا عنهم لما عايَنَّا الحالَ فيكونُ السؤالُ عنهم للتوبيخ، أو من أحدٍ يشاهدُهم لأنَّهم ضلُّوا عنَّا. وقيل هو قولُ الشركاءِ أي ما مِنَّا مَنْ يشهدُ لهم بأنَّهم كانوا محقِّين.

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

(٤٨) ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ يعبدُونَ. ﴿مِن قَبْلُ﴾ لا ينفعهُم أو لا يَرَوْنَهُ. ﴿وَظَنُّواْ﴾ وأيقَنُوا. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهربٍ، والظنُّ معلَّقٌ عنه بحرفِ النفي.

(٤٩) ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لا يملُّ. ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ من طلبِ السَّعَةِ في النِّعمةِ، وقُرِىءَ من دعاءِ بالخير. ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضِّيقةُ. ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ من فضلِ الله ورحمتِه وهذا صفةُ الكافرِ لقوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1] وقد بولِغَ في يأسِه من جهةِ البنيةِ والتكريرِ وما في القنوطِ من ظهورِ أثرِ اليأسِ.

(٥٠) ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ بتفريجها عنه. ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ حقِّي أستحقُّه لِمَا لِيَ من الفضلِ والعملِ، أولي دائماً لا يزولُ. ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ تقومُ. ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي ولئنْ قامتْ على التوهُّم كان لي عندَ الله الحالةُ الحسْنَى من الكرامةِ، وذلك لاعتقادِه أنَّ ما أصابه من نِعَمِ الدنيا فلاستحقاقٍ لا ينفكُّ عنه. ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فلنخبرنَّهم ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ بحقيقةِ أعمالِهم ولَنُبَصِّرَنَّهم عكسَ ما اعتقدُوا فيها. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يمكنُهم التقصِّي عنه.

(٥١) ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر. ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وانحرفَ عنه أو ذهبَ بنفسه وتباعدَ عنه بِكُلِّيَّتِهِ تكبُّراً، والجانبُ مجازٌ عن النفسِ كالجنْبِ في قوله ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[2]. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثيرٌ، مستعارٌ ممَّا لَهُ عرضٌ متَّسِعٌ للإشعارِ بكثرتِه واستمرارِه، وهو أبلغُ من الطويلِ إذ الطولُ أطولُ الامتدادينِ. فإذا كان عرضُه كذلك فما ظنُّك بطولِه.

(٥٢) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿إِن كَانَ﴾ أي القرآنُ. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ من غير

(١) يوسف: «٨٧».
(٢) الزمر: «٥٦».

نظرٍ واتباعِ دليلٍ. ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي من أضلُّ منكم، فوضَعَ الموصولَ موضِعَ الضميرِ شرْحاً لحالِهم وتعليلاً لمزيدِ ضلالِهم.

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

(٥٣) ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ﴾ يعني ما أخبرهُم النبيُّ عليه الصلاة والسلام به من الحوادثِ الآتية وآثارَ النوازلِ الماضية، وما يسَّر اللهُ له ولخلفائِه من الفتوح والظهورِ على ممالِكِ الشرقِ والغرب على وجْهٍ خارقٍ للعادة. ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ما ظهرَ فيما بينَ أهلِ مكَّةَ وما حلَّ بهم، أو ما في بدنِ الإنسان من عجائبِ الصُّنعِ الدالةِ على كمالِ القدرةِ. ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الضميرُ للقرآنِ أو الرسولِ أو التوحيدِ أو اللهِ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي أو لم يَكفِ ربُّك، والفاءُ مزيدةٌ للتأكيد كأنه قيل: أو لم تحصلِ الكفايةُ به، ولا تكادُ تُزادُ في الفاعلِ إلا مع كفَىٰ. ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدلٌ منه، والمعنى أولم يكْفِك أنه تعالى على كلِّ شيء شهيدٌ محقِّقٌ له فيحقِّقُ أمْرَكَ بإظهارِ الآياتِ الموعودةِ كما حقَّقَ سائِرَ الأشياءِ الموعودةِ، أو مطَّلِعٌ فيعلمُ حالَكَ وحالَهم، أو لم يكفِ الإنسانَ رادعاً عن المعاصي أنه تعالى مطلعٌ على كلِّ شيءٍ لا يَخفَى عليه خافيةٌ.

(٥٤) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شكٍّ، وقرىء بالضمِّ وهو لغةٌ كخُفيةٍ وخِفيَةٍ. ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعثِ والجزاءِ. ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ عالمٌ بِجُمَلِ الأشياء وتفاصيلِها، مقتدِرٌ عليها لا يفوتُه شيءٌ منها.

عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ السجدةِ أعطاه الله بكلِّ حرفٍ عشْرَ حسناتٍ»[١].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه وتقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الشُّورَىٰ

ترتيبها ٤٢ — آياتها ٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

سورةُ حمٓ عسقٓ مكّيةٌ[١]، وهي ثلاثٌ وخمسونَ آيةً، وتُسَمَّى سورةَ الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿عٓسٓقٓ﴾ لعلَّه اسمانِ للسورة ولذلك فُصِلَ بينَهما وعُدَّا آيتينِ، وإنْ كانا اسماً واحداً فالفصلُ ليطابِقَ سائرَ الحواميم، وقرئ حمٓ سقٓ.

(٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي مثلَ ما في هذه السورةِ من المعاني، أو إيحاءً مثلَ إيحائِها أَوْحَى الله إليك وإلى الرُّسلِ من قبلِكَ، وإنما ذُكِرَ بلفظ المضارع على حكايةِ الحالِ الماضية للدلالة على استمرارِ الوحي وأنَّ إيحاءَ مثلِه عادتُه، وقرأ ابنُ كثير يُوْحَىٰ بالفتح على أنَّ كذلك مبتدأٌ ويُوْحَى خبرُه المسندُ إلى ضميرِه، أو مصدرٌ ويوحى مسندٌ إلى إليك، واللهُ مرتفعٌ بما دلَّ عليه يوحي، والعزيزُ الحكيمُ صفتانِ له مقرِّرَتَانِ لعلوِّ شأنِ الموحَى به كما مرَّ في السورةِ السابقة، أو بالابتداءِ كما في قراءِ نوحي بالنونِ، والعزيزُ وما بعدَه أخبارٌ أو العزيزُ الحكيمُ صفتانِ. وقولُه:

(٤) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ خبرانِ له وعلى الوجوهِ الأُخَرِ استئنافٌ مقرِّرٌ لِعِزَّتِه وحِكْمَتِه.

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٣٣٥).

(٥) ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وقرأ نافعٌ والكسائيُّ بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشقَّقْنَ من عظمةِ الله، وقيل من ادِّعاءِ الولدِ له. وقرأ البصريانِ وأبو بكر ينفطِرْنَ بالنونِ والأولُ أبلغُ لأنه مطاوعُ فَطَرَ وهذا مطاوع فَطِر، وقرىء تتفطَّرنَ بالتاءِ لتأكيد التأنيثِ وهو نادرٌ. ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي يبتدىءُ الانفطارُ من جهتهنَّ الفوقانيةِ، وتخصيصُها على الأولِ لأنَّ أعظمَ الآياتِ وأدلَّها على علوِّ شأنه من تلك الجهةِ، وعلى الثاني ليدلَّ على الانفطارِ من تحتهنَّ بالطريقِ الأَوْلَى. وقيل: الضميرُ للأرضِ فإنَّ المرادَ بها الجنسُ. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتَهم من الشفاعةِ والإلهامِ وإعدادِ الأسبابِ المقرِّبة إلى الطاعةِ، وذلك في الجملةِ يعمُّ المؤمنَ والكافرَ، بل لو فُسِّرَ الاستغفارُ بالسَّعْي فيما يدفعُ الخلَلَ المتوقَّعَ عمَّ الحيوانَ بلِ الجمادَ. وحيثُ خُصَّ بالمؤمنين فالمرادُ به الشفاعةُ. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ ما مِنْ مخلوقٍ إلا وهو ذو حظ من رحمته. والآيةُ على الأول زيادةُ تقرير لعظمته، وعلى الثاني دلالةٌ على تقدُّسه عما نُسِبَ إليه، وإنَّ عدمَ معاجلَتهم بالعقاب على تلك الكلمةِ الشنعاء باستغفار الملائكة وفَرْطِ غفران الله ورحمته.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

(٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ شركاءَ وأنداداً. ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمدُ. ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بموكَّل بهم أو بموكول إليك أمرَهم.

(٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ الإشارةُ إلى مصدر يوحي أو إلى معنى الآية المتقدمة، فإنه مكررٌ في القرآن في مواضعَ جمَّةٍ فتكون الكافُ مفعولاً به وقرآناً عربياً حالٌ منه. ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أهلَ أمِّ القرى وهي مكةُ شرَّفها اللهُ تعالى. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب. ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يوم القيامة يُجْمَعُ فيه الخلائقُ أو الأرواح والأشباح، أوِ العمالُ والأعمال، وحذفَ ثاني مفعولي الأولِ وأولَ مفعولي الثاني للتهويل وإيهام التعميم، وقُرِىءَ لينذرَ بالياء والفعلُ للقرآن. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراضٌ لا محلَّ له من الإعراب. ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي بعدَ جمعِهم في الموقفِ يُجْمَعُوْنَ أولاً ثم يفرَّقون، والتقدير منهم فريقٌ، والضمير للمجموعين لدلالةِ الجمْعِ عليه، وقرئا منصوبينِ على الحالِ منهم أي وتنذرَ يومَ جَمْعِهم متفرِّقين بمعنى مشارفين للتفرُّقِ، أو متفرِّقين في دَارَيِ الثوابِ والعقاب.

(٨) ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مهتدين أو ضالِّين. ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ بالهداية والحمْل على الطاعة. ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي يدعُهم بغير وليٍّ ولا نصيرٍ في عذابه، ولعل تغييرَ المقابلة للمبالغة في الوعيد إذِ الكلامُ في الإنذار[1].

---

(١) أو للإيذان بأن الإدخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالىٰ كما في =

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ
فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ
أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ
مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا
وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ
كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

(٩) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ بلِ اتَّخذوا. ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ كالأصنام. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ جوابٌ لشرطٍ محذوف مثلُ إنْ أرادوا أولياءَ بحقٍّ فالله هو الولي بالحق. ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية.

(١٠) ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم والكفارُ. ﴿فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ من أمر من أمور الدنيا أو الدين. ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مفوَّضٌ إليه يميزُ المحقَّ من المبطِلِ بالنصر أو بالإثابة والمعاقَبةِ. وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل متشابه فارجعوا فيه إلى المحكَم من كتاب الله. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامعِ الأمور. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إليه أرجع في المعضلاتِ.

(١١) ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خبرٌ آخرُ لذلكم أو مبتدأٌ خبره: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ وقرىء بالجرِّ على البدلِ من الضمير أو الوصفِ لإلى الله. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسِكم. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساء. ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً، أو خلق لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً. ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثِّركُم من الذَّرْءِ وهو البثُّ وفي معناه الذَّرُّ والذَّرْوُ، والضمير على الأول للناس والأنعامِ على تغليب المخاطَبِين العقلاءِ. ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبيرِ، وهو جعْلُ الناسِ والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالُدٌ فإنه كالمنبعَ للبثِّ والتكثير. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليس مثلَه شيءٌ يزاوِجه ويناسبه، والمراد من مثله ذاتُه كما في قولهم: مثلُك لا يفعل كذا، على قصدِ المبالغة في نفيه عنه فإنه إذا نفي عمَّن يناسبه ويسدُّ مسدَّه كان نفيه عنه أولى، ونظيرهُ قول رقيقةَ بنتِ صيفي في سُقيا عبدِالمطلب: ألاَ وَفِيهِمُ الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِذَاتِهِ. ومَنْ قال الكافُ فيه زائدةٌ لعله عنى أنه يعطَى معنى ليس مثلَه غيرَ أنه آكدُ لما ذكرناه. وقيل مثلُه صفتُه أي ليس كصفته صفةٌ. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لكل ما يسمع ويبصرُ.

(١٢) ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خزائنُها. ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسِّعُ ويضيق على وِفقِ مشيئته. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعله على ما ينبغي.

(١٣) ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ أي شرع لكم من الدين دينَ نوح ومحمد عليهما الصلاة والسلام ومَنْ بينهما من أرباب الشرائع، وهو الأصل المشتركُ فيما ....

= الإدخال في الرحمة (س٨/ ٢٣).

بينهم[١]، المفسّرُ بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهو الإيمان بما يجب تصديقُه والطاعة في أحكام الله. ومحلُّه النصبُ على البدل من مفعول شرع، أوِ الرفعُ على الاستئنافِ كأنه جوابُ وما ذلك المشروعُ، أوِ الجرُّ على البدلِ من هاءٍ به. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصلِ أما فروعُ الشرائع فمختلِفةٌ كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٢] ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ عظمُ عليهم. ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ يجتلبُ إليه، والضميرُ لما تدعوهم أو للدين. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ بالإرشاد والتوفيق. ﴿مَن يُنِيبُ﴾ يقبلُ إليه.

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا
أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

(١٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ يعني الأممَ السالفة. وقيل أهلُ الكتاب لقوله ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾[٣] ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ العلم بأنَّ التفرُّقَ ضلالٌ متوعَّدٌ عليه، أوِ العلمُ بمبعَثِ الرسلِ عليهم الصلاة والسلام، أو أسبابُ العلم من الرسل والكتبِ وغيرهما فلم يلتفتوا إليها. ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ عداوةً أو طلباً للدنيا. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإمهال. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يومُ القيامة أو آخرُ أعمارهم المقدَّرةِ. ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المبطلينَ حين اقترفوا لعظمِ ما اقترفوا. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ يعني أهلَ الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، أوِ المشركينَ الذين أُورِثُوا القرآنَ من بعد أهل الكتاب. وقُرِئَ ورِثُوا وَوُرِّثُوا. ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من كتابِهم لا يعلمونه كما هو أو لا يؤمنون به حقَّ الإيمانِ، أو من القرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلِقٍ أو مدخِلٍ في الريبة.

(١٥) ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فَلأَجْلِ ذلك التفرُّقِ أو الكتابِ، أو العلمِ الذي أُوتِيتَهُ. ﴿فَادْعُ﴾ إلى الاتفاقِ على الملَّةِ الحنيفيةِ أو الاتِّباعِ لما أُوتيتَ، وعلى هذا يجوزُ أن تكونَ اللام في موضعِ إلى لإفادة الصلةِ

---

(١) خص الأنبياء المذكورين للتنبيه على علو شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليه.
وإيثار الإيحاء «وأوحينا» على ما قبله «شرع...» وما بعده «وصينا» لما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة.
والالتفات إلى نون العظمة «أوحينا...» لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه، وهو السرّ في تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً.
وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً.
وتوجيه الخطاب إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام (س٨/ ٢٥).

(٢) المائدة: «٤٨».

(٣) البينة: «٤».

والتعليل. ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ واستقمْ على الدعوةِ كما أمرك الله تعالى. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلةَ. ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ يعني جميعَ الكتبِ المنزَّلةِ لا كالكفار الذين آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والحكومات، والأولُ إشارةٌ إلى كمال القوة النظرية وهذا إشارةٌ إلى كمال القوة العملية. ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ خالقُ الكلِّ ومتولي أمرِهِ. ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ وكلٌّ مجازَى بعمله. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا حِجاجَ بمعنى لا خصومةَ إذِ الحقُّ قد ظهرَ ولم يبقَ للمحاجَّةِ مجالٌ ولا للخلاف مبدأٌ سوى العناد. ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يومَ القيامة. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مرجعُ الكلِّ لفصلِ القضاءِ. وليس في الآية ما يدلُّ على متاركةِ الكفار رأساً حتى تكونَ منسوخةً بآية القتال.

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى
ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ في دينه. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ من بعد ما استجابَ له الناسُ ودخلوا فيه، أو من بعد ما استجاب اللهُ لرسوله فأظهر دينَه بنصرهِ يومَ بدرٍ، أو من بعد ما استجابَ له أهلُ الكتاب بأنْ أقرُّوا بنبوَّته واستفتحُوا به. ﴿حُجَّتُهُمْ[1] دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ زائلةٌ باطلة. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لمعاندتهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

(١٧) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جنسَ الكتاب. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً بعيداً من الباطلِ، أو بما يحقُّ إنزالُه من العقائد والأحكام. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ والشرعَ الذي تُوزَنُ به الحقوقُ ويسوِّي بين الناس، أوِ العدلَ بأنْ أنزلَ الأمرَ به، أو آلةَ الوزنِ بأن أوحى بإعدادها. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إتيانُها فاتَّبع الكتابَ واعمَلْ بالشرع وواظبْ على العدل قبل أنْ يفاجِئَك اليومُ الذي تُوزَنُ فيه أعمالُك وتوفَّى جزاءَك. وقيل تذكير القريبِ لأنه بمعنى ذاتِ قُرْبٍ، أو لأنَّ الساعةَ بمعنى البعثِ.

(١٨) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاءً. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون منها مع اغتيابها لتوقُّع الثواب. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي الكائنُ لا محالةَ. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ يجادلون فيها من المِرْيَةِ، أو من مريتُ الناقةَ إذا مسحتُ ضِرْعَها بشدةٍ للحلبِ لأنَّ كلاًّ من المتجادلَيْنَ يستخرجُ ما عندَ صاحبه بكلام فيه شِدَّةٌ. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ فإنَّ البعثَ أشبهُ الغائباتِ إلى المحسوسات، فمن لم يهتدِ لتجويزه فهو أبعدُ عن الاهتداءِ إلى ما وراءَه.

(١٩) ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ برٌّ بهم بصنوفٍ من البرِّ لا تبلغُها الأفهامُ. ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يرزقه

---

(١) عبّر عن أباطيلهم بالحجة مجاراة معهم على زعمهم الباطل (س٨/٢٨).

كما يشاء فيخصُّ كلاً من عباده بنوعٍ من البِرِّ على ما اقتضتْه حكمتُه. ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾ الباهرُ القدرةِ. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيعُ الذي لا يُغلَبُ.

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ ثوابَها شبَّهه بالزرع من حيثُ إنهُ فائدةٌ تحصل بعملٍ ولذلك قيل: الدنيا مزرعةُ الآخرةِ، والحرثُ في الأصل إلقاء البذْر في الأرض ويُقالُ للزرع الحاصلِ منه. ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ فنعطِه بالواحدِ عشراً إلى سبعمائة فما فوقَها. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ شيئاً منها على ما قسمْنا له. ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذِ الأعمالُ بالنيات ولكل امرىءٍ ما نوى.

(٢١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ بل أَلَهُمْ شركاءُ، والهمزة للتقرير والتقريعِ، وشركاؤهم شياطينُهم. ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم﴾ بالتزيين. ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعْثِ والعمل للدنيا. وقيل شركاؤهم أوثانُهم وإضافتُها إليهم لأنهم متَّخِذُوها شركاءَ، وإسناد الشرعِ إليها لأنها سببُ ضلالتِهم وافتتانهم بما تديَّنوا به، أو صورُ مَنْ سنَّه لهم. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاءِ السابق بتأجيل الجزاءِ، أو العِدَةُ بأنَّ الفصلَ يكون يومَ القيامة. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين، أو المشركين وشركائِهم. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقرىء أنَّ بالفتح عطفاً على كلمة الفصلِ أي ولولا كلمةُ الفصلِ وتقديرُ عذاب الظالمين في الآخرة لقُضِيَ بينهم في الدنيا، فإنَّ العذابَ الأليمَ غالبٌ في عذاب الآخرة.

(٢٢) ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في القيامة. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين. ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من السيئات. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي وبالُه لاحقٌ بهم أشفقوا أو لم يُشفِقوا. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ في أطيب بِقاعِها وأنزهِها. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ما يشتهونه ثابتٌ لهم عند ربِّهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنين. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي يصغُر دونه ما لغيرهم في الدنيا.

(٢٣) ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ذلك الثوابُ الذي يبشِّرهم الله به فحذفَ الجارَّ ثم العائدَ، أو ذلك التبشيرُ الذي يبشره اللهُ عبادَه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي يَبْشُر مِنْ بَشَرهُ وقُرِىءَ يُبْشِر من أَبشرهُ. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أتعاطاه من التبليغ والبِشارة. ﴿أَجْرًا﴾ نفعاً منكم. ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي تودُّوني لقرابتي منكم. أو تودُّوا قرابتي، وقيل الاستثناء منقطعٌ والمعنى: لا أسألكم أجراً قطُّ، ولكني أسألكم المودةَ، وفي القربى حالٌ منها أي إلا المودةَ ثابتةً في ذوي القربى متمكِّنة في أهلها، أو في حقِّ القرابة ومن أجلها كما جاء في الحديث «الحبُّ في الله

والبغضُ في الله»[١]. رُوِيَ: أنَّها لما نزلت قيل يا رسولَ الله مَنْ قرابتُك هؤلاءِ الذين وجبتْ مودَّتُهم علينا؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وإبناهما»[٢]. وقيل القربى التقرُّبُ إلى الله أي إلا أنْ تَودُّوا الله ورسولَه في تقرُّبكم إليه بالطاعة والعملِ الصالح، وقرىء إلا مودةً في القربى. ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ﴾ ومن يكتسبْ طاعةً سيَّما حبُّ آلِ رسولِ الله ﷺ، وقيل نزلتْ في أبي بكر الصدِّيقِ رضي الله تعالى عنه ومودَّته لهم[٣]. ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ في الحسنة بمضاعفة الثواب، وقرىء يُزِدْ أي يزدِ اللهُ وحسنى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لمن أذنبَ. ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع بتوفية الثوابِ والتفضُّلِ عليه بالزيادة.

أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾

(٢٤) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون. ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ﴾ افترى محمدٌ بدعوى النبوةِ أو القرآن. ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ استبعادٌ للافتراءِ عن مثله بالإشعارِ على أنه إنما يجترىءُ عليه من كان مختوماً على

---

(١) ذكره الديلمي في «الفردوس» رقم (٢٧٨٧) من حديث أنس. وعزاه إليه صاحب كنز العمال رقم (٢٤٦٨٨) بلفظ: «الحب في الله فريضة، والبغض في الله فريضة».
● وأخرج أبو داود (٥/ ٦٠ رقم ٤٦٨١) من حديث أبي أمامة. بلفظ: «من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان» وهو حديث صحيح.
● وأخرج الترمذي (٤/ ٦٧٠ رقم ٢٥٢١) وأحمد (٣/٤٣٨، ٤٤٠) من حديث معاذ بن أنس بلفظ: «من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل الإيمان» قال الترمذي حديث حسن وهو كما قال.
● وأخرج أحمد (٥/١٤٦) من حديث أبي ذر، بلفظ: «إن أحب الأعمال: الحب في الله، والبغض في الله». وفيه رجل لم يسم.
● وأخرج أحمد (٤/٢٨٦) من حديث البراء، بلفظ: «أوسط عرى الإسلام الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٤٤ رقم ١٢٢٥٩).
وزاد السيوطي في الدر المنثور (٧/٣٤٨) نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وقال: بسند ضعيف.
وقال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٤٥ رقم ٣٥٠): «أخرجه: الطبراني، وابن أبي حاتم، والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وحسين ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه.
ففي البخاري ـ (٦/ ٥٢٦ رقم ٣٤٩٧) و(٨/ ٥٦٤ رقم ٤٨١٨) ـ من رواية طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية. فقال سعيد بن جبير قربي آل محمد ﷺ؟ فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ـ الحديث) هـ.
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.
(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٥/ ٣٣).

قلبه جاهلاً بربِّه، فأما من كان ذا بصيرةٍ ومعرفةٍ فلا وكأنه قال: إنْ يشأِ اللهُ خُذْلانَك يختمْ على قلبك لتجترىءَ بالافتراءِ عليه. وقيل يختِمْ على قلبك يمسكِ القرآنَ أو الوحْيَ عنه، أو يربطْ عليه بالصبر فلا يشقُّ عليك أذاهُم. ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ استئنافٌ لنفي الافتراءِ عما يقوله بأنه لو كان مُفْتَرى لمحَقَه إذ من عادتِه تعالى محوُ الباطلِ وإثباتُ الحقِّ بوحْيه أو بقضائِه، أو بوعْدِه بمحوِ باطلِهم وإثباتِ حقِّه بالقرآنِ، أو بقضائه الذي لا مردَّ له، وسقوطُ الواوِ من يمحُ في بعضِ المصاحفِ لاتباعِ اللفظ كما في قوله تعالى ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾[1].

(٢٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالتجاوُزِ عما تابوا عنه، والقَبولُ يُعَدَّى إلى مفعول ثانٍ بِمِنْ وعنْ لتضمُّنه معنى الأخْذِ والإبانةِ، وقد عرفتَ حقيقةَ التوبة. وعن عليٍّ رضي الله تعالى عنه هي اسمٌ يقع على ستة معانٍ: على الماضي من الذنوب الندامةُ، ولتضييع الفرائض الإعادةُ، وردُّ المظالم وإذابةُ النفس في الطاعة كما ربَّيتها في المعصية وإذاقتُها مرارةَ الطاعة كما أذقْتَها حلاوةَ المعصية، والبكاءُ بدل كلِّ ضحكٍ ضحكْته. ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغيرِها وكبيرِها لمن يشاء. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازي ويتجاوز عن إتقان وحكمةٍ. وقرأ الكوفيون غيرُ أبي بكر ما تفعلون بالتاء.

(٢٦) ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يستجيبُ اللهُ لهم فحذَف اللامَ كما حذف في ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾[2] والمرادُ إجابةُ الدعاء، أو الإثابةُ على الطاعة، فإنها كدعاء وطلبٍ لما يترتبُ عليها. ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام «أفضلُ الدعاء الحمدُ لله»[3]، أو يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ما سألُوا واستحقُّوا واستوجَبُوا له بالاستجابة. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدلَ ما للمؤمنين من الثوابِ والتفضُّل.

(٢٧) ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتكبَّروا وأفسدوا فيها بطراً، أو لبغى بعضُهم على بعض، استيلاءً واستعلاء وهذا على الغالب، وأصلُ البغي طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يتحرَّى كميَّةً أو كيفية. ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ بتقدير. ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ كما اقتضتْه مشيئتُه. ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعلمُ خفايا أمرِهم وجلايا حالهم فيقدِّرُ لهم ما يناسب شأنَهم. رُوِيَ أنَّ أهلَ الصُّفَّةِ تمنَّوا الغنى فنزلتْ[4]. وقيل

---

(١) الإسراء: «١١».

(٢) المطففين: «٣».

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٦٢ رقم ٣٣٨٣) وابن ماجة (٢/ ١٢٤٩ رقم ٣٨٠٠) وابن حبان (ص٥٧٨ رقم ٢٣٢٦ ـ موارد) والحاكم (١/ ٤٩٨) من حديث جابر.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
وقال الألباني: حديث حسن ـ صحيح الجامع (رقم: ١١٠٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ج٢٥/ ٣٠) عن أبي هانىء قال: سمعت عمرو بن حريث وغيره يقولون. . . فذكره.
وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٣٥٢) نسبته لابن المنذر وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠٤) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

في العرب كانوا إذا أخصبُوا تحاربوا وإذا أجدبوا انتجعُوا[١].

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن
مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ
ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

(٢٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ المطرَ الذي يغيثُهم من الجدْبِ ولذلك خُصَّ بالنافع، وقرأ نافع وابن عامر وعاصمٌ ينزِّلُ بالتشديد. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أَيِسُوا منه، وقرىء بكسر النون. ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ في كل شيء من السهلِ والجبل والنبات والحيوانِ. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولَّى عباده بإحسانه ونشْرِ رحمته. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحقُّ للحمدِ على ذلك.

(٢٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنها بذاتها وصفاتها تدلُّ على وجود صانع قادرٍ حكيم. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطفٌ على السموات أوِ الخلْقِ. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من حيٍّ على إطلاق اسم المسبِّب على السبب، أو مما يدبُّ على الأرض وما يكون في أحد الشيئين يصدُق أنَّه فيهما في الجملة. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ﴾ أي في أي وقت يشاءُ. ﴿قَدِيرٌ﴾ متمكِّنٌ منه وإذا كما تدخلُ على الماضي تدخلُ على المضارع.

(٣٠) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فبسببِ معاصيكم. والفاءُ لأنَّ ما شرطيةٌ أو متضمِّنةٌ معناهُ، ولم يذكرْها نافع وابنُ عامر استغناءً بما في الباء من معنى السببيةِ. ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ من الذنوب فلا يعاقِبُ عليها. والآيةُ مخصوصةٌ بالمجرمين، فإنَّ ما أصاب غيرَهُم فلأسبابٍ أُخَرَ منها تعريضُه للأجر العظيم بالصبر عليه.

(٣١) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يحرِصُكم عنها. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعُها عنكم.

(٣٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ السفنُ الجارية. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ كالجبال. قالتِ الخنساءُ:

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

(٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ وقرىء الرياحَ. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ فيبقَيْنَ ثوابتَ على ظهْر البحر. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكلِّ مَنْ وكَّل همَّتَهُ وحبس نفسه على النظر في آيات الله والتفكُّرِ في آلائِه، أو لكلِّ مؤمن كاملِ الإيمان، فإنَّ الإيمانَ نصفانِ نصفٌ صبرٌ ونصف شكر.

---

(١) خرجوا في طلب الكلأ فشغلهم الجدب عن القتال.

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٤) ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أو يهلكْهُنَّ بإرسال الريح العاصفة المغرِقةِ، والمراد إهلاكُ أهلِها لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وأصلُه أو يرسلها فيوبقْهنَّ لأنه قَسيمٌ يسكِّن فاقتصر فيه على المقصودِ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ إذ المعنى أو يرسلْها فيوبقْ ناساً بذنوبهم وينجِ ناساً على العفو منهم، وقرىء ويعفو على الاستئنافِ.

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ عطفٌ على علَّةٍ مقدَّرة مثل لينتقمَ منهم ويعلمَ، أو على الجزاء، ونُصِبَ نَصْبَ الواقعِ جواباً للأشياء الستةِ لأنه أيضاً غيرُ واجب، وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستئنافِ، وقرىء بالجزمِ عطفاً على يعفُ فيكون المعنى ويجمعُ بينَ إهلاك قوم وإنجاءِ قوم وتحذيرِ آخرين. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ محيدٍ من العذاب، والجملةُ معلَّقٌ عنها الفعلُ.

(٣٦) ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تمتَّعون به مدَّة حياتِكم. ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لخلُوص نفعه ودوامِه. وما الأُولَى موصولةٌ تضمَّنت معنى الشرط من حيثُ إنَّ إيتاءَ ما أُوتوا سببٌ للتَّمتُّع بها في الحياة الدنيا فجاءتِ الفاء في جوابها بخلاف الثانية. وعن علي رضي الله تعالى عنه: تصدَّق أبو بكر رضي الله تعالى عنه بماله كلِّه فلامَه جَمْعٌ فنزلتْ[١].

(٣٧) ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ والذين بما بعدَه عطفٌ على للذين آمنوا، أو مدحٌ منصوبٌ أو مرفوع، وبناءُ يغفرون على ضميرِهم خبراً للدلالة على أنهم الأخِصَّاء بالمغفرة حالَ الغضبِ، وقرأ حمزة والكسائيُّ كبيرَ الإثم.

(٣٨) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ نزلتْ في الأنصار دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا له[٢]. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ذو شورى بينَهم لا ينفردون برأيٍ حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه. وذلك من فَرْطِ تدبُّرهم وتيقُّظهم في الأمور، وهي مصدرٌ كالفُتْيَا بمعنى التَّشاوُر. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله الخير.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ على ما جعلَه الله لهم كراهةَ التذلُّل، وهو وصفُهم بالشجاعة بعد وصْفِهم بسائر أمهاتِ الفضائلِ، وهو لا يخالِفُ وصْفَهم بالغُفرانِ، فإنه ينبىءُ عن عجزِ المغفورِ والانتصار عن مقاومةِ الخصْم، والحلمُ عن العاجز محمودٌ وعن المتغلِّبِ مذمومٌ لأنه إجراءٌ وإغراء على البغي، ثم عقَّب وصْفَهم بالانتصار للمنْع عن التعدي.

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٥/٤٥) بدون سند.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٥/٤٦) بدون سند.

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ
فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ
لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ
بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا
خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا
لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ﴿٤٧﴾

(٤٠) ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ وسمِّي الثانية سيئةً للازدواج، أو لأنها تسوءُ مَنْ تنزلُ به. ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين عدوه. ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عِدَةٌ مبهمةٌ تدل على عِظَمِ الموعود. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المبتدئين بالسيئةِ والمتجاوزين في الانتقام.

(٤١) ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ بعد ما ظُلِمَ، وقد قُرِىءَ به. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة.

(٤٢) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالإضرارِ ويطلبون ما لا يستحقُّونه تجبُّراً عليهم. ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ على ظلمهم وبغيهم.

(٤٣) ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى. ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصرْ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي إنَّ ذلك منه فحذفَ كما حذف في قولهم: السمنُ مَنَوانِ بدرهمٍ، للعلم به.

(٤٤) ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ من ناصرٍ يتولاه من بعدِ خُذْلانِ الله إياهُ. ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ حين يرونه فذُكِرَ بلفظ الماضي تحقيقاً. ﴿يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ هل إلى رجعة إلىٰ الدنيا.

(٤٥) ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ على النار، ويدل عليه العذابُ. ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متذلِّلين متقاصرينَ مما يلحقُهم من الذلِّ. ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ أي يبتدىء نظرُهم إلى النار من تحريكٍ لأجفانهم ضعيفٍ كالمصبور[1] ينظرُ إلى السيف. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ بالتعريض للعذاب المخلَّدِ. ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ ظرفٌ لخسروا والقولُ في الدنيا، أو لِقَالَ أي يقولون إذا رأوهم على تلك الحالِ. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ تمامُ كلامهم أو تصديقٌ من الله لهم.

(٤٦) ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى أو النجاة.

(٤٧) ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لا يردُّه الله بعد ما حكَم به ومِنَ صلةٌ

---

(١) الموقوف ليضرب عنقه.

لِمَرَدَّ. وقيل صلةُ يأتي أي من قبل أنْ يأتيَ يومٌ من الله لا يمكنُ ردُّه. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ مفرٌ. ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ إنكارٌ لما اقترفتموه لأنه مدوَّنٌ في صحائفِ أعمالكم تشهدُ عليه ألسنتكم وجوارِحُكم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

(٤٨) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيباً أو محاسِباً. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلَّغتَ. ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أراد بالإنسان الجنسَ لقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ بليغُ الكفرانِ ينسىٰ النعمةَ رأساً ويذكرُ البليةَ ويعظِّمها ولا يتأملُ سَبَبَهَا، وهذا وإنِ اختصَّ بالمجرمين جازَ إسنادُه إلى الجنسِ لِغَلَبَتِهم واندراجِهم فيه. وتصديرُ الشرطية الأُولى بإذا والثانيةِ بإن لأنَّ إذاقةَ النعمةِ محقَّقة من حيثُ إنها عادةٌ مقتضاةٌ بالذات بخلافِ إصابة البليةِ، وإقامةُ علَّةِ الجزاءِ مقامَه ووضعُ الظاهر موضِعَ المضمَرِ في الثانية للدلالةِ على أن هذا الجنسَ موسومٌ بكُفْران النعمة.

(٤٩) ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فله أنْ يقسِّم النعمةَ والبليةَ كيف يشاء. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من غير لزومٍ ومجالِ اعتراض. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾.

(٥٠) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ بدلٌ مِنْ يخلقُ بدلُ البعضِ، والمعنى يجعلُ أحوالَ العباد في الأولاد مختلفةً على مقتضى المشيئةِ فيهَبُ لبعضٍ إما صنفاً واحداً من ذكرٍ أو أنثى أو الصنفينِ جميعاً ويعقمُ آخرينَ. ولعلَّ تقديمَ الإناثِ لأنها أكثرُ لتكثيرِ النَّسل، أو لأنَّ مساقَ الآية للدلالة على أنَّ الواقعَ ما يتعلَّق به مشيئةُ الله لا مشيئةُ الإنسان والإناثُ كذلك، أو لأنَّ الكلامَ في البلاءِ والعربُ تعدُّهن بلاءً، أو لتطييب قلوب آبائهنَّ، أو للمحافظة على الفواصلِ ولذلك عرَّف الذكورَ، أو لِجَبْرِ التأخير. وتغييرُ العاطفِ في الثلثِ لأنه قسيمُ المشترك بين القسمينِ، ولم يَحتجْ إليه الرابعُ لإفصاحه بأنه قسيمُ المشترك بين الأقسام المتقدمة. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فيفعلُ ما يفعل بحكمةٍ واختيار.

(٥١) ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صحَّ له. ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ كلاماً خفياً يُدْرَكُ لأنه بسرعةِ تمثيلٍ ليس في ذاته مركَّباً من حروفٍ مقطعة تتوقَّفُ على تموُّجات متعاقِبةٍ. وهو ما يعمُّ المشافهَ به كما رُوِيَ في حديث المعراجِ، وما وعد به في حديث الرؤية، والمهتفَ به كما اتفقَ لموسى في طُوًى والطورِ، ولكنَّ عطفَ قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ عليه يخصُّه بالأولِ فالآية دليلٌ على جواز الرؤية لا على امتناعِها. وقيل المرادُ به الإلهامُ والإلقاء في الروعِ، أو الوحيُ المنزَّلِ به الملكُ إلى الرسلِ فيكون

المرادُ بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أو يرسلَ إليه نبياًفيبلِّغُ وحْيَهُ كما أمره، وعلى الأولِ المرادُ بالرسول الملكُ الموحي إلى الرسلِ، ووحياً بما عُطِفَ عليه منتصِبٌ بالمصدرِ لأنَّ مِنْ وراء حجاب صفةُ كلام محذوفٍ، والإرسالُ نوعٌ من الكلام، ويجوزُ أن يكونَ وحياً ويرسلَ مصْدَرينِ ومن وراء حجاب ظرفاً وقعتْ أحوالاً. وقرأ نافعٌ أو يرسلُ برفع اللام. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن صفات المخلوقين. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمتُه فيكلِّم تارةً بِوُسُطٍ، وتارةً بغير وسطٍ إما عياناً وإما من وراء حجاب.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

(٥٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني ما أوحى إليه، وسمَّاه روحاً لأن القلوبَ تحيا به، وقيل جبريلُ والمعنى أرسلْناه إليك بالوحي. ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي قبلَ الوحي، وهو دليلٌ على أنه لم يكنْ متعبِّداً قبل النبوة بشرع. وقيل المرادُ هو الإيمان بما لا طريقَ إليه إلا السمعُ. ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي الروحَ أوِ الكتابَ أو الإيمانَ. ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيقِ للقبول والنظرِ فيه. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الإسلام، وقُرِىءَ لَتُهْدَى أي ليهديك اللهُ.

(٥٣) ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ من الأول. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلْكاً. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ بارتفاع الوسائطِ والتعلُّقاتِ، وفيه وعْدٌ ووعيدٌ للمطيعين والمجرمينَ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ حم عسق كان ممَّنْ تصلِّي عليه الملائكةُ ويستغفرون له ويسترحمونَ له»[1].



(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه بإسنادهما إلى أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٤٦ رقم ٣٦٥) ـ. وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

ترتيبها ٤٣ — آياتها ٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ
أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا
وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ ﴿٩﴾

سورة الزخرف مكية[1]

وقيل إلا قولَه: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[2] وآيُها تسعٌ وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

(٢) ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

(٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أقسمَ بالقرآن على أنه جعلَه قرآناً عربياً، وهو من البدائع لتناسُبِ القسَمِ والمقسَمِ عليه، كقول أبي تمام: وَثَنَايَاكَ أَنَّهَا أَغْرِيضُ. ولعلَّ إقسامَ الله بالأشياء استشهادٌ بما فيها من الدلالة على المقسَمِ عليه، وبالقرآنِ من حيثُ إنه معجزٌ مبينٌ لطرقِ الهدى وما يُحْتَاجُ إليه في الديانة، أو بيَّنَ للعرب ما يدل على أنه تعالى صيَّره كذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه.

(٤) ﴿وَإِنَّهُ﴾ عطفٌ على إنا، وقرأ حمزة والكسائيُ بالكسرِ على الاستئنافِ. ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ في

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ٣٠١): «وهي مكية بإجماعهم. وقال مقاتل: هي مكية إلاَّ آيةً وهي قوله: «واسأل من أرسلنا» [الزخرف: ٤٥].

(٢) الزخرف: «٤٥».

اللوح المحفوظِ فإنه أصلُ الكتبِ السماوية، وقرىء إمِّ الكتاب بالكسر. ﴿لَدَيْنَا﴾ محفوظاً عندنا عن التغيير. ﴿لَعَلِيٌّ﴾ رفيعُ الشأنِ في الكتب لكونه معجزاً من بينها. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغةٍ، أو محكمٌ لا ينسخُه غيرهُ. وهما خبرانِ لإنَّ وفي «أم الكتاب» متعلِّق بعليٍّ واللامُ لا تمنعُه، أو حالٌ منه ولدينا بدلٌ منه أو حالٌ من أمِّ الكتاب.

(٥) ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أفنذوده ونبعدُه عنكم مجازٌ من قولهم: ضربَ الغرائب عن الحوض، قال طرفةُ[1]:

اضْــرِبْ عَنْــكَ الهُمُــومَ طَــارِقَهَــا ضَــرْبَــكَ بِــالسَّيْــفِ قَــوْنَــس الفَــرَسِ

والفاءُ للعطف على محذوفٍ أي أنهملُكم فنضربُ عنكم الذِّكْرَ، وصفْحاً مصدرٌ من غير لفظِه فإنَّ تنحيةَ الذِّكْرِ عنهم إعراضٌ أو مفعولٌ له أو حالٌ بمعنى صافحين، وأصلُه أنْ تُولِيَ الشيءَ صفحةَ عُنُقِكَ. وقيل إنه بمعنى الجانبِ فيكون ظرفاً ويؤيدُه أنه قرىء صُفْحاً بالضمِّ، وحينئذ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ تخفيفُ صفْحٍ جمعَ صفوحٍ بمعنى صافحين، والمرادُ إنكارُ أنْ يكون الأمرُ على خلافِ ما ذكر من إنزال الكتاب على لغتهم ليفهموه. ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي لأنْ كنتم، وهو في الحقيقة علةٌ مقتضية لتركِ الإعراضِ عنهم، وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي إنْ بالكسرِ على أنَّ الجملةَ شرطيةٌ مخرِجةٌ للمحقَّقِ مخرجَ المشكوكِ استجْهالاً لهم، وما قبلَها دليلُ الجزاءِ.

(٦) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾.

(٧) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومِه.

(٨) ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي من القوم المسرفين لأنه صرفَ الخطابَ عنهم إلى الرسول مخبِراً عنهم. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ وسلفَ في القرآن قصتُهم العجيبةُ، وفيه وعدٌ للرسول ووعيدٌ لهم بمثل ما جرى على الأولينَ.

(٩) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ لعلَّه لازمَ مقولَهم أو ما دلَّ عليه إجمالاً أُقِيْمَ مقامَه تقريراً لإلزامِ الحجَّةِ عليهم، فكأنهم قالوا الله كما حُكِيَ عنهم في مواضعَ أُخرَ وهو الذي من صفته ما سردَ من الصفاتِ، ويجوز أن يكونَ مقولُهم وما بعدَه استئنافاً.

---

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو. شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين نحو (٨٦ ـ ٦٠ ق هـ = ٥٣٨ ـ ٥٦٤م) وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه.
ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر، شاباً، في (هَجَر) قيل: ابن عشرين عاماً، وقيل ابن ست وعشرين، أشهر شعره معلقته، ومطلعها:

(لخولة أطلال ببرقة ثهمد)

وقد شرحها كثيرون من العلماء. وجمع المحفوظ من شعره في «ديوان» مطبوع.
[الأعلام للزركلي (٣/ ٢٢٥)].

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

(١٠) ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فتستقرُّون فيها وقرأ غيرُ الكوفيونَ مهاداً بالألفِ.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونَها. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدِكم، أو إلى حكمةِ الصانعِ بالنظرِ في ذلك.

(١١) ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ بمقدارٍ ينفع ولا يضرُّ. ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ مالَ عنه النماءُ، وتذكيرهُ لأنَّ البلدةَ بمعنى البلدِ والمكانِ[1]. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك الإنشارِ. ﴿تُخْرَجُونَ﴾ تُنْشَرون من قبورِكم، وقرأ ابن عامرٍ وحمزة والكسائيُّ تَخرُجون بفتح التاءِ وضمِّ الراء.

(١٢) ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أصنافَ المخلوقاتِ. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ما تركبونه على تغليب المتعدِّي بنفسه على المتعدِّي بغيرهِ إذْ يُقالُ: ركبتُ الدابةَ وركبتُ في السفينة، أو المخلوقَ للركوبِ على المصنوع له أو الغالبَ على النادرِ ولذلك قال:

(١٣) ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي ظهورِ ما تركبونَ، وجمعَه للمعنى. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ تذكُروها بقلوبكم معترفينَ بها حامدينَ عليها. ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقينَ مِنْ أقْرَنَ الشيءَ إذا أطاقه، وأصلُه وجدَه قرينتَه إذِ الصعبُ لا يكون قرينةَ الضعيفِ. وقرىء بالتشديد والمعنى واحدٌ. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا وضعَ رجلَه في الرِّكابِ قال: «بسمِ اللهِ» فإذا استوى على الدابةِ قال: «الحمدُ لله على كلِّ حال سبحانَ الذي سخَّر لنا هذا»[2] إلى قوله:

(١٤) ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي راجعون، واتصالُه بذلك لأن الركوبَ للتنقُّل، والنقلةُ العظمى هو

---

(١) والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره (س٨/ ٤١).

(٢) وهو حديث صحيح.

أخرجه أبو داود (٣/ ٧٧ رقم ٢٦٠٢) والترمذي (٥/ ٥٨ رقم ٣٤٤٦) والنسائي كما في تحفة الأشراف (٧/ ٤٣٦ رقم ١٠٢٤٨) وابن حبان (ص٥٩١ رقم ٢٣٨٠ و٢٣٨١) والحاكم (٢/ ٩١ ـ ٩٢) وأحمد (١/ ٩٧، ١٢٨) والطيالسي في المسند (ص٢٠ رقم ١٣٢).

كلهم من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن علي بن ربيعة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبو الأحوص فقد أخرج الشيخان من طريقه عن أبي إسحاق. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الشيخ أحمد شاكر في المسند (رقم: ٧٥٣).

إسناده صحيح.

وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

الانقلابُ إلى الله تعالى، أو لأنه مخطرٌ فينبغي للراكبِ أنْ لا يغفلَ عنه ويستعدَّ لِلقاءِ الله تعالى.

وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ﴾ متصلٌ بقوله ﴿ولئن سألتهم﴾ أي وقد جعلُوا له بعد ذلك الاعترافِ من عباده ولداً فقالوا الملائكةُ بناتُ الله، ولعله سمَّاه جزاً كما سُمِّي بعضاً لأنه بِضْعَةٌ من الوالدِ دلالةً على استحالتِه على الواحدِ الحقِّ في ذاته، وقرأ أبو بكر جُزُأً بضمتين. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ الكفرانِ ومن ذلك نسبةُ الولدِ إلى اللهِ لأنها من فَرْطِ الجهلِ به والتحقيرِ لشأنه.

(١٦) ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ معنى الهمزةِ في أمْ للإنكارِ والتعجُّب من شأنهم حيثُ لم يقنعوا بأنْ جعلُوا له جزءاً حتى جعلُوا له من مخلوقاته أجزاءَ أخسَّ مما اخْتِيْرَ لهم وأبغضَ الأشياءِ إليهم، بحيثُ إذا بُشِّرَ أحدُهم بها اشتدَّ غمُّه به كما قال.

(١٧) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعلَه له مثلاً إذ الولدُ لا بدَّ وأنْ يماثِلَ الوالدَ[1]. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ صار وجهُه أسودَ في الغايةِ لما يعتريه من الكآبةِ. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوءٌ قلبُه من الكرب، وفي ذلك دلالاتٌ على فساد ما قالوه، وتعريفُ البنينَ بما مرَّ في الذكور[2]، وقُرِىءَ مسودٌّ ومسوَادٌّ على أنَّ في ظلّ ضميرَ المبشَّرِ ووجهه مسودٌّ جملةٌ وقعتْ خبراً.

(١٨) ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي أو جعلوا له، أوِ اتخذَ مَنْ يتربَّى في الزينة يعني البناتِ. ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ﴾ في المجادلة. ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ مقرِّر لما يدَّعيه من نقصانِ العقل وضعفِ الرأي، ويجوزُ أنْ يكون مَنْ مبتدأ محذوفَ الخبرِ أي أو من هذا حالةُ ولده. وفي الخصام متعلِّق بمبينٍ، وإضافةُ غيرِ إليه لا يمنعُه لما عرفتَ. وقرأ حمزة والكسائي وحفصٌ يُنَشَّأُ أي يُرَبَّى. وقرىء يُنْشَأُ ويُنَاشَأُ بمعناه ونظيرُ ذلك أعلاهُ وعُلاه وعالاهُ بمعنًى.

(١٩) ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ كفرٌ آخرُ تضمَّنه مقالُهم شنَّع به عليهم، وهو جعلُهم أكملَ العبادِ وأكرمَهُم على الله تعالى أنقصَهم رأياً وأخسَّهم صِنفاً. وقرىء عبيدُ، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر ويعقوبُ عندَ على تمثيلِ زُلْفَاهم. وقرىء أُنُثَاو وهو جمعُ الجمع. ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ أَحَضَروا خلْقَ الله إياهم فشاهدوهم إناثاً، فإنَّ ذلك مما يُعْلَمُ بالمشاهدة وهو تجهيلٌ وتهكُّمٌ به. وقرأ نافع أَؤُشْهِدوا بهمزةِ الاستفهام وهمزةٍ مضمومةٍ بينَ بينَ، وآأُشهدُوا بمدَّةٍ بينَهما. ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة. ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي عنها يومَ القيامة، وهو وعيدٌ شديد. وقرىء

(١) والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم وتحكىٰ لغيرهم تعجيباً منها (س٨/ ٤٢).
(٢) مر في سورة الشورى آية (٤٩ ـ ٥٠).

سيُكْتَب وسنَكتُب بالياءِ والنونِ، وشهاداتِهم وهي أنَّ لله جزءٌ أو أنَّ له بناتٍ وهنَّ الملائكةُ، ويُساءَلُون مِنَ المساءلةِ.

وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ أي لو شاء عدمَ عبادة الملائكة ما عبدْناهم فاستدلُّوا بنفي مشيئتِه عدمَ العبادةِ على امتناع النهي عنها أو على حُسْنِها، وذلك باطلٌ لأن المشيئة ترجِّح بعضَ الممكناتِ على بعض مأموراً كان أو منهياً حسناً كان أو غيرَه، ولذلك جهَّلَهُم فقال: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ يتمحَّلون تمحُّلاً باطلاً، ويجوز أنْ تكونَ الإشارةُ إلى أصل الدعوى كأنه لما أبدَى وجوهَ فسادها وحكى شبهتَهم المزيَّفةَ نَفَى أن يكون لهم بها علمٌ من طريق العقل، ثم أضربَ عنه إلى إنكار أنْ يكون لهم سندٌ من جهة النقل فقال:

(٢١) ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ من قبلِ القرآن أو ادِّعائهم ينطقُ على صحةِ ما قالوه. ﴿فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ بذلك الكتابِ متمسِّكون.

(٢٢) ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي لا حجَّةَ لهم على ذلك عقليةً ولا نقليةً، وإنما جنحُوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهالةَ، والأمةُ الطريقةُ التي تُؤَمُّ كالراحلة للمرحولِ إليه، وقُرِئَتْ بالكسرِ وهي الحالة التي يكون عليها الآمُّ أي القاصدُ ومنها الدِّينُ.

(٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ ودلالة على أنَّ التقليد في نحو ذلك ضلالٌ قديم، وأنَّ مقدَّميهم أيضاً لم يكن لهم سندٌ منظور إليه، وتخصيصُ المترفين إشعارٌ بأنَّ التنعُّمَ وحبَّ البطَالةِ صرفَهم عن النظر إلى التقليد.

(٢٤) ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ أي أتتبعون آباءَكم ولو جئتكم بدينٍ أهدَى من دين آبائِكم، وهي حكايةُ أمرٍ ماضٍ أوحي إلى النذير، أو خطابٌ لرسول الله ﷺ، ويؤيد الأولَ أنه قرأ ابنُ عامر وحفص قالَ، وقولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي وإن كان أهدَى إقناطاً للنذير من أنْ ينظروا أو يتفكَّروا فيه.

(٢٥) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾ بالاستئصالِ. ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ولا تكترثْ بتكذيبهم.

(٢٦) ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ واذكُرْ وقتَ قولِه هذا ليروا كيفَ تبرَّأَ عن التقليد وتمسَّكَ بالدليل، أو ليقلِّدوه إن لم يكنْ لهم بُدٌّ من التقليد فإنه أشرف آبائِهم. ﴿لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ بريءٌ من

عبادتكم أو معبودِكم، مصدرٌ نُعِتَ به ولذلك استوى فيه الواحدُ والمتعدِّد والمذكَّر والمؤنَّث، وقرىء بريءٌ وبِرَاءٌ ككريم وكِرَامٍ.

إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟
لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

(٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناء منقطعٌ أو متصل على أنَّ ما يعمُّ أولي العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون اللهَ والأصنامَ والأوثانَ، أو صفةٌ على أنَّ ما موصوفةٌ أي إنني بريءٌ من آلهةٍ تعبدونها غيرَ الذي فطرني. ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ سيثبِّتُني على الهداية، أو سيهديني إلى ما وراءَ ما هداني إليه.

(٢٨) ﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام أو اللهُ كلمةَ التوحيد. ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ في ذريته فيكون فيهم أبداً من يوحِّدُ اللهَ ويدعو إلى توحيده. وقرىء كلْمةً وفي عقْبه على التخفيف، وفي عاقِبه أي فيمنْ عَقَبَهُ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يرجع من أشرك بدعاءِ مَنْ وحَّد.

(٢٩) ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ هؤلاء المعاصرين للرسولِ ﷺ من قريش وآباءَهم بالمدِّ في العمرِ والنعمةِ، فاغتروا لذلك وانهمكوا في الشهواتِ. وقرىء متَّعْتَ بالفتح على أنه تعالى اعترضَ به على ذاتِه في قوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾ مبالغةً في تعييرهم. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ دعوةُ التوحيد أو القرآن. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ الرسالة بما له من المعجزات، أو مبينٌ للتوحيد بالحجَجِ والآياتِ.

(٣٠) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لينبِّهَهُم عن غفلَتِهم ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ زادوا شرارةً فضمُّوا إلى شِرْكِهم معاندةَ الحقِّ والاستخفافَ به، فسمُّوا القرآنَ سحراً وكفروا به واستحقروا الرسولَ.

(٣١) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ من إحدى القريتينِ مكَّةَ والطائفِ. ﴿عَظِيمٍ﴾ بالجاهِ والمال كالوليد بنِ المغيرة وعروةَ بنِ مسعود الثقفي، فإنَّ الرسالةَ منصِبٌ عظيم لا يليق إلا بعظيمٍ، ولم يعلموا أنها رتبةٌ روحانيةٌ تستدعي عِظَمَ النفس بالتحلي بالفضائل والكمالاتِ القدسيَّة، لا التزخرفِ بالزخارفِ الدنيوية.

(٣٢) ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكارٌ فيه تجهيلٌ وتعجيب من تحكُّمِهم، والمرادُ بالرحمة النبوةُ. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم عاجزون عن تدبيرها وهي خُوَيْصَةُ أمرهم في دنياهم، فَمِنْ أين لهم أنْ يدَّبَّروا أمرَ النبوةِ التي هي أعلى المراتب الأنسيةِ، وإطلاقُ المعيشة يقتضي أنْ يكون حلالُها وحرامُها من الله. ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ وأوقعنا بينَهم التفاوُتَ في الرزق وغيرِه. ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليستعملَ بعضُهم بعضاً في حوائجِهم فيحصلَ بينَهم تآلفٌ وتِضامٌّ ينتظم بذلك نظامُ العالم، لا لكمالٍ في الموسَعِ ولا لنقصٍ في المقتَرِ، ثم إنه لا اعتراضَ لهم علينا في ذلك ولا تصرُّفَ

فكيف يكون فيما هو أعلى منه. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني هذه النبوةَ وما يتبعُها. ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، والعظيمُ مَنْ رُزِقَ منها لا منْهُ.

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾

(٣٣) ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لولا أنْ يرغبوا في الكفرِ إذا رأَوا الكفارَ في سَعَةٍ وتنعُّم لحبِّهم الدنيا فيجتمعوا عليه. ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ ومصاعِدُ جمعُ معراج، وقرىء ومعاريجَ جمعُ معراج. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعلُونَ السطوحَ لحقارةِ الدنيا، ولبيوتهم بدلٌ مِنْ لِمَنْ بدلَ الاشتمالِ أو على كقولكَ: وهبتُ له ثوباً لقميصِه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسَقْفاً اكتفاءً بجمعِ البيوتِ، وقرىء سُقْفاً بالتخفيف، وسُقُوفاً وسَقَفاً وهي لغةٌ في سَقْف.

(٣٤) ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أي أبواباً وسرُراً من فضّة.

(٣٥) ﴿وَزُخْرُفًا﴾ وزينةً عطفٌ على سقفاً أو ذهباً عطفٌ على محلِّ من فضة ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إنْ هي المخففةُ واللامُ هي الفارقةُ. وقرأ عاصم وحمزة وهشامٌ بخلافٍ عنه لمّا بالتشديد بمعنَى إلاَّ وإنْ نافيةٌ، وقرىء به مع إنْ وما ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي، وفيه دلالةٌ على أنَّ العظيمَ هو العظيمُ في الآخرة لا في الدنيا، وإشعارٌ بما لأجله لم يجعلْ ذلك للمؤمنين حتى يجتمعَ الناسُ على الإيمان، وهو أنه تمتُّع قليلٌ بالإضافة إلى ما لهم في الآخرة مخلٌّ به في الأغلب لما فيه من الآفات قلَّ مَنْ يتخلص عنها كما أشار إليه بقوله:

(٣٦) ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يتعامَ ويعرِضُ عنه لفرطِ اشتغاله بالمحسوسات وانهماكِه في الشهوات، وقُرِىءَ يعشَ بالفتح أي يَعْمَ يقالُ عشَىٰ إذا كان في بصره آفةٌ وعشيَ إذا تعشَّى بلا آفةٍ كعَرِجَ وعرُجَ، وقرىء يعشُو على أنَّ مَنْ موصولة[1]. ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ يوسوسُه ويغويه دائماً، وقرأ يعقوب بالياء على إسناده إلى ضمير الرحمنِ، ومَنْ رفعَ يعشو ينبغي أنْ يرفعَ نقيضُ.

(٣٧) ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن الطريق الذي من حقِّه أنْ يُسْبَلَ، وجمعَ الضميرين للمعنى إذِ المرادُ جنسُ العاشي والشيطانِ المقيَّض له. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الضمائرُ الثلاثة الأُوَلُ له والباقيانِ للشيطان.

(٣٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي العاشي، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر وأبو بكر جاآنا أي العاشي

---

(١) إضافة الذكر إلى اسم الرحمن للإيذان بنزوله رحمة للعالمين (س٨/٤٧).

والشيطانُ. ﴿قَالَ﴾ أي العاشي للشيطان. ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ بُعْدَ المشرق من المغرب، فغلَّب المشرقَ وثنَّى وأُضِيفَ البعدُ إليهما. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ أنتَ.

وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ
وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا
عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ
وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾
وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾

(٣٩) ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي ما أنتم عليه من التمنِّي. ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ إذ صحَّ أنكم ظلمتُم أنفسَكم في الدنيا بدلٌ من اليوم. ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ لأنَّ حقَّكم أن تشتركوا أنتم وشياطينكم في العذاب كما كنتم مشتركينَ في سببه، ويجوزُ أنْ يُسْنَدَ الفعلُ إليه بمعنى: ولن ينفعَكم اشتراككُم في العذابِ كما ينفعُ الواقعينَ في أمرٍ صعبٍ معاونتُهم في تحمُّل أعبائِه وتقسُّمهم لمكابدةِ عنائِه، إذ لكلٍّ منكم ما لا تسعهُ طاقتُه. وقرىء إنكم بالكسرِ وهو يقوي الأولَ.

(٤٠) ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ إنكار وتعجُّبٌ من أنْ تحملَ هو الذي يقدرُ على هدايتهم بعدَ تمرُّنهم على الكفرِ واستغراقِهم في الضلال بحيثُ صارَ عَشَاهُم عَمًى مقروناً بالصَّمَمِ. كان رسولُ الله ﷺ يُتعِبُ نفسَه في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا غياً، فنزلتْ. ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عطفٌ على العمى باعتبارِ تغايُرِ الوصفين، وفيه إشعارٌ بأنَّ الموجِبَ لذلك تمكُّنهم في ضلال لا يخْفَى.

(٤١) ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ﴾ أي فإنْ قبضناك قبلَ أنْ نبصركَ عذابَهم، وما مزيدةٌ مؤكِّدة بمنزلةِ لامِ القسم في استجلابِ النونِ المؤكدة ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعذابٍ في الدنيا والآخرة.

(٤٢) ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ أو إنْ أردنا أنْ نريَكَ ما وعدْناهم من العذاب، وقرأ يعقوب برواية رويسٍ أو نُرِيَنْكَ بإسكان النون وكذا نذهبنْ. ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ لاَ يَفوتوننَا.

(٤٣) ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ من الآيات والشرائعِ، وقرىء أوحىٰ على البناءِ للفاعل وهو الله تعالى. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لا عوجَ له.

(٤٤) ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ﴾ لشرفٍ لك. ﴿وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ إي عَنْهُ يوم القيامة وعن قيامكم بحقِّه.

(٤٥) ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي واسأل أُمَمَهُم وعلماءَ دينهم، وقرأ ابن كثير والكسائي بتخفيفِ الهمزةِ. ﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ هل حكمْنا بعبادةِ الأوثان وهل جاءت في ملةٍ من مِلَلِهم، والمرادُ به الاستشهادُ بإجماعِ الأنبياء على التوحيد، والدلالةُ على أنه ليس بِبِدْعٍ ابتدعه فيكذَّبُ ويعادي له، فإنه كان أقوى ما حملَهم على التكذيب والمخالفة.

(٤٦) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يـريـدُ

باقتصاصه[١] تسليةَ رسولِ الله ﷺ ومناقضةَ قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٢] والاستشهادُ بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد ليتأملُوا فيها.

فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾

(٤٧) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ فَاجؤوا وقْتَ ضحِكهم منها، أوِ استهزؤوا بها أولَ ما رأوهَا ولم يتأملوا فيها.

(٤٨) ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ إلا هي بالغة أقصى درجات الإعجاز بحيث يحسب الناظر فيها أنها أكبر مما يقاس إليها من الآيات، والمرادُ وصفُ الكلِّ بالكِبَرِ كقولك: رأيت رجالاً بعضُهم أفضلُ من بعض، وكقوله:

مَـنْ تَلْـقَ مِنهُـمْ تَقُـلْ لاَقَيْـتُ سَيِّـدَهُـمْ   مِثْـلُ النُّجُـومِ الَّتـي يَسْـرِي بهَـا السَّـارِي

أو إلا وهي مختصةٌ بنوع من الإعجاز مفضلةٌ على غيرها بذلك الاعتبارِ. ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالسنينَ والطوفانِ والجرادِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على وجه يُرْجَى رجوعُهم.

(٤٩) ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ نادَوْه بذلك في تلك الحال لشدةِ شكيمتهم وفَرْطِ حماقتِهم، أو لأنهم كانوا يسمُّون العالمَ الماهر ساحراً. وقرأ ابن عامر بضمِّ الهاء ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فيكشفُ عنا العذابَ. ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك من النبوةِ، أو من أن يستجيبَ دعوَتك، أو أنْ يكشفَ العذابَ عمَّنِ اهتدى، أو بما عهد عندك فوفَّيْتَ به وهو الإيمانُ والطاعةُ. ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾.

(٥٠) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فاجؤُوا نكْثَ عهدهم بالاهتداءِ.

(٥١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه أو بمناديه. ﴿فِى قَوْمِهِۦ﴾ في مجمعِهم أو فيما بينهم بعد كشفِ العذاب عنهم مخافةَ أنْ يؤمن بعضُهم. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهارُ النيل ومعظمُها أربعة أنهرٍ: نهر الملك، ونهرِ طولونَ، ونهر دمياطَ، ونهرِ تنيسَ. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ تحتَ قصري أو أمري، أو بين يدي في جناني. والواوُ إما عاطفةٌ لهذه الأنهارِ على الملكِ وتجري حالٌ منها، أو واوُ حالٍ وهذه مبتدأٌ والأنهارُ صفتُها وتجري خبرُها. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك.

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكةِ والبسْطَةِ. ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيفٌ حقير لا يستعدُّ للرئاسة، من المهانة وهي القلَّة. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلامَ لما به من الرتةِ فكيف يصلحُ للرسالة، وأم إما

(١) بقصّ خبره.
(٢) الزخرف: «٣١».

منقطعةٌ والهمزةُ فيها للتقرير إذ قدَّم من أسباب فضْله، أو متصلةٌ على إقامة المسبَّبِ مقامَ السببِ. والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون فتعلمونَ أني خيرٌ منه.

فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ
سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾

(٥٣) ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي فهلاَّ ألقي عليه مقاليدُ الملْكِ إنْ كان صادقاً، إذ كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوَّروه وطوَّقوه بسوارٍ وطوقٍ من ذهبٍ، وأساورةٌ جمعُ أسوارٍ بمعنى السوارِ على تعويضِ التاء من ياء أساويرَ، وقد قُرِىءَ به. وقرأ يعقوب وحفصٌ أسورةٌ وهي جمعُ سوارٍ، وقرىء أساوِرُ جمعُ أسورة؛ وألقىٰ عليه أسورةً وأَساورَ على البناءِ للفاعلِ وهو اللهُ تعالى. ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين يعينُونه أو يصدقونه من قرَنته به فاقترنَ، أو متقارنين من اقترنَ بمعنى تقارَنَ.

(٥٤) ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فطلبَ منهم الخفَّة في مطاوعتِه أو فاستخفَّ أحلامَهم. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهُم به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك أطاعوا ذلك الفاسقَ.

(٥٥) ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أَغضبُونا بالإفراطِ في العِناد والعصيان منقولٌ من أسف إذا اشتدَّ غضبُه. ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في اليمِّ.

(٥٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قدوةً لمن بعدَهم من الكفار يقتدون بهم في استحقاقِ مثلِ عقابِهم، مصدرٌ نَعَتَ به أو جمعُ سالفٍ كخَدَمٍ وخادمٍ. وقرأ حمزة والكسائيُّ بضم السين واللام جمعُ سليفٍ كرُغُفٍ ورغيفٍ أو سالفٍ كصُبُرٍ جمع صابرٍ أو سَلَفٍ كخشبٍ، وقرىء سُلَفاً بإبدال ضمةِ اللامِ فتحةً أو على أنه جمعُ سَلَفةٍ أي ثُلَّة قد سلفت. ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ وعظةً لهم أو قصة عجيبةً تسير مسير الأمثال لهم فيقالَ: مثلُكم مثلُ قوم فرعونَ.

(٥٧) ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي ضربه ابنُ الزبعرىٰ لما جادل رسولَ الله ﷺ في قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[١] أو غيرهُ بأنْ قال النَّصارى أهلُ كتابٍ وهم يعبدون عيسى عليه السلام ويزعمون أنه ابنُ الله والملائكةُ أَوْلَى بذلك، أو على قوله تعالى ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[٢] أو أن محمداً يريدُ أنْ نعبدَه كما عُبِدَ المسيحُ. ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ في قريش ﴿مِنْهُ﴾ من هذا المثلِ. ﴿يَصِدُّونَ﴾ يضجُّون فرحاً لظنِّهم أنَّ الرسولَ ﷺ صارَ ملزماً به. وقرأ نافع وابنُ عامر والكسائيُّ بالضمِّ من الصدودِ أي يصدون عن الحقِّ ويعرِضُون عنه. وقيل هما لغتانِ نحو يعكِفُ ويعكُفُ.

(١) الأنبياء: «٩٨».
(٢) الزخرف: «٤٥».

وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ
وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ
فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾

(٥٨) ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ أي آلهتنا خيرٌ عندك أم عيسى عليه السلام فإن يكن في النار فتلكنْ آلهتُنا معه، أو آلهتنا الملائكةُ خيرٌ أم عيسى عليه السلام فإذا أجاز أنْ يُعْبَدَ ويكونَ ابنَ الله كانتْ آلهتنا أولى بذلك، أو آلهتنا خيرٌ أم محمدٌ ﷺ فنعبده وندعُ آلهتَنا. وقرأ الكوفيونَ أآلهتنا بتحقيقِ الهمزتين وألفٌ بعدَهما. ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ ما ضربوا هذا المثلَ إلا لأجلِ الجدلِ والخصومةِ لا لتمييز الحقِّ من الباطل. ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ شِدَادُ الخصومة حراصٌ على اللَّجاجِ.

(٥٩) ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ بالنبوة. ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أمراً عجيباً كالمثل السائرِ لبني إسرائيلَ، وهو كالجواب المزيح لتلك الشبهةِ.

(٦٠) ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم﴾ لولّدنا منكم يا رجالُ كما ولّدنا عيسى من غير أبٍ، أو لجعلْنا بدلَكُم. ﴿مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾ مَلائكةً يخلُفونكم في الأرض، والمعنى أنَّ حالَ عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبةً فإنه تعالى قادرٌ على ما هو أعجبُ من ذلك، وأنَّ الملائكة مِثْلُكم من حيثُ إنها ذواتٌ ممكنة يحتملُ خلقُها توليداً كما جاز خلقُها إبداعاً، فمن أين لهم استحقاقُ الألوهية والانتسابُ إلى الله سبحانه وتعالى.

(٦١) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنَّ عيسى عليه السلام. ﴿لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ لأنَّ حدوثَه أو نزولَه من أشراطِ الساعة يُعْلَمُ به دنوُّها، أو لأن إحياءَ الموتى يدلُّ على قدرة الله تعالى عليه. وقرىء لَعَلَمٌ أي لعلامةٌ ولذِكرٌ على تسمية ما يذكُر به ذِكْراً، وفي الحديث «ينزلُ عيسى عليه السلام على ثنية بالأرض المقدسةِ يُقَالُ لها أفيقُ وبيده حربةٌ يقتلُ بها الدجالَ، فيأتي بيتَ المقدس والناسُ في صلاة الصبح فيتأخَّر الإمام فيقدِّمه عيسى عليه الصلاة والسلام ويصلي خلفَه على شريعةِ محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتلُ الخنازيرَ ويكسرُ الصليبَ، ويخربُ البِيَعَ والكنائسَ، ويقتل النصارى إلا من آمن به»[1]. وقيل الضميرُ للقرآن فإنَّ فيه الإعلامَ بالساعة والدلالةَ عليها. ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكُّنَّ فيها. ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ واتبعوا

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٤٧ رقم ٣٧٣): «ـ أخرجه ـ الثعلبي بغير سند. وهو موجود في أحاديث متفرقة.
فقوله: «ثنية أفيق» عند الحاكم ـ (٤/٤٧٨) ـ من حديث عثمان بن أبي العاص.
و
وقوله: «وعليه ممصرتان» عند أحمد ـ (٢/٤٠٦) ـ والحاكم من حديث أبي هريرة.
وقوله: «والناس في صلاة الصبح» عند ابن ماجهْ ـ (٢/١٣٥٩ رقم ٤٠٧٧) من حديث أبي أمامة.
وقوله: «فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب» في «الصحيح» ـ البخاري (٤/٤١٤ رقم ٢٢٢٢) ومسلم (١/١٣٥ ـ ١٣٧ رقم ١٥٥) ـ من حديث «أبي هريرة» هـ.

هداي أو شرعي أو رسولي. وقيل هو قولُ الرسولِ ﷺ أُمِرَ أنْ يقولَه. ﴿هَٰذَا﴾ الذي أدعوكم إليه. ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضلُّ سالِكُه.

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٢) ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن المتابعة. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ثابتٌ عداوتَه بأنْ أخرجَكم عن الجنة وعرَّضَكُم للبلية.

(٦٣) ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ أو بآيات الإنجيل، أو بالشرائع الواضحاتِ. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل أو بالشريعة. ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما يكون من أمر الدين لا ما يتعلَّقُ بأمر الدنيا، فإنَّ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام لم يُبْعَثُوا لبيانه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «أنتم أعلمُ بأمرِ دنياكم»[1]. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلِّغه عنه.

(٦٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ بيانٌ لما أمرهم بالطاعةِ فيه، وهو اعتقادُ التوحيدِ والتعبُّدُ بالشرائعِ. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ الإشارةُ إلى مجموعِ الأمرين وهو تتمةُ كلامِ عيسى عليه الصلاة والسلام، أو استئنافٌ من الله تعالى يدلُّ على ما هو المقتضي للطاعة في ذلك.

(٦٥) ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الفِرَقُ المتحزِّبةُ. ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى أو اليهودِ والنصارى من بين قومِه المبعوثِ إليهم. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من المتحزِّبين ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو القيامة.

(٦٦) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الضمير لقريش أو للذين ظلموا. ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدلٌ من الساعة والمعنى هل ينظرون إلا إتيانَ الساعة. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ غافِلُون عنها لاشتغالهم بأمور الدنيا وإنكارِهم لها.

(٦٧) ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ الأحِبَّاءُ. ﴿يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي يتعادَوْنَ يومئذ لانقطاع العُلَقِ لظهورِ ما كانوا يتخالُّون له سبباً للعذاب. ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنَّ خِلَّتهم لما كانتْ في الله تبقى نافعةً أبدَ الآباد.

(٦٨) ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ حكايةٌ لما يُنادى به المتقون المتحابُّون في الله يومئذ، وقرأ ابن كثير وحمزةُ والكسائي وحفص بغير الياءِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/١٨٣٦ رقم ١٤١/٢٣٦٣) من طريق حماد بن سلمة عن هشام عن عروة عن عائشة وعن ثابت عن أنس؛ قالا: إن النبي ﷺ مرَّ بقوم يلقحون. فقال: «لو لم تفعلوا لصلح» قال: فخرج شيصاً. فمرَّ بهم فقال: «ما لنخلكم؟» قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم
بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ
ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى
عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ
يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾

(٦٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صفةُ المنادي. ﴿وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ حالٌ من الواو أي الذين آمنوا مخلصين، غير أنَّ هذه العبارةَ آكدُ وأبلغُ.

(٧٠) ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ نساؤكم المؤمناتُ. ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تُسَرُّون سروراً يظهرُ حبارُه أي أثرُهُ على وجوهكم، أو تزيَّنون من الحبرِ وهو حسنُ الهيئة أو تكرمون إكراماً يُبَالغُ فيه، والحبرةُ المبالغةُ فيما وصف بجميلٍ.

(٧١) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ الصحافُ جمع صحفة، والأكواب جمع كوب وهو كوزٌ لا عروةَ له. ﴿وَفِيهَا﴾ وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ وقرأ نافع وابنُ عامر وحفص تشتهيه الأنفسُ على الأصل. ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته وذلك تعميمٌ بعد تخصيص ما يُعَدُّ من الزوائد في التنعُّم والتلذُّذِ. ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فإنَّ كلَّ نعيمٍ زائلٌ موجب لكلفةِ الحفظ وخوف الزوال ومستعقِبٍ للتحسُّر في ثاني الحال.

(٧٢) ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقرأ ورثتُموها، شبَّه جزاءَ العمل بالميراث لأنه يخلُفه عليه العاملُ، وتلك إشارةٌ إلى الجنة المذكورة وقعتْ مبتدأً والجنةُ خبرُهَا، والتي أُورِثْتُموها صفتُها أو الجنةُ صفةُ تلك والتي خبرُهَا أو صفة الجنة والخبرُ بما كنتم تعملون، وعليه يتعلَّق الباء بمحذوفٍ لا بأورثتموها.

(٧٣) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بعضُها تأكلون لكثرتها ودوامِ نوعها، ولعلَّ تفصيل التنعُّم بالمطاعمِ والملابس وتكريره في القرآن وهو حقيرٌ بالإضافة إلى سائر نعائِم الجنة لما كان بهم من الشدةِ والفاقةِ.

(٧٤) ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكاملين في الإجرام وهم الكفارُ لأنه جعلَ قسيمَ المؤمنين بالآياتِ، وحكَى عنهم ما يخصُّ بالكفار. ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ خبرُ إنَّ أو خالدون خبرٌ والظرفُ متعلِّق به.

(٧٥) ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ لا يُخفَّفُ عنهم من فترتْ عنه الحمَّىٰ إذا سكنتْ قليلاً والتركيبُ للضعفِ. ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من النجاةِ.

(٧٦) ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مر مثلُه غيرَ مرَّةٍ وهم فصلٌ.

(٧٧) ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ وقرىء يا مالِ على الترخيم مكسوراً ومضموماً، ولعلَّه إشعارٌ بأنهم لضعفهم لا يستطيعونَ تأديةَ اللفظ بالتمام ولذلك اختصَروا فقالوا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ والمعنى سلْ ربَّنا أنْ يقضيَ

علينا من قضى عليه إذا أماته، وهو لا ينافي إبلاسَهم فإنه جُؤَارٌ وتمنٍّ للموت من فَرْطِ الشدة ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ لا خلاصَ لكم بموتٍ ولا بغيره.

لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ
سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى
يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ بالإرسال والإنزالِ، وهو تتمةُ الجواب إنْ كان في قال ضميرُ اللهِ وإلا فجوابٌ منه فكأنه تعالى تولّى جوابَهم بعد جواب مالكٍ. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ لما في اتباعِه من إتعابِ النفس وآداب الجوارحِ.

(٧٩) ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا ﴾ في تكذيب الحقِّ وردِّه ولم يقتصِروا على كراهته. ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ أمراً في مجازاتهم. والعدولُ عن الخطاب للإشعار بأن ذلك أسوأُ من كراهتهم، أو أم أحكمَ المشركون أمراً من كيدهم بالرسول فإنا مبرمونَ كيدَنا بهم، ويؤيدُه قولُه:

(٨٠) ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ حديثَ أنفسِهم بذلك. ﴿ وَنَجْوَىٰهُم ﴾ وتناجيهم. ﴿ بَلَىٰ ﴾ نسمعُهما. ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ والحفظةُ مع ذلك. ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ ملازمةٌ لهم. ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ ذلك.

(٨١) ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ منكم فإنَّ النبيَّ ﷺ يكون أعلمَ بالله وبما يصح له وبما لا يصح له، وأولى بتعظيم ما يُوجِبُ تعظيمَه ومن تعظيم الوالدِ تعظيمُ ولده، ولا يلزم من ذلك صحةُ كينونةِ الولد وعبادته له إذِ المحالُ قد يستلزمُ المحالَ بلِ المرادُ نفيُهما على أبلغِ الوجوهِ كقوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1] غير أنَّ «لو» ثَمَّ مشعرةٌ بانتفاء الطرفين، وإنْ هٰهنا لا تشعِرُ به ولا بنقيضِه فإنها لمجردِ الشريطةِ، بلِ الانتفاءُ معلوم لانتفاءِ اللازم الدالِّ على انتفاء ملزومه، والدلالةُ على أن إنكاره الولدَ ليس لعناد ومِرَاءٍ بل لو كان لكان أولى الناس بالاعترافِ به. وقيل معناه إنْ كان له ولدٌ في زعْمِكم فأنا أول العابدين لله الموحِّدين له أو الآنفينَ منه، أو من أنْ يكون له ولدٌ من عبِدَ يعبدُ إذا اشتدَّ أنفُه، أو ما كان له ولدٌ فأنا أولُ الموحدين من أهل مكَّةَ. وقرأ حمزة والكسائيُّ وُلْدٌ بالضمِّ وسكون اللام.

(٨٢) ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عن كونه ذا ولدٍ فإن هذه الأجسامَ لكونها أصولاً ذاتَ استمرار تبرَّأَتْ عما يتَّصف به سائرُ الأجسام من توليد المثْلِ، فما ظنُّك بمبدعها وخالقها.

(٨٣) ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ ﴾ في باطلهم. ﴿ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾ في دنياهم. ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ أي يومَ القيامة، وهو دلالةٌ على أنَّ قولَهم هذا جهلٌ واتباعُ هوى، وإنهم مطبوعٌ على قلوبهم معذَّبون في الآخرة.

---

(١) الأنبياء: «٢٢».

وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن
شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ مستحقٌ لأنْ يُعْبَدَ فيهما، والظرفُ متعلِّقٌ به لأنه بمعنى المعبود أو متضمِّنٌ معناه كقولك: هو حاتمٌ في البلد، وكذا فيمن قرأ اللهُ والراجعُ مبتدأٌ محذوفٌ لطولِ الصلة بمتعلَّقِ الخبرِ والعطفِ عليه، ولا يجوزُ جعْلُه خبراً له لأنه لا يبقى له عائدٌ لكنْ لو جُعِلَ صلةً وقُدِّرَ الإلهُ مبتدأ محذوفٍ يكون به جملةً مبينةً للصلة دالةً على أن كونَه في السماء بمعنى الألوهية دون الاستقرارِ، وفيه نفيُ الآلهة السماوية والأرضيةِ واختصاصُه باستحقاق الألوهية. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كالدليل عليه.

(٨٥) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء. ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ العلمُ بالساعة التي تقوم القيامةُ فيها. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصمٌ ورَوْحٌ بالتاءِ على الالتفاتِ للتهديد.

(٨٦) ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤُهم عند الله. ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بالتوحيد، والاستثناءُ متصلٌ إنْ أُرِيدَ بالموصول كلُّ ما عُبِدَ من دون الله لاندراجِ الملائكةِ والمسيح فيه، ومنفصلٌ إنْ خُصَّ بالأصنام.

(٨٧) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ سألتَ العابدين أو المعبودين. ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لتعذُّرِ المكابرة فيه من فَرْطِ ظهوره ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرفُون عن عبادته إلى عبادة غيرِه.

(٨٨) ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ وقولَ الرسولِ ونَصَبَه للعطف على سرِّهم، أو على محلِّ الساعة أو لإضمار فعلِه أي وقال قيلَه. وجرَّهُ عاصم وحمزة عطفاً على الساعةِ، وقرئ بالرفعِ على أنه مبتدأٌ خبره. ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أو معطوفٌ على علم الساعة بتقدير مضافٍ. وقيلَ هو قسمٌ منصوبٌ بحذف الجارِّ أو مجرورٌ بإضماره، أو مرفوعٌ بتقدير وقيله يا ربِّ قسمي، وإنَّ هؤلاءِ جوابُه.

(٨٩) ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرضْ عن دعوتهم آيساً عن إيمانهم. ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ تسلُّمٌ منكم ومتارَكَةٌ. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تسليةٌ للرسولِ ﷺ وتهديدٌ لهم، وقرأ نافع وابن عامر بالتاءِ على أنه من المأمور بقوله.

عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورةَ الزخرف كان ممنْ يُقَالُ له يومَ القيامة يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليومَ ولا أنتم تحزنون»(١).

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٤٧ رقم ٣٧٨).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الدُّخَانِ

ترتيبها ٤٤ — آياتها ٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ
حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾

سورة الدخان مكيةٌ[١]

إلا قولَه: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾[٢] الآيةَ، وهي سبعٌ أو تسعٌ وخمسون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ القرآنُ والواو للعطف إنْ كان حمٓ مقسَماً به وإلا فللقسمِ والجوابُ قولُه:

(٣) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ ليلةِ القدرِ، أو البراءةِ[٣] ابتُدِىءَ فيها إنزالُه، أو أُنزِلَ فيها جملةً إلى سماءِ الدنيا من اللوح المحفوظ، ثم أنزل على الرسولِ ﷺ نجوماً وبركتُها لذلك، فإنَّ نزولَ القرآن سببٌ للمنافع الدينية والدنيوية، أو لما فيها من نزول الملائكة والرحمةِ وإجابةِ الدعوة وقَسْمِ النعمة وفصْلِ الأقضية. ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئنافٌ يبين المقتضى للإنزال وكذلك قولُه:

---

(١) أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة (حم) الدخان وأخرج ابن مردويه، عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت بمكة سورة الدخان. «الدر المنثور» (٧/ ٣٩٧).

(٢) الدخان: «١٥».

(٣) ليلة البراءة هي ليلة النصف من شعبان (انظر روح المعاني ٢٥/ ١١٠).

(٤) ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ فإن كونها مفرَقُ الأمور المحكمة أو الملتبسةِ بالحكمة يستدعي أن ينزلَ فيها القرآنُ الذي هو من عظائمها، ويجوز أنْ يكونَ صفةَ ليلةٍ مباركة وما بينهما اعتراضٌ، وهو يدل على أنَّ الليلةَ ليلةُ القدر لأنه صفتُها لقوله ﴿تَنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ وقرىء يُفَرَّقُ بالتشديد، ويَفْرُقُ كلَّ أي يفرقه اللهُ، ونَفْرِق بالنونِ.

(٥) ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ أي أعني بهذا الأمرِ أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتِنا، وهو مزيدُ تفخيم للأمرِ، ويجوزُ أنْ يكون حالاً من كلّ أو أمرٍ، أو ضميره المستكِنِّ في حكيمٍ لأنه موصوف، وأنْ يكون المرادُ به مقابلَ النهي وقَعَ مصدراً ليفرق أو لفعلِه مضمراً من حيثُ إن الفرقَ به، أو حالاً من أحدِ ضميري أنزلناه بمعنى آمرين أو مأموراً. ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾.

(٦) ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بدلٌ من إنا كنّا منذرين أي أنزلْنا القرآنَ لأنَّ من عادتنا إرسالَ الرسل بالكتب إلى العباد لأجلِ الرحمة عليهم، ووضعَ الربَّ موضعَ الضمير للإشعارِ بأنَّ الربوبيةَ اقتضتْ ذلك، فإنه أعظمُ أنواع التربية أو علّةً ليفرِّقَ أو أمراً، ورحمةً مفعولٌ به أي يفصلُ فيها كلَّ أمر أو تصدرُ الأوامرُ من عندنا لأنَّ. مِنْ شأننا أنْ نرسلَ رحمتَنا، فإنَّ فصْلَ كلِّ أمر من قسمةِ الأرزاق وغيرها وصدورِ الأوامرِ الإلهية من باب الرحمةِ. وقرىء رحمةٌ على تلك رحمةٌ. ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يسمع أقوالَ العباد ويعلم أحوالَهم، وهو بما بعدَه تحقيقٌ لربوبيته فإنها لا تحقُّ إلا لمن هذه صفاتُه.

(٧) ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ خبرٌ آخرُ أو استئنافٌ. وقرأ الكوفيون بالجرِّ بدلاً من ربِّك. ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أي إن كنتم من أهل الإيقانِ في العلومِ، أو كنتم موقنينَ في إقرارِكم إذا سُئِلْتُم مَنْ خلَقَها؟ فقلتم اللهُ، علمتُم أنَّ الأمر كما قلْنا، أو إن كنتم مريدين اليقينَ فاعلموا ذلك.

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إذ لا خالقَ سواهُ. ﴿ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ كما تشاهدون. ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وقُرِئا بالجرِّ بدلاً من ربك.

(٩) ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ ردٌّ لكونهم موقنين.

(١٠) ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ فانتظرْ لهم. ﴿ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ يوم شدَّةٍ ومجاعة فإنَّ الجائعَ يرى بينه وبينَ السماء كهيئة الدخانِ من ضعفِ بصرهِ، أو لأنَّ الهواءَ يظلمُ عامَ القحط لقلةِ الأمطار وكثرةِ الغبار، أو لأن العرب تسمي الشرَّ الغالبَ دخاناً وقد قحطُوا حتى أكلوا جيفَ الكلاب وعظامَها، وإسنادُ الإتيان إلى السماء لأن ذلك يكفُّه عن الأمطار، أو يومَ ظهورِ الدخان المعدودِ في أشراطِ الساعة لما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام لما قال: «أولُ الآيات الدخانُ ونزول عيسى عليه السلام، ونارٌ تخرج من قعْرِ عدنِ أبْيَنَ تسوقُ الناسَ إلى المحشرِ» قيل وما الدخانُ؟ فتلا رسولُ اللهِ ﷺ الآيةَ وقال: «يملأُ ما بين المشرق والمغرب يمكثُ أربعينَ يوماً وليلةً، أما المؤمن فيصيبُه كهيئة الزُّكام، وأما الكافرُ فهو

كالسكرانِ يخرج من منخريهِ وأذنيه ودُبُرِهِ»(١) أو يومَ القيامة والدخانُ يَحْتَمِلُ المعنيين.

يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾

(١١) ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ يحيطُ بهم صفةٌ للدخان وقوله ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١٢) ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ مقدَّر بقولٍ وقعَ حالاً وإنا مؤمنون وعدٌ بالإيمان إنْ كشفَ العذابَ عنهم.

(١٣) ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ من أين لهم وكيف يتذكَّرون بهذه الحالةِ. ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ بيَّن لهم ما هو أعظمُ منها في إيجاب الإذكار من الآيات والمعجزات.

(١٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي قال بعضُهم يعلمه غلامٌ أعجمي لبعض ثقيفَ. وقال آخرون إنه مجنون.

(١٥) ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾ بدعاء النبيِّ عليه الصلاة والسلام فإنه لما دعا رُفِعَ القحطُ ﴿قَلِيلًا﴾ كشفاً قليلاً أو زماناً قليلاً وهو ما بقي من أعمارهم. ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى الكفر غبَّ الكشفِ، ومَنْ فسَّر الدخانَ بما هو من الأشراطِ قال: إذا جاء الدخانُ غَوثَ الكفار بالدعاء فيكشفُه الله عنهم بعدَ الأربعينَ، فريثما يكشفُه عنهم يرتدُّون، ومن فَسّره بما في القيامة أوّله بالشرطِ والتقدير.

(١٦) ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ يوم القيامة أو يومَ بدْرٍ ظرفٌ لفعلٍ دلَّ عليه. ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لا لمنتقمون فإنَّ إنْ تحجُزه عنه، أو بدلٌ من يوم تأتي. وقرىء نبطشُ أي نجعلُ البطشةَ الكبرى باطشةً بهم، أو نحملُ الملائكةَ على بطشِهم وهو التناولُ بصولةٍ.

(١٧) ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ امتحنَّاهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، أو أوقعْناهم في الفتنة بالإمهالِ وتوسيع الرزقِ عليهم. وقرىء بالتشديد للتأكيدِ أو لكثرةِ القوم. ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله أو على المؤمنين أو في نفسه لشرفِ نسبه وفضْلِ حَسَبِهِ.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٥/ ١١٤) والبغوي في «معالم التنزيل» (٧/ ٢٣٠) من حديث حذيفة بن اليمان.
وقال ابن جرير: «... وإنما لم أشهد له بالصحة ـ أي الحديث ـ لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل رواداً عن هذا الحديث، هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا، فقلت له: فقرأته عليه، فقال: لا، فقلت له: فقرىء عليه وأنت حاضر فأقرّ به، قال: لا، فقلت: فمن أين جئت به؟ قال: جاءني به قوم فعرضوه عليَّ وقالوا لي: اسمعه منا فقرؤوه عليَّ، ثم ذهبوا، فحدثوا به عني، أو كما قال؛ فلما ذكرت من ذلك لم أشهد له بالصحة...» هـ.

أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ
أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٞ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾
وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٞ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٖ كَانُواْ فِيهَا
فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

(١٨) ﴿ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ بأنْ أدُّوهم إليَّ وأرسلوا معيَ، أو بأنْ أدوا إلي حقَّ الله من الإيمان وقبولِ الدعوة يا عبادَ الله، ويجوزُ أن تكون أنْ مخففةً ومفسِّرةً لأنَّ مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة. ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾ غيرُ متَّهم لدلالة المعجزاتِ على صدقه، أو لائتمان الله إياه على وحْيِه وهو علَّةُ الأمرِ.

(١٩) ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ولا تتكبَّروا عليه بالاستهانة بوحيه ورسوله، وأنْ كالأولى في وجْهَيْهَا. ﴿ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ علةٌ للنهي، ولذكرِ الأمين مع الأداء والسلطان مع العلاءِ شأنٌ لا يَخْفَى.

(٢٠) ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ التجأت إليه وتوكَّلْتُ عليه. ﴿ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ أن تؤذوني ضرباً أو شتْماً أو أنْ تقتلوني. وقرىء عُتُّ بالإدغام فيه.

(٢١) ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ فكونوا بمعزِلٍ مني لا عليَّ ولا لي، ولا تتعرضوا إليَّ بسوء فإنه ليس جزاءَ مَنْ دعاكم إلى ما فيه فلا حُكم.

(٢٢) ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ ﴾ بعدما كذَّبوه. ﴿ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ بأنَّ هؤلاء ﴿ قَوْمٞ مُّجْرِمُونَ ﴾ وهو تعريضٌ بالدعاء عليهم بذكْرِ ما استوجبوه به ولذلك سمَّاه دعاءً، وقرىء بالكسر على إضمار القولِ.

(٢٣) ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾ أي فقال أسرِ أو قال إن كان الأمرُ كذلك فأسْرِ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابنُ كثير بوصلِ الهمزة من سَرَى ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ يتَّبعكم فرعونُ وجنوده إذا علموا بخروجكم.

(٢٤) ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ مفتوحاً ذا فجوة واسعةٍ أو ساكناً على هيئته بعد ما جاوزْته ولا تضْربه بعصاكَ ولا تغيِّرْ منه شيئاً ليدخلَه القِبْطُ ﴿ إِنَّهُمْ جُندٞ مُّغْرَقُونَ ﴾ وقرىء بالفتح بمعنى لأنَّهم.

(٢٥) ﴿ كَمْ تَرَكُواْ ﴾ كثيراً تركُوا. ﴿ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾.

(٢٦) ﴿ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴾ محافِلَ مزينةً ومنازِلَ حسنةً.

(٢٧) ﴿ وَنَعْمَةٖ ﴾ وتنعُّمٍ. ﴿ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ متنعِّمين، وقرىء فكِهين.

(٢٨) ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثلُ ذلك الإخراج أخرجْناهم أوِ الأمرُ كذلك. ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا ﴾ عطفٌ على المقدَّر أو على تركوا ﴿ قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ ليسوا منهم في شيء وهم بنو إسرائيلَ، وقيل غيرُهم لأنهم لم يعودوا إلى مِصْرَ.

(٢٩) ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ مجازٌ عن عدم الاكتراثِ بهلاكهم والاعتدادِ بوجودهم كقولهم: بكتْ عليهم السماءُ والأرض وكُسِفَتْ لمهلِكهم الشمسُ في نقيض ذلك. ومنه ما رُوِيَ في

الأخبار: إن المؤمنَ ليبكي عليه مصلاَّهُ ومحلُّ عبادته ومصعدُ عمله ومهبطُ رزقِه[١]. وقيل تقديره فما بكتْ عليهم أهلُ السماءِ والأرض ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ ممهلينَ إلى وقتٍ آخرَ.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ أَهْلَكْنَٰهُمْۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٠) ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ من استعبادِ فرعونَ وقتلِه أبناءَهم.

(٣١) ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ من العذاب على حذفِ المضافِ، أو جعله عذاباً لإفراطه في التعذيب، أو حالٌ من المهين بمعنى واقعاً من جهته، وقرىء مَنْ فرعونُ على الاستفهام تنكيرٌ له لِنُكْرِ ما كان عليه من الشيطَنةِ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبراً. ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في العتوِّ والشرارة، وهو خبرٌ ثانٍ أي كان متكبِّراً مسرِفاً، أو حالٌ من الضمير في عالياً أي كان رفيعَ الطبقةِ من بينهم.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ اخترنا بني إسرائيلَ. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بأنهم أحقَّاءُ بذلك، أو مع علمٍ منَّا بأنهم يزيغون في بعض الأحوال. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لكثرة الأنبياء فيهم أو على عالَمَيْ زمانِهم.

(٣٣) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كفلْقِ البحر وتظليلِ الغمام وإنزالِ المنِّ والسلوى. ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ نعمةٌ جليَّةٌ أو اختبارٌ ظاهر.

(٣٤) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفَّارَ قريش، لأنَّ الكلامَ فيهم، وقصةُ فرعونَ وقومِه مسوقةٌ للدلالة على أنهم مثلُهم في الإصرار على الضلالة، والإنذار عن مثل ما حلَّ بهم. ﴿لَيَقُولُونَ﴾.

(٣٥) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ما العاقبةُ ونهاية الأمر إلا الموتةُ الأولى المزيلة للحياة الدنيوية، ولا قصدَ فيه إلى إثبات ثانية كما في قولك: حجَّ زيدٌ الحجة الأولى وماتَ. وقيل لما قيل إنكم تموتون موتةً يعقبها حياةٌ كما تقدم منكم موتةٌ كذلك قالوا إنْ هي إلا موتَتُنا الأولى، أي ما الموتةُ التي من شأنها كذلك إلا الموتةُ الأولى. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين.

(٣٦) ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطابٌ لمن وعدَهم بالنشور من الرسولِ والمؤمنين. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في وعدكم ليدلَّ عليه.

(٣٧) ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والمَنعَةِ. ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ تُبَّع الحميريُّ الذي سارَ بالجيوش وحيَّر الحيرةَ وبنى سمرقندَ، وقيل هدمَها وكان مؤمناً وقومُه كافرين ولذلك ذمَّهم دونه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما أدري أكان تُبَّع نبياً أم غيرَ . . . .

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٥/ ١٢٤ ـ ١٢٥) من ثلاثة طرق من حديث ابن عباس نحوه اثنان منها ضعيفان وأحدهما صحيح.

نبيٌّ»[1]. وقيل لملوك اليمنِ التبابعةُ لأنهم يتّبعون كما قيل لهم الأقيالَ لأنهم يتقيّلون. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ كعاد وثمودَ. ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْۖ﴾ استئنافٌ بمآل قوم تبعٍ، والذين من قبلهم هدَّد به كفارَ قريش، أو حالٌ بإضمار قدْ أو خبرُ مَنْ الموصولِ إنِ اسْتُؤْنِفَ به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ بيانٌ للجامع المقتضي للإهلاكِ.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾

(٣٨) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وَمَا بين الجنسين وقرىء وما بينهنَّ ﴿لَٰعِبِينَ﴾ لاهينَ، وهو دليلٌ على صحة الحشرِ كما مرَّ في الأنبياء وغيرِها.

(٣٩) ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا بسببِ الحقِّ الذي اقتضاه الدليلُ من الإيمان والطاعة، أو البعثِ والجزاءِ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلة نظرِهم.

(٤٠) ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ فصلُ الحقِّ عن الباطل، أوِ المحقِّ عن المبطلِ بالجزاء، أو فصلُ الرجلِ عن أقاربه وأحبائِه. ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ وقتُ موعدِهم. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وقرىء ميقاتَهم بالنصبِ على أنه الاسمُ أي إنَّ ميعادَ جزائِهم في يوم الفصل.

(٤١) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى﴾ بدلٌ من يوم الفصل أو صفةٌ لميقاتهم، أو ظرفٌ لما دلَّ عليه الفصلُ لاله للفصلِ. ﴿مَوْلًى﴾ من قرابة أو غيرها. ﴿عَن مَّوْلًى﴾ أيَّ مولًى كان. ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير لمولى الأولِ باعتبار المعنى لأنه عامٌّ.

(٤٢) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ بالعفو عنه وقبولِ الشفاعة فيه، ومحلُّه الرفعُ على البدلِ من الواو والنصبُ على الاستثناءِ. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ لا يُنْصَرُ منه مَنْ أرادَ تعذيبَهُ. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن أرادَ أنْ يرحَمَهُ.

(٤٣) ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ وقرىء بكسر الشين، ومعنى الزقومِ سَبَقَ في الصافات[2].

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٤٨ رقم ٣٨٧): «ـ أخرجه ـ الثعلبي من طريق عبدالرزاق عن معمر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة بهذا.
والمعروف بهذا الإسناد «ما أدري أَلعينٌ هو أم لا، وما أدري أعزير نبي أم لا».
أخرجه أبو داود ـ (٥/ ٥٤ رقم ٤٦٧٤) ـ وكذا الحاكم ـ (١/ ٣٦) و(٢/ ١٤) و(٢/ ٤٥٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ـ لكن قال: ذو القرنين بدل «عزير».
قال الدارقطني تفرد به عبدالرزاق وغيره أرسله» هـ.
قلت: ووافق الحاكم والذهبي والألباني في «الصحيحة» (رقم: ٢٢١٧) والخلاصة أن الحديث صحيح. ولمزيد من البيان انظر «الصحيحة».

(٢) الزقوم عبارة عن أطعمة كريهة في النار، ومنه استعير زقم فلان وتزقم إذا ابتلع شيئاً كريهاً. (المفردات للراغب الأصفهاني ص٢١٣).

طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ
هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

(٤٤) ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ الكثيرُ الآثامِ، والمرادُ به الكافر لدلالة ما قبلَه وما بعدَه عليه.

(٤٥) ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو ما يمهلُ في النار حتى يذوبَ. وقيل دردِيُّ الزيت[1]. ﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ وقرأ ابن كثير وحفصٌ ورويس بالياء على أن الضميرَ للطعامِ، أو الزقومِ لا للمهلِ إذِ الأظهرُ أنَّ الجملةَ حالٌ من أحدِهما.

(٤٦) ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ غليانا مثلَ غَلْيِه.

(٤٧) ﴿خُذُوهُ﴾ على إرادة القولِ، والمقولُ له الزبانيةُ. ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ فجرُّوه، والعتْلُ الأخذُ بمجامعِ الشيء وجرُّه بقهرٍ، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر ويعقوبُ بالضم وهما لغتانِ. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وسطِه.

(٤٨) ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كان أصلُه يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميمُ فقيل يُصَبُّ من فوق رؤوسِهم عذابٌ هو الحميمُ للمبالغة، ثم أضيفَ العذابُ إلى الحميمِ للتخفيفِ وزِيْدَ من الدلالة على أنَّ المصبوبَ بعضُ هذا النوع.

(٤٩) ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ أي وقولُوا له ذلك استهزاءً به وتقريعاً على ما كان يزعُمُهُ، وقرأ الكسائي أنك بالفتحِ أي ذقْ لأنك أوِ عذابَ أنَّك.

(٥٠) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إنَّ هذا العذابَ ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ تَشْكُّون وتمارونَ فيه.

(٥١) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ﴾ في موضعِ إقامة، وقرأ نافع وابن عامر بضمِّ الميم ﴿أَمِينٍ﴾ يأمنُ صاحِبُه عن الآفة والانتقال.

(٥٢) ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدلٌ من مقامٍ جيء به للدلالة على نزاهته، واشتمالِه على ما يُسْتَلَذُّ به من المآكل والمشارِب.

(٥٣) ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ من الضمير في الجارِّ أو استئناف، والسندسُ ما رَقَّ من الحرير، والإستبرقُ ما غَلُظَ منه معرَّبُ استبرهِ، أو مشتقٌّ من البراقةِ. ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنسَ بعضُهم ببعض.

(٥٤) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمرُ كذلك أو آتيناهم مثلَ ذلك. ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ قرنَّاهم بهنَّ ولذلك عُدِّيَ بالباء، والحوراءُ البيضاءُ والعيناءُ عظيمةُ العينين، واخْتُلِفَ في أنهنَّ نساءُ الدنيا أو غيرُها.

---

(١) العكر الباقي منه.

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضارِ ما يشتهون من الفواكهِ لا يتخصَّصُ شيءٌ منها بمكان ولا بزمان. ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الضررِ.

(٥٦) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ بل يَحْيَوْنَ فيها دائماً، والاستثناءُ منقطعٌ أو متصلٌ والضمير للآخرةِ، والموتُ أولُ أحوالِها، أوِ الجنةِ والمؤمنُ يشارِفُها بالموت ويشاهدُها عنده فكأنه فيها، أو الاستثناءُ للمبالغةِ في تعميم النفي وامتناع الموت فكأنه قال: لا يذوقون فيها الموتَ إلا إذا أمكنَ ذوقَ الموتةِ الأولى في المستقبل. ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وقرىء ووقَّاهم على المبالغةِ.

(٥٧) ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي أُعطُوا كلَّ ذلك عطاءً وتفضُّلاً منه. وقرىء بالرفع أي ذلك فضلٌ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاصٌ عن المكاره وفوزٌ بالمطالب.

(٥٨) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ سهلناه حيث أنزلناه بلغتك وهو فذلكة السورة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يفهمونه فيتذكرون به ما لم يتذكروا.

(٥٩) ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحلُّ بهم. ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظِرُون ما يحلُّ بك. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ حم الدخانَ ليلةَ جمعةٍ أصبحَ مغفوراً له»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث ضعيف جداً.
أخرجه الترمذي (٥/ ١٦٣ رقم ٢٨٨٩) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٦٧٩) من حديث أبي هريرة.
قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقداد يضعف. ولم يسمع الحسن من أبي هريرة، هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بنُ زيد» هـ.
وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٥/ ٢٣٥ رقم ٥٧٧٩): «ضعيف جداً» هـ.

سُورَةُ الجَاثِيَة

ترتيبها ٤٥ — آياتها ٣٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ
مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

سورة الجاثية مكيةٌ[1] وآيُها سبعٌ أو ستٌّ وثلاثون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إنْ جعلتَ حمٓ مبتدأً خبرُه تنزيلُ الكتاب احتجْتَ إلى إضمارٍ مثلُ ذلك تنزيلُ حمٓ، وإن جعلْتَها تعديداً للحروف كان تنزيلُ مبتدأً خبرهُ: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وقيل حمٓ مقْسَمٌ به وتنزيلُ الكتاب صفتُه، وجوابُ القسم:

(٣) ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو يُحْتَمَلُ أنْ يكون على ظاهره وأنْ يكون المعنى إنَّ في خلقِ السموات لقوله:

(٤) ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ ولاَ يحسنُ عطفُ ما على الضمير المجرورِ بل عطفُه على المضافِ إليه بأحدِ الاحتمالينِ، فإنَّ بثّه وتنوُّعه واستجماعَه لما به يتمُّ معاشُه إلى غير ذلك دلائلُ على وجود الصانع المختارِ. ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ محمولٌ على محلِّ إنَّ واسمِها، وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب بالنصبِ حملاً على الاسمِ.

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٤٢٢) وزاد المسير (٧/ ٣٥٤).

(٥) ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ من مطرٍ، وسمَّاه رزقاً لأنه سببُه. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبْسِها. ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ باختلافِ جهاتها وأحوالها، وقرأ حمزة والكسائيُّ وتصريفِ الريح[١]. ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيه القراءتانِ ويلزمُهما العطفُ على عاملين في والابتداءِ، أو إنَّ إلا أنْ يُضمرَ في أو ينصِبَ آياتٍ على الاختصاصِ أو يرفعَ بإضمار هي، ولعلَّ اختلافَ الفواصلِ الثلاثِ لاختلاف الآياتِ في الدقةِ والظهورِ.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي تلك الآياتُ دلائلُه ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ حالٌ عاملُها معنى الإشارةِ. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبسينَ به أو ملتبسةً به. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بعدَ آياتِ الله، وتقديمُ اسم الله للمبالغةِ والتعظيمِ كما في قولك أعجبني زيدٌ وكرمُه أو بعدَ حديثِ الله وهو القرآنُ كقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[٢] وآياتُه دلائلُه المتلوَّةُ أو القرآنُ، والعطفُ لتغايُرِ الوصْفَيْنِ. وقرأ الحجازيانِ وحفصٌ وأبو عمرو ورَوْحٌ يؤمنون بالياء ليوافقَ ما قبلَه.

(٧) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذَّابٍ. ﴿أَثِيمٍ﴾ كثيرِ الآثام.

(٨) ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقيم على كفره. ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآياتِ. وثمَّ لاستبعادِ الإصرارِ بعدَ سماعِ الآياتِ كقوله: يَرَى غَمرَاتٍ ثُمَّ يَزُورهَا[٣]. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي كأنه فخُفِّفَتْ وحُذِفَ ضميرُ الشأنِ، والجملةُ في موضعِ الحالِ، أي يصرُّ مثلُ غيرِ السامعِ. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره. والبشارةُ على الأصل أو التهكُّم.

(٩) ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ وإذا بلغه شيءٌ من آياتنا وعلمَ أنه منها. ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لذلك من غير أنْ يرى فيها ما يناسبُ الهزءَ، والضميرُ لآياتنا وفائدتُه الإشعارُ بأنه إذا سمع كلاماً وعلِمَ أنه من الآيات بادَرَ إلى الاستهزاءِ بالآياتِ كلِّها ولم يقتصرْ على ما سمعَه، أو لشيءٍ لأنه بمعنى الآيةِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

(١٠) ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ من قدَّامهم لأنهم متوجِّهون إليها، أو من خلْفِهم لأنها بعدَ آجالهم. ﴿وَلَا

(١) تأخير الرياح عن إنزال المطر ـ مع تقدمه عليه في الوجود ـ إما للإيذان بأنه آية مستقلة حيث لو روعي الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آية ليس لمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السفن في البحار (س٨/٦٨).

(٢) الزمر: «٢٣».

(٣) شطر من الطويل.

يُغْنِي عَنْهُم﴾ ولا يدفعُ عنهم. ﴿مَّا كَسَبُوا﴾ من الأموالِ والأولاد. ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذابِ الله. ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي الأصنام[١]. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يتحمَّلونه.

هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ
فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ الإشارةُ إلى القرآن ويدلُّ عليه قولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وقرأ ابنُ كثير ويعقوب وحفصٌ برفعِ أليمٍ، والرِجزُ أشدُّ العذاب.

(١٢) ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأنْ جعلَه أملسَ السطح يطفو عليه ما يتخلخلُ كالأخشابِ ولا يمنعُ الغوصَ فيه. ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيرِهِ وأنتم راكِبُوها. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ التجارةَ والغوصَ والصيدَ وغيْرَها. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمَ.

(١٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بأنْ خلقها نافعةً لكم. ﴿مِّنْهُ﴾ حالٌ من ما أي سخَّر هذه الأشياءَ كائنةً منه، أو خبرٌ لمحذوفٍ أي هي جميعاً منه، أو لما في السموات وسخَّر لكم تكريرٌ للتأكيد أو لما في الأرضِ. وقرىء مِنَّةً على المفعولِ له، ومَنُّه على أنه فاعلُ سخَّر على الإسنادِ المجازي أو خبرٌ محذوفٌ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنائعه.

(١٤) ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ حذفَ المقولَ لدلالةِ الجوابِ عليه، والمعنى قلْ لهم اغْفِروا يغفِروا أي يعفُوا ويصفحُوا. ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا يتوقَّعون وقائِعَه بأعدائه من قولهم: أيامُ العرب لوقائِعهم، أو لا يأمَلُون الأوقاتِ التي وقَّتها الله لنصرِ المؤمنين وثوابِهم ووعدَهم بها. والآيةُ نزلتْ في عمرَ رضيَ الله عنه شتمه غفاريٌّ فهمَّ أنْ يبطِشَ به[٢]. وقيل إنها منسوخةٌ بآية القتال. ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ علةٌ للأمر، والقومُ هم المؤمنون أو الكافرونَ أو كلاهُما فيكون التنكيرُ للتعظيم أو التحقيرِ أو الشيوعِ، والكسبُ المغفرةُ أو الإساءة أو ما يعمُّهما. وقرأ ابنُ عامر وحمزةُ والكسائي لنجزيَ بالنون؛ وقرىء ليُجْزَي قومٌ، وليجزي قوماً أي ليجزيَ الخير أو الشرَّ أوِ الجزاءَ، أعني ما يُجْزَى به لا المصدرُ فإنَّ الإسنادَ إليه سيَّما مع المفعولِ به ضعيفٌ.

(١٥) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي لَها ثوابُ العملِ وعليها عقابُه. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

---

(١) توسيط حرف النفي «لا» بين المعطوفين ـ مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلىٰ من عدم إغناء الأموال والأولاد ـ حيث إنه مبنيّ على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكم بهم (س٨/ ٦٩).

(٢) حكاه النحاس والمهدوي عن ابن عباس ـ كما في «روح المعاني» (٢٥/ ١٤٧).

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾
وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

(١٦) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةَ. ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ والحكمة النظرية والعملية، أو فصلَ الخصومات. ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إذ كثُر فيهم الأنبياءُ ما لم يكثروا في غيرهم. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما أحلَّ الله من اللذائذ. ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤتِ غيرَهُم.

(١٧) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أدلةً في أمر الدين ويندرجُ فيها المعجزاتُ. وقيل آياتٌ من أمر النبيِّ عليه الصلاة والسلام مبينةٌ لصدقِه. ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في ذلك الأمرِ. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحالِ. ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ عداوةً وحسداً. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمؤاخذة والمجازاةِ.

(١٨) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ طريقةٍ ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ من أمر الدين. ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ فاتَّبِعْ شريعتَك الثابتةَ بالحججِ. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آراءَ الجهَّالِ التابعةَ للشهواتِ، وهم رؤساءُ قريش قالوا له ارجعْ إلى دين آبائك.

(١٩) ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ مما أراد بك. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إذ الجنسيةُ علَّةُ الانضمام فلا توالِهم باتباع أهوائهم. ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فوالِه بالتُّقى واتباعِ الشريعةِ.

(٢٠) ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآنُ أو اتباعُ الشريعة. ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ بيناتٌ تبصِّرهم وجهَ الفلاحِ. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمةٌ من الله. ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يطلبون اليقينَ.

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أم منقطعةٌ ومعنى الهمزةِ فيها إنكارُ الحسبانِ. والاجتراحُ الاكتسابُ ومنه الجارحةُ. ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أنْ نصيِّرَهُم. ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مثلَهم وهو ثاني مفعولي نجعلُ وقوله: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدلٌ منه إنْ كان الضميرُ للموصول الأولِ لأنَّ المماثلةَ فيه، إذ المعنى إنكارُ أنْ يكون حياتُهم ومماتُهم سيينِ في البهجةِ والكرامة كما هو للمؤمنين، ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكسائي وحفصٍ سواءً بالنصبِ على البدل، أو الحالِ من الضمير في الكافِ، أو المفعوليةِ. والكافُ حالٌ وإنْ كان للثاني فحالٌ منه أو استئنافٌ يبين المقتضى للإنكار، وإنْ كان لهما فبدلٌ أو حالٌ من الثاني، وضميرُ الأولِ والمعنَى إنكارُ أنْ يستووا بعدَ المماتِ في الكرامةِ أو تركِ المؤاخَذةِ كما استووا في الرزق والصحَّةِ في الحياة، أوِ استئنافٌ مقرِّرٌ لتساوي محيا كلِّ صنفٍ ومماتِه في الهدى والضلال، وقرىء مماتَهم بالنصبِ على أنَّ مَحْيَاهُم ومماتَهم ظرفانِ كمقْدَمِ الحاجِّ. ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ساءَ حكمُهم هذا أو بئس شيئاً حكمُوا به ذلك.

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٢) ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه دليلٌ على الحكم السابقِ من حيثُ إنَّ خلْقَ ذلك بالحقِّ المقتضي للعدل يستدعي انتصارَ المظلومِ من الظالم، والتفاوتَ بين المسيء والمحسنِ، وإذا لم يكن في المحيا كان بعد المماتِ. ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عَطفٌ على بالحقِّ لأنه في معنى العلَّةِ أو على عِلَّةٍ محذوفة مُثِّلَ ليدلَّ بها على قدرتِه أو ليعدلَ ولتجزى. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ وتضعيف عقاب، وتسميةُ ذلك ظلماً ولو فعلَه الله لم يكن منه ظلماً لأنه لو فعلَه غيرُه لكان ظلماً كالابتلاءِ والاختبارِ.

(٢٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تركَ متابعةَ الهدى إلى متابعة الهوى فكأنه يعبدُه، وقرىء آلهةً هواهُ لأنه كان أحدُهم يستحسنُ حجراً فيعبدُه فإذا رأى أحسنَ منه رفضَه إليه. ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ وخذلَه. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالماً بضلالِه وفساد جوهرِ روحِه. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يبالي بالمواعظِ ولا يتفكَّر في الآيات. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا ينظرُ بعين الاستبصار والاعتبار، وقرأ حمزة والكسائيُّ غشوةً. ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ من بعدِ إضلاله. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقرىء تتذكرون.

(٢٤) ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ﴾ ما الحياةُ أوِ الحالُ. ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحنُ فيها. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نكون أمواتاً نُطَفاً وما قبلَها ونحيا بعدَ ذلك، أو نموتُ بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادِنا، أو يموتُ بعضُنا ويحيا بعضُنا، أو يصيبنا الموتُ والحياةُ فيها وليس وراءَ ذلك حياةٌ، ويحتملُ أنَّهم أرادوا به التناسُخَ فإنه عقيدةُ أكثر عَبَدَةِ الأوثان. ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ إلا مرورُ الزمان وهو في الأصل مدةُ بقاءِ العالم من دَهَرَهُ إذا غلَبَهُ. ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني نسبةَ الحوادثِ إلى حركاتِ الأفلاك وما يتعلَّق بها على الاستقلال، أو إنكارَ البعث أو كليهما. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ إذ لا دليلَ لهم عليه وإنما قالوه بناءً على التقليد والإنكارِ لما لم يُحِسُّوا به.

(٢٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالةِ على ما يخالفُ مُعتَقَدَهُم أو مبيناتٍ له. ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ ما كان لهم متشبَّثٌ يعارضونها به. ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وإنما سمَّاه حجَّةً على حُسْبَانِهم ومساقِهم، أو على أسلوبِ قولهم تحيةُ بَيْنِهمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ[١] فإنه لا يلزمُ من عدمِ حصولِ الشيء حالاً امتناعُه مطلقاً.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ على ما دلَّت عليه الحججُ. ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فإنَّ مَنْ

---

(١) شطر من الوافر.

قدرَ على الابتداءِ قدرَ على الإعادة، والحكمةُ اقتضتِ الجمعَ للمجازاة على ما قُرِّرَ مراراً، والوعدُ المصدَّقُ بالآيات دلَّ على وقوعِها، وإذا كان كذلك أمكنَ الإتيانُ بآبائهم لكنَّ الحكمةَ اقتضتْ أن يُعادُوا يومَ الجمْع للجزاء. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلةِ تفكُّرهم وقصورِ نظرهم على ما يحسُّونه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

(٢٧) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تعميمٌ للقدرة بعدَ تخصيصِها. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي ويخسر يومَ تقومُ ويومئذ بدلٌ منه.

(٢٨) ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ مجتمعةً من الجثْوةِ وهي الجماعةُ، أو باركةً مستوفزةً على الرُّكَبِ. وقرىء جاذيةً أي جالسةً على أطرافِ الأصابع لاستيفازِهم. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ صحيفةِ أعمالها. وقرأ يعقوبُ كلَّ على أنه بدلٌ من الأول. وتدعى صفةٌ أو مفعولٌ ثانٍ. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ محمولٌ على القول.

(٢٩) ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أضافَ صحائفَ أعمالهم إلى نفسِه لأنه أمرَ الكَتَبَةَ أنْ يكتبوا فيها أعمالَهم[1] ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يَشهدُ عليكم بما عملتُم بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ نستكتِبُ الملائكةَ. ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعمالَكم.

(٣٠) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ التي من جملتها الجنةُ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهرُ لخلوصِه عن الشوائب.

(٣١) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي فيقالُ لهم ألم يأتِكم رُسُلي فلم تكنْ آياتي تُتْلَى عليكم، فحذفَ القولَ والمعطوفَ عليه اكتفاءً بالمقصود واستغناءً بالقرينة. ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عادُتكم الإجرامُ.

(٣٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ يحتملُ الموعودَ به والمصدرَ. ﴿حَقٌّ﴾ كائنٌ هو أو متعلَّقُهُ لا محالةَ. ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ إفرادٌ للمقصود، وقرأ حمزة بالنصبِ عطفاً على اسم إنَّ. ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أيُّ شيء الساعةُ استغراباً لها. ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصلُه نظن ظناً فأدخلَ حرفا النفي والاستثناءِ لإثباتِ الظنِّ ونفي ما عداه كأنه قال: ما نحنُ إلا نظنُّ ظناً، أو لنفي ظنِّهم فيما سِوَى ذلك مبالغةً ثم أكَّده بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي لإمكانه، ولعلَّ ذلك قولُ بعضِهم تحيَّروا بين ما سمعوا من آبائهم وما تُلِيَتْ

---

(١) أو لتفخيم شأنه وتهويل أمره (س٨/ ٧٤).

عليهم من الآياتِ في أمر الساعةِ.

۞ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا
وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ
مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿ ۞ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ ظهرَ لهم. ﴿ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ على ما كانتْ عليه بأنْ عرفوا قُبْحَها وعاينوا وخامةَ عاقِبَتِها، أو جزاءَها. ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وهو الجزاءُ.

(٣٤) ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ ﴾ نتركُكُم في العذاب تركَ ما يُنْسَى. ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ كما تركتُم عِدَتَه ولم تبالُوا به، وإضافةُ لقاءِ إلى يومٍ إضافةُ المصدرِ إلى ظرفهِ. ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ يخلِّصونكم منها.

(٣٥) ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ استهزأتُم بها ولم تتفكَّروا فيها. ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ فحسبتُم أنْ لا حياةَ سواها. ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بفتحِ الياءِ وضمِّ الراءِ. ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ لا يُطْلَبُ منهم أنْ يعتبوا ربَّهم أي يرضُوه لفواتِ أوانه.

(٣٦) ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إذ الكلُّ نعمةٌ منه ودالٌّ على كمال قدرته.

(٣٧) ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إذْ ظهرَ فيها آثارُها. ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغْلَبُ. ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فيما قدَّر وقضَى فاحمدوه وكبِّروه وأطيعوا له. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ حمَ الجاثيةَ سترَ الله عورتَه وسكَّنَ روعته يومَ الحسابِ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٤٩ رقم ٣٩٢) وانظر الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الأَحْقَافِ

ترتيبها ٤٦ — آياتها ٣٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ
أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

سورة الأحقاف مكيةٌ[١] وآيها أربعٌ أو خمسٌ وثلاثون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

(٣) ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا خلْقاً ملتبساً بالحقِّ وهو ما تقتضيه الحكمةُ والمعدلةُ، وفيه دلالةٌ على وجود الصانع الحكيم والبعثِ للمجازاة على ما قرَّرناه مراراً. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وبتقدير أجل مسمَّى ينتهي إليه الكلُّ وهو يومُ القيامة، أو كلُّ واحدٍ وهو آخر مدَّةِ بقائه المقدَّرة له. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ من هول ذلك الوقت، ويجوز أن تكون ما مصدرية. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيه ولا يستعدون لحلوله.

(٤) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي أخبروني عن حالِ آلهتكم بعد تأمُّلٍ فيها، هل يُعْقَلُ أنْ يكونَ لها في أنفسها مدخلٌ في خلْقِ شيء من أجزاء العالم

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة (حمٓ) الأحقاف وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٣٣).

فتستحقُّ به العبادةَ، وتخصيصُ الشرك بالسموات احترازٌ عما يُتَوَهَّمُ أنَّ للوسائط شركةً في إيجاد الحوادث السفليةِ. ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ من قبل هذا الكتابِ يعني القرآنَ فإنه ناطقٌ بالتوحيد. ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو بقيةٍ من علم بقيتْ عليكم من علوم الأوَّلينَ علَّ فيها ما يدلُّ على استحقاقهم للعبادة أو الأمرِ به. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكُم، وهو إلزامٌ بعدَمِ ما يدلُّ على ألوهيَّتِهم بوجْهٍ ما نقلاً بعدَ إلزامِهم بعدم ما يقتضيها عقلاً، وقرىء إثارةٍ بالكسرِ أي مناظرةٍ فإنَّ المناظرةَ تثير المعاني وأثرة أيْ شيءٍ أُوثِرْتُم به، وأَثَرَةٌ بالحركاتِ الثلاث في الهمزة وسكونِ الثاءِ فالمفتوحةِ للمرَّةِ من مصدرِ أَثَرَ الحديثَ إذا رواه والمكسورةُ بمعنى الأثرةِ والمضمومةُ اسمُ ما يُؤْثَرُ.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨

(٥) ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ إنكارُ أنْ يكونَ أحدٌ أضلَّ من المشركين حيثُ تركوا عبادةَ السميع البصير المجيب القادرِ الخبير إلى عبادة مَنْ لا يستجيبُ لهم لو سمعَ دعاءَهم، فضلاً أنْ يعلم سرائِرَهُم، ويراعي مصالِحَهُم. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ما دامتِ الدنيا. ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ لأنهم إما جماداتٌ وإما عبادٌ مسخَّرون مشتغِلُون بأحوالهم[1].

(٦) ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ يضرُّونهم ولا ينفعونَهم. ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ مكذِّبين بلسانِ الحالِ أو المقالِ. وقيل الضميرُ للعابدين وهو كقوله تعالى ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2].

(٧) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ أو مبيناتٍ. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ لأجله وفي شأنه، والمرادُ به الآياتُ، ووضْعُه موضعَ ضميرها ووضْعُ الذين كفروا موضعَ ضمير المتلوِّ عليهم للتسجيل عليها بالحقِّ وعليهم بالكفرِ والانهماكِ في الضلالة. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ حينما جاءهم من غير نَظَرٍ وتأمُّل. ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ بطلانُه.

(٨) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضرابٌ عن ذكْرِ تسميتهم إياهُ سحراً إلى ذكْرِ ما هو أشنعُ منه وإنكارٌ له وتعجيبٌ. ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على الفَرَضِ. ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي إنْ عاجلني اللهُ بالعقوبة فلا تقدرونَ على دفع شيءٍ منها، فكيف أجترىءُ عليه وأعرِّضُ نفسي للعقابِ من غير توقُّع نفع ولا دفع ضُرٍّ من قِبَلِكُم. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تندفعون فيه من القدْحِ في آياته. ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

---

(١) وضمائر العقلاء «وهم. . .» لإجرائهم إياها مجرى العقلاء.
ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة ـ مع ظهور حالها ـ للتهكم بها وبعَبَدَتها، كقوله تعالى: «إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم» (س٨/٧٨).

(٢) الأنعام: «٢٣».

يشهدُ لي بالصدقِ والبلاغ وعليكم بالكذبِ والإنكارِ، وهو وعيدٌ بجزاء إفاضَتِهم. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمَن تاب وآمن وإشعارٌ بحلم اللهِ عنهم مع عِظَم جُرْمِهم.

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بديعاً منهم أدعوكُم إلى ما لا يدعون إليه، أو أقدرُ على ما لم يقدروا عليه، وهو الإتيانُ بالمقترحات كلِّها. ونظيرهُ الخِفُّ بمعنى الخفيفِ. وقرىء بفتح الدالِ على أنه كقيِّم أو مقدَّر بمضافٍ أي ذا بدْعٍ. ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ في الدارين على التفصيلِ إذ لا علمَ لي بالغيبِ، ولا لتأكيدِ النفي المشتملِ على ما يفعلُ بي، وما إما موصولة منصوبةٌ أوِ استفهاميةٌ مرفوعةٌ. وقرىء يَفْعَلُ أي يفعلُ الله. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ لا أتجاوزُه، وهو جوابٌ عن اقتراحهم الإخبارَ عما لم يوحَ إليه من الغيوب، أوِ استعجالُ المسلمين أنْ يتخلَّصوا من أذى المشركين. ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من عقاب الله. ﴿مُّبِينٌ﴾ بيِّنُ الإنذارِ بالشواهدِ المبينة والمعجزاتِ المصدِّقة.

(١٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي القرآنُ. ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ وقد كفرتُم به، ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ عاطفةً على الشرط وكذا الواوُ في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلا أنَّها تعطفه بما عُطِفَ عليه على جملةِ ما قبلَه. والشاهدُ هو عبدُالله بنُ سلام، وقيل موسى عليه الصلاة والسلام، وشهادتُه ما في التوراة من نعتِ الرسول عليه الصلاة والسلامُ. ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ مثلِ القرآنِ وهو ما في التوراة من المعاني المصدِّقة للقرآنِ المطابقة له، أو مثلِ ذلك وهو كونُه من عند الله. ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي بالقرآنِ لما رآه من جنسِ الوحي مطابقاً للحقِّ. ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافٌ مشعِرٌ بأنَّ كفرَهُم به لضلالهم المسبَّبِ عن ظلمِهم، ودليلٌ على الجواب المحذوف مثلُ ألستُم ظالمين.

(١١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأجلهم. ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمانُ أو ما أتى به محمدٌ عليه الصلاة والسلام. ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ وهم سقَّاطٌ إذ عامَّتُهم فقراءُ وموالٍ ورعاةٌ، وإنما قاله قريشٌ وقيل بنو عامر وغطفانُ وأسدٌ وأشجعُ لما أسلَم جُهَيْنَةُ ومزينةُ وأسْلَمُ وغفارٌ، أو اليهودُ حين أسلمَ عبدالله بنُ سلام وأصحابه. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ ظرفٌ لمحذوفٍ مثلُ ظَهرِ عنادِهم وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مسبَّبٌ عنه وهو كقولهم: أساطيرُ الأولين.

(١٢) ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ ومَن قَبلِ القرآنِ وهو خبرٌ لقوله: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ ناصبٌ لقوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ على الحال. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه وقد قُرِئَ به. ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ من ضمير كتابٍ في مصدِّق أو منه لتخصُّصِه الصِّفةِ. وعاملُها معنى الإشارة، وفائدتُها الإشعارُ بالدلالة

على أنَّ كونَه مصدِّقاً للتوراة كما دلَّ على أنه حقٌّ دلَّ على أنه وحيٌ وتوقيفٌ من الله سبحانه وتعالى. وقيل مفعولُ مصدِّقٍ أي يصدِّقُ ذا لسانٍ عربي بإعجازه. ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ علَّةُ مصدِّقٍ، وفيه ضميرُ الكتابِ أو اللهِ أو الرسولِ، ويؤيد الأخيرَ قراءةُ نافع وابن عامر والبزي بخلافٍ عنه ويعقوبَ بالتاء ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ عطفٌ على محلِّه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ
فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ
وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ جمَعوا بين التوحيد الذي هو خُلاصةُ العلم والاستقامةِ في الأمور التي هي منتهى العمل، وثُمَّ للدلالة على تأخُّرِ رتبةِ العمل وتوقُّفِ اعتباره على التوحيد. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوقِ مكروهٍ. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فواتِ محبوبٍ، والفاءُ لتضمُّنِ الاسمِ معنى الشرط.

(١٤) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من اكتساب الفضائل العلميةِ والعمليةِ، وخالدين حالٌ من المستكِنِّ في أصحابُ، وجزاءً مصدرٌ لفعلٍ دلَّ عليه الكلامُ أي جُوزُوا جزاءً.

(١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ وقرأ الكوفيون إحساناً، وقرىء حُسُناً أي إيصاء حَسَناً. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ذاتُ كرهٍ أو حملاً ذا كرهٍ وهو المشقةُ. وقرأ الحجازيانِ وأبو عمرو وهشام بالفتحِ، وهما لغتانِ كالفَقرِ والفُقر، وقيل المضمومُ اسمٌ والمفتوحُ مصدرٌ. ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ ومدةُ حَمْلِهِ وفصالِه، والفصالُ الفطامُ ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ وفصلُه أو وقتُه والمرادُ به الرضاعُ التامُّ المنتهي به ولذلك عبَّر به كما يعبَّر بالأمدِ عن المدةِ، قال:

كُـــلُّ حَـــيٍّ مُسْتَكمِـــل عِـــدَّةَ العُمـــرِ وَمَـــــود إِذَا انْتَهَـــــى أَمَـــــدُه[1]

﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ كلُّ ذلك بيانٌ لما تكابده الأمُّ في تربية الولد مبالغةً في التوصية بها، وفيه دليلٌ على أنَّ أقلَّ مدَّةِ الحملِ ستةُ أشهرٍ لأنه إذا حطَّ منه الفصالُ حولانِ لقوله تعالى ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[2] بقي ذلك وبه قال الأطباءُ، ولعلَّ تخصيصَ أقلِّ الحملِ وأكثرِ الرَّضاعِ لانضباطِهما وتحقُّقِ ارتباط حكْمِ النَّسبِ والرضاعِ بهما. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ إذا اكتهلَ واستحكم قوَّته وعقله. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل لم يُبعَثْ نبيٌّ إلا بعدَ الأربعين. ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني وأصلُه أولِعْني من أوزعْتهُ بكذا. ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ يعني نعمةَ الدينِ أو ما يعمُّها وغيرَها، وذلك يؤيدُ ما رُوِيَ

---

(١) البيت من الخفيف، ومودٍ: ميّت راحل، اسم فاعل من أودى.
(٢) البقرة: «٢٣٣».

أنها نزلتْ في أبي بكر رضيَ الله تعالى عنه[١] لأنه لم يكن أحدُ أسلمَ هو وأبواهُ من المهاجرينَ والأنصارِ سواهُ. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ نكَّره للتعظيم أو لأنه أرادَ نوعاً من الجنسِ يستجلِبُ رضا الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ واجعلْ لي الصلاحَ سارياً في ذريتي راسخاً فيهم ونحوُه قولُه:

وَإِنْ تَعْتَذِرْ بِالمَحْلِ عَنْ ذِي ضُرُوعِهَا إِلَى الضَّيْفِ يَجْرحْ فِي عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي

﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عما لا ترضاه أو يشغِلُ عنك. ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المخلصينَ لك.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ يعني طاعاتِهم فإنَّ المباحَ حسنٌ ولا يُثابُ عليه. ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ لتوبتِهم، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفص بالنون فيهما. ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ كائنينَ في عِدادِهم أو مثابينَ أو معدودين فيهم. ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسه فإنَّ يتقبلُ ويتجاوزُ وعدٌ. ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي في الدنيا.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ مبتدأٌ خبره أولئك، والمرادُ به الجنسُ وإنْ صحَّ نزولُها في عبدالرحمن بن أبي بكر قبلَ إسلامه[٢]، فإنَّ خصوصَ السببِ لا يوجِبُ التخصيصَ. وفي أفٍّ قراءاتٌ ذُكِرَتْ في سورة بني إسرائيلَ[٣]. ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أُبعَثَ، وقرأ هشام أتعدانِّي بنونٍ واحدة مشدَّدةٍ. ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ فلم يرجعْ أحدٌ منهم. ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يقولان: الغياثُ بالله منك، أو يسألانه أن يغيثَه بالتوفيق للإيمان. ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أي يقولان له ويلك، وهو الدعاءُ بالثبورِ بالحثِّ على ما يخافُ على تركِه. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أباطيلهم التي كتبُوها.

(١٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنهم أهلُ النار وهو يردُّ النزولَ في عبدالرحمن لأنه يدلُّ على أنه من أهلها لذلك وقد جُبَّ عنه إنْ كان لإسلامه. ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ كقوله في أصحاب الجنة. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بيانٌ للأمم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تعليلٌ للحكم على الاستئنافِ.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٤/ ٢٥٨). وانظر «زاد المسير» (٧/ ٣٧٨).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٧١): «ومن زعم أنها نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه فقوله ضعيف لأن عبدالرحمن بن أبيَ بكر رضي الله عنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه». وانظر البحر المحيط (٨/ ٦١).

(٣) انظر سورة الإسراء: «٢٣».

والقراءات في «أفّ» هي: قرأ نافع وحفص «أفٍّ» منوناً بكسر الفاء، وقرأ ابن كثير وابن عامر «أفَّ» بفتح الفاء غير منوّن، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «أفِّ» بكسر الفاء غير منون (المبسوط لابن مهران ص٢٢٨).

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ
فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ
إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾

(١٩) ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الفريقين. ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ مراتبُ من جزاءِ ما عملوا من الخير والشر، أو من أجْلِ ما عملوا والدرجاتُ غالبةٌ في المثوبةِ وها هنا جاءتْ على التغليبِ. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جزاءَها، وقرأ نافع وابن عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وابن ذكوان بالنونِ. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ وزيادةِ عقابٍ.

(٢٠) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يعذَّبون بها. وقيل تُعْرضُ النارُ عليهم فَقُلِبَ مبالغةً كقولهم: عرضتُ الناقةَ على الحوض. ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي يُقَالُ لهم أذهبتُم، وهو ناصبُ اليومَ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وابن عامر ويعقوبُ بالاستفهام، غيرَ أنَّ ابن كثير يقرؤُه بهمزة ممدودةٍ وهما يقرأان بها وبهمزتين محققتينِ. ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ لذّاتِكم. ﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ باستيفائها. ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فما بقي لكم منها شيءٌ. ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الهوانِ وقد قرىء به. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ بسببِ الاستكبارِ الباطل والفسوقِ عن طاعة الله، وقرىء تفسِقون بالكسرِ.

(٢١) ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هوداً. ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ جمعُ حقفٍ وهو رملٌ مستطيلٌ مرتفع فيه انحناءٌ من احقوقفَ الشيءُ إذا اعوجَّ، وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشِّحرِ[1] من اليمن. ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ الرسلُ. ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ قبلَ هودٍ وبعدَه، والجملةُ حالٌ أو اعتراضٌ. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لا تعبدوا، أو بأنْ لا تعبدوا فإنَّ النهيَ عن الشيءِ إنذارٌ من مضرّته[2]. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هائلٍ بسبب شِرْكِكُم.

(٢٢) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرفَنا. ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ عن عبادتِها. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب على الشركِ. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعدك.

(٢٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا علمَ لي بوقْتِ عذابكم ولا مدخلَ لي فيه فأستعجلُ به، وإنما علمُه عند الله فيأتيكم به في وقْته المقدَّرِ له. ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم وما على الرسول إلا البلاغُ. ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لا تعلمون أنَّ الرسلَ بُعِثُوا مبلِّغين منذِرينَ لا معذِّبين مقترِحين.

---

(١) بفتح الشين وتكسر، ساحل البحرين عدن وعمان.

(٢) وسّط قوله: «وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه» بين الإنذار وبين «ألا تعبدوا إلا الله» وذلك للمسارعة إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد، وللإيذان باشتراكهم في العبارة المحكية (س٨/ ٨٥).

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾
تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ
فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ
أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ سحاباً عرضَ في أُفُق السماء. ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ متوجِّه أوديتِهم، والإضافةُ فيه لفظيةٌ وكذا في قوله: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي يأتينا بالمطر. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي قال هودٌ عليه الصلاة والسلام بل هو: ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب، وقرىء قلْ بلْ: ﴿رِيحٌ﴾ هي ريحٌ، ويجوز أنْ يكونَ بدلَ ما. ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفتُها وكذا قوله:

(٢٥) ﴿تُدَمِّرُ﴾ تهلِكُ. ﴿كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ من نفوسهم وأموالهم. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ إذ لا توجدُ نابضةُ حركةٍ ولا قابضةُ سكونٍ إلا بمشيئته، وفي ذِكْرِ الأمر والربِّ وإضافته إلى الريح فوائدُ سبقَ ذِكْرها مراراً، وقرىء يدمِّر كلَّ شيء من دمَّر دماراً إذا هَلَكَ فيكون العائد محذوفاً أو الهاء في ربِّها، ويُحتَمَلُ أن يكونَ استئنافاً للدلالة على أنَّ لكل ممكنٍ فَناءً مقضياً لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، وتكونُ الهاءُ لكلِّ شيء فإنه بمعنى الأشياءِ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي فجاءتْهمُ الريحُ فدمَّرتْهم فأصبحوا بحيثُ لو حضرْتَ بلادَهم لا ترى إلا مساكنَهم، وقرأ عاصم وحمزةُ والكسائي لا يُرَى إلا مساكنُهم بالياءِ المضمومة ورفعِ المساكنِ. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. رُوِيَ أنَّ هوداً عليه السلام لما أحسَّ بالريح اعتزلَ بالمؤمنين في الحظيرة وجاءتِ الريح فأمالتِ الأحقافَ على الكفرةِ، وكانوا تحتَها سبعَ ليال وثمانيةَ أيام، ثم كُشِفَتْ عنهم واحتملتْهم فقذفتهم في البحر.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ إنْ نافيةٌ وهي أحسنُ من ما ههنا لأنها توجِبُ التكريرَ لفظاً ولذلك قُلِبَتْ ألفُها هاءً في مهما، أو شرطيةٌ محذوفةُ الجوابِ والتقديرُ، ولقد مكَّنَّاهم في الذي أو في شيءٍ إنْ مكَّناكم فيه كان بغْيُكم أكثرَ، أو صلةٌ كما في قوله:

يُـــرَجِّـــي المَـــرْءُ مَـــا إنْ لاَ يَـــرَاهُ ويعـــرض دُونَ أدنـــاهُ الخُطُـــوبُ

والأولُ أظهرُ وأوفقُ لقوله ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾[1] ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا﴾[2]. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ليعرفُوا تلك النعم ويستدلوا بها على مانِحِها تعالى ويواظبوا على شكرِها. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ من الإغناءِ وهو القليلُ. ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صلةٌ لما أغنى وهو ظرفٌ جرى مجرى التعليلِ من حيث إنَّ الحكمَ مرتَّبٌ على ما أُضِيفَ إليه، وكذلك حيثُ. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب.

---

(١) مريم: «٧٤».
(٢) غافر: «٢١».

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ
ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ
يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا
سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ
أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهلَ مكَّةَ. ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحجرِ ثمودَ وقُرى قوم لوطٍ. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ﴾ بتكريرها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم.

(٢٨) ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ فهلاَّ مَنَعتْهُم من الهلاك آلهتُهم الذين يتقرَّبون بهم إلى اللهِ تعالى حيثُ قالوا: هؤلاءِ شفعاؤُنا عند الله، وأولُ مفعولي اتخذوا الراجعُ إلى الموصول محذوفٌ، وثانيهما قرباناً وآلهةً بدلٌ أو عطفُ بيانٍ، أو آلهةً وقرباناً حالٌ أو مفعولٌ له على أنه بمعنى التقرُّبِ. وقرىء قُرُباناً بضمِّ الراءِ. ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرهم وامتنع أن يستمدُّوا بهم امتناعَ الاستمدادِ بالضالِّ. ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ وذلك الاتخاذُ الذي هذا أثره صرفهم عن الحقِّ. وقرىء أَفَّكهم بالتشديد للمبالغةِ، وآفكَهم أي جعلَهم آفكينَ، وآفِكُهُم أي قولُهم الآفِكُ أي ذو الإفك. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

(٢٩) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أملْناهم إليك، والنفرُ دون العشرةِ وجمعُه أنفارٌ. ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حالٌ محمولةٌ على المعنى. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآنَ أوِ الرسولَ. ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ قالوا بعضُهم لبعض اسكتُوا لنسمعَهُ. ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أتمَّ وفرغَ من قراءته، وقرىء على بناءِ الفاعلِ وهو ضميرُ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلام. ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي منذرين إيَّاهم بما سمعوا. رُوِيَ أنهم وافَوْا رسولَ الله ﷺ بوادي النخلةِ عند مُنصَرَفِهِ من الطائف يقرأ في تهجُّده[1].

(٣٠) ﴿قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ قيل إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهوداً أو ما سمعوا بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ من العقائد. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من الشرائع.

(٣١) ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بعضَ ذنوبكم، وهو ما يكون في

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٥٠ رقم ٤٠٣): «متفق عليه ـ البخاري (٨/٦٦٩ رقم ٤٩٢١) ومسلم (١/٣٣١ رقم ١٤٩/٤٤٩) ـ بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله. ودون قوله «وكانوا تسعة نفر أحدهم زوبعة» ودون قوله: «في جوف الليل يصلي» ودون قوله «نينوى» ودون قوله «عند منصرفه إلى آخره».
وأما زوبعة: فأخرجه الحاكم ـ في المستدرك (٢/٤٥٦) ـ من رواية ذر عن ابن مسعود قال: (هبطوا يعني الجن على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة. فلما سمعوه قالوا أنصتوا).
وكانوا تسعة أحدهم زوبعة. فأنزل الله «وإذ صرفنا إليك ـ الآية» وقوله «نينوى» أخرجه الطبراني ـ في «جامع البيان» (١٣/ج٢٦/٣١) ـ من رواية قتادة عن هذه الآية قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى الحديث» هـ.

خالص حقِّ الله، فإنَّ المظالمَ لا تُغفرُ بالإيمان. ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو مُعَدٌّ للكفار، واحتجَّ أبو حنيفةَ رضي الله عنه باقتصارهم على المغفرة والإجارةِ على أنْ لا ثوابَ لهم، والأظهرُ أنهم في توابعِ التكليف كبني آدمَ.

وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إذ لا ينجي منه مهربٌ[١]. ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ يمنعونه منه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيثُ أعرضُوا عن إجابة من هذا شأنُه.

(٣٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ ولم يتعبْ ولم يعجزْ، والمعنى أنَّ قدرتَهُ واجبةٌ لا تنقصُ ولا تنقطع بالإيجاد أبدَ الآباد. ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي قادرٌ، ويدل عليه قراءةُ يعقوبَ يقدرُ، والباءُ مزيدةٌ لتأكيد النفي فإنه مشتملٌ على أنْ وما في حيِّزها ولذلك أجابَ عنه بقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقريرٌ للقدرة على وجْهٍ عام يكون كالبرهان على المقصود، كأنه صدَّرَ السورةَ بتحقيق المبدأ أراد ختْمَها بإثباتِ المعادِ.

(٣٤) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ منصوبٌ بقول مضمرٍ مقولُه: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ والإشارةُ إلى العذاب. ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفرِكم في الدنيا، ومعنى الأمرِ هو الإهانةُ بهم والتوبيخُ لهم.

(٣٥) ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أولو الثباتِ والجدِّ منهم فإنك من جملتهم، ومِنْ للتبيين، وقيل للتبعيضِ، وأولو العزمِ منهم أصحابُ الشرائع اجتهدوا في تأسيسها وتقريرِها وصبروا على تحمُّلِ مشاقِّها ومعاداةِ الطاعنين فيها، ومشاهيرُهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى عليه السلام. وقيل الصابرون على بلاءِ الله كنوحٍ صَبَرَ على أذى قومِه كانوا يضربونه حتى يُغْشَى عليه، وإبراهيمُ على النارِ وذبْحِ ولده، والذبيحُ على الذبحِ، ويعقوبُ على فقْدِ الولد والبصرِ، ويوسفُ على الجبِّ والسجن، وأيوبُ على الضرِّ، وموسى قال له قومه ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[٢]،

---

(١) وإظهار «داعي الله» من غير اكتفاء بأحد الضميرين للمبالغة في الإيجاب بزيادة التقرير، وتربية المهابة، وإدخال الروعة.
وتقييدُ الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة، أي فليس بمعجز له تعالى بالهرب وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل في أعماقها (س٨/٨٩).

(٢) الشعراء: «٦١ ـ ٦٢».

وداودُ بكىٰ على خطيئته أربعينَ سنةً، وعيسى لم يضعْ لبنةً على لبنةٍ. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ لكفارِ قريشٍ بالعذاب فإنه نازلٌ بهم في وقتِهِ لا محالةَ. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ استقْصَروا من هوله مدةَ لُبْثِهِم في الدنيا حتى يحسِبُونَهَا ساعَةً. ﴿بَلَٰغٌ﴾ هذا الذي وُعِظْتُم به أو هذه السورةُ بلاغٌ أي كفايةٌ، أو تبليغٌ من الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيدُه أنه قُرِىءَ بلغ، وقيل بلاغٌ مبتدأ خبرُه لهم وما بينَهما اعتراضٌ أي لهم وقتُ يبلغُون إليه كأنهم إذا بلَغُوه ورأوا ما فيه استقْصَروا مدةَ عُمُرِهم، وقرىء بالنصبِ أي بلِّغوا بلاغاً. ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجونَ عن الاتعاظِ أو الطاعةِ. وقرىء يهلِكُ بفتحِ اللامِ وكسْرها من هلَك وهلِك، ونُهلِكُ بالنونِ ونصْبِ القومِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الأحقافِ كُتِبَ له عشرُ حسناتٍ بعددِ كلِّ رمْلةٍ في الدنيا»[1].



(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «الكافي الشافِ» (ص١٥١ رقم ٤٠٦).
وتقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

ترتيبها ٤٧ — آياتها ٣٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ
وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

سورةُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم

وتسمى سورةَ القتال، وهي مدنيةٌ[١] وقيل مكيةٌ، وآيها سبعٌ أو ثمان وثلاثون أو أربعونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ امتنعوا عن الدخولِ في الإسلام وسلوكِ طريقه، أو مَنَعُوا الناسَ عنه كالمطعِمين يومَ بدرٍ، أو شياطينُ قريش، أو المصريينَ من أهل الكتاب، أو عامٌّ في جميع من كفر وصدَّ. ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جعلَ مكارِمَهم ـ كصلةِ الرحم وفكِّ الأَسَارى وحفظِ الجوارِ ـ ضالةً أي ضائعةً محيطةً بالكفر، أو مغلوبة مغمورةً فيه كما يضلُّ الماءُ في اللبن، أو ضلالٌ حيث لم يقصدوا به وجْهَ الله، أو أبطلَ ما عملوه من الكيدِ لرسوله والصدِّ عن سبيله بنصرِ رسوله وإظهارِ دينه على الدين كلِّه.

(٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعمُّ المهاجرينَ والأنصارَ والذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرَهم.

---

(١) أخرج ابن الضريس عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أنزلت سورة القتال بالمدينة. وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة.
وأخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة «الذين كفروا» كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٥٦).

﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ تخصيصٌ للمنزَلِ عليه مما يجبُ الإيمانُ به تعظيماً له وإشعاراً بأنَّ الإيمان لا يتمُّ دونه، وأنه الأصلُ فيه، ولذلك أكَّده بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ اعتراضاً على طريقة الحصْر. وقيل حقيقته بكونه ناسخاً لا يُنسَخُ. وقرىء نَزَّلَ على البناء للفاعل، وأنزلَ على البناءين[1]، ونَزَلَ بالتخفيفِ. ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ سَتَرَهَا بالإيمان وعملِهم الصالحِ. ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾

(٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ من الإضلال والتكفير والإصلاحِ وهو مبتدأٌ خبرهُ. ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ بسبب اتباع هؤلاءِ الباطلَ واتباع هؤلاءِ الحقَّ، وهذا تصريحٌ بما أشعر به ما قبلَها ولذلك سُمِّي تفسيراً. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك الضرب. ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ يبينُ لهم. ﴿أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أحوالَ الفريقين أو أحوالَ الناس، أو يضربُ أمثالَهم بأنْ جعلَ اتِّباعَ الباطلِ مثلاً لعمل الكفار والإضلالَ مثلاً لخيبتِهم واتباعَ الحقِّ مثلاً للمؤمنين، وتكفيرَ السيئات مثلاً لفوزِهم.

(٤) ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في المحاربة. ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصلُه فاضربوا الرقابَ ضرباً فحذفَ الفعلَ وقدَّم المصدرَ، وأُنيبَ منابَه مضافاً إلى المفعول ضماً إلى التأكيد والاختصارِ. والتعبيرُ به عن القتل إشعار بأنه ينبغي أن يكون بضربِ الرقابِ حيث أمكنَ، وتصويرٌ له بأشنعِ صورةٍ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتُم قتلَهم وأغلظْتموه من الثخينِ وهو الغليظُ. ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ فأسِرُوهم واحفظُوهم، والوَثَاقُ بالفتحِ والكسْرِ ما يُوثَقُ به. ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي فإما تمنُّون منّاً أو تفدون فداءً، والمراد التخييرُ بعد الأسْرِ بين المنِّ والإطلاقِ وبينَ أخذِ الفداءِ، وهو ثابتٌ عندنا فإنَّ الذَّكَرَ الحرَّ المكلَّفَ إذا أُسِرَ تخيَّر الإمامُ بينَ القتلِ والمنِّ والفداءِ، والاسترقاقُ منسوخٌ عند الحنفيةِ أو مخصوصٌ بحربِ بدرٍ فإنهم قالوا يتعيَّن القتلُ أوِ الاسترقاقُ. وقُرِىءَ فِدَاً كعصاً. ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ آلاتِها وأثقالها التي لا تقومُ إلا بها كالسلاحِ والكراعِ، أي تنقضي الحربُ ولم يبقَ إلا مسلمٌ أو مسالِمٌ. وقيل آثامَها والمعنى حتى يضعَ أهلُ الحربِ شِرْكَهم ومعاصيهم، وهو غايةٌ للضرب أو الشدِّ أو للمنِّ والفداءِ أو للمجموعِ بمعنى أنَّ هذه الأحكامَ جاريةٌ فيهم حتى لا يكونَ حربٌ مع المشركين بزوالِ شوكتِهم. وقيل بنزولِ عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمرُ ذلك، أو افعلوا بهم ذلك. ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لا نتقم منهم بالاستئصالِ. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ ولكنْ أمرَكُم بالقتال ليبلُوَا المؤمنينَ بالكافرين بأنْ يجاهِدُوهم فيستوجِبُوا الثوابَ العظيمَ، والكافرين بالمؤمنينَ بأنْ يعاجِلَهم على أيديهم ببعضِ عذابِهم كي يرتدعَ بعضُهم عن الكفرِ. ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جاهدوا، وقرأ البصريانِ وحفصٌ قُتِلُوا أي اسْتُشْهِدوا.

---

(١) أي على البناء للفاعل «أَنْزَلَ» وعلى البناء للمفعول «أُنْزِلَ».

﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ فلن يضيِّعَها. وقرىء يَضِلَّ من ضلَّ، ويُضَلَّ على البناء للمفعولِ.

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾
۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

(٥) ﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إلى الثواب، أو سيثبِّتُ هدايتَهُم. ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾.

(٦) ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ وقد عرَّفها لهم في الدنيا حتى اشتاقوا إليها فعملوا ما استحقُّوها به، أو بيَّنها لهم بحيثُ يعلم كلُّ واحد منزلَه ويهتدي إليه كأنه كان ساكِنَه منذُ خُلِقَ، أو طيَّبها لهم من العُرْفِ وهو طيبُ الرائحةِ، أو حدَّدها لهم بحيث يكون لكلّ جنة مفرزةٌ.

(٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ إنْ تنصروا دينَه ورسولَه. ﴿ يَنصُرْكُمْ ﴾ على عدوِّكم. ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدةِ مع الكفار.

(٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ فعثوراً لهم وانحطاطاً ونقضه لعا قال الأعشى: فالتَّعْسُ أولى بها من أنْ أقولَ لَعَا. وانتصابُه بفعله الواجبِ إضمارُه سماعاً، والجملةُ خبرُ الذين كفروا أو مفسِّرةٌ لناصِبه. ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ عطفٌ عليه.

(٩) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ القرآنَ لما فيه من التوحيد والتكاليفِ المخالفةِ لما أَلِفُوه واشتهتْه أنفسُهم، وهو تخصيصٌ وتصريحٌ بسببه الكفرُ بالقرآن للتعْسِ والإضلال. ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ كرَّره إشعاراً بأنه يلزمُ الكفرُ بالقرآن ولا ينفكُّ عنه بحالٍ.

(١٠) ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ استأصلَ عليهم ما اختصَّ بهم من أنفسِهم وأهليهم وأموالهم. ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ ﴾ من وضْعِ الظاهرِ موضعَ المضمَرِ. ﴿ أَمْثَٰلُهَا ﴾ أمثالُ تلك العاقبةِ أو العقوبةِ، أو الهلَكَةِ لأنَّ التدميرَ يدل عليها، أوِ السنَّةُ لقوله تعالى ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ ﴾[1].

(١١) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ناصرُهم على أعدائهم. ﴿ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ فيدفعُ العذابَ عنهم، وهو لا يخالُف قوله ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾[2] فإنَّ المولى فيه بمعنى المالِكِ.

(١٢) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ ينتفعون بمتاع الدنيا. ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ حريصينَ غافلينَ عن العاقبة. ﴿ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ منزلٌ ومقام.

---

(١) الفتح: «٢٣».
(٢) يونس: «٣٠».

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

(١٣) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ على حذف المضافِ وإجراءِ أحكامِه على المضافِ إليه، والإخراجُ باعتبار التسبُّبِ[١]. ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بأنواعِ العذاب. ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يَدفعُ عنهم العذابَ وهو كالحالِ المحكِيَّةِ.

(١٤) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ حجَّةٍ من عنده وهو القرآنُ، أو ما يعمُّه، والحججُ العقلية كالنبيِّ ﷺ والمؤمنينَ. ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ كالشركِ والمعاصي. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ في ذلك لا شبهةَ لهم عليه فضلاً عن حجَّةٍ.

(١٥) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي فيما قصصْنا عليك صفتَها العجيبةَ. وقيل مبتدأٌ خبرُه: كَمَن هو خالدٌ في النار، وتقديرُ الكلامِ أَمَثَلُ أهلِ الجنة كمثلِ مَنْ هو خالدٌ، أو أَمَثَلُ الجنةِ كمثلِ جزاءِ من هو خالدٌ فعرِّيَ عن حرفِ الإنكارِ وحذفَ ما حذف استغناءً يجري مثلُه تصويراً لمكابرةِ مَنْ يسوي بين المتمسِّك بالبيِّنةِ والتابعِ للهوى بمكابرةِ مَنْ يسوي بين الجنةِ والنارِ، وهو على الأولِ خبرٌ محذوفٌ تقديرُهُ: أفَمَنْ هو خالدٌ في هذه الجنةِ كمن هو خالدٌ في النار، أو بدلٌ من قوله ﴿كَمَن زُيِّنَ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ لبيان ما يمتازُ به مَنْ على بينةٍ في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة[٢]. ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ استئنافٌ لشرح المثلِ أو حالٌ من العائدِ المحذوف، أو خبر لمثلٍ. وآسِنٌ من أَسَنَ الماءُ بالفتح إذا تغيَّر طعمُه وريحُه، أو بالكسرِ على معنى الحدوثِ. وقرأ ابن كثير أَسِنَ. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لم يصِرْ قارصاً ولا حازراً. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذيذةٍ لا يكون فيها كراهةُ طعم وريحٌ ولا غائلةُ سُكْرٍ وخمارٍ تأنيثُ لذٍّ أو مصدرٌ نعت به بإضمار ذات، أو تجوُّزٍ، وقرئت بالرفع على صفة الأنهار والنصبِ على العلَّة. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يخالِطه الشمعُ وفضلاتُ النحلِ وغيرُها، وفي ذلك تمثيلٌ لما يقومُ مقامَ الأشربة في الجنة بأنواعِ ما يُستَلَذُّ منها في الدنيا بالتجريد عما ينقصُها وينغِّصها، والتوصيفُ بما يوجب غزارتَها واستمرارَها. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ صنفٌ على هذا القياس. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ عطفٌ على الصنف المحذوفِ. أو مبتدأٌ خبره محذوفٌ أي لهم مغفرةٌ. ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ مكانَ تلك الأشربةِ. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ من فَرْطِ الحرارةِ.

---

(١) وصف القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوتها، كما أن وصف الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها في الإهلاك لقوة جنايتها. (س٨/ ٩٥).

(٢) وعبر عنهم بالمتقين إيذاناً بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوىٰ الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيئات عن آخرها (س٨/ ٩٥).

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ
سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ
ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾

(١٦) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ يعني المنافقينَ كانوا يحضرون مجلسَ الرسولِ ﷺ ويسمعون كلامَهُ فإذا خرجوا. ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي لعلماءِ الصحابة رضي الله تعالى عنهم. ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ ما الذي قال الساعةَ، استهزاءً أو استعلاماً إذ لم يُلقُوا له آذانَهم تهاوُناً به، وآنفاً من قولهم: أنفُ الشيءِ لما تقدَّم منه مستعارٌ من الجارِحة، ومنه استأنفَ وائتنفَ وهو ظرفٌ بمعنى وقتاً مؤتنفاً، أو حالٌ من الضمير في قال، وقرأ ابنُ كثير أنفاً(١).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فلذلك استهزؤُوا وتهاونُوا بكلامِه.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي زادهم اللهُ بالتوفيق والإلهامِ، أو قولِ الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ بيَّن لهم ما يتَّقون أو أعانَهم على تقواهُم، أو أعطاهم جزاءَها.

(١٨) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ فهل ينتظرون غيْرَها. ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بدلُ اشتمال من الساعةِ، وقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ كالعِلَّة له، وقرىء أنْ تأتِهم على أنه شرطٌ مُسْتَأْنَفٌ جزاؤُه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ والمعنى أنْ تأتِهم الساعةُ بغتة لأنه قد ظهر أماراتُها كمبعثِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وانشقاقِ القمر فكيف لهم ذكراهُم أي تذكُّرهم إذا جاءتْهم الساعةُ بغتةً، وحينئذ لا يفرغُ له ولا ينفعُ(٢).

(١٩) ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أي إذا علمتَ سعادةَ المؤمنين وشقاوةَ الكافرين فاثْبُتْ على ما أنتَ عليه من العلم بالوحدانية وتكميلِ النفسِ بإصلاح أحوالها وأفعالِها وهضْمِها بالاستغفارِ لذنبك. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ولذنوبهم بالدعاءِ لهم والتحريض على ما يستدعي غفرانَهم، وفي إعادة الجارِّ وحذفِ المضافِ إشعارٌ بفرْط احتياجِهم وكثرةِ ذنوبهم وأنها جنسٌ آخرُ، فإن الذَّنْبَ له مالَهُ تبعةٌ ما بتركِ الأَوْلَى. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا فإنها مراحلُ لا بدَّ من قطْعِها. ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في العقْبى فإنها دار إقامتِكم فاتقوا اللهَ واستغفروه وأعِدُّوا لمعادِكم.

(٢٠) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي هلاَّ نزلتْ سورةٌ في أمر الجهاد. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ

---

(١) يقال: ذكره آنفاً وأنفاً وسالفاً.
ذكر الأولى والثالثة الرازي في مختاره، وذكر القراءتين الفيروز في قاموسه هـ.

(٢) وتقديم «إذا جاءتهم» على «ذكراهم» للإشعار بغاية سرعة مجيئها. (س٨/٩٧).

مُّحْكَمَةٌ﴾ مبيّنةٌ لا تشابُهَ فيها. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي الأمرُ به. ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفٌ في الدين وقيلَ: نفاقٌ. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ جُبْناً ومخافةً. ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فويلٌ لهم، أفعلُ من الولْيِ وهو القربُ، أو فَعْلَى من آلَ ومعناه الدعاءُ عليهم بأن يليهم المكروهُ أو يؤول إليه أمرُهم.

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

(٢١) ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ استئنافٌ أي أمرُهم طاعةٌ أو طاعةٌ وقولٌ معروف خيرٌ لهم، أو حكايةُ قولِهم لقراءةِ أبيٍّ يقولون طاعةٌ. ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي جدَّ وهو لأصحاب الأمرِ، وإسناده إليه مجازٌ وعاملُ الظرفِ محذوف، وقيل ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي فيما زعموا من الحرصِ على الجهاد أو الإيمان. ﴿لَكَانَ﴾ الصدقُ ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

(٢٢) ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فهل يُتوقَّعُ منكم[1]. ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمورَ الناس وتأمَّرْتُم عليهم، أو أعرضتم وتوليتم عن الإسلام. ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ تناحُراً على الولاية وتجاذباً لها، أو رجوعاً إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من التغاوُرِ ومقاتلةِ الأقاربِ، والمعنى أنهم لضعفِهم في الدين وحرصِهم على الدنيا أحقّاءُ بأنْ يُتَوقَّعَ ذلك منهم مَنْ عرف حالَهم ويقول لهم: هل عسيتُم، وهذا على لغةِ الحجاز فإنَّ بني تميمٍ لا يُلْحِقُون الضميرَ به، وخبرُه أنْ تفسِدوا وإن توليتم اعتراضٌ، وعن يعقوبَ توليتُم أي إنْ تولاَّكم ظلمةٌ خرجتُم معهم وساعدتُموهم في الإفساد وقطيعةِ الرحم وتقطَّعوا من القطْعِ، وقرىء تَقَطَّعوا من التقطُّعِ.

(٢٣) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين[2]. ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لإفسادِهم وقطعِهم الأرحامَ. ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق. ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ فلا يهتدون سبيلَه.

(٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يتصفَّحونه وما فيه من المواعظ والزواجرِ حتى لا يجسُروا على المعاصي. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ لا يصلُ إليها ذِكْرٌ ولا ينكشفُ لها أمرٌ، وقيل أمْ منقطعةٌ ومعنى الهمزة فيها التقريرُ، وتنكيرُ القلوب لأنَّ المرادَ قلوبُ بعضٍ منهم أو للإشعار بأنها لإبهامِ أمرِها في القساوة، أو لفرْطِ جهالَتِها ونُكْرِها كأنها مبهمةٌ منكورةٌ. وإضافةُ الأقفال إليها للدلالة على أقفالٍ مناسبة لها مختصَّةٍ بها لا تجانسُ الأقفالَ المعهودةَ. وقرىء إقفالُها على المصدر.

(٢٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي ما كانوا عليه من الكفْر. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾

---

(١) التفات إلى المخاطب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع (س٨/ ٩٨).

(٢) التفات إلى الغائب للإيذان بأن ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم (س٨/ ٩٩).

بالدلائلِ الواضحة والمعجزات الظاهرةِ. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سهَّلَ لهم اقترافَ الكبائر من السُّولِ وهو الاسترخاءُ. وقيل حملهم على الشهواتِ من السُّولِ وهو التمنِّي، وفيه أنَّ السُّولَ مهموزٌ قُلِبتْ همزتُه واواً لضمِّ ما قبلها ولا كذلك التسويلُ، ويمكنُ ردُّه بقولهم هما يتساولانِ، وقرىء سُوِّل على تقدير مضافٍ أي كيدُ الشيطان سولَ لهم. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الآمال والأماني، أو أمهلَهم اللهُ تعالى ولم يعاجِلْهم بالعقوبةِ لقراءةِ يعقوبَ وأُمْلِي لهم أي وأنا أملي لهم فتكونُ الواوُ للحال أوِ الاستئنافِ، وقرأ أبو عمرو وأُملِيَ لهم على البناء للمفعول وهو ضميرُ الشيطانِ أو لهم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾
فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ
وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ
أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي قال اليهودُ الذين كفروا بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام بعدَ ما تبيَّن لهم نعتُه للمنافقين، أو المنافقون لهم أو أحدُ الفريقين للمشركين. ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ في بعض أمورِكم أو في بعض ما تأمُرون به، كالقعودِ عن الجهاد والموافقةِ في الخروجِ معهم إنْ أُخرِجُوا والتظافرِ على الرسولِ ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ومنها قولَهم هذا الذي أفشاهُ الله عليهم، وقرأ حمزةُ والكسائي وحفصٌ إسرارَهم على المصدرِ.

(٢٧) ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فكيف يعملون ويحتالُون حينئذ، وقرىء توفَّاهم وهو يحتملُ الماضي والمضارعَ المحذوفَ إحدى تاءيْه. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ تصويرٌ لتوفِّيهم بما يخافون منه ويجبُنُون عن القتال له.

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى التوفِّي الموصوف. ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر كَكِتْمانِ نعتِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام وعصيانِ الأمر. ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ ما يرضاهُ من الإيمان والجهادِ وغيرِهما من الطاعات. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لذلك.

(٢٩) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ﴾ أنْ لن يبرزَ اللهُ لرسوله ﷺ والمؤمنين. ﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أحقادَهم.

(٣٠) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لعرَّفناكَهم بدلائلَ تعرفُهم بأعيانهم[1]. ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلاماتِهم التي نَسِمُهم بها، واللامُ لامُ الجواب كُرِّرَتْ في المعطوف. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ، ولحنُ القول أسلوبُه، أو إمالتُه إلى جهة تعريضٍ وتوريةٍ، ومنه قيل للمخطىءِ لاحنٌ لأنه يعدِلُ بالكلام عن الصواب. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فيجازيكم على حساب قصْدِكم إذ الأعمالُ بالنيات.

---

(١) الالتفات إلى نون العظمة لإبراز العناية بالإراءة (س٨/١٠١).

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾
إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾

(٣١) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمرِ بالجهاد وسائرِ التكاليف الشاقَّة. ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقه. ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبرُ به عن أعمالِكم فيظهرُ حسنُها وقُبحُها، أو أخبارَهم عن إيمانِهم وموالاتِهم المؤمنينَ في صدقِها وكذِبِها. وقرأ أبو بكر الأفعالَ الثلاثةَ بالياء لتوافِقَ ما قبلَها، وعن يعقوبَ ونبلُوْ بسكونِ الواو على تقدير ونحنُ نبلُو.

(٣٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ هم قريظةُ والنضيرُ أو المطعمونَ يومَ بدرٍ. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكفرهم وصدِّهم، أو لن يضرُّوا رسولَ الله ﷺ بمشاقَّتِه، وحذفَ المضافَ لتعظيمه وتفظيعِ مشاقَّته. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ثوابَ حسناتِ أعمالهم بذلك، أو مكايدَهم التي نصبُوها في مشاقَّته فلا يصِلُون بها إلى مقاصِدِهم ولا تثمرُ لهم إلا القتلَ والجلاءَ عن أوطانِهم.

(٣٣) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بما أبطلَ به هؤلاءِ كالكفر والنفاقِ والعُجْبِ والرياء والمنِّ والأذى ونحوِها، وليس فيه دليلٌ على إحباط الطاعات بالكبائرِ.

(٣٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ عامٌّ في كل مَنْ مات على كفرِه وإنْ صحَّ نزولُه في أصحاب القليبِ، ويدل بمفهومه على أنه قد يُغْفَرُ لمن لم يَمُتْ على كفرِه سائرُ ذنوبِه.

(٣٥) ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ فلا تضعُفوا. ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ ولا تدعوا إلى الصُّلح خَوَراً وتذلُّلاً، ويجوزُ نصبه بإضمارِ إنْ. وقرِىءَ ولا تدَّعوا من ادَّعى بمعنى دعَا، وقرأ أبو بكر وحمزةُ بكسرِ السين. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ الأغلبونَ. ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ ناصِرُكم. ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ ولن يضيعَ أعمالَكُم، مِنْ وَتَرْتُ الرجلَ إذا قتلْتُ متعلِّقاً به من قريبٍ أو حميمٍ فأفردتُه منه من الوِتْرِ، شبَّه به تعطيلَ ثواب العملِ وإفرادَه منه[1].

(٣٦) ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثباتَ لها. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ ثوابَ إيمانكم وتقواكم. ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ جميعَ أموالِكم بل يقتصرُ على جزءٍ يسير كربعِ العشْرِ والعشرِ.

---

(١) عبر عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بالوَتْر الذي هو إضاعة شيء معتد به من الأنفس والأموال إبرازاً لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها (س٨/ ١٠٢).

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ فيجهدْكم بطلب الكلِّ، والإحفاءُ والإلحافُ المبالغة وبلوغِ الغاية يُقَالُ: أحفى شاربَه إذ استأصله. ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ فلا تعطُوا. ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ ويضغنكم على رسولِ الله ﷺ والضميرُ في يخرجْ لله تعالى، ويؤيدُه القراءةُ بالنونِ أو البخلَ لأنه سببُ الإضغانِ، وقرىء وتَخْرُجُ بالتاء والياء ورفعِ أضغانُكم.

(٣٨) ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي أنتم يا مخاطَبون هؤلاءِ الموصوفونَ وقوله ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لذلك، أو صلةٌ لهؤلاء على أنه بمعنى الذين وهو يعمُّ نفقةَ الغزوِ والزكاة وغيرِهما. ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ ناسٌ يبخلون وهو كالدليل على الآية المتقدِّمة. ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فإنَّ نفعَ الإنفاق وضرَّ البخلِ عائدانِ إليه، والبخلُ يُعَدَّى بعنْ وعلى لتضمُّنه معنى الإمساكِ والتعدي فإنه إمساك عن مستحقٍّ. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ فما يأمركُم به فهو لاحتياجكم إليه فإن امتثلتُم فلكُم وإن توليتم فعليكُم. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ عطفٌ على أنْ تؤمنوا. ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يُقِمْ مقامَكم قوماً آخرين. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ في التولي والزهدِ في الإيمان، وهم الفرسُ لأنه سُئِلَ عليه الصلاة والسلام عنه وكان سلمانُ إلى جنبه فضربَ فخِذَه وقال: «هذا وقومُه»[1] أو الأنصارُ أو اليمنُ أو الملائكةُ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ محمدٍ كان حقاً على الله أن يسقيهُ من أنهارِ الجنة»[2].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الترمذي (٥/٣٨٣ ـ ٣٨٤ رقم ٣٢٦٠ و٣٢٦١) والحاكم في المستدرك (٢/٤٥٨) والطبري في جامع البيان (١٣/ج٢٦/٦٦ ـ ٦٧) من حديث أبي هريرة.
قال الترمذي في الإسناد الأول: في إسناده مقال. ولم يقل في الآخر شيئاً، لكنه من طريق عبدالله بن جعفر المديني وهو ضعيف. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وسكت عنه الذهبي. وهو عند الحاكم من طريق عبدالعزيز الدراوردي.
وأخرجه البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٧) والترمذي (٥/٤١٣ رقم: ٣٣١٠) من طريق ثور بن زيد الديلي عن أبي الغيث عن أبي هريرة.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه وتقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الفَتْح

ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ
إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

سورة الفتح مدنيةٌ(١)
نزلت في مرجعِ رسولِ الله ﷺ من الحديبية وآيُها تسعٌ وعشرون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ وعدٌ بفتح مكّةَ، والتعبير عنه بالماضي لتحقُّقِه. أو بما اتفقَ له في تلك السَّنَةِ كفتحِ خيبرَ وَفَدَكَ. أو إخبارٌ عن صلح الحديبية، وإنما سمَّاه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلحَ وتسببَ لفتحِ مكةَ، وفرغ به رسولُ الله ﷺ لسائرِ العرب فغزاهم وفتحَ مواضعَ، وأدخل في الإسلام خلْقاً عظيماً، وظهر له في الحديبية آيةٌ عظيمة وهي أنه نزحَ ماؤُها بالكلية فتمضمضَ ثم مجَّه فيها فدرَّتْ بالماء حتى شربَ جميع مَنْ كان معه(٢)، أو فتحِ الرومِ فإنهم غلبوا الفرسَ في تلك السنةِ، وقد عرفْتَ كونه فتحاً للرسول عليه الصلاة والسلام في سورة الرومِ. وقيل الفتح بمعنى القضاءِ أي قضينا لك أن تدخلَ مكّةَ من قابِلٍ.

(٢) ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ علّةٌ للفتح من حيثُ إنه مسبَّبٌ عن جهاد الكفارِ والسَّعْي في إزاحة الشرك

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٥٠٧). و«المحرر الوجيز» (١٥/ ٨٤).
(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٦/ ٥٨١ رقم ٣٥٧٧) عن البراء بن عازب.

وإعلاءِ الدين وتكميلِ النفوس الناقصةِ قهراً ليصيرَ ذلك بالتدريج اختياراً، وتخليصِ الضَّعفةِ عن أيدي الظَّلَمةِ. ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ جميعَ ما فَرَطَ منك مما يصحُّ أنْ تعاتَبَ عليه. ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بإعلاء الدين وضمِّ الملْكِ إلى النبوة. ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامةِ مراسِمِ الرئاسة.

(٣) ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ نصراً فيه عزٌّ ومَنَعَةٌ، أو يُعَزُّ به المنصورُ فوُصِفَ بوصْفه مبالغةً[١].

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الثباتَ والطمأنينةَ. ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حتى ثبتُوا حيث تقلَقُ النفوسُ وتَدْحَضُ الأقدامُ. ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنانِ النفس عليها، أو نَزَل فيها السكونَ إلى ما جاءَ به الرسولُ ﷺ ليزدادوا إيماناً بالشرائع مع إيمانِهم بالله واليوم الآخر. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يدبِّر أمْرَها فيسلِّط بعضَها على بعض تارةً ويوقِعُ فيما بينَهم السِّلْمَ أخرى كما تقتضيه حكمتُه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمصالح. ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما يقدِّر ويدبِّر.

لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾

(٥) ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ علَّة بما بعدَه لما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[٢] من معنى التدبير، أي دبَّر ما دبَّر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمةَ الله فيه ويشكروها فيدخلُهم الجنةَ ويعذِّبُ الكفارَ والمنافقينَ لما غاظَهم من ذلك، أو فتحْنا أو أنزلَ أو جميعُ ما ذكر أو ليزدادوا، وقيل إنه بدلٌ منه بدلَ الاشتمالِ. ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾ يغطِّيها ولا يظهرُها. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي الإدخالُ والتكفير. ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ لأنه منتهى ما يطلبُ من جلْبِ نفعٍ أو دفعِ ضُرٍّ، وعند حالٌ من الفوزِ.

(٦) ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ عطفٌ على يدخلَ إلا إذا جعلْته بدلاً فيكون عطفاً على المبدَلِ منه[٣]. ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ ظنَّ الأمرِ السوءِ وهو أنْ لا ينصرَ رسولَه والمؤمنين. ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ دائرةُ ما يظنُّونه ويتربَّصونه بالمؤمنينَ لا يتخطَّاهم، وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو دائرةُ السوءِ بالضمِّ وهما لغتانِ، غيرَ أنَّ المفتوحَ غلبَ في أنْ يُضَافَ إليه ما يُرَادُ ذمُّه والمضمومُ جَرَى مجرى الشرِّ وكلاهما في الأصل مصدرٌ. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾ عطفٌ لما استحقُّوه في الآخرة على ما استوجَبُوهُ في الدنيا. والواوُ في الأخيرين ـ والموضِعُ موضعُ الفاء. إذِ اللَّعنُ سببٌ للإعداد والغضبُ سببٌ له ـ لاستقلالِ الكلِّ في الوعيدِ بلا اعتبار السببيةِ. ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ جهنَّمُ.

---

(١) إظهار الاسم الجليل «الله» لإظهار كمال العناية بشأن النصر (س٨/ ١٠٤).

(٢) الفتح: «٧».

(٣) وفي تقديم المنافقين عن المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحف منهم بالعذاب (س٨/ ١٠٥).

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾
لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ
أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ
بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ
ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ﴿١١﴾

(٧) ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

(٨) ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ على أُمتِكَ. ﴿وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ على الطاعة والمعصية.

(٩) ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والأمّةِ، أو لهم على أنَّ خطابَه منزَّلٌ منزلةَ خطابهم. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقوُّوهُ بتقويةِ دينه ورسوله ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظِّموه. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتنزِّهوه أو تُصلُّوا له. ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ غدوةً وعشيّاً أو دائماً. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو الأفعالَ الأربعةَ بالياءِ، وقرىء تُعْزروه بسكون العين، وتَعزِروه بفتحِ التاءِ وضمِّ الزاي وكسرِها، وتعزِّزُوه بالزاءَيْنِ، وتُوقِروه من أوقرَهُ بمعنى وَقَرَهُ.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنه المقصودُ ببيعته. ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ حالٌ أو استئنافٌ مؤكِّدٌ له على سبيل التخييلِ. ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقضَ العهدَ. ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ فلا يعود ضررُ نكثِه إلا عليه. ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ في مبايعتِه ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ هو الجنةُ. وقُرِىءَ عهِدَ. وقرأ حفصٌ عليهُ بضمِّ الهاء، وابنُ كثير ونافع وابنُ عامر وروْحٌ فسنؤتيه بالنونِ. والآيةُ نزلتْ في بيعة الرضوانِ[1].

(١١) ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ هم أَسْلَمُ وجُهَيْنَةُ ومُزَيْنَةُ وغفَارُ استنفرهُم رسولُ الله ﷺ عامَ الحديبيةِ فتخلَّفوا واعتلُّوا بالشُّغل بأموالهم وأهاليهم، وإنما خلَّفهم الخذلانُ وضعفُ العقيدةِ والخوفُ من مقاتلةِ قريش إنْ صدُّوهم. ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ إذ لم يكن لنا مَنْ يقومُ بأشغالهم، وقرىء بالتشديدِ للتكثيرِ. ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾ من الله على التخلُّفِ. ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ تكذيبٌ لهم في الاعتذارِ والاستغفارِ. ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ فمن يمنعُكم من مشيئته وقضائِه. ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا﴾ ما يضرُّكم كقتلٍ أو هزيمةٍ أو خللٍ في المالِ والأهلِ عقوبةً على التخلُّفِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالضمِّ. ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ﴾ ما يُضادُّ ذلك، وهو تعريضٌ بالردِّ. ﴿بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا﴾ فيعلَمُ تخلُّفَكم وقَصْدَكُم فيه.

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يا أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة [شجرة سمرة] فبايعناه فنزلت الآية. [أسباب النزول، جلال السيوطي ص٢٦٥].

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا
ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ۚ
كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لِظَنِّكُم أنَّ المشركينَ يستأصِلُونهم، وأهلونَ جمعُ أهلٍ، وقد يُجمَعُ على أهلاتٍ كأرضاتٍ على أنَّ أصله أَهَلَةٌ، وأما أهالٌ فاسمُ جمع كَلَيَالٍ ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فتمكَّن فيها، وقرىء على البناءِ للفاعلِ وهو اللهُ أوِ الشيطانُ. ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ الظنَّ المذكورَ، والمرادُ التسجيلُ عليه بالسوءِ أو هو وسائر ما يظنون بالله ورسولِه من الأمور الزائغةِ. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هالكينَ عندَ الله لفسادِ عقيدتكم وسوءِ نيَّتِكُم.

(١٣) ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ وضَعَ الكافرين موضِعَ الضمير إيذاناً بأنَّ مَنْ لم يجمعْ بينَ الإيمان بالله ورسوله فهو كافرٌ وأنه مستوجِبٌ للسعير بكفْرِه، وتنكيرُ سعيراً للتهويلِ أو لأنها نارٌ مخصوصةٌ.

(١٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يدبِّره كيفَ يشاءُ. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ إذ لا وجوبَ عليه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فإنَّ الغفرانَ والرحمةَ من ذاتِه، والتعذيبُ داخلٌ تحتَ قضائِه بالعرضِ، ولذلك جاءَ في الحديث الإلهي: «سبقتْ رحمتي غضبي»(١).

(١٥) ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني المذكورين. ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانِمَ خيبرَ فإنه عليه الصلاة والسلام رجعَ من الحديبية في ذي الحجَّة من سنةِ ستٍّ وأقامَ بالمدينة بقيَّتَها وأوائلَ المحرَّم، ثم غزا خيبرَ بمن شهدَ الحديبيةَ ففتحَها وغنِمَ أموالاً كثيرةً فخصَّها بهم. ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أنْ يغيِّروه وهو وعْدُه لأهلِ الحديبيةِ أنْ يعوِّضَهم من مغانمِ مكَّة مغانِمَ خيبرَ، وقيل قوله تعالى ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾(٢) والظاهر أنه في تبوكَ. والكلامُ اسمٌ للتكليم غلبَ في الجملة المفيدةِ. وقرأ حمزة والكسائيُّ كلِمُ اللهِ وهو جمعُ كلمةٍ. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ۚ﴾ نفيٌ في معنى النهي. ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾. من قبلِ تهيُّئِهم للخروج إلى خيبرَ. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ﴾ أن يشارِكَكُم في الغنائم، وقرىء بالكسْرِ. ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهماً قليلاً وهو فطنتُهم لأمورِ الدنيا، ومعنى الإضرابِ الأول ردٌّ منهم أنْ يكونَ حكمُ الله أنْ لا يتَّبِعُوهم وإثباتٌ

---

(١) أخرج البخاري رقم (٣١٩٤) وأطرافه (٧٤٠٤)، (٧٤٢٢) و(٧٤٥٣) و(٧٥٥٤) ومسلم رقم (٢٧٥١).
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى اللهُ الخلقَ كتبَ في كتابه، فهو عندَهُ فوق العرش: إن رحمتي غَلَبَتْ غضبي».

(٢) التوبة: «٨٣».

للحسدِ، والثاني ردٌّ من اللهِ لذلك وإثباتٌ لجهلِهم بأمورِ الدين.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ
أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ
ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ كرَّر ذِكرَهُم بهذا الاسم مبالغةً في الذمِّ وإشعاراً بشناعة التخلُّفِ. ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفةَ أو غيرَهم ممَّنِ ارتدُّوا بعدَ رسولِ الله ﷺ، أو المشركين فإنه قال: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي يكون أحدُ الأمرين إما المقاتلةُ أو الإسلامُ لا غيرَ كما دلَّ عليه قراءةُ أو يسلمون، ومَنْ عداهُم يقاتَلُ حتى يسلِمَ أو يعطي الجزيةَ. وهو يدلُّ على إمامةِ أبي بكر رضي الله عنه إذ لم تتفقْ هذه الدعوةُ لغيرِه إلا إذا صحَّ أنهم ثقيفَ وهوازنُ فإنَّ ذلك كان في عهد النبوةِ. وقيل فارسُ والرومُ ومعنى يسلِمونَ ينقادون ليتناولَ تقبُّلَهُمْ الجزيةَ. ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمةُ في الدنيا والجنةُ في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عن الحديبية. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم.

(١٧) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لما أوعدَ على التخلُّف نَفَىٰ الحرجَ عن هؤلاءِ المعذورينَ استثناءً لهم عن الوعيد[١]. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فصَّلَ الوعْدَ وأجملَ الوعيدَ مبالغةً في الوعد لسبقِ رحمتِه، ثم جَبَرَ ذلك بالتكرير على سبيلِ التعميم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذ الترهيبُ ها هنا أنفعُ من الترغيبِ، وقرأ نافع وابنُ عامر ندخلْه ونعذِّبه بالنونِ.

(١٨) ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ رُوِيَ أنه ﷺ لما نزلَ الحديبيةَ بعثَ جوَّاسَ بنَ أميةَ الخزاعي إلى أهل مكَّةَ، فهمُّوا به فمنعه الأحابيشُ فرجعَ، فبعثَ عثمانَ بنَ عفانَ رضيَ الله عنه فحبسوهُ فأرجفَ بقتلِه، فدعا رسولُ الله ﷺ أصحابَه وكانوا ألفاً وثلثَمائةٍ أو وأربعمائة أو وخمسَمائة، وبايعهم على أنْ يقاتِلُوا قريشاً ولا يفِرُّوا عنهم وكان جالساً تحتَ سمرةٍ أو سدرةٍ[٢]. ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاصِ. ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الطمأنينةَ، وسكونُ النفس بالتشجيعِ أو

(١) وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة (س٨/١٠٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم مطولاً. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥) بسند ضعيف عن عروة بن الزبير، وعن ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم.
وأما حديث البيعة بدون ذكر السبب فهو في الصحيحين من طرق وألفاظ مختلفة، البخاري (٧/ ٤٤٣) ومسلم (٣/ ١٤٨٣).
والسُّمُرة: بضم الميم ـ من شجر الطلح ـ وهو شجر عظيم من شجر العضاة.

الصُّلحِ. ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ فتحَ خيبرَ غِبَّ انصرافِهم، وقيلَ مكَّةَ أو هَجَرَ.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢٠﴾ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

(١٩) ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ يعني مغانِمَ خيبرَ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ غالباً مراعياً مقتضَى الحكمةِ.

(٢٠) ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا﴾ وهي ما يفيءُ على المؤمنين إلى يوم القيامة. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾ يعني مقامَ خيبرَ. ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ أي أيديَ أهلِ خيبرَ وحلفائِهم من بني أسدَ وغطفانَ، أو أيدي قريش بالصلح. ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفةُ أو الغنيمةُ. ﴿ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أمارةً يعرفون بها أنهم من الله بمكانٍ، أو صِدْقَ الرسول في وعْدِهم فتحَ خيبرَ في حينِ رجوعه من الحديبية، أو وعْدَ المغانمِ أو عنواناً لفتحِ مكَّةَ، والعطفُ على محذوفٍ هو علةٌ لكفٍّ، أو عجَّلَ مثلُ لتسلموا، أو لتأخذوا أوِ العلةُ لمحذوفٍ مثلُ فعلَ ذلك. ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ هو الثقةُ بفضلِ الله والتوكُّلِ عليه.

(٢١) ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ ومغانمُ أخرى معطوفةٌ على هذه، أو منصوبةٌ بفعلٍ يفسِّره قد أحاط الله بها مثلَ قضَى، ويُحْتَمَلُ رفعُها بالابتداءِ لأنها موصوفةٌ وجرُّها بإضمارِ ربَّ. ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ بعد لما كان فيها من الجولةِ. ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ استولى فأظْفَرَكُم بها وهي مغانمُ هوازنَ أو فارسَ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ لأن قدرته ذاتيةٌ لا تختصُّ بشيء دونَ شيء.

(٢٢) ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكةَ ولم يصالحوا. ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ لانهزموا. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ يحرسُهم. ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ ينصرُهم.

(٢٣) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي سنَّ غلبةَ أنبيائه سُنَّةً قديمةً فيمن مضى من الأمم كما قال تعالى ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[1]. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ تغييراً.

(٢٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾ أي أيدي كفارِ مكَّة. ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ في داخل مكَّةَ. ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أظهركم عليهم، وذلك أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ خرجَ في خمسِمائةٍ إلى الحديبية، فبعث رسولُ الله ﷺ خالد بنَ الوليد على جنْد فهزمَهم حتى أدخلَهم حيطانَ مكَّةَ ثم عاد[2].

---

(١) المجادلة: «٢١».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٦/٩٥) عن ابن حميد الرازي وهو ضعيف. وقال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٥٣ رقم ٤٢٤): «وفي صحته نظر لأن خالداً لم يكن أسلم في الحديبية وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية...» هـ.